الفيصل

مجلة ثقافية شهرية - العدد (٢٢٣) محرم ١٤١٦ - يونيو ١٩٩٥ م
ALFAISAL MAGAZINE ISSUE (223) JUN. 1995

الحوار: فن الوفاق وأدبيات الخلاف

الرقة والاستفزاز في الرسائل الدبلوماسية



الحاسوب في خدمة علوم الأرض والفضاء

قبرص سياحة في عمق التاريخ

خزانة الفقه

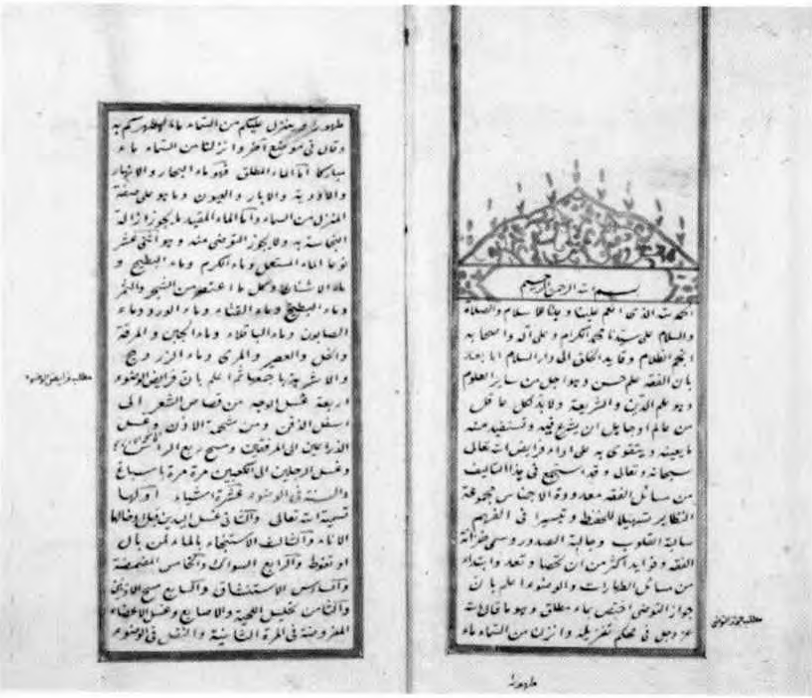
تأليف أبي الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي (المتوفى سنة ٣٧٣هـ - ٩٨٣م)

من كتب الفقه الحنفي، جمع فيه المؤلف النظائر والأجناس الفقهية تسهيلاً للحفظ، ولم يذكر الخلافات بين الفقهاء، واقتصر على ذكر الراجح منها، دون ذكر الدليل من الكتاب والسنة.

والنسخة جيدة مكتوبة بخط فارسي جميل، وكتبت عناوين الفصول والأبواب بالمداد الأحمر، وجميع صفحاتها مجدولة بالمداد الأحمر، باستثناء الصفحتين الأولى والثانية، فمجدولتان بالذهب. وعلى الصفحة الأولى زخارف مذهبة جميلة، وفي أول الكتاب كشاف بمحتوياته، والغلاف من الورق المقوى المغلف بالجلد، وعليه زخارف نباتية محاطة بأطر ذهبية.

والمخطوطة تقع في ثلاث وعشرين ومائة ورقة، وهي من مقتنيات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، برقم ٤١٧١

إعداد: إبراهيم باجس عبدالمجيد





في العدد القادم:

- الدعوة إلى العامية .. من يوقظها؟
- سياسة التخصيص عربياً ودولياً
- شهادة غربية بتفوق المسلمين في الكيمياء

البريد

THE MAIL

«موسم الهجرة» إلى الثقافة الجادة

أحيِّي أسرة التحرير وجميع الذين يسهمون بجهد في إعلاء شأن مجلتنا «الفيصل»، وتقديم هذه المطبوعة الجامعة بهذا التنوع والجمال الأدبي والعلمي والفني. إنني بصفتي قارئة أحيي فيكم هذا الجهد البنّاء لإخراج هذا العمل الإبداعي. إنكم بحق جعلتمونا ـ وأنا أتحدث بلسان أكثر من قارئ متابع ـ نتحول عن مطبوعات أخرى، لنتفرغ لـ «الفيصل»، لما تشتمل عليه من ثقافة فريدة في منهجها، من كلمة وحديث، وتحقيق، ومقال، وتعقيب، وسفر، وقصة، وتقديم كتب تراثية. إنها لبراعة في مضمار الثقافة العربية والإسلامية، ومسالك الفكر الإنساني.

وإلى جانب ماتحتويه «الفيصل» من جرعات ثقافية متوازنة، ولغة محكمة، وتوجه سليم، فإن مايسترعي الانتباه، السعر الزهيد الذي تباع به المجلة، فثمنها في سورية عشرون ليرة سورية.. وهذا المبلغ ـ بالتأكيد ـ لا يدنو من قيمة ورق نسخة واحدة، أو قيمة الغلاف البديع الذي يصعب عليّ وصف جودة ورقه، وجمال إخراجه، قياسًا بمطبوعات عديدة تغطي سوق الثقافة في العالم العربي.

ولكم من الشكر أجزله.. وأسأل الله أن يسدد خطاكم لعطاء متجدد في خدمة الفكر، لأن الواقع يؤكد أن مزيداً من المطالعة يعني مزيداً من التقدم.

سهام رفقي محمود
دمشق ـ سورية

التحرير: نشكر القارئة الكريمة، ونأمل أن نكون في مستوى هذا الإطراء، ونحن على ثقة من أن رسائل القراء ومشاركاتهم مقياس حقيقي لمستوى تأثير المطبوعة، وتحديد موقعها في الساحة الثقافية.

المرأة اليهودية

أرجو إحالة رسالتي هذه إلى الأستاذ الدكتور حسن ظاظا ليتكرم على الكثيرين من قرائه وقارئاته بتخصيص دراسة من دراساته التي ينشرها في مجلتكم القيمة عن المرأة اليهودية، ووضعها في الديانة اليهودية، وأثرها وتأثيرها داخل العقيدة اليهودية وخارجها، ثم وضعها الاجتماعي في الدولة الإسرائيلية الحالية.

رسالتي هذه تجيء نتيجة متابعة مني لما يكتبه الدكتور ظاظا بعد أن تساءل بعضهم: لِم لايتعرض لهذا الموضوع الحساس والمهم؟ ودمتم مع جزيل الشكر لكم وللدكتور ظاظا والمجلة.

يوسف بن مصطفى
تونس

استدراك

تثبت مجلة الفيصل على مر الأيام أنها تجعل خدمة لغة القرآن والعناية بها هدفًا أساسًا لرسالتها الإعلامية، أقول ذلك بالإشارة إلى العدد (٢١٨) الذي اشتمل على ملف «اللغة العربية سياج هويتنا»، وكذلك القائمة الببليوجرافية القيمة التي أُهديت إلى قراء الفيصل، فَلَكَمْ بحث الطلاب عن مثل هذا الجهد، وجدّ الباحثون في طلب دليل ييسر لهم الطريق لبحوثهم. ورغبة في أن يكون الدليل أكثر دقة، وأمانة، فقد استرعى نظري ماوجدته في ص ١٦ من القائمة الببليوجرافية (اللغة الخالدة/ عبدالعزيز إبراهيم العسكر ـ المجلة العربية ع ١٢٥، س١٢، ص١١٨ ـ ١١٩). لقد وقع لبس في الاسم حيث هو في المجلة: «عبدالعزيز العسكر ـ الخرج»، وأحب أن أؤكد أن الموضوع لي، وقد نشر لي موضوع آخر في المجلة نفسها بعنوان: اللغة العربية وأي اللغات نختار؟ ع١٧٨ س ١٦، ص ٥٠ ـ ٥١.

عبدالعزيز بن صالح العسكر
الدلم

بل الشعر ديوان العرب

سرني أنكم ستتبعون ملف اللغة العربية الذي صدر في العدد ٢١٨ من الفيصل ندوة أكثر شمولاً عن القضية نفسها، فرأيت أن أخرج أفكارًا ورؤوس أقلام أسهم بها في هذه القضية الحيوية جدا:

١ـ لقد أخذ العرب بناصية البلاغة، ومن أهم عناصر البلاغة الإيجاز، فأين هذا الإيجاز مما نراه اليوم من سيل الغث والتطويل الممل.. لماذا تنحسر دائرة هذا الفن المهم من فنون اللغة العربية؟

٢ـ تشهد الساحة محاولات منظمة لدفع الشعر العربي إلى الخارج وإحلال الرواية مكانه.. وتتداول في الوسط الأدبي بين الحين والآخر مقولة: «الرواية ديوان العرب».. ونحن نقول: بل الشعر ديوان العرب. والقصور اليوم في الشعراء وليس في الشعر العربي. وأضيف إلى ذلك، أن تخصص «الفيصل» صفحة للشعر واللغة بالتركيز على جواهر الشعر الجاهلي.. وليت هذا الشعر يلقى اهتمامًا أوسع في باب «قصة قصيدة».

٣ـ إن ندوة موسعة عن اللغة العربية ستفرد قطعا مساحة معقولة عن الخط العربي وجمالياته.

صلاح عبدالستار محمد الشهاوي
دمشيت ـ طنطا ـ مصر

«البريد» زاوية تستقبل فيها المجلة رسائل القراء، ويمكن أن ترد على بعضها، وتترك الردّ على البعض الآخر للقراء
يمكن أن تقوم المجلة بتحرير بعض الرسائل من أجل مساحة الصفحة، أو لزيادة الإيضاح
فقط الرسائل التي ترد بعناوين وأسماء ترسل باسم المحرر (زاوية بريد المجلة) ص.ب(٣) الرياض ١١٤١١

إطلالة



الدفاع والمبادرة

لقد هيأ التقدم التقني الذي حققته الحضارة الغربية الوسائل والأساليب التي تستطيع بها تحقيق تطلعاتها إلى الهيمنة والسيطرة. ويمثل الإعلام أحد أهم هذه الوسائل والأساليب؛ إذ مكّن الغرب من تقديم قيم حضارته للآخرين بالصورة التي يريدها، في الوقت الذي يتناول فيه القيم الحضارية للآخرين - عبر وسائل إعلامه - وفق رؤاه وتصوراته؛ فلا غرابة إذن أن تكون غالبية الصور الذهنية التي تملأ مخيلتنا - وبخاصة في أوساط العامة - عن الشعوب وأحداث التاريخ مستمدة من هذه الوسائل. فالهنود الحمر والفيتناميون والروس - مثلاً - لهم صور نمطية محددة ارتسمت في الأذهان من خلال الأفلام السينمائية والتلفازية الأمريكية والأوربية التي تناولت صراع الغرب مع هذه الشعوب من وجهة نظر غربية بحت، تختلط فيها الحقائق بالافتراءات والادعاءات التي تسوغ أخطاء الغرب، ويظهر الآخر من خلالها أحيانا همجيا وبربريا. وقد انسحب هذا الأسلوب الغربي في التعامل مع الشعوب على المسلمين، فقام إعلام الغرب بتقديمهم في إطار نمطي يشوه حضارتهم، وربما سلبهم كل مقومات التمدن والتحضر، مدفوعا بالروح العدائية التي تأصلت في النفس الغربية من جراء الصراع الحضاري المتصل منذ عدة قرون.

ولم يقم الإعلام الغربي بتشويه تاريخ الأمم والشعوب فحسب حين عمد إلى التعريف بها من واقع موقفه منها، سلبا أو إيجابا، وإنما استطاع بما يملك من أدوات وقدرات إقناعية أن يستقطب كثيرا من أبناء مايعرف بالعالم الثالث، ودفعهم إلى تبني رؤاه وتصوراته عن الشعوب والأمم التي ينتمون إليها، والتسليم بأن التطور التقني الذي بلغته الحضارة الغربية يمثل قمة التقدم والتحضر، وأن القيم الغربية كفيلة بتحقيق الرقي والتقدم الحضاري لمجتمعاتهم، مما أفضى إلى صراع لم ينته بين هؤلاء المستغربين ومن يتمسكون بإرثهم الحضاري.

وإذا كان الغرب قد أوغل في تشويه العطاءات الحضارية لأمة من الأمم، بسبب مايخضع له من تأثير نمطي أو تصور سياسي أو مادي، فإن الأمة الإسلامية تعد أكثر الأمم تعرضا لهذا التشويه؛ فكثير من الدراسات الاستشراقية صورت الإسلام على أنه دين أوامر وزواجر، وأنه عقيدة هرطقية، وقد ذكر د. جون سبُّوزيتو أستاذ الأديان والشؤون الدولية بجامعة جورج تاون الأمريكية في محاضرة ألقاها بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في يوم ٢٣ ذي الحجة الماضي أن «دراسة الإسلام في الغرب صُبِغَتْ بصِبْغَة سياسية، فالذين درسوا الإسلام كانوا أولئك الذين يمثلون القوى الاستعمارية، فكانت دراسة الإسلام لتمهيد الطريق للاستعمار». وعلى الرغم من مناداة الغربيين بالحرية والمساواة وادعائهم العقلانية والموضوعية؛ إلا أنهم يطبقون معايير عنصرية في رؤيتهم للإسلام والمسلمين، مما جعل كثيرين منهم ينكرون العطاء الحضاري للعلماء المسلمين، وينسبونه لغيرهم، بل تجاوزوا ذلك إلى عَزْوِ أصول حضارتهم الحديثة إلى الحضارتين الإغريقية والرومانية، توكيدا لمفهوم التفوق والسيطرة. وقد ذكر ول ديورانت في «قصة الحضارة» بأن مؤرخي الغرب لا يريدون وصل جذور حضارتهم بالشرق.

وعلى الرغم من تقدم وسائل الإعلام التي استطاعت أن تصل بين أجزاء العالم متجاوزة المسافات والحدود، فإن هناك انطباعات وأفكارًا وآراءً واتجاهات سلبية لا تزال تتردد عن الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي، والأدهى من ذلك أن تكون تلك المزاعم والادعاءات في دراسات أكاديمية ودوائر معارف وموسوعات علمية من المفترض أن تتسم بالروح العلمية والموضوعية؛ ففي دائرة المعارف البريطانية مانصه: «إن محمدا زعم أنه نبي مرسل من الله، وأنه أعظم الأنبياء وخاتمهم، وإن المسلمين يعبدون محمدا، ويعتقدون أن الكون خلق من نوره». ويزعم المستشرق آلوت أن القرآن مدين بفكرة فواتح السور من مثل «حم، طسم، الم» لتأثير أجنبي، ويرجح أنه تأثير يهودي، اعتقادا منه أن هذه السور مدنية، في حين أن السور المدنية التي تتضمن هذه الفواتح لا تتجاوز سورتين من تسع وعشرين سورة. ويفتري كثيرون منهم على الإسلام بالزعم أنه تلفيق من النصرانية واليهودية. ومن الملاحظ أن دراسات استشراقية غير قليلة اعتمدت في رؤيتها للإسلام على روايات التجار والبحارة، ولا يخلو بعضها من سموم اليهود والفكر الصهيوني. ولم تتح للكثير من المستشرقين المعرفة الوافية باللغة العربية، والدراسة المتأنية لتاريخ العرب والمسلمين وتاريخ الأديان، مما أوقعهم في أخطاء لغوية وتاريخية ومنهجية واضحة، لاتحتاج إلى تفنيد وبيان جهل أصحابها، وقد أشار إلى ذلك سبوزيتو في محاضرته المذكورة آنفًا، حين أوضح أن كثيراً من المستشرقين كانوا يترجمون النصوص، دون أن تكون لهم المقدرة على فهمها وتحليلها وتأويلها وذلك عندما تناول مشكلة النص والسياق.

وكان من أثر السياسة العدائية التي اتبعها الغرب تجاه العرب والمسلمين أن انتقل الإرث العدائي إلى أوساط العامة؛ فهاهي إحدى أغنيات الروك تقول : «أقف على الشاطئ وبندقيتي في يدي، أحملق في مياه البحر، وفي رمال الصحراء، فأسخر من النفط، وأتمنى أن أقتل العربي». بل يبدو أنهم حريصون على نقل هذه الأكاذيب والدعاوى إلى أطفالهم بتصوير العرب والمسلمين في صورة من يهدد حضارتهم؛ ففي مسلسل أليس (ALICE)، نجد عربيا يحاول

في حوارنا مع الآخر

شراء أمريكا! ولا يحتاج مرمى هذه القصة إلى شرح أوتفصيل، كما أن هناك دراسات حديثة تنسف كل مزاعم الغرب عن «حوار الحضارات» وتشكيل نظام عالمي جديد أساسه الوفاق، فهذه الدراسات تذهب إلى أن المستقبل يحمل نُذر «صدام للحضارات»، وسيكون الإسلام والغرب طرفيه الرئيسين.

ومما يخفف من قتامة الموقف الغربي من الإسلام والمسلمين أن تجد فيهم بعض الأكاديميين والسياسيين المنصفين من الذين يعترفون بما أسدته الحضارة الإسلامية للحضارة الإنسانية من عطاءات جليلة في مجالات الحياة كافة؛ فالمفكر الأمريكي بول كنيدي يقول في كتابه «الإعداد للقرن الحادي والعشرين»: «إن الإسلام - ولقرون قبل النهضة الأوربية - قاد العالم في الرياضيات وعلوم رسم الخرائط والطب، والعديد من وجوه العلم والصناعة، كما ضم العالم الإسلامي مكتبات وجامعات ومراكز للعلم في وقت لم تكن اليابان وأمريكا تمتلكان شيئا من هذا، ولم تكن أوربا تمتلك إلا القليل»، ويؤكد روبرت مكنمارا وزير الدفاع الأمريكي الأسبق ورئيس البنك الدولي السابق، في كلمة له أمام مركز كارتر في أطلانطا، في الشهر الماضي أن «العرب تحضّروا قبل أن يعرف كثير منا التحضر بألف عام»، ولم يبالغ القائل منهم بأن التاريخ لم يعرف فاتحين أرحم من المسلمين.

ولكن هذه الاتجاهات الإيجابية لم تنجح في تغيير الصورة النمطية الشوهاء التي أسستها الدراسات الاستشراقية ووسائل الإعلام ذات التقنيات المتطورة ورسختها في الذهنية الغربية عن الإسلام والمسلمين، مما يقتضي ضرورة دراسة تفاصيل هذه الصورة، من أجل وضع الخطط والوسائل التي تستطيع أن تتيح للأجيال الغربية القادمة معرفة أوثق بمقومات الحضارة الإسلامية وقيمها، آخذين في الحسبان أن هذه الصورة السلبية لا تقتصر على العالم الغربي، وإنما تتعداه إلى مناطق نفوذه، التي يؤثر فيها بوسائل إعلامه المتطورة، التي هي بمثابة نافذته لرؤية العالم وتكوين الآراء والاتجاهات عنه وعن أحداثه.

وإذا كانت هذه الصورة قد تكوَّنت في ظل سيطرة غربية تامة على وسائل الإعلام وتقنياته، فإن الفرصة متاحة لتعديلها، وتقديم الحقائق الغائبة لدى الغربيين عن الإسلام، وبخاصة في ظل وجود قنوات فضائية تبث إرسالها إلى العالم بأكمله، مما يلقي التبعة على المسلمين في ضرورة السعي لتصحيح المفاهيم الخاطئة عنهم، مع أهمية إيجاد وسائل أخرى للاتصال، سواء كانت أكاديمية أو ثقافية.

ويمثل هذه المحاولات، سنحصل على وسيلة للحوار والتفاهم على أساس النديَّة والمساواة، مما يجعل الاتصال ممكنًا ومؤثرًا مع الاستمساك بأخلاق الحوار وأصوله المتمثلة في ضرورة التحلي بالحكمة لإدراك الصواب، وبالعدل لضبط هوى النفس، وبالعلم لإدراك الحقائق، وبالشجاعة لنصرة الحق. وهذه هي الأسس التي ارتكزت عليها الحضارة الإسلامية في الاتصال والاحتكاك بالحضارات الأخرى، ولا أدل على ذلك من احترامها للعلماء أيا كانت جنسياتهم، ودياناتهم، فقد أطلق المسلمون على فلاسفة الإغريق والهند (الحكماء) و (المعلمين الأوائل)، ويجيء هذا متوافقا مع منظور الإسلام للحضارة الإنسانية على أنها مجهود عالمي تشترك فيه كل أمة بحسب مايتهيأ لها من ظروف مواتية.

واستمرارا لهذه المحاولات في إقامة حوار حضاري بناء، لا بد من دراسة القوى العالمية والنزعات العقائدية والفكرية المعاصرة، وفهم طرق تفكير كل شعب من الشعوب، واستخدام الوسائل والأدوات وأساليب الخطاب التي تناسبه، واستغلال مراكز البحوث والدراسات والمعلومات المتخصصة التي تتيح التخطيط المستقبلي على أرضية صلبة تعين على صناعة القرار في ظل حقائق ثابتة، لا افتراضات وتوقعات.

ومن ضرورات الإيجابية في التحرك - لتوضيح تصورات الإسلام ورؤاه الحقيقية - أن يتم رصد مايطرح من آراء وأفكار من خلال وسائل الإعلام المختلفة، ووضعه محل النقد والتحليل من قبل علماء متخصصين، تتوافر لديهم الثقافة والعلم فيما هو مطروح، للرد عليه ردا موضوعيا يعكس وجهة النظر الصحيحة، وهذا كفيل بسد تلك الثغرة التي يذكرها دائمًا كل من يتعاطف مع العرب والمسلمين، والتي تتمثل في السلبية وعدم الرد أوالاحتجاج على ما يسيء إليهم، مما ينشر في الإعلام الغربي، وتلك السلبية أكد وجودها أحد مسؤولي إذاعة (إن بي سي) في إجابته عن استفتاء عن تشويه صورة العربي في الإعلام الغربي، إذ قال:

«إنه لم يسبق أن تقدم فرد أو جهة عربية أو إسلامية باحتجاج إلى مؤسسة أمريكية عن وجود تشويه لتلك الصور مما يجعل الأمر لدينا عاديا. وهو بكل تأكيد عكس ما يحدث عندما يكون الأمر متعلقا بالصهيونية، فعندئذ تنهمر آلاف الرسائل والمكالمات التي تدين وتستنكر!».

ولا يجب أن يكون الموقف دفاعيًا دائمًا، لأن في ذلك استنفادا للطاقة، وإنما لابد من المبادرة إلى طرح تصورات الإسلام إزاء القضايا الملحة التي تشمل جوانب الحياة العقدية والفكرية والتقنية المختلفة، أو ما يتعلق منها بمشكلات التنمية والسكان وغيرها على المستوى الإنساني العام.

ولن يتأتى الاضطلاع بهذه المسؤوليات والأدوار في تقديم التصور الإسلامي الصحيح للكون والحياة والإنسان مالم يُعد للشخصية المسلمة اتزانها، وقدرتها على صوغ المفاهيم الإسلامية للقيام بمسؤولية إعمار الأرض، وممارستها فوق أرض الواقع، مما يؤدي إلى إنهاء الاضطراب الثقافي بين الأجيال، وتحقيق التواصل الحضاري بينها؛ فالتفوق الثقافي هو السبيل نحو تسنم مراتب الريادة، فلا غرو إذن، أن يقول أحد المفكرين: إن الحضارة الأوربية عرض زائل، لأن تفوقها - في رأيه - لايرجع إلى تفوق ثقافة، بل إلى استخدام تقنيات السلاح لأهداف عسكرية وعدوانية.

د. زيد بن عبدالمحسن الحسين

الفيصل
العدد (٢٢٣) - السنة (١٩) - محرم ١٤١٦هـ - يونيو ١٩٩٥م



الحاسوب والتطور الجديد

أصبح الحاسوب جزءًا أصيلاً من الواقع المعيش، وصورة واضحة للتقدم التقني الذي بلغه عصرنا؛ لذا تتبارى شركات التصنيع من أجل الابتكار والتطوير، وتنشد كل منها السبق والتميز. ويعد استخدام الحاسوب في التصميم الهندسي للسيارات والطائرات وغيرها، من أحدث المجالات.

لقد بدلت التطورات التي تشهدها تقنية التصميم بمساعدة الحاسوب الأسس والقواعد التي يعمل بموجبها المصنع الحديث، فلم يعد التصميم الهندسي في حاجة إلى ورق وقلم، وإنما يتم كل ذلك من خلال الحاسوب، وفي الإمكان أن يشارك فيه مجموعة من المهندسين في أماكن متفرقة من العالم، مما أدى إلى رفع شعار: «لابديل عن الحاسوب».

ص١٣



الحوار: فن لايجيده كثيرون!

كثيرون لايتصورون اختلاف الرأي إلا في صورة نزاع، وإذا حصل النزاع تبودل الجهل، وارتفعت الأصوات وعمَّ الصخب وتفشت المهاترة.
واللجوء إلى ثخانة الصوت دليل على ضعف الحجة والبرهان. وهناك أيضًا المجاملة التي تعد وسيلة للتهرب من الحوار الموضوعي مما يفضي إلى الخلاف.
كيف يمكن للحوار أن يكون فعالاً دون نزاع أو تهرب؟
عن فن الحوار، كتب د. خالص جلبي.

ص٥٥



قبرص: ملتقى الحضارات!

تعد قبرص ثالث أكبر جزيرة في البحر المتوسط، مما جعلها مزارًا للسائحين الراغبين في التمتع بدفء مياه البحر وأنسام هوائه، وهذا التميز في الموقع كان أحد الأسباب في أن تشهد قبرص قيام تسع ممالك على أرضها في إحدى مراحل تاريخها.
وتعاقبت عليها الحضارات الفرعونية والآشورية والإغريقية والرومانية والعربية، وأقام فيها الملك ريتشارد قلب الأسد عرسه.
الكاتب كامل يوسف حسين يصحبكم في جولة في قبرص شملت شوارعها وقراها السياحية، وملامح الوجود العربي فيها، مع التركيز على متحفها الذي يعد متحفًا تعليميا في مجال الآثار، وليس متحفًا للفن فحسب!

ص ٨٤

أدب وفكر

علوم

تعليم

تراث وتاريخ

رئيس التحرير
د. زيد بن عبدالمحسن الحسين

شخصيات

شعر وقصة:

الأبواب والزوايا الثابتة:

من كتّاب العدد



د. حسن الوراكلي

- مواليد تطوان، المغرب ١٩٤١م.
- حاصل على الدكتوراه من جامعة لاكومبلوتينسي بمدريد، إسبانيا.
- أستاذ التعليم العالي بقسمي الدراسات الإسلامية واللغة العربية، ورئيس شعبة الأدب العربي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبدالمالك السعدي بتطوان، وعضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.
- عضو في عدد من الرابطات والاتحادات: رابطة علماء المغرب، اتحاد كتاب المغرب، رابطة الأدب الإسلامي العالمية بالهند، جمعية الدراسات الموريسكية بتونس، الجمعية المغربية للتراث بفاس.
- من مؤلفاته:

ابن سيده المرسي، شيوخ العلم وكتب الدرس بسبتة، القاضي عياض مفسرًا، المضمون الإسلامي في شعر علال الفاسي، الإسلام والغرب، أبحاث أندلسية، وغيرها.



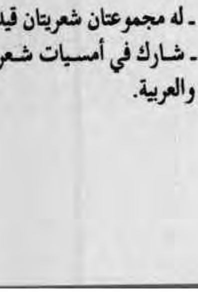
محمد يوسف أحمد التاجي

- مواليد سوهاج، مصر، ١٩٤٤م.
- حاصل على ليسانس آداب، قسم اللغة العربية وآدابها، واللغات الشرقية وآدابها، جامعة الاسكندرية ١٩٧٨م، ثم دبلوم تمهيدي ماجستير (شعبة إسلاميات) ١٩٨٠م.
- عمل مدرسا للغة العربية بمدارس مصلحة الكفاية الإنتاجية التابعة لوزارة الصناعة المصرية، المستوى الثانوي.
- متفرغ للعمل الأدبي، وله مقالات منشورة في الصحف والمجلات المحلية والعربية، إضافة إلى بعض الكتب المخطوطة في مجال الدراسات النقدية والقصة والشعر.



د. محمد عبدالقادر مرشحة

- مواليد حلب، سورية ١٩٦١م.
- حاصل على الدكتوراه في الأدب الفرنسي ١٩٩٣م، عن: «المعاناة في مسرح مرسيل إيميه».
- يعمل حاليا مدرسا في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة حلب، إذ يقوم بتدريس: الأدب المقارن، الأدب والنقد في الغرب، والنقد العربي الحديث.
- له عدد من الأبحاث العلمية.

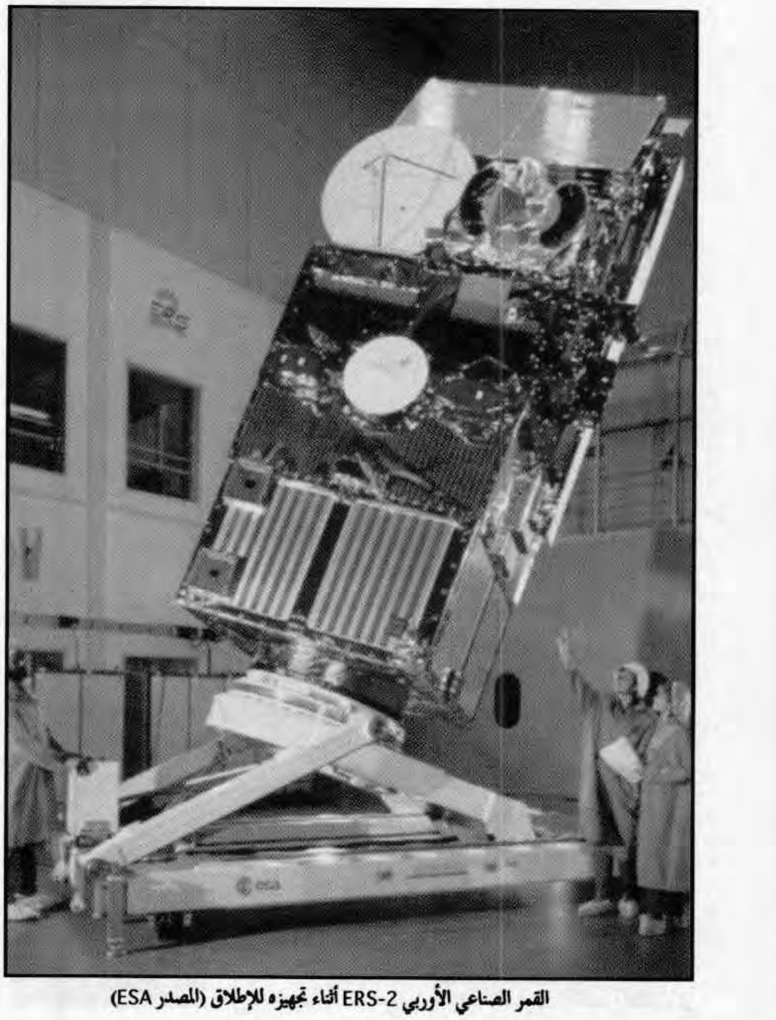


مازن مصطفى العليوي

- مواليد الرقّة، سورية ١٩٦٤م.
- حاصل على بكالوريوس في الهندسة الكهربائية، جامعة حلب ١٩٨٧م، وإجازة جامعية في اللغة العربية وآدابها، جامعة حلب ١٩٩٣م.
- يعد لتقديم رسالة الماجستير في التراث العلمي العربي، تاريخ العلوم التطبيقية.
- له مجموعتان شعريتان قيد الطبع، إضافة لمسرحية مخطوطة.
- شارك في أمسيات شعرية بسورية، وله عدد من القصائد المنشورة في الصحافة المحلية والعربية.

إطلاق القمر الصناعي الأوروبي الثاني

م. سليمان القرطاس



القمر الصناعي الأوربي ERS-2 أثناء تجهيزه للإطلاق (المصدر ESA)

تم في ٢٠ أبريل الماضي إطلاق القمر الصناعي الأوربي ERS-2، بواسطة الصاروخ الأوربي آريان من مركز كورو الفضائي في غويانا الفرنسية.

ويعد هذا القمر الصناعي أكبر وأعقد قمر صناعي يتم صناعته في أوربا للرصد الأرضي ومراقبه البيئة؛ ذلك لأن الرصد من الفضاء يعد الحل الوحيد القابل للتطبيق والأكثر اقتصاديه لمهمة رصد مناطق واسعه وبصورة متكرره لدراسة المناخ ومراقبه ظروف سطح الأرض.

البداية

منذ ما يزيد على ١٠ أعوام قررت وكالة الفضاء الأوربية البدء في مشروع نظام أوربي للاستشعار من بعد لخدمة البيئة، أطلق عليه اسم (القمر الصناعي الأوربي للرصد الأرضي)، يعرف اختصارا بـ ERS، ويرمي إلى زيادة المعلومات العلمية عن الأرض والبيئة الأرضية كجزء من برنامج عالمي يعرف ببرنامج كوكب الأرض، تشارك فيه الولايات المتحدة وفرنسا بمشروع توبكس - بوسيدون، واليابان بمشروع القمر الصناعي الياباني المتقدم للاستشعار من بعد ADEOS بالإضافة إلى وكالة الفضاء الأوربية.

المعدات الأساسية لأقمار ERS

تنقسم المعدات إلى عدة أنواع، هي:

الأجهزة العلمية الرئيسة:

١ - جهاز الرادار العامل بمدى الموجات الدقيقة (السنتمترية)(*)، الذي يعمل بثلاثة أنماط هي:

أ - نمط التصوير الراداري الواسع؛ وذلك للحصول على صور ذات اتساع كبير (١٠٠×١٠٠ كيلو متر) لتصوير القطبين المتجمدين والمناطق الأرضية الأخرى.

ب - نمط رصد الرياح لفترة محددة، من خلال رصد مساحة صغيرة نسبيا (٥×٥ كيلو مترات) لاشتقاق اتجاه موجة البحر وطولها.

جـ قياس سرعة الرياح بالانعكاس: ويتم ذلك من خلال استخدام ثلاثة هوائيات منفصلة لقياس سرعة الرياح على سطح المحيط واتجاهها.

٢ - جهاز قياس الارتفاع: ويوفر قياس ارتفاع سطح المحيطات وارتفاع الموج وتغير ارتفاع الجليد في المناطق القطبية.

٣- جهاز قياس كثافة الطاقة الاشعاعية مع المسبار الراداري : وهو عبارة عن مجموعة من أجهزة الاستشعار بالأشعة تحت الحمراء والمايكروويف لقياس درجة حرارة سطح البحر وحرارة أعلى الغيوم وبخار الماء في الجو.

الأجهزة العلمية المساندة:

١ - نظام تحديد موقع القمر الصناعي ويتألف من جهازين، هما :

أ - جهاز قياس البعد الدقيق ومعدل البعد: لإيجاد الموقع الدقيق للقمر الصناعي وخواص المدار لغرض متابعته من قبل المحطات الأرضية.

ب - جهاز عاكس الليزر: وهو جهاز لتحديد موقع القمر الصناعي من خلال توجيه حزمة ليزر على القمر الصناعي وانعكاسها من هذا الجهاز، ليتم استقبالها من المكان نفسه وتحديد البعد تبعا لذلك.

للدراسات البيئية

٢ ـ نظام نقل المعلومات : يتم نقل المعلومات عبر قناتي إرسال لاسلكي بصورة آنية؛ وخاصة معلومات الجهاز الراداري، بينما يمكن تسجيل المعلومات من الأجهزة العلمية ذات معدل المعلومات القليلة من خلال جهاز تسجيل مغناطيسي محمول على القمر الصناعي.

القمر الصناعي الجديد

من المفترض أن يعمر القمر الصناعي الجديد للفترة مابين عامي ١٩٩٥ ـ ١٩٩٨م، ويكمل ما بدأه مثيله السابق ERS-1 الذي أطلق في ١٧ يوليو ١٩٩١م، بالإضافة إلى كونه يغطي الكثير من المتطلبات الإضافية. لذلك فهو مجهز بأجهزة جديدة إضافية لتقيس تركيزات الأوزون في طبقات الجو العليا، ومراقبة التغيرات التي تطرأ على الغطاء النباتي بطريقة أكثر دقة. والأكثر من ذلك إمكان تشغيل القمرين الصناعيين السابق والجديد لفترة من الزمن؛ مما يفتح أفاقا جديدة للكثير من فرق البحث والجهات العلمية.

ففي مدة ثلاث سنوات حقق القمر الصناعي ERS-1 الكثير من الاستخدامات العملية في مجال علوم الأرض، وبلغ المستفيدون من معلوماته العلمية الآلاف من الباحثين والمئات من معاهد البحوث، والكثير من الشركات في جميع أنحاء



صورة ملتقطة بالجهاز الراداري للقمر الصناعي ERS-1 لمضيق جبل طارق تظهر فيه سبته وطنجه وجبل طارق كما تظهر موجات على سطح البحر بسبب مرور سفينة (المصدر ESA).



صورة مبتكرة للقمرين الصناعين ERS-1&2 في الفضاء (المصدر DAIMLER BENZ AEROSPACE)



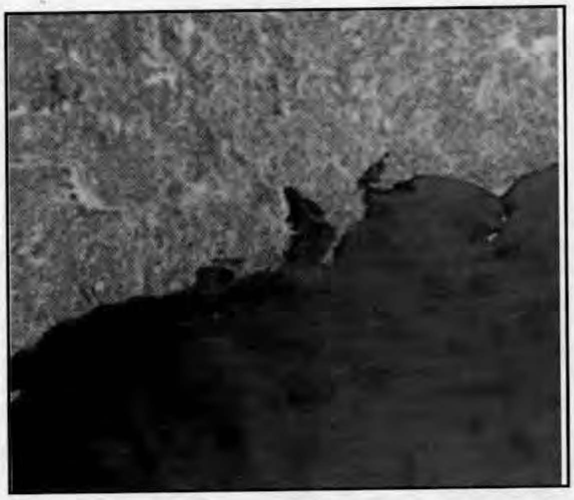
صورة ملتقطة بجهاز الاستشعار بالأشعة تحت الحمراء للقمر الصناعي ERS-1 تُظهر درجة حرارة سطح البحر في منطقة جزر الكناري (المصدر ESA)

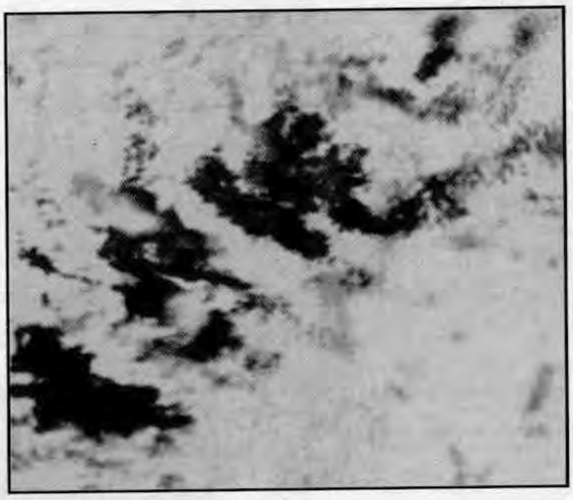
العالم. وعدد المستفيدين يتزايد يوما بعد يوم؛ وخاصة بعد إعلان وكالة الفضاء الأوربية عن فتح المجال أمام توفير المعلومات المستقاة من القمر الصناعي حسب طلب فرق البحث، واختيار ٢٥٠ فريقًا علميًا في الربيع الماضي لتستفيد من هذا العرض.

كما أن من المقرر أن يشهد القمر الصناعي الثاني ERS-2 المزيد من الاستخدام وبتكاليف أقل من سابقه، فقد أسهم استخدام التقنيات السابقة نفسها والمحطات الأرضية ومراكز تصحيح المعلومات في ضغط نفقات البرنامج إلى ٥٥٠ مليون وحدة نقد أوربية (حوالي ٦٥٠ مليون دولار أمريكي)، في حين بلغت تكاليف القمر الصناعي الأول وتجهيزاته الأرضية المرافقة حوالي ٦٠٪ من هذا المبلغ.

والقمر الصناعي الجديد - كسابقه - تم تصنيعه من قبل مجموعة من الشركات الأوربية، والتي تتولى فيها شركة ديملر بنز أيروسبيس الألمانية مهمة المتعاقد الرئيس، ويحمل الأجهزة الرادارية نفسها التي أهمها الجهاز الراداري بمدى الموجات السنتمترية ويستخدم تقنية الهوائي ذي المنفذ المصطنع،

إطلاق القمر الصناعي الأوربي الثاني للدراسات البيئية





صورتان للمنطقة نفسها في وقت واحد إحداهما بواسطة أنظمة استشعار ضوئي تحجبها الغيوم بالكامل، والأخرى بالأنظمة الرادارية التي تظهر التفاصيل بوضوح (المصدر ESA)

وهي تقنية علمية تم ابتكارها أولا ليتم استخدامها في الأغراض العسكرية، والتي تجعل هوائي الرادار أصغر حجما، ويحقق التوجيه المطلوب ليجعل بالإمكان تركيبه على الطائرات.

وخلافا للأنظمة الضوئية؛ فإن الأنظمة الرادارية تعمل دون تأثير لظروف الضوء أو الغيوم (لايمكن لأقمار الاستشعار من بعد التقاط صور أثناء الليل أو عند تلبد السماء بالغيوم) لذلك فإن هذا القمر الصناعي يمكنه العمل على مدار الساعة.

إلا أن الأجهزة الضوئية لها أهميتها وفوائدها المكملة، لذلك فإن هذا القمر الصناعي يحمل جهاز استشعار ضوئي بست حزمات طيفية بين المرئي ومدى الأشعة تحت الحمراء لزيادة المعلومات المستقاة من هذا الجهاز وخاصة لأغراض مراقبة الغابات والمحاصيل الزراعية. بينما كان الجهاز العامل في القمر الصناعي السابق يعمل بمدى الأشعة تحت الحمراء فقط.

كما يحمل هذا القمر الصناعي جهازًا لرصد طبقة الأوزون الأرضية وهو جهاز جديد يعمل بدقة عالية.

وهناك أحد المؤشرات الجيدة لنجاح وكالة الفضاء الأوربية والصناعة الفضائية الأوربية بدرجة أكبر؛ فالقمر الصناعي الأول لدراسة البيئة قد تجاوز عمره الافتراضي بنسبة ٥٠٪ وبكفاءة تشغيلية بنسبة ٩٨٪، لذلك فوكالة الفضاء الأوربية تأمل تشغيله حتى نهاية العام الحالي مما يتيح لها تشغيل القمرين الجديد والسابق في آن واحد، مما يجعل بالإمكان تحقيق صور رادارية ثلاثية الأبعاد للأرض، وهي عملية مكلفة جدا بواسطة الطائرات.

ومن النتائج التي حققها القمر الصناعي الأول الكشف عن البقع النفطية التي تتبع الحوادث التي تصيب الناقلات النفطية، وتحديد مستويات الفيضانات ومتابعة التغيرات المناخية ودراستها، مثل ظاهرة النينيو في الأمريكتين، ومتابعة التغيرات في سمك الطبقة الجليدية في القطبين. ومن الصعوبة تصور النتائج العلمية التي أضافها هذا القمر الصناعي وحده.

الجهاز التجريبي لمراقبة الأوزون

إن التقنية المستخدمة لمراقبة الأوزون في طبقات الجو العليا والمحمولة على الأقمار الصناعية الأمريكية لها من العمر خمسة عشر عاما؛ لذلك فهو سبب مهم يدعو وكالة الفضاء الأوربية لاستخدام جهاز أكثر تقدما وذي تقنية جديدة لهذا الغرض في القمر الصناعي الجديد ERS-2.

يستخدم الجهاز الجديد تقنية أكثر دقة مشابهة لتلك المستخدمة في المناطيد المستخدمة لأخذ قياسٍ لطبقة الاستراتوسفير؛ إلا أنها هذه المرة تستخدم للحصول على قياسات كاملة على نطاق الأرض، بينما تسجل القياسات لنقطة محددة بالنسبة للمناطيد.

ومايطلق عليه اسم ثقب الأوزون هو اصطلاح مجازي يشير إلى ظاهرة انخفاض تركيزات غاز الأوزون فوق المناطق القطبية من الأرض. ولا يزيد عمر هذا الاصطلاح على عشرين عاما عندما تم اكتشاف هذه الظاهرة بواسطة القمر الصناعي الأمريكي نيمبوس - ٧ كما لا يزيد عمر تداولها في المؤتمرات العلمية على خمسة عشر عاما. وكانت الغازات المسماة كلوروفلوروكاربون هي مواد لا بديل لها لأغراض التبريد أو نشر المبيدات الحشرية، وكان هناك القليل من الباحثين الذين يعون أهمية تضافر الجهود لتقليص استخدام هذه الغازات لتقليل تأثيرها في البيئة.

لكن، في نهاية الثمانينيات أصبح للموضوع بعد سياسي على نطاق عالمي بعد تسجيل انخفاض ملموس في تركيز الأوزون فوق القطب الجنوبي.

وفي عام ١٩٨٧م وقَّعت العديد من الدول الصناعية الكبرى اتفاقا يقضي بالتخلص من استخدام هذا النوع من الغازات خلال مدة خمسة عشر عاما.

ومع ذلك، فإن غازات الكلوروفلوروكاربون ليست المؤثر الوحيد في طبقة الأوزون، فهي تتأثر بفصول السنة والفعالية الشمسية والغازات الأخرى الطبيعية المنبعثة من

البراكين، لذلك تتفاوت القياسات بدرجة غريبة؛ مما يضفي على المسألة طابعا محيرا. إلا أن تأثير هذه الغازات أصبح مسألة مسلمًا بها.

لكن مالفرق بين الجهاز الجديد والأجهزة السابقة؟

إن ما تحمله الأقمار الصناعية الأمريكية والروسية من أجهزة لرصد طبقة الأوزون تعتمد على تحليل أقصى انعكاس لأطوال موجية معينة من الضوء من قبل جزيئات الهواء للمنطقة التي يغطيها القمر الصناعي وهذه النقاط القصوى تشير إلى نسبة الأوزون.

بينما تستخدم الأجهزة في هذه التقنية أسلوب المقارنة حيث تقيس الطيف الشمسي بصورة آنية مع القياس السابق، وعند الطرح يمكن الحصول على قياسات للأطياف التي يتم امتصاصها، وهي طريقة أكثر دقة تأخذ في الحسبان التغيرات التي تطرأ على شدة الإشعاع الشمسي والتغير في تحسس معدات الاستشعار في هذا الجهاز. وتزيد هذه الإمكانات من دقة الجهاز بثلاث إلى خمس مرات موازنة بالأجهزة السابقة المماثلة، كما أن الأطياف التي يتم امتصاصها من قبل غاز الأوزون لا يمكن حصرها بين طول ٢٤٠ ـ ٧٩٠ نانومتر، لذلك فقد صمم الجهاز الجديد ليشمل استشعاره المديات المختلفة، وبشدة تلائم الإشعاع في جميع الفصول؛ مما يمنح هذا الجهاز إمكان قياس التركيزات على ارتفاعات مختلفة أيضا.

ومن عجائب الله في خلقه أن الأوزون يمر في دورة تفكك وتكوُّن؛ فالأوزون هو غاز تتكون جزئياته من ثلاث ذرات أكسجين ينشأ في طبقات الجو العليا نتيجة طاقة الموجات بالأشعة فوق البنفسجية؛ ليقوم بحجب نسبة كبيرة من هذه الموجات التي تسبب ضررا للإنسان يختلف تأثيره حسب شدتها. وهناك غازات طبيعية تؤدي إلى انحلاله مرة أخرى ليتشكل مرة أخرى بعد ذلك.

أما الأجهزة السابقة التي ترصد طبقة الأوزون، والمعتمدة على انعكاس الأشعة فوق البنفسجية فلا تسجل قياسات في المناطق القطبية خلال نهاية الشتاء عندما تكون العمليات المؤدية إلى انحلال الأوزون على أشدها، وتكون الشمس منخفضة كثيرا بحيث لا تصل الأشعة فوق البنفسجية إلى طبقة الاستراتوسفير، لذلك فإنها تبدأ التسجيل في بداية الربيع عندما تعود ظروف الضوء إلى سابق عهدها فتسجل ظهور ثقب الأوزون من جديد..

لذلك فإن الأجهزة الاعتيادية تصبح عمياء في نهاية الشتاء مما يضطر الدول الأوربية الشمالية وكندا إلى إطلاق مناطيد لإجراء تلك القياسات كل عام..

لكن حتى في الظروف التي تحلق فيها المناطيد؛ فإن القياسات تكون لنقطة محددة ولفترة وجيزة مما يضع الكثير من الآمال على الجهاز الجديد.

إلا أن فترة التطوير القياسية لهذا الجهاز وقصر مدة اختباره يجعل الشكوك تحوم حول إمكان تحقيقه المعلومات المطلوبة ١٠٠٪.

ويبقى أن نقول إن توقف إطلاق الصاروخ آريان مدة ثلاثة أشهر مما أدى إلى تأخر إطلاق القمر الصناعي من يناير إلى أبريل ١٩٩٥م، جعل بدء هذا الاختبار يتأخر من فبراير ١٩٩٥م فوق القطب الشمالي إلى أغسطس ١٩٩٥م فوق القطب الجنوبي.

المصادر:

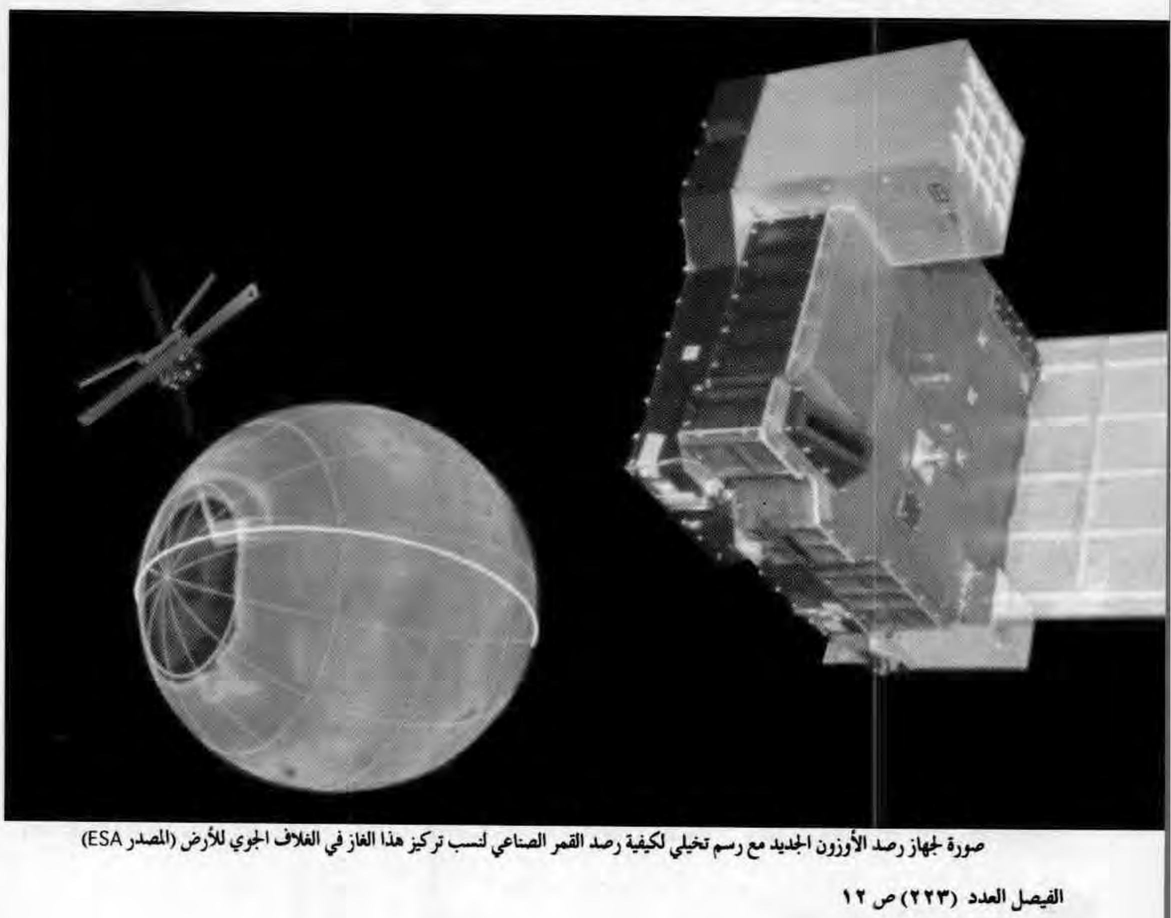
(*) الموجات السنتمترية هي الموجات اللاسلكية المعروفة باسم MICROWAVE

١ـ نشرة متخصصة بعنوان EUROPEAN REMOTE SENSING SATELLITE- 1 صادرة عن وكالة الفضاء الأوربية بتاريخ ١٩٩٢م.

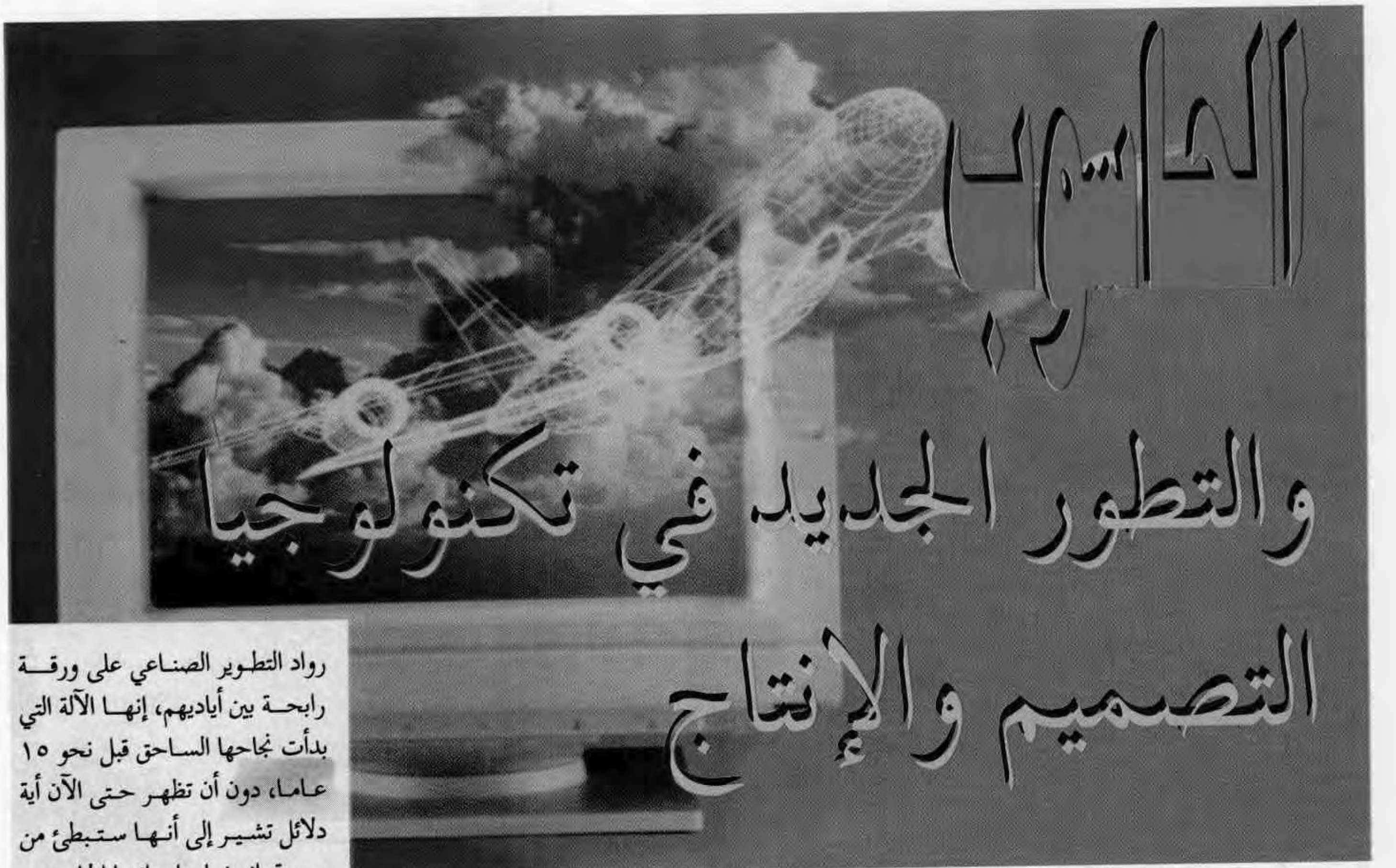
٢ـ نشرة متخصصة بعنوان ERS-1 صادرة عن DUETSCHE AEROSPACE بتاريخ ١٩٩١م.

٣ـ نشرة متخصصة بعنوان ERS-2, ESA LAUNCH BEST EVER OZONE MONITOR صادرة عن وكالة الفضاء الأوربية بتاريخ ١٩٩٥/١/١م.

٤ـ نشرة متخصصة بعنوان Upper Atmosphere Research Satellite صادرة عن NASA غير مؤرخة.



صورة لجهاز رصد الأوزون الجديد مع رسم تخيلي لكيفية رصد القمر الصناعي لنسب تركيز هذا الغاز في الغلاف الجوي للأرض (المصدر ESA)



الحاسوب والتطور الجديد في تكنولوجيا التصميم والإنتاج

عدنان عضيمة

بدأت الحواسيب تأخذ دوراً أكبر بكثير من مجرد إنجاز المهام الإدارية والحسابية. فتمثيل العالم الواقعي على شاشات الحواسيب، والذي كان قبل ردح قصير من الزمان يبدو أقرب إلى الخيال، تجسّد الآن عبر الدارات الإلكترونية والذاكرات، وأحدث ثورة في حقول التصميم والإنتاج، وجعل الاختبارات الصارمة للآلة ممكنة قبل وقت طويل من وضعها قيد العمل.

نشاط خلاق يميز مراكز البحوث والمختبرات في العديد من الدول المتطورة بعد أن أصبحت الأساليب المتبعة في وحدات الإنتاج المترابطة تخضع للفحص والتدقيق. والهدف الكامن وراء ذلك هو استحداث ثورة في الطريقة التي تبتدع فيها المنتوجات. وعلى سبيل المثال، لم تعد السيارات الحديثة تحتاج إلا إلى نصف مدة التطوير التي كانت تحتاجها النماذج السابقة، كما أصبح بالإمكان تطوير الطائرة بسرعة أكبر بنسبة ٤٠ بالمائة. وأصبحت شركات إنتاج السيارات والطائرات والآلات المختلفة تتبارى في سرعة تحسين طرق الإنتاج وأساليب التصميم حتى تضمن لنفسها البقاء في السوق الدولية التي تحكمها قوانين المنافسة الصارمة.

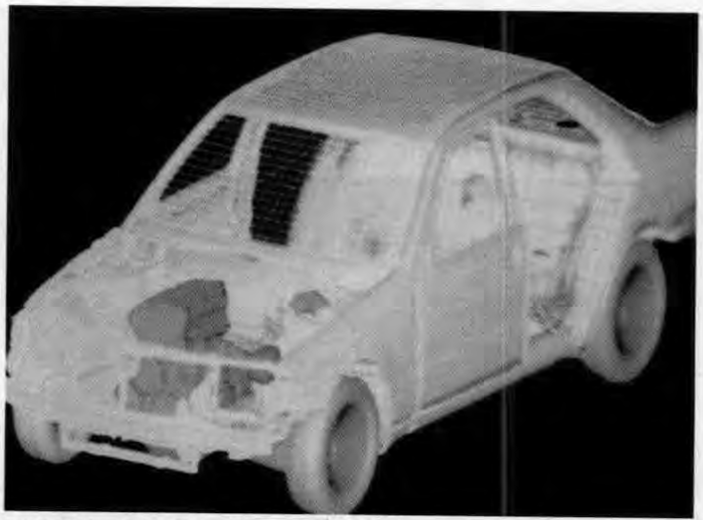
لابديل عن الحاسوب

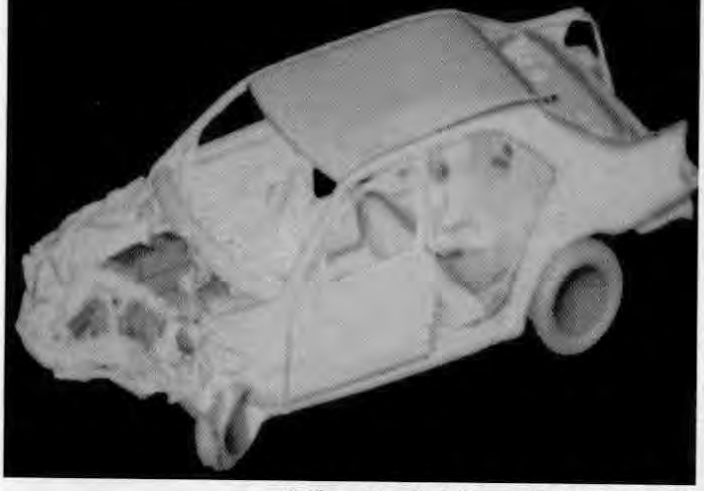
ويقول دايتر هابان، خبير الإنتاج المعلوماتي في مركز آلم ULM للبحوث التابع لمجموعة ديملر - بنز في ألمانيا ورئيس أحد مشاريع البحث: «إن المنافسة الصارمة عبر العالم، والتوجيه الأقوى للمستهلك، والأسواق ذات التغير السريع، لها تأثير قوي في هذا السباق. ولم يعد اسم الشركة التي تقدم الإنتاج الأفضل أمرا مهما. ففي المستقبل، سيتحدد النجاح التجاري في الأسواق العالمية، بالدرجة الأولى، بالأساليب المثلى والأكثر مرونة التي تتبع في تطوير المنتوجة. إننا على أعتاب حقبة ثانية في مجال تطوير الإنتاج». ويشدد هابان وفريقه من رواد التطوير الصناعي على ورقة رابحة بين أياديهم، إنها الآلة التي بدأت نجاحها الساحق قبل نحو ١٥ عاما، دون أن تظهر حتى الآن أية دلائل تشير إلى أنها ستبطئ من سرعة انتشارها.. إنها الحاسوب (الكومبيوتر).

واستنادا إلى مايقوله هابان، فإن الحواسيب في الشركة العصرية يتحتم عليها أن تنجز ثلاث مهمات أساسية إذا أريد للأهداف الطموح لمشاريعها أن تتحقق:

ـ عليها أن تكون قادرة على خزن كل المعلومات المناسبة حول خصائص وتكاليف وطرق إنتاج المنتوجة. والأكثر من هذا يكون عليها أن تجعل هذه البيانات متاحة للمستعملين كافة، إن كانوا مهندسي تصميم أو مشترين، وبأكثر الطرق يسرا بالنسبة لكل مستعمل بمفرده.

ــ على المطوّرين أن يكونوا قادرين على تفحص قطع المنتوجة وأجزاءها كافة، قطارا كانت أو سيارة أو طائرة بواسطة الحاسوب. وهكذا، وقبل أن يصنع البرغي





تجارب تصادم السيارة المصممة بالحائط على شاشة الحاسوب الذي يقدم معلومات متكاملة عن القطع الضعيفة في هيكلها

الأول، تكون الصورة النهائية للمنتوجة محققة على أرض الواقع ضمن الحاسوب بطريقة المحاكاة SIMULATION.

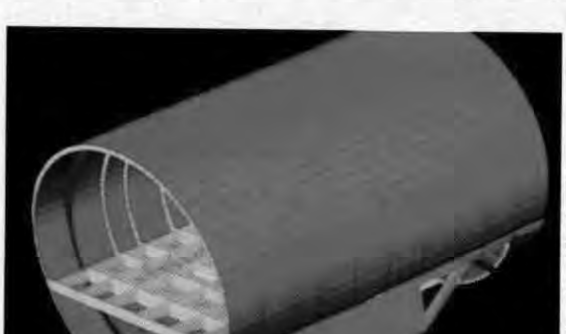
ـ وأخيرا، ينبغي على الحواسيب أن تكون قادرة على تدعيم التعاون بين المتخصصين المنتشرين ضمن الشركة وداخل الحدود الوطنية بشكل منضبط.. ومن شأن ذلك أن يسمح للعديد من عمليات التطوير المختلفة بالسير بشكل متواز، ويقتضي تحقيق هذا المسعى تطوير القدرة التقنية على الاتصال وتكوين الشبكات؛ فاليوم الذي ستشل فيه الوظائف الصناعية والتجارية للشركات والمؤسسات التي تتخلى عن خدمات الحاسوب آت لامحالة. وفي الحقيقة، فإن هذا الجهاز العبقري يغذ السير في طريقه لأن يصبح نقطة ارتكاز الشركات والمؤسسات وعمادها الأساس.

التعاون الفضائي في حقول التصميم

يقول توماس جن THOMAS GUNN، الخبير الأمريكي في تطوير تقانة التصميم بمساعدة الحاسوب: «لقد أصبح قطاع التصميم والتصنيع واحدا من أكثر القطاعات الاقتصادية تعقيدا؛ لأنه القطاع الذي بإمكانه امتصاص جميع القدرات الكامنة في التكنولوجيا»، ولقد ظهر أن التطورات الهائلة التي شهدها هذا القطاع منذ بداية ثورة تكنولوجيا المعلومات وحتى الآن لم تكن تمثل إلا بداية لطريق لا تعرف لها نهاية، واليوم، يكتب لنا أن نشهد ابتكار أسلوب جديد من التعاون التقني الدولي في هذا القطاع بواسطة الحواسيب وعبر الأقمار الصناعية، حيث بدأت العديد من الفرق البحثية التابعة للشركات ذات الانتشار التجاري الواسع عبر العالم باستحداث مركز للتعاون الدولي مع فرق البحث التابعة للدول الأخرى لغرض ترقية المنتوجات، وتحقيق القدرة التي لا تجارى على التنافس في السوق الدولية، وتعرف هذه التقنية الجديدة الآن باسم (التعاون الاتصالي البعيد) TELECOOPERATION وتم تطويرها مؤخرا من قبل عدة شركات ومجموعات عمل ألمانية وأمريكية ويابانية. وتتلخص هذه التقنية الجديدة باتصال عدة فرق متباعدة عبر العالم بواسطة شاشات حاسوبية ذات صور منقولة عبر الأقمار الصناعية. وتقوم الفرق المتصل بعضها ببعض بعرض نماذج التصاميم المقترحة، ثم يتداول المهندسون في تحسين مواصفات المنتوجة المقصودة كالسيارة أو الطائرة أو القطار...إلخ. وعلى سبيل المثال، تقوم ثلاث فرق متباعدة أشد التباعد، إحداها ألمانية والأخرى يابانية والثالثة أمريكية، بابتداع تصميمات مبتكرة لخطوط الترام والقطار الكهربائي تحت الأرض لصالح أسواق الولايات المتحدة، بالإضافة لتصميم سيارة جديدة ذات مواصفات عالية التطور لم تزل



الشكل الهيكلي للباص الجوي AIR BUS كما يظهر على شاشة الحاسوب بطريقة المحاكاة



صورة أعدها الحاسوب بطريقة المحاكاة لجزء من الأنبوب الرئيس لهيكل الباص الجوي

الحاسوب

والتطور الجديد في تكنولوجيا التصميم والإنتاج

مميزاتها سرا خافيا. وبهذه الطريقة يكون بإمكان أعضاء الفرق المتصلة التشاور في المشاريع المشتركة بشكل آلي بواسطة الشاشات؛ ليتجاوزوا بذلك عامل المسافات الهائلة التي تفصل بينهم، ويوفروا على أنفسهم عناء القيام بالرحلات المجهدة الطويلة.

ويقول وولفجانج دوستير، رئيس أحد أقسام البحث في التصميم عن بعد في ألمانيا: «إن الغايات التي يمكن تحقيقها من وراء هذا النظام غاية في الأهمية، وعلى رأسها: اختزال دورات الابتكار، وتحقيق شعار عالمية الأسواق، وتوسيع آفاق التنافس الدولي، والتوجيه الأمثل للمستهلكين، وزيادة تنوع المنتوجات. ولا يمكننا الارتفاع إلى مستوى تحقيق هذه الأهداف إلا باستخدام تقانة المعلومات التي من شأنها تحسين مستوى التعاون والتواصل الجماعي عبر العالم، وأيضا باستغلال القدرة العالمية الكامنة على تكوين الشبكات». وقد تتجلى فوائد هذا النظام أكثر من خلال التذكير بأن التصاميم التي كان يتم إنجازها في إحدى الشركات أو مراكز البحث كانت تطبع وترسل عبر البحار عن طريق الجو، وكان على المصممين الألمان والأمريكيين واليابانيين أن يتناقشوا حول الرسوم والمساقط الهندسية ومقاطع الآلات عبر الهاتف. واتضح فيما بعد أن هذه الطريقة مملة وتنطوي على هدر الكثير من الوقت. يضاف إلى ذلك تعذر التفاهم والصعوبات التي تنطوي عليها الأحاديث الهاتفية عادة. ولقد أصبح بإمكان مهندسي التصميم عبر العالم الاتصال ببعضهم مباشرة بعد استحداث شاشات الإسقاط الإلكترونية الواسعة الموصلة بخطوط الهاتف وشبكات البيانات الحاسوبية، وبذلك يمكن لنحو عشرين أو ثلاثين مهندسا، تفصل بينهم البحار والقارات، أن يتفحصوا الصور المستظهرة ويقوموا بتعديلها باستخدام الأقلام الحساسة للأشعة تحت الحمراء. ويعود ابتكار القلم الحساس للضوء - LIGHT SENSITIVE STYLUS إلى نحو خمسة عشر عاما، وهو يقوم بتسجيل المعلومات وإدخال البيانات والرسوم الهندسية بتحريكه على شاشة الحاسوب مباشرة حيث يستجيب راسم الاهتزاز المهبطي، الذي يقوم بإضاءة الشاشة، لحركته ويسجلها في الذاكرة. وتندرج هذه التقنيات كافة في التكنولوجيا التي تدعى «التصميم بمساعدة الحاسوب» COMPUTER - AIDED DESIGN والتي تشهد الآن تطورات عظيمة الشأن والتأثير في التطور الصناعي برمته.

ولعل من أكثر الوظائف المستحدثة لبرامج التصميم بمساعدة الحاسوب طرافة وإثارة هي تلك التي تمكن المصممين من إنجاز المحاكاة الواقعية للتشوهات التي ستتعرض لها السيارات التي يجري تصميمها أو تعديلها أثناء حدوث الاصطدامات، حيث يحمّل الحاسوب بالبيانات المتعلقة بتصميم السيارة ودرجة تحمل قطعها المختلفة لقوى الصدم، ثم تجري عمليات اصطدام بالمحاكاة على شاشة الحاسوب وفق زوايا وقوى صدم مختلفة، فيقوم الحاسوب بتصوير شكل السيارة بعد الاصطدام مبيناً القطع الأكثر تضررا من العملية. وتساعد هذه التقنية على تعديل تصاميم القطع الضعيفة أو التي من شأنها تعريض حياة السائق وباقي الركاب إلى الأخطار الشديدة في حالات الاصطدام.

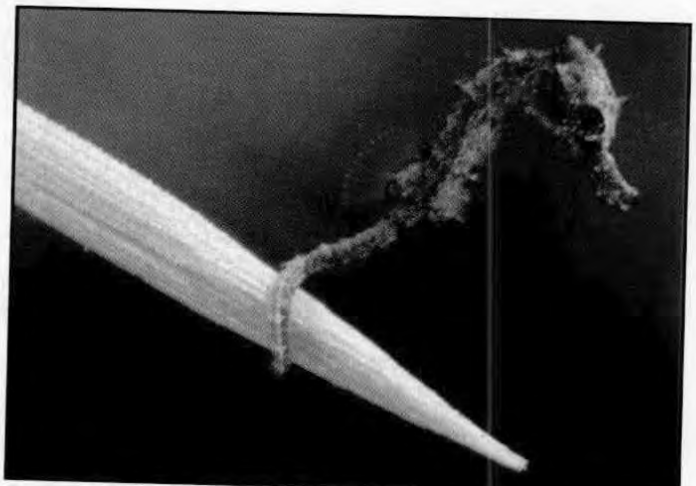
ولم يكن بلوغ هذا المرام بالأمر الهين، فلقد واجهت خبراء التصميم بالحاسوب مجموعة من الصعاب المعقدة كان من أهمها الحاجة إلى وضع مصطلحات ومقاييس موحدة للأنظمة المستخدمة في أوروبا وأمريكا واليابان حتى يتمكن المهندسون من التفاهم فيما بينهم، وثاني هذه الصعاب، كانت تتمثل بعدم إمكان إجراء المحاكاة الحاسوبية باستخدام الصور ذات البعدين. ولقد تم التغلب على هذه المشكلة بابتداع طريقة تمثيل النماذج بالصور الفراغية ذات الأبعاد الثلاثة، وأصبح هذا النظام الجديد يستخدم فعليا في مصانع الطائرات والسيارات في العديد من البلدان المتطورة.

وخلاصة القول، إن التطورات التي تشهدها تقنية التصميم بمساعدة الحاسوب بدلت الأسس والقواعد التي يعمل بموجبها المصنع الحديث، وأسقطت تماما دور التصميم الهندسي الذي كان يتم على الورق، وجعلت التشاور بين مهندسي التصميم عبر العالم أمرا ممكنا من أجل الرقي بالمنتوجات إلى مايحقق أعلى طموحات الإنسان.



من أجل تحقيق المحاكاة الواقعية لتصميمات المحرك ذي النبضتين يجب على الباحثين تقسيم هيكل الجهاز إلى أكثر من ٢٠٠ر٠٠٠ خلية منفردة





في مختلف الأنواع: لايزيد طول فرس البحر الوليد على ربع بوصة أو نصف

في عالم فرس البحر:

الذكر يلد ويقترن بأنثى واحدة!!

نجلاء حسن حامد

فرس البحر واحد من أكثر المخلوقات البحرية إثارة للدهشة والعجب.. إذ يقدم الذكر نموذجًا فريدًا للتضحية والإخلاص قلّما يتوافر حتى بين البشر..

فالذكر يحمل البيض المخصب بداخله ثلاثة أسابيع حتى يفقس وتخرج الصغار، كما أنه «أحادي الزواج» لايرتبط إلا بأنثى واحدة فقط من بنات جنسه!!

ثلاثون نوعا

ينتشر فرس البحر بأعداد كبيرة في المياه الساحلية لقارات العالم جميعها، ويصل عدد أنواعه إلى ثلاثين نوعًا.

ويتخذ كثير من أنواع فرس البحر طرقًا مختلفة للتمازج مع البيئة المحيطة بغية التخفي والتمويه في المناطق التي يتكاثر فيها، سواء كانت قيعان البحارالتي تحوي الأعشاب البحرية، أو بين نباتات المنغروف، أو في أماكن تواجد الشعاب المرجانية. وأينما يتواجد فرس البحر فإنه يكون معرضًا للخطر بسبب الإقبال على اصطياده لما يحققه من ثروة طائلة للصيادين، حيث يستخدم في صناعة الدواء في آسيا، وفي حدائق الأحياء المائية والمطاعم ومتاجر بيع التحف في بلدان عديدة. ولكن مايهدد فرس البحر أكثر هو تدمير مواطن تواجده الطبيعية الواقعة على خطوط الشاطئ عندما تُزال نباتات المنغروف أو مروج الحشائش البحرية، وكذلك عندما تُفجَّر الشعاب المرجانية.

الذكور أجمل

في عالم فرس البحر، يتصف الذكور بأن لهم ألوانًا أكثر جمالاً ووضوحًا من الإناث، كما أنهم أكثر عدوانية. ويرجع البيولوجيون هذه الفروق بين الجنسين إلى المنافسة بين الذكور لقهر المنافسين واجتذاب الإناث.



فرس البحر الأصفر
في المياه الأسترالية

لاتتجاوز ثوان قليلة، تطمر الأنثى خلالها البيض المخصب في النسيج الناعم الموجود في كيس بطن الذكر، وهو يتكون في غالبية الأنواع من عظم غشائي - عظم ينشأ في نسيج غشائي - واحد يقسم الكيس، في حين أن فرس البحر الكبير من نوع HABDONINALIS ينقسم الكيس فيه إلى خمسة أجزاء مما يعطي منطقة أوسع لزرع البيض.

يحتوي كيس الذكر في الأنواع الأصغر على أقل من عشرة صغار، ولكن كيس الذكر في نوع JONES الذي يعيش في البحر الكاريبي، يحتوي على حوالي ١٥٧٢ بيضة، رغم أن هذا الكيس لايزيد حجمه على نصف ملعقة.

أب حنون

لايُعرف حيوان ذكر على ظهر الأرض أكثر تخصصًا وإخلاصًا في الرعاية الأبوية من فرس البحر.

ورغم أن الذكور في الأسماك عامة تقوم بحراسة البيض وتقليبه وتهويته لتزويده بالأكسجين، ورغم أن ذكر فرس البحر ينتج المنيّ مثل سائر الذكور وتنتج إناثه البيض مثل سائر الإناث، لكن مايجعل فرس البحر أكثر تميزًا هو أن الأنثى تضع البيض في كيس للنسل موجود في بطن الذكر.

ومن البداية إلى النهاية يقوم ذكر فرس البحر بكل الدور الأبوي، خاصة أنه يكون في حالة «حمل» حقيقية، ويشبه إلى حد كبير الثدييات بما في ذلك البشر، فهو كالمرأة التي تزود الجنين بالأكسجين والمواد الغذائية وتنظم سائر الأمور داخل الرحم.

كذلك يقوم هرمون البرولكتين الموجود في الفص الأمامي من الغدة

ويتمكن فرس البحر من الاندماج والتمازج بسرعة وسهولة مع الأشياء الموجودة في البيئة المحيطة، وذلك عن طريق تنمية «محالق» من الجلد عبارة عن أجزاء لولبية رفيعة تساعد على التعلق بالأشياء، وتغطيها الطحالب والأجسام العضوية المتناهية الصغر حتى إنها لاتكاد تظهر للعين ولايمكن تمييزها بسهولة.

وهناك أنواع عديدة من فرس البحر في مقدورها تغيير ألوانها بهدف التخفي مع الخلفيات البيئية الموجودة فيها تمامًا، فتتخذ ألوانًا متباينة مثل الأبيض أو الأصفر أو الأحمر أو الأرجواني أو الأخضر. ويشترك الذكور والإناث في التهام الأسماك الصغيرة والجمبري والقشريات بشراهة شديدة.

تحية الصباح

لموسم التزاوج طقوس خاصة..

تبدأ بأن يسبح فرس البحر ببطء، ويكون كل ذكر في انتظار أُنثاه، فقد تمر الأنثى في طريقها إلى الذكر المنتظر بأعداد كبيرة تبلغ العشرات من الذكور، ولكن كلاً منهم يتجاهل الآخر، وعندما تقترب الأنثى من الذكر المراد تتغير الألوان من البني إلى الكريمي إلى الأصفر، ويقوم الاثنان بتقليد مشية جانبية، ورأس كل منهما منثنية، ويرتكزان إلى الجذع نفسه أو الساق من حشائش البحر، ويحدث التزاوج في مدة



الذكر يظهر للأنثى الكيس الفارغ إشارة إلى استعداده لتلقي البيض المخصب

في عالم فرس البحر:
الذكر يلد ويقترن بأنثى واحدة!!

النخامية وينظم إفراز اللبن في الثدييات، بالتأثير والتوجيه من حمل ذكر فرس البحر.

وتستمر مدة حمل الذكر ٢١ يومًا، وفي صباح كل يوم تقوم الأنثى بزيارة الذكر وتقديم التحية له حتى تتم ولادة الصغار.

لحظة الولادة

بعد ثلاثة أسابيع يحين موعد الولادة ..

وتستمر فترة المخاض عندالذكر يومين، بعدها تخرج حيوانات فرس البحر الوليدة من البيض، وتندفع فوق فتحة الكيس حيث يتم طردها في تدفق مفاجئ.

ويتراوح حجم الصغار بين ربع بوصة ونصف في مختلف أنواع فرس البحر. وفور الخروج من البيض تمارس الكائنات الصغيرة حياتها الجديدة في استقلال كامل وتقوم بجذب أول شيء تلمسه.

وبعد خروج آخر مولود من كيس البيض، يكون الذكر قد فرغ من مسؤولية الحمل، ويبدأ بالاستعداد للحمل من جديد بواسطة الأنثى نفسها، حيث يستمر «أحادي الزواج» على الأقل في مدة موسم التزاوج.

وفاء نادر

يقدم ذكر فرس البحر لأنثاه وفاءً فريدا لايوجد حتى بين البشر..

ومن بين جميع الأسماك التي تعيش بين الحشائش البحرية أو نباتات المنغروف، يقدم فرس البحر النموذج الوحيد المعروف «للزواج الأحادي» الذي يحدث مرة واحدة في العمر من شخص واحد في وقت واحد. ولايحدث طلاق أو شجار بين الأزواج من فرس البحر!!



يستطيع فرس البحر أن يتخفى بسهولة في البيئة المحيطة بتغيير لونه

وفي بعض الأحيان تُفقد أعداد كبيرة من الذكور والإناث بسبب هجوم طيور البنجوين أو الكابوريا أو الأسماك. كذلك تتسبب العواصف العنيفة في موت عدد كبير بسبب الإنهاك الذي قد يدفع عددًا كبيرًا منها بعيدًا من أماكن تواجدها.

وفي هده الحالة تقيم الأنثى التي أصبحت وحيدة حديثًا في المكان نفسه الذي كانت تقيم فيه، بينما يتجول الذكر الذي لم يحمل البيض في كيسه بعد عارضًا نفسه على أنثى تلو الأخرى، ولكن بلافائدة!

وفي النهاية يلتقي الذكر الأرمل مع الأنثى الأرملة!!

طلب متزايد

يزداد الطلب على فرس البحر في أماكن عديدة من العالم..

فالشركات اليابانية تقدم أعلى الأثمان في أستراليا مقابل الحصول عليه، وفي تايلند تلقى المطاعم التي تبيع فرس البحر المشوي إقبالاً شديدًا، وفي الفلبين يُعتبر أكثر أنواع الثروة السمكية قيمه، ويُجفف فيها نحو مليون فرس بحر سنويًا، تُشحن للخارج عبر القنوات الشرعية، ويباع المجفف بمبلغ ٦٠ سنتًا من أجل صناعة الدواء في الصين، ولكن إذا بيع حيًا، يباع بنصف هذا الثمن من أجل استعماله في أحواض الأسماك والأحياء المائية. وفي هونج كونج يباع الرطل في الصيدليات بثمن يتراوح بين ١٢٠ و ٤٠٠ دولار. وتعتبر الصين اليوم أكبر مستهلك لفرس البحر، وتذهب غالبيته لصناعة الدواء.. تليها تايوان ثم هونج كونج وسنغافورة.

ويقال إن الأدوية القائمة على استعمال فرس البحر تشفي عددًا كبيرًا من الأمراض مثل الربو والعنة.

استغلال سيء

تشمل قائمة البلدان المصدرة لفرس البحر عددًا كبيرًا من الدول مثل أستراليا ـ البرازيل ـ الصين ـ أندونيسيا ـ الكويت ـ ماليزيا ـ المكسيك ـ الباكستان ـ سنغافورة ـ إسبانيا ـ تنزانيا ـ تايلند ـ الإمارات العربية ـ الولايات المتحدة ـ فيتنام.

وتذكر المصادر أن الصين استهلكت أكثر من ٢٠ طنًا من فرس البحر ـ حوالي ٦ ملايين حيوان ـ عام ١٩٩٢م، ويمثل هذا عشر أمثال الكمية المستخدمة في العقد الماضي.

وفي تايوان تبين الوثائق أنه تم تصدير حوالي ٣ ملايين فرس بحر مجفف عام ١٩٩٣م، أما الولايات المتحدة فقد استوردت نحو ٢٠٠.٠٠٠ فرس بحر مجفف عام ١٩٨٢م من الفلبين وحدها من أجل أحواض الأحياء المائية.

وتشير الأرقام إلى أن التجارة العالمية تضم أكثر من ٢٠ مليون فرس بحر سنويًا، على الرغم من أن غالبية الأقطار لاتوجد بها وثائق مخصصة للصادرات والواردات، ولايوجد أحد يدري على وجه التحقيق مدى الخسارة التي يسببها اصطياد ٢٠ مليون فرس بحر سنويًا، ولكن المؤكد أن الاستغلال بالمعدل الحالي يمكن أن يؤدي إلى نقص شديد في أعداد فرس البحر في أنحاء كثيرة من العالم مما يخل بالتوازن البيئي.

الهوامش:

عن مجلة: NATIONAL GEOGRAPHIC VOL.: 186, NO.4- October 1995.

وفي بعض المراجع والمجلات تترجم كلمة HIPPOPOTAMIS الأوربية بمعنى «فرس البحر» ولكنها في الواقع تعني «فرس النهر» ـ أو «سيد قشطة» كما في العامية ـ الذي يعيش في أنهار أفريقيا.

موسى بن ميمون والفقه اليهودي



د. حسن ظاظا

إذا كـان موسى بـن ميـمـون يبدو مـبـتكرا مجـددا في العقائد الـيهـودية، كـمـا ينطق بذلك كـتـابه «دلالة الحـائرين» لدرجـة أن مَنْ أحـسن الظـن به من أبنـاء ملتـه، قـد وصـفـه بـأنه (فـيلسوف)، ورمـاه من أسـاء ظنه بالكفر؛ فـإن هذا الرجل في اشتغاله بالشـريعة في قومـه يبدو تراثيـا تقليـديا محـافظا. فمن أين جـاء هذا التناقض؟ أهو لفكرة كانت ـ ومازال ـ مستقرة في أعماق النفس اليهودية خلاصتها أن الشريعة ـ لا العقيدة ـ هي التي تصنع (الأمة اليهودية) وتبرز كل الفَرْق بين هذه (الأمة) وبقية شعوب الأرض (الجـوييم)؟ أم إن حرص هذا الرجل على عدم المساس الجريء بالأحكام الشرعية كان نوعا من الاحترام لسلسلة مِنْ أسلافه كانوا جميعا فقهاء تلموديين؟ ومنهم «ميمون» الذي يتصور كثيرون أنه أبوه، وهو في الحقيقة جدّ قديم من أجداده ـ ربما كان السابع ـ. أمّا أبوه، فكان أيضا أمينا على التوراة والتلمود، وكان اسمه «سليمان»، ولكن اسمه وأبوته تلاشيا وامّحيا، أمام شهرة الجد «ميمون»؛ لدرجة أن المؤرخين الغربيين كانوا أدقّ عندما تعوّدوا أن يصفوا أي حاخام من هذه السلالة بلقب (الميموني) وفي مقدمتهم موسى بن ميمون نفسه. بل لعل صاحبنا هذا بعد أن وصل في زعامة الطائفة في مصر إلى مرتبة الأمارة (بالعبرية نَجيدْ أو نَسيء)، وإلى منصب القضاء في المحكمة الملية، وإدارة الأوقاف الخيرية اليهودية في مصر، آثر ألاّ يشذّ في الشريعة أو يجدد فيها حتى لايستنزل على نفسه المشكلات أو الشبهات، بعد حياة أرهقته بما كان فيها من ذلك، مما أشرنا إليه في بحثين ظهرا في هذه المجلة ـ من قبل ـ عن تاريخ حياته، وعن كتابه في العقائد «دلالة الحائرين».

شريعة هلامية

ومع ذلك، فإن المتتبّع لأحكام الفقه اليهودي يجد نفسه أمام شريعة هلامية رجراجة، وركام من الفتاوى الزئبقية، يصعب ـ بل يكاد يستحيل ـ الإمساك منها بطرف. وأسوق لذلك بعضا من أحكام المواريث عندهم على مرّ العصور، مثالا على هذا (التسيّب) في التشريع. ففي التوراة المنسوبة إلى موسى، ترد آية في المواريث فحواها أن الابن البكر هو وارث أبيه. وإن كانت له زوجتان، وولدت له كل منهما ابنا، فالبكر هو الذي وُلِدَ أولاً، حتى لو كانت أمه مكروهة، وفي هذه الحالة يرث ضعف أخيه الأصغر منه، حتى لو كانت أمه هي المحبوبة والمفضلة: «إذا كانت لرجل زوجتان إحداهما محبوبة والأخرى مكروهة، فولدت له كلتاهما ابنين، المحبوبة والمكروهة، وكان الابن البكر للمكروهة، ففي يوم توريثه لبنيه ماله من ممتلكات، لايحقّ له أن يعطى حقّ البكورة لابن المحبوبة، دون المكروهة وابنها البكر، بل يعترف بالابن البكر للمكروهة فيعطيه سهمين مما يوجد له أجمع، إذ هو أوّل قوّته، وله حق البكورة» (التوراة ـ سفر التثنية ٢١: ١٥ ـ ١٧).

والله يعلم، وعلّم اليهود ونحن أيضا، أن إسماعيل عليه السلام كان بكر إبراهيم لأنه ولد قبل إسحق عليه السلام بمدّة، وواضح من سيرة أبيهما إبراهيم عليه السلام أن هاجر ـ أم إسماعيل ـ كانت المحبوبة. ولكن اليهود أعطوا كل ميراث إبراهيم عليه السلام لإسحاق دون إسماعيل، لأن أم إسماعيل كانت هي المكروهة عندهم ـ عنصريا ـ لا عند إبراهيم عليه السلام. وهذا هو النص الوحيد في التوراة عن الميراث. وهو غامض وغير محدّد، لأنه كُتب بعد موسى بألف عام، واليهود عبيد لبختنصر في بابل، لا يملكون شيئًا، ولايرثون ولايورّثون. لكن يبقى من فحوى النص أن الابن البكر كان يخلف أباه في رئاسة العشيرة، وحمل ماكان يحمله أبوه من مسؤوليات. بدليل أن العبارات التالية لهذا السياق تنص على حكم الابن العاق لوالديه، وعقوبته الرجم بالحجارة حتى الموت! وكان لابد من الاجتهاد في شرائع الميراث؛ فحاول التلمود أن يفرض اجتهاده (التلمود البابلي ـ بابا بترا ـ الباب الأخير ـ الفقرة ٨٢) حيث يورّث شيئا من تركة الأب الميت لابنته إذا لم يكن له أبناء ذكور، ثم إخوة الميت وأعمامه ـ وهم مقدّمون على بناته ـ، وأبناء أخوة الميت

من الذكور. ويستمر هذا التفصيل، فإذا كانت التركة كبيرة فإنها توزّع على الذكور من الأبناء، وعليهم القيام بإعاشة البنات إلى أن يتزوجن. وأضاف تلموديون متأخرون أن للبنت الحق - بجانب إعالتها - في عُشر التركة (التلمود البابلي - عقود الزواج ٦٨أ). ويبقى بعد ذلك حق تصرّف الإنسان في ثروته بالهبة قبل موته، بشرط أن تكون موثقة بورقة مكتوبة. والمناقشات والآراء بين فقهاء اليهود لاتكاد تنتهي. وأفتى كثير منهم بأن الأرملة لا ترث من زوجها، إلا إذا كان في عقد الزواج مبلغ من المهر مُؤجل لما بعد الموت.

وفي العصور الوسطى - واليهود في الشتات - كثرت الفتاوى التي تهدف إلى عدم خروج شيء من التركات إلى بيت المال، لأن مآله إلى حكّام من غير اليهود، عندما تفرّقوا في الأرض، وكُتبت عليهم الذلة والمسكنة. فمثلا إذا توفيت الزوجة في السنة الأولى من زواجها ولم يكن لها أولاد، وجب على الزوج أن يردّ إلى أهلها كل مالها، حتى عطية الزواج التي قدّمتها لزوجها، وكل ماحملته إلى منزل الزوجية من متاع وثياب وحلي. وعند اليهود الشرقيين (السفَرَد) للزوج الحق في نصف ميراث الزوجة الميتة، والنصف الباقي يقسم على ذوي الحقوق من أهلها، وفي بعض الجاليات اليهودية في أوروبا كان تقسيم الميراث عن الأب أو الأم يتم بالتساوي بين البنين والبنات، نظرا لما جرت به العادة من التزاوج بين أفراد العشيرة نفسها في أغلب الأحيان. ونص فقهاؤهم على أن أي نظام يمنع الحاكم من أن يرث في موتى اليهود مقبول شرعا، كما نص عليه التلمود البابلي (باب الزواج - قدُّوشيم - فقرة ١٩ب). لكن في العصر الحديث، وفي أقطار الشتات، حيث يعيش اليهود، تخضع أحكام المواريث للقوانين المناظرة لها في كل دولة، استنادا إلى مانص عليه التلمود من أن «تشريع السلطة المالكة هو التشريع النافذ» (التلمود البابلي - باب الزواج ١١٣أ، وباب النذور ١٨أ، وباب الطلاق ١٠ب، وغيرها)، وأصدر البرلمان الصهيوني في إسرائيل (الكنيستْ) تشريعا جديدا للمواريث يقصد به إزالَة المخاوف عند اليهود الراغبين في الهجرة إلى إسرائيل من قوانين الميراث التلمودية؛ التي كانت دائما تصنف المرأة في مرتبة أدنى من الرجل في كل شيء، فالقانون الإسرائيلي الحالي يورّث الزوجة نصف تركة زوجها، بما في ذلك الدخول العائدة إليه من رواتب أو معاشات أو أعمال تجارية ونحوها، كما يترك لها المسكن والأثاث بعد موت زوجها، ويسوّى بين أنصبة البنين والبنات. ثم صدر قانون جديد خلاصته أنه إذا توفي رجل ولم تكن له زوجة، وتبين أن امرأة يهودية كانت عشيقة له، تقاسمه المعيشة والمعاشرة، فلها جميع حقوق الزوجة الشرعية. وهذا القانون مايزال موضع جدل عنيف بين المتدينين والعلمانيين، وأغلب الظن أنه انبثق من حالات كثيرة لمعايشة تمت في الخفاء خارج إسرائيل وتحت الرعب من اللاسامية النازية، وتكونت فيها أسر كبيرة العدد دون زواج شرعي، ثم استمر الأمر على هذا القياس عند المشرّعين الصهاينة، وهم بذلك يريدون أن يوهموا الناس في جميع أنحاء العالم أنهم علمانيون، وحضاريون، بعيدون من التزمت والتجمّد.

كل شيء في شريعة اليهود قابل للمناقشة والتعديل، لأن مصلحة الصهيونية تتطلب ذلك!

وقد يكون هذا صحيحا، لكن الانزلاق إلى الفوضى ليس بالحل البديل الأمثل.

مصلحة اليهود أهم من الشريعة

على أية حال، فقد اخترت هذه العجالة المختصرة عن أحكام المواريث عند اليهود لأشير إلى أن كل شيء في الشريعة عندهم قابل للمناقشة، سهل التعديل، أو حتى التبديل، لأوهى سند من التلمود وأحيانا من دون أي سند، لأن المصلحة العليا - وهي مصلحة الصهيونية - تتطلب ذلك. وقبلهم فكّر المسيحيون في مثل هذا، وأباحوا أكل لحم الخنزير مع أنه محرم في التوراة، وحرّمه المسيح على نفسه وعلى أصحابه من الحواريين. لكن لمّا انتشرت المسيحية في أوروبا، وفي شعوب وثنية كانت تعتمد في غذائها على هذا الحيوان، لم يشأ البابوات النصارى أن يجعلوا من لحم الخنزير عقبة في دخول النصرانية، واتكأوا على قولة في الإنجيل يقول فيها المسيح، وقد مر بجماعة من اليهود يتناقشون فيما يحل وما يحرم من الطعام، وينعتُ بعضهم بعضا بأشنع الشتائم: تجادلون في الحلال والحرام من الطعام والشراب، وتنطقون بالفحش وبذيء الكلام، وقد علمتم أن الله لايحاسبكم على مايدخل في أفواهكم، بل على مايخرج منها! فوثب المفتي على هذه القصة وقال إن المحرّمات في الطعام والشراب قد ارتفع تحريمها، بشرط التأدب في الكلام، ونسي هذا المفتي أن أولئك اليهود لم يكونوا على المائدة، بل في حلقة علم، والموقف موقوت بملابساته. ولو بحثنا لفوجئنا بأن حرص الفقيه على المصلحة العامة، دون اعتداء على شرائع الله، لايكاد يوجد إلاّ عند المسلمين، الذين ألّفوا فيه الدراسات العميقة، وأذكر منها على سبيل المثال كتابا جليلاً من تأليف الإمام عز الدين بن عبدالسلام المتوفى سنة ٦٦٠هـ، وعنوان الكتاب «قواعد الأحكام في مصالح الأنام»، وهو مطبوع في جزءين كبيرين.

محاولات تنظيمية

كان لابد، في هذا البحر المتلاطم الأمواج من الشرائع الفقهية اليهودية، من محاولات لتنظيم الخوض فيه. وبدأ ذلك بظهور (المِشْنا) التي جمعها ورتبها الرِّبي يهودا الكبير في نهاية القرن الثاني الميلادي، فقدّسها اليهود، وسموها (التوراة الشفهية)، وزعموا أن الله علّمها لموسى وأن موسى تلاها على أخيه هارون، وأن هارون رواها لأبنائه، وأنهم رددوها على مسامع كل الكهنة (اللاويين) من سبط لاوي (ليفي بالنطق العبري)، وهم القبيلة التي ينتمي إليها موسى وهارون، وفيها تنحصر وظائف الإمامة والكهانة إلى يومنا هذا، وإلى آخر الزمان، كما يقولون.

وقبل هذه المشنا، كانت هناك محاولات، من القرن الأول قبل الميلاد - كما يقول الحاخام الأمريكي العلاّمة موسى ميلتسينر - لإقرار شيء من النظام، والمنهج، في تلك الكتلة المختلطة من المرويات. ثم ذكر من تلك المحاولات إمام اليهود «هليل» قبيل ميلاد المسيح، وجاء من بعده آخر هو عَقيبا ثم مئير، قبل أن يصوغها يهودا الكبير على ماهي عليه

موسى بن ميمون والفقه اليهودي

الآن. ثم انبرت أجيال من الفقهاء لشرحها في ماااشتهر باسم التلمود، وهو ليس بالشرح الذي يتصوره غير اليهود من الناس، وإنما هو مستودع لجميع الافتراضات الممكنة والمستحيلة في أمور التشريع اليهودي، وخزانة لكل الأساطير والخرافات اليهودية والعالمية التي سمعها اليهود في الشتات - أو توهموها - وجعلوا منها تراثا قوميا لهم، لم ينكره عليهم إلا طائفة اليهود القرّائين الذين ظهروا في ظل الإسلام، برئاسة إمامهم عنان بن داود، فرفضوا المشنا والتلمود، ولم يعترفوا إلا بكتاب العهد القديم (التوراة - أسفار الأنبياء - كتب الحكمة) الذي يقرؤونه في صلواتهم، ويسمونه (المِقْراء)، ومنه جاءت تسميتهم (القرّائين). والرّبّانيون المؤمنون بالمشنا والتلمود يكفّرونهم ويعادونهم، ويحرّمون التزاوج معهم أو الأكل من طعامهم فضلا عن الصلاة في معابدهم.

وحاول كثير من فقهاء اليهود (تجريد) التلمود من ثرثرته واستطراده، ومن أخباره المسلسلة المعنعنة، ومن رموزه وإشاراته، وأحيانا من لغته الآرامية وإعادة كتابته بعبرية مبسطة. وبقيت الحاجة ماسة إلى (مدوّنة) تجمع الحلال والحرام عندهم في صعيد واحد، وأحصى فقهاؤهم هذه المواد الشرعية في ستمائة وثلاث عشرة مادة قبل موسى بن ميمون، ربما حوالى ظهور الإسلام. فمواد النهي والتحريم عددها ثلاثمائة وخمس وستون - بعدد أيام السنة الشمسية - ومواد الفرض والأمر مائتان وثمان وأربعون (بعدد أعضاء جسم الإنسان، كما جاء في باب النوازل - مكّوت - ٢٣ب في التلمود البابلي). وبعض الباحثين في الفقه اليهودي يؤكدون أن حصر عدد الأوامر والنواهي في ستمائة وثلاثة عشر توصل إليه أحد شراح المشنا في القرن الثالث الميلادي، وهو الرّبّي سملائي (أي الخيّاط). ومع ذلك مايزال هذا الحصر موضع جدل إلى الآن. في حين يؤرخ الكثيرون من فقهاء اليهود هذا الإحصاء في العصر الإسلامي، وينسبونه إلى أحد علمائهم في القرن التاسع الميلادي - أي في العصر العباسي - واسمه الرّبّي شمعون القيار. وهناك خلافات حتى في عدد الأوامر والنواهي، وبعضهم أضاف إلى الأوامر مالم يكن فيها بعد أن أخلى لها مكانا بحذف أوامر أخرى، وكذلك الحال في النواهي! ثم استقرّ الوضع بفضل كتاب صغير من تأليف موسى بن ميمون، كتبه بالعربية، هو «كتاب الواجبات». واقتصر فيه على ذكر كل مادة، وإشارات سريعة إلى مرجعها في التوراة، وتأويلها في التلمود.

إرضاء المنافسين بإغضاب الشريعة

وكان كتابه الكبير «مِشْني توراه» (أي إعادة تبليغ الشريعة) قد ظهر في أربعة عشر جزءًا بالعبرية، وحاز قبولا لدى المتبحرين في التشريع اليهودي، بعد أن أعجبهم حسن ترتيبه ونظامه، ودقة تحرّيه والتزامه، لدرجة أن أكثر الباحثين إسهابا في فضل ابن ميمون على الفكر الديني اليهودي، وجرأته على التجديد في مضمار العقائد، يكتفي في فقه ابن ميمون بالإشادة بوضوح أحكامه، ومافيه من التسهيل والتيسير، من دون تجديد. فمثلاً، يستعير إيزيدور توارسكي قول موسى بن ميمون في مقدمة «كتاب الواجبات»: «حاولتُ في هذه المدوّنة أن أتجنب كعادتي ذكر الخلافات في الآراء، فلا أستبقي إلا الشرائع المتبعة أو حتى غير المطبقة، التي تحفظ تعاليم سيدنا موسى، سواء ماااستمر العمل بها أم لم يستمر في الشتات». ويرى موريس رأوبين حيُّون في كتابه الذي نشره عن موسى بن ميمون بالفرنسية في باريس (١٩٨٧م) أن كتاب «مشني توراه»، لايجدد شيئا في صلب الشريعة ولكنه يقدم إضافة (ثورية) في الشكل، فقد كان يشعر مقدما بالخطة المثالية لعمله، ويخشى المنافسين الذين لن يفوّتوا أية فرصة لمهاجمته لو أنه عمل غير ذلك، وقد حرص عند الانتهاء من تأليف كتابه على أن يحصل على موافقة من عدد من علماء الشريعة اليهودية أشار إليها في مقدمة كتابه الكبير. من ذلك رسالة من الرّبّي فنْحاس بن مشُلّام رئيس المحكمة اليهودية بالإسكندرية لاينقد فيها من الكتاب شيئا إلا إهمال إرجاع الأحكام إلى الذين رُويت عنهم في المشنا أو التلمود بأسمائهم. كما كاتب فقهاء من اليهود في الخارج منهم الرّبّي يوحنان الكاهن من مدينة ليونيل، والرّبّي يوسف بن يهودا. وفي داخل تشريع موسى بن ميمون لاينسى التقاليد والعادات التي تأصّلت مع الزمن عند اليهود، وصارت تُعدُّ جزءا من الدين، وبمعنى آخر فإنه بهذه الواقعية الجريئة تجنب الكثير من المشكلات، لكن على حساب شريعة سيدنا موسى التي أشار إليها! أما الاختصار الذي عيب عليه، فإنه كان يضيق ذرعا بثرثرة علماء الشريعة عندهم ،حتى قال: لو استطعت تلخيص كل التلمود في فصل واحد لما تعديت ذلك إلى فصل ثان!

الاستعانة بفلسفة أرسطو

ومع ذلك، ففي هذا التشريع الفقهي المفصل للدين اليهودي تبدو للمؤلف إطلالة جديدة على ماكان، منذ القدم، يسمى عند المسلمين «حكمة التشريع»؛ فقد جرى على نهج فقهاء المسلمين فواءم بين الشريعة والعقل، ولكنه لم يستطع عقد هذه المصالحة إلا بالاستعانة المباشرة بفلسفة أرسطو، مما جعل كتابه - على فائدته وجلال قدره - يصيب أي حاخام تلمودي متزمت بحساسية قلقة رافضة، مع أنهم جميعا لايعترضون على ابن ميمون عندما يُدخل في أحكامه الشرعية العادات العامة والتقاليد الشعبية والأعراف الإقليمية، بل يرون ذلك مزية منه أن يهتم بما يسمونه بالعبرية (منهاج) الأمة في ممارسة الدين! ومن ثم في ربط الدين بالحياة في كل زمان ومكان.

أحكام شرعية يهودية ذكرها ابن ميمون

ومن الصعب في إطار هذا المقال أن أقدم الأحكام الشرعية اليهودية التي ذكرها ابن ميمون في كتابه المختصر، وفي كتابه المطول، وقد عرفنا أن عدد هذه الأحكام هو ستمائة وثلاثة عشر، وسأختار منها مايميز الفقه اليهودي من التشريعات المألوفة عند المسلمين أو في القوانين الوضعية لأمم العالم. وقد عرفنا أن منها مائتين وثمانية وأربعين أمرًا، وثلاثمائة وخمسة وستين نهيًا. فمن الواجبات المدرجة في دستور موسى بن ميمون (والأرقام التي تعيّن كل مادة تدل على ترتيبها العددي في مدوّنة موسى بن ميمون):

أولا: الأوامر:

الباب الأول: في الصلوات، وأركان الدين:

١ـ الإيمان بوجود الله. ٢ـ وحدانية الله. ٣ـ محبة الرّبّ. ٤ـ مخافتُهُ. ٥ـ الصلاة إليه وحده ٦ـ الحرص على القرب منه بمصاحبة الأتقياء. ٧ـ القَسَم به وَحْدَه. ٨ـ السلوك في طريق الربّ. ٩ـ تقديس اسمه تعالى. ١٠ـ تلاوة الصلوات في الصباح والمساء. ١١ـ تعلم التوراة وتعليمها. ١٢ـ شد أربطة الجبهة للصلاة. ١٣ـ وأربطة الذراع. ١٤ـ الحرص على أهداب أركان العباءة للصلاة. ١٥ـ تثبيت دعاء السماع على باب المنزل. [الأربطة المذكورة هي خيوط من الجلد تحمل صندوقا صغيرًا فيه «السماع»، تربط على الجبين والذراع. وبركة الباب ورقة في مظروف صغير أسطواني تثبت على يمين باب المنزل وفيها نص الصلاة أيضا]. ١٦ـ مؤتمر عام لجميع اليهود كل سبع سنين . ١٧ـ كتابة نسخة من التوراة باليد. ١٨ـ كتابة التوراة باليد فرض على كل مَلك يهودي. ١٩ـ حمد الله وشكره بعد الأكل في كل وجبة.

المعبد والكهنة:

٢٠ـ بناء المعبد فرض على الأمة. ٢٣ـ الكهنة اللاويّون ملزمون بالخدمة الدينية في المعبد

٣٢ـ تعظيم الكهنة لأنهم من سلالة هارون. ٣٥ـ مسح الكاهن الأعظم وملك اليهود بالزيت المقدس. ٣٨ـ مفروض على الكاهن الأعظم أن يتزوّج فتاة بكرًا.

الأضاحي والذبائح:

٣٩ـ الذبيحة اليومية من المؤمنين للمعبد. ٤٠ـ هَدْي الكاهن الأعظم للمعبد يوميًا. ٤١ـ قربان إضافي من الناس كل يوم سبت. ٤٢ـ قرابين إضافية من الناس لأيام الفصْح السبعة [وأنواع من هذه التقدمات لعيد تكوّن السنابل، والحصاد، وتقدمة خبز الحصاد، وهَدْي رأس السنة]. ٤٩ـ أضحية الكاهن الأعظم ليوم الغفران. ٥٣ـ الحج إلى الهيكل في القدس في الأعياد الثلاثة السنوية. ٥٥ـ ذبيحة خروف الفصح وأكلها ليلاً في ١٥ نيسان مع الخبز الفطير (بلا ملح ولاخميرة) والعشب المُرّ (المُرار). ٥٩ـ النفخ في الأبواق ساعة ذبح الأضاحي العامة، وساعة الحرب.

ثم يأتي باب في الأضاحي الخاصة من كفّارة أونذر أو نحوها، ثم أحكام الطهارة والنجاسة.

٩٦ـ جميع الحيوانات الثديية الميتة جثتها نجسة ـ حتى الإنسان. ٩٧ـ كل الزواحف (ثمانية أجناس) نجسة حية وميتة. ٩٩ـ المرأة في أيام طمثها نجسة. ١٠٠ـ وفي أيام نفاسها أيضا. ١٠١ ـ المرضى بالجذام نجسون.

ثم عدة مواد عن طقوس التطهير من النجاسة، بالغطس في الماء، أو حلق الشعر... إلخ.

١١١ـ البقرة التي يضحون بها عندما تحدث جريمة قتل ولم يُعرف القاتل، فتذبح البقرة من قفاها ثم تحرق.

ثم يأتي باب النذور وتقدير ثمنها من النقود، ثم واجب يقابل الزكاة عند المسلمين:

١١٩ـ زكاة فاكهة كل شجرة مثمرة تجب مرة كل أربع سنين. ١٢٠ـ زكاة زوايا حقول الحبوب، حيث يجب ترك هذه الزوايا للفقراء والمحتاجين والامتناع عن حصادها.

واءم ابن ميمون بين الشريعة والعقل ـ علي نهج فقهاء المسلمين ـ ولكن بالاستعانة المباشرة بفلسفة أرسطو

١٢٢ـ يترك صاحب الحقل حُزمة من الحبّ في وسط الحقل كأنه نسيها، فيأخذها الفقراء، وعدم أخذ ثمار الزوايا من الأعناب، أو التقاط الحب الساقط على الأرض. ١٢٥ـ حمل بواكير الثمار إلى المعبد. ١٢٧ـ زكاة العُشْر يجب أداؤها للكهنة. ١٢٨ـ زكاة العشر الثاني للكهنة . ١٢٩ـ جباية زكاة الإعالة للكهنة ومقدارها (العُشْر) أيضا .

[وهناك أعشار كثيرة واجبة عند الاعتراف بالذنب أمام الله، والاستغفار منه، وهي صدقة للفقراء، وللكاهن أيضا زكاة يسمونها زكاة العجين، إذ يرسل إليه كل بيت قطعة من العجين الذي سيأكلون منه، وعندهم أيضا زكاة الماء، وزكاة الحطب، وغيرها].

ثم ينتقل إلى أحكام السنة السابعة، واليوبيل ومالإلى ذلك، جاء فيها:

١٣٤ـ بعد ست سنين من الزرع والحصاد تترك الأرض بلا زراعة ولا فلاحة في السنة السابعة، لتستريح. [وأمااليوبيل فمدته سبع سنين مضروبة في سبعة، أي تسع وأربعون سنة، وله أحكام في البيع والإيجار ونقل الملكية، كما أن سنة اليوبيل لها طقوس دينية خاصة بها].

ويلي ذلك باب للامتيازات الممنوحة للكهنة في المجتمع اليهودي، غير ماسبق ذكره:

١٤٣ ـ للكهنة حق معلوم في كل ذبيحة. ١٤٤ـ لهم حق في بواكير صوف الغنم وشعر الماعز. ١٤٥ـ حقهم في التكفير واللعن ومصادرة الأملاك، وتقديم المتهم إلى المحكمة (السنهدرين) والمطالبة بقتله. (وهذا الحق ساقط عمليا، حتى في إسرائيل، ولكن القتل المدبر بالاغتيال يحل محله في صمت).

والباب التالي في أحكام الذبح الشرعي، وما يحل فيه وما يحرم وهو شبيه بالإسلام.

ثم باب عن المناسبات الدينية ووجوب الاحتفال بها بطقوس معينة:

١٥٣ـ الاحتفال ببزوغ الهلال. ١٥٥ـ أحكام السبت. ١٥٦ـ الخبز بلا خميرة أو ملح في عيد الفصح. ١٥٧ـ تلاوة قصة خروج موسى وبني إسرائيل من مصر. ١٦٣ـ يوم رأس السنة وطقوسه. ١٦٤ـ اليوم العاشر بعد رأس السنة هو يوم عاشوراء عند اليهود، وهو يوم صوم وحداد على ضياع مملكتهم في فلسطين أمام جيش بختنصر القادم من بابل، ثم انهزامهم أمام الرومان في التاريخ نفسه. ١٦٥ـ عيد الظُّلَل وطقوسه. ١٧١ـ دفع نصف مثقال من الفضة من كل يهودي للمعبد في رأس السنة.

وهناك باب عن التنظيم الإداري في المجتمع اليهودي القديم؛ يتناول النبي، والملك، والكاهن، والمحكمة العليا، والقضاء. ثم باب عن الشهادة أمام القضاء، وأنها فرض على كل من شهد طرفا من القضية، ووسائل القضاء في التأكد من صدق الشهود، وعقوبة شاهد الزور بما كان يمكن أن يحل بالمتهم زورا لو أن المحكمة أجازت شهادة شاهد الزور، وتكاد هذه المادة أن تكون ترجمة حرفية لمثيلتها في قانون حمورابي، المعاصر لإبراهيم

موسى بن ميمون والفقه اليهودي

عليه السلام. وهناك باب مخصص لجرائم القتل، والتوصية ببذل الجهد في حماية الناس من السفاحين، وبعده باب في التشديد على قطع دابر الشرك وعبادة الأصنام، وهو تشريع مخيف يبيح لليهود أن يعلنوا أن بلدا بسكانه، من اليهود أو من غيرهم قد فسد، فتجب إبادته بالقوة. وهكذا سمّت التوراة الشعوب السبعة التي كانت تسكن فلسطين قبلهم، فأباحت قتلهم جميعا بلا تمييز.

وينتقل المشرّع اليهودي بعد هذا الباب إلى باب أحكام الحرب، وينص على ضرورة تعيين حاخام خطيب يثير حماسة المقاتلين اليهود للتنكيل بالأعداء.

وفجأة يبدأ باب بعد هذا عن حب الإنسان، وإكرام الجار، ورد المظالم، وأداء الرهون بحالة حسنة بمجرد أن يؤدي المدين ماعليه. وإعطاء الأجير أجره في نفس يوم عمله ، وإكرام الغريب، وعدم التطفيف في الكيل والميزان، ومـاإلى ذلك من واجبات أخلاقية.

وتنتقل الأوامر الشرعية إلى نظام الأسرة؛ فبعد الأمر بطاعة الوالدين والبرّ بهما، واحترام العقلاء والحكماء وكبار السن في العشيرة، يأمر بالإكثار من النسل (مادة ٢١٢) وينص على أن الزواج عقد ديني، وأن الزوجين عليهما أن يتمتعا بالعيش معًا سنة على الأقل، (قبل أن يرحل الزوج أو يتفرغ لمهامّ حياته) وينص الشرع على فريضة الختان لكل يهودي من الذكور في اليوم السابع من ولادته، وعلى ختان (المتهوّد) في أي عمر كان، ويأمر الأخ بزواج أرملة أخيه، وأن يحمل أول مولود ذكر من هذا الزواج البديل اسم الأب الميت، وهي الشريعة التي تسمى (يبُّوم) بالعبرية، كما يذكر طقوس التخلص من هذا الواجب إذا كانت الأرملة أو أخو الميت أو هما معا غير راغبين في هذا الزواج. ثم تأتي أحكام جزائية:

٢١٨- من اغتصب فتاة بكرا يتزوجها شاء أم كره. ٢١٩- المتهم لزوجته البريئة يجبر على الإبقاء عليها وعدم تطليقها. ٢٢٢- أحكام الطلاق وإجراءاته.

الشرائع الجنائية وعقوباتها: الجَلْد، نفي القاتل بالخطأ من بلد القتيل، عقوبة القاتل عمدا هي القتل بالسيف، أو الشنق، أو الإحراق بالنار، أو الرجم بالحجارة.

(وجوب تعليق جثة المحكوم عليه بالقتل بعد إنفاذ الحكم طيلة النهار، ثم دفن المحكومين بالقتل).

وتأتي في خاتمة هذا القسم أحكام الرقيق، وفدية الأسرى من اليهود والمستعبدة من اليهوديات، وأحكام العبد غير اليهودي (الكافر كما يقولون). ثم أحكام الأموال والتعويضات، ومعاقبة اللصوص - إجراءات الشكوى أمام المحاكم - أحكام خاصة بالأسهم التجارية، وعودة إلى بقايا من أحكام المواريث.

ثانيا: النواهي:

الأحكام في النهي عن الشرك والكفر وتقديس غير الله مطابقة تماما للشريعة الإسلامية. عدم التردد في قتل من يدعي النبوّة كذبا (وقد قتل اليهود كثيرا من النبيين الصادقين). تحريم تقليد الأمم الأخرى في ملابسها وعاداتها وتقاليدها. تحريم السحْر بكافة أشكاله وكذلك التنجيم واستحضَار الأرواح والاتصال بالجن. تحريم ملابس الرجال على النساء والعكس، والوشم على الجلد حرام وتشريط الجلد أيضا. تحريم الإقامة في إسرائيل على الكفّار (عبدة الأصنام)، ولا مهادنتهم. تحريم الزواج بين اليهود وغيرهم [وحدث عكس هذا تماما في فلسطين في عهد الملوك اليهود]. لايجوز طرد الجيل الثالث من المصريين أو الأردنيين من إسرائيل، بل يمكن إقامتهم. تحريم السخرية باسم الله تعالى، والحلف زورًا، وعدم تحرّي الجدّية عند القسم. تحريم تمزيق أو إتلاف كتب الدين. ثم مجموعة أحكام تحرم الإهمال والعبث بالهيكل المقدّس. تحريم دخول المعابد في حالة سكر. تحريم صعود جبل الهيكل للحج أو الزيارة على كل إنسان غير مستوف لشروط الطهارة. تحريم استعمال العطور في المعبد ماعدا بخور العود والندّ والمُرّ واللبان.

وتتفق أحكام الأضاحي مع مثيلتها في الفقه الإسلامي، باستثناء تحريم الأكل من وجبة الكهنة حتى لليهودي المتدين الذي ليس كاهنا، وتحريم لحم الأرنب.

وأحكام الكهنة كثيرة جدا، أهمها أن الكاهن بمجرد دخوله في سلك رجال الدين يستحيل عليه الانسحاب منه. والكاهن الأعظم محرّم عليه لمس الموتى من اليهود مهما كانوا، والكهنة جميعا محرّم عليهم الزواج بالمومسات، أو بنساء قيل ماقيل في سلوكهنّ.

أما الكاهن الأعظم فيحرم عليه الزواج من الأرامل، ويحرم على الكهنة بجميع درجاتهم الزواج بالمطلقات.

وتأتي بعد ذلك أحكام مايحل ومايحرم من المآكل والمشارب، وهي أشد من الإسلام. وترد أحكام مالية خاصة بالمعاملات، ولم يتردد موسى بن ميمون في تحريم الربا.

وفي أحكام القضاء تحرم التفرقة بين المتقاضين، ويحرم على القاضي الجور على حق من لا حامي له كالغريب واليتيم.

تحريم الأخذ بشهادة رجل اشتهر بالفسوق أو الخيانة أو الكذب أو التزوير. وتأتي بعد ذلك بعض الأحكام الاجتماعية والأخلاقية بما فيها طاعة أولي الأمر. فمن الجرائم لعن القاضي أو الأمير أو أي إنسان يهودي أو الوالدين أو التعدي عليهما بالضرب. تحريم زواج اليهودية من شخص مجهول الأب أو ابن زنا أو لقيط. يحرم طلاق المرأة التي أجبر مُغتصبها على الزواج منها. لايختار اليهود ملكا عليهم إلاّ إذا كانت أصوله يهودية.

ويحرم على الملك أن يكثر من امتلاك الخيل أو النساء أو الذهب والفضة (وهم يقرّون بأن سليمان بن داود عليهما السلام كانت فيه - على حد زعمهم - تلك النقائص!).

وواضح في هذا التشريع الذي هذّبه ورتّبه موسى بن ميمون أنه اقتفى في خطواته الفقه الإسلامي، إلا حيث كانت القضايا يهودية بحتة كالعنصرية أو أحكام المعبد أو الكاهن الأعظم أو الهيئة الدينية. ربما لأن الإسلام ليس فيه كاهن أعظم، ولا جذور عنصرية، ولاطبقة كهنوتية مميزة.

وأرجو أن يكون القارئ الكريم قد استطاع أن يخرج من المقالات الثلاث عن موسى بن ميمون بصورة واضحة عن مكانته في الفكر اليهودي.

التراث ووحدة الهوية

د. حسن الوراكلي

لا جدال في أنَّ للتراث أثره العميق والملموس في حياة الجماعات والأفراد، سواء على مستوى النظر أو على مستوى الفعل. ومهما يكن من اختلاف الرأي حول التراث، مفهوماً ووظيفة، فلا يستطيع أحد أن ينكر أنه - أي التراث - ذاكرة الأمة، يرتبط تفكير بنيها وسلوكهم، من حيث يريدون أو لا يريدون، بمخزون تلك الذاكرة، طيبًا كان أو خبيثًا، مخصبًا كان أو مجدبًا(١).

من ثم تأتي وجاهة هذا السؤال: ماالدور الذي يمكن أن ينهض به التراث في توحيد الهوية الثقافية للمسلمين؟

والبواعث على إلقاء هذا السؤال كثيرة؛ غير أن أهمها في نظرنا ثلاثة:

أ- هجانة الواقع الثقافي في البلاد الإسلامية. وليس هذا موضع التتبع والتحليل لمظاهر هذه (الهجانة)، ولكن لا بأس من الإشارة، هنا، إلى سببين جوهريين من جملة أسبابها، أولهما: الجهل - والتجاهل كذلك - بتراث الأمة الإسلامية بما تمثله نماذجُه الصالحة من عبقرية، وأصالة، وإبداع، وفي الوقت ذاته، بما تُكرّسه من قيم التغيير والبناء، ومُثُل التحدي والاستشراف. وثانيهما: تَبنّي مذهبيات (ايديولوجيات) علمانية واعتمادها في التخطيط الفكري والاقتصادي والاجتماعي لحاضر الأمة ومستقبلها، وجميع هذه المذهبيات (الايديولوجيات)، شرقية كانت أم غربية، مصدرها تراث هو غير تراث المسلمين، ومنبعها تاريخ غير تاريخ المسلمين، وناهيك بحمولة هذا وذاك النظرية والسلوكية.

ب- الخطر الذي يُحدق بالأمة الإسلامية في عقدياتها وأخلاقياتها ويتهددها في ذاتيتها وهويتها، وهو خطر (التماهي)، أي الانصهار في هويات ثقافية أجنبية، المتمثل في دعوات تتقنع بأقنعة العلم والفكر، وترمي إلى عزل الأمة، وخاصة أجيالها الناشئة، عن تراثها وثقافتها بالتشكيك في قيمهما ومثلهما تمهيداً لتهميشهما ثم رفضهما إجمالا أو بـ (تأويلهما) وَفْقَ صيغ جاهزة من رؤية مادية ومنهج جدلي يعتمدان مذهبية وثنية ملحدة مناهضة للمذهبية الإسلامية في منطلقاتها ومقاصدها، وهو مايترتب عنه اجتثاث الأمة من جذورها الثقافية التي تتوغل في تاريخها وتمتد في تراثها.

ج- تعميق الوعي لدى أبناء الأمة بضرورة الخروج بأمتهم من دائرة التبعية والانقياد الثقافيين. وليس يتأتى ذلك إلا بتجديد الانتماء إلى عقيدة التوحيد واسترجاع الوعي بتراث السلف، فبهما يتميزون عمن سواهم في الفكر والسلوك، أي على مستويي الهوية الثقافية النظري والتطبيقي. وقد نبَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وجوب المحافظة على الذاتية المميزة، وحذَّر من الذوبان في الغير، وهو مايُستخلص من قوله صلى الله عليه وسلم وقد رأى في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتاباً أصابه من بعض أهل الكتاب: «والله لو كان موسى حيًا بين أظهركم ماوسعه إلا أن يتبعني» (رواه أحمد).

ولكي نستجلي طبيعة الدور الذي نهض ويمكن أن ينهض به التراث، مجدداً، في بناء الهوية الثقافية للمسلمين، نرى من تمام الفائدة إلقاء بعض الأضواء عليهما في الفقرتين التاليتين.

أولا: التراث الإسلامي

فبالنسبة للأول، وهو التراث الإسلامي، نتطلّع بالكلمة التي نخصه بها إلى مزيد من الاستيضاح حول:

١- مفهوم التراث

من بين المعاني اللغوية لكلمة التراث واستعمالاتها تسترعي الانتباه ثلاثة معان: أولها معنى الميراث أو الإرث؛ أي ما يخلفه المرءُ لذويه من تركة يرثها بعضهم عن بعض قدما(٢). وثانيها معنى الأصل أي الأمر القديم الذي يتوارثه الآخر عن الأول على نحو مايستفاد من قوله صلى الله عليه وسلم لأهل عرفة: «اثبتوا على مشاعركم هذه، فإنكم على إرث من إرث إبراهيم» (رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه). وثالثها معنى توريث النار أي إيقادها(٣) بإذكاء جذوتها نفخًا فيها أو تنحية لما علاها من رماد. ففي المعنيين الأولين مايوحي باتصال الأجيال من خلال تعقيب هذا الإرث أو ذاك الأصل في أفرادها خلفًا عن سلف، وفي المعنى الثالث مايوحي بفكرة الانبعاث الحضاري الذي هو أشبه شيء، حين يغير الحاضر بثوابته الموروثة، بتوريث النار بتحريك ماكمن من جذوات متقدات تحت رمادها!

إن مثل هذه الإيحاءات تؤكد أهم مايتصل أو يتفرع من معان عن مفهوم التراث الاصطلاحي، وهو كونه مجموع الإرث الثقافي الذي تداوله الناس، جيلاً بعد جيل،

الثقافية

مودعين إياه خلاصة تجاربهم العقلية والشعورية، حتى إذا انتهى إلى الجيل الراهن كان له منبع طاقة وقوة روحيتين، ومصدر إحياء وبعث فكريين يغرف منهما في ربط تطوره الحضاري بأصوله التاريخية وجذوره التراثية. ومن هنا ندرك السر في حرص الأمم، وهي تعد العدة لبناء هويتها الحضارية والثقافية، على العودة إلى ذاكرتها الجماعية، أي إلى تراثها لاستلهام نماذجه الصالحة التي رجحت بها موازينها في الماضي على مستوى النظر والممارسة. ومثل هذا الصنيع هو ماقام به الغرب، وهو يقيم بناءه الثقافي في عصر النهضة، حين عمد إلى إحياء تراث اليونان والرومان والاقتباس منه والاعتداد به. ومثل هذا صنعت اليابان؛ فقد حرصت على أن تستعيد وعيها بوجودها وهويتها الثقافية المتميزة التي تمتد جذورها في تاريخها القديم وتستجيب لمتطلبات واقعها الراهن، ثم مضت، موحدة الفكر، والشعور، والاتجاه، تتلمس طريقها إلى النهوض والبعث الحضاريين.

٢- مصدرية التراث

ما من تراث إلا وله مرجعية عقدية، قد تكون إلهية محضة، أو وضعية محضة، أو مزيجًا منهما. وليس يشذ التراث الإسلامي عن ذلك، فإن مصدره الرئيس هو عقيدة التوحيد المهيمنة على الإسلام بوصفه شرعةً ومنهاجًا. وليس معنى هذا أن التراث هو الوحي نفسه بل هو الفهم، على اختلاف في أساليب التفسير، وتفاوت في مستويات الانفعال، لنصوص الوحي مشفوعًا - أي الفهم - بألوان من الإبداع والعطاء في مجالات الفكر، والثقافة، والحضارة تؤلف فيما بينها رصيدنا التراثي الذي يمكننا أن نأخذ منه وندع في بناء هويتنا الثقافية. فالإسلام، إذن، هو لُحمة التراث وسداه، وتجريد هذا الأخير من هذا الأصل العقدي له يعني سلب هذا التراث قيمته الجوهرية المتمثلة فيما كرس من قيم ومثل نابعة من هذا الدين، الذي ينتظم مفهومه - على عكس ما حُددّ (للدين) من مفهوم في الغرب - الشرعة والمنهاج، أي الحياة بعباداتها ومعاملاتها وعناصرها الروحية والمادية كافة. ومثل هذا المفهوم للدين هو الذي جعل من الإسلام بوتقة فكرية وحضارية واجتماعية تنصهر فيها تجارب الأمة الإسلامية ومنجزاتها؛ مما كان حصيلته هذا التراث الذي أبدعته أجيال وأجيال من أبناء هذه الأمة الذين كانو يؤمنون بعقيدة التوحيد التي نؤمن بها نحن اليوم ويصدرون عنها وينجزون وفقها.

٣- وظيفة التراث

ومما لاشك فيه أنَّ التراث الإسلامي السالف الذكر يتضمن من المنجزات الثقافية والفكرية والحضارية رصيداً بالغ الأهمية إنْ على مستوى المحتوى أو على مستوى الشكل، وهو بذلك حقيقٌ بأن يثير الإعجاب به ويحمل على التغني بآثاره. غير أنَّ هذا ليس هو القصد من إحيائه وبعثه، وليس القصد، أيضًا، من ذلك تحقيق هذا الأثر الفكري، أو ذاك أو دراسته وتحليله في إطار بحوث جامعية وأعمال أكاديمية يتم الحصول بها على ألقاب علمية معينة. ليس القصد هذا ولا ذاك؛ بل القصد تحويل هذا التراث إلى صلات تفاعل بين ماضي الأمة وحاضرها بقصد استثماره وتوظيفه في صياغة هوية ثقافية متميزة. ولإنجاز مثل هذه العملية لابد من إخضاع هذا التراث للنظر الموضوعي المبرأ من الهوى والعصبية الذي يتوخى الكشف عن الطيب والخبيث، والثابت والمتحول في ركامه؛ لانتقاء الأصلح والأنفع منه من أجل تحويله إلى فكر موحد، ورؤية واعية، وسلوك ملتزم(٤).

ومن البدهي أنَّ التراث المرشحة نماذجه وأبنيته الفكرية والأخلاقية والاجتماعية للانتقاء والاختيار، إنما هو التراث الصادر عن التصور الإسلامي الشمولي للكون والعالم والإنسان والتاريخ، مما أبدعه المسلمون أو غير المسلمين، مما لا يتعارض مع ذلك التصور، ويُنحَّى ما عدا هذا من تراث لأنه لا نفع فيه ولا جدوى في الاهتداء بروحه حين التصدي لتجديد الهوية الثقافية للمسلمين وتوحيدها. ولعلّ أبلغ مثل على ذلك هو التراث الإسلامي والتراث الفرعوني عند المصريين، ففاعلية التراث الإسلامي في المجتمع المصري تنبع من أنه كان حصيلة جهد أجيال تؤمن بالعقيدة نفسها وإن لم تكن من الوطن نفسه، بينما يبقى التراث المصري الفرعوني خامدا في تماثيله وأهراماته ومومياواته(٥). ولقد كان الغرب يدرك إدراكا جيداً، وهو يشنُّ غاراته الصليبية الباغية على العالم الإسلامي، أن تراث الأمة الإسلامية أهم مقومات شخصيتها؛ لما يتضمنه من قيم بانية في الحرية والعدل والشورى، وتجارب رائدة في الوحدة والبناء والإبداع كانت لها معطياتها الإيجابية في تحريك جماهير الأمة وتغيير واقعها. من ثم كان وُكْدُ الغرب وهمه ليس ابتزاز الثروات واستغلال الخيرات في بلدان المسلمين فقط، ولكن، بدرجة أولى، طمس الشخصية الثقافية للأمة بالطعن في تاريخها، والتشكيك في تراثها، والتهوين من شأن العربية، لغة الإسلام الأولى. وفي هذا السياق تندرج الدعوات التي تبنَّاها لإحياء النعرات القومية كالفرعونية والفينيقية والبربرية، بل والعربية سعيًا لتشتيت الأمة الإسلامية وقطع أسباب التواصل بينها وبين تراثها الأصيل وحضارتها الهادية، وربط أبنائها ببنيات ثقافته ولغته وتراثه، لعزلهم عن ذاتيتهم التاريخية وفصلهم عن هويتهم الثقافية.

ثانيا: الهوية الثقافية الإسلامية

إن الشرط الجوهري في إنجاح أي مشروع للإحياء والانبعاث يكمن في عنصر الانتماء،

أي الارتباط بالذات التاريخية للأمة وهي المتمثلة في التراث بوصفه انتماءً بأوسع دلالات الانتماء ومعانيه، وأخصها الانتماء الثقافي. ومن هنا ننتقل إلى النظر في محور آخر من البحث وهو المتعلق بالهوية الثقافية.

إنَّ الآراء ووجهات النظر التي أريد بها تحديد مدلول للثقافة يمكن ردها، على تعددها واختلافها، إلى منظورين أساسيين:

أولهما تجريدي نظري يربط الثقافة بمجال الأفكار والمعارض والفنون. وثانيهما تطبيقي إجرائي يرى الثقافة منهج حياة تتحدد من خلالها أنماط السلوك والممارسة والموقف. على أنَّ تحليل هذين المنظورين يكشف لنا عن تداخلهما وتكاملهما، أي عن جدليتهما التي تتمثل، بوضوح وجلاء، فيما للعقديات والأخلاقيات - ومستودعها الفكر، والمعرفة، والفن - من آثار في الواقع الموضوعي في تحديد منطقه ومنهجه، ومايتمخض عنهما من مقاييس تُعتمد في التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والحسن والقبح. وبعبارة أخرى: تحديد الرؤية للكون، والإنسان، والعصر.

وإذا كان أهم ما يُستخلص من هذا الرأي هو أن الثقافة مادة وصورة، أي إنها معرفة (مادة) تفرز سلوكًا (صورة) فإن لنا - ونحن نشهد، على مختلف أدوار التاريخ، وفي عصرنا الراهن، اختلاف (المعرفيات) وتباين ماتفرزه، بالضرورة، من رؤية وموقف - أن نقر بحقيقة ليس يُماري فيها إلا من سفه نفسه، وهي أن الثقافة ليست واحدة؛ بل ثقافات شتى، لئن بدا، للوهلة الأولى، تماثُلها من حيث كونها (نظرًا وتطبيقًا) إلا أنها، وقد تباينت مادتها (النظرية)، أي مذهبيتها، كان لابد أن يترتب، بالتأسيس على ذلك، تباين في الرؤية والموقف يبلغ، أحيانًا، درجة من التناقض لا سبيل معه إلى التلاقي والتشارك في الرأي ووجهة النظر!

إنَّ مرد هذا التباين بين (الثقافات) إلى التكوين العقدي، والفكري، والنفسي للأمة، أو ماأصطلح على تسميته بالمركز الحضاري للأمة، وهو ما تبلوره هويتها الثقافية، ومن أهم مكوناتها التراث(٦).

لقد أسلفنا الإشارة إلى أن أجدى الأساليب في استلهام التراث يتمثل في تحويله إلى ثقافة فاعلة في الفكر والسلوك لدى أصحابها. وبعبارة أخرى: صهر روح التراث في حياتهم الفردية والجماعية، الخاصة والعامة، بما يغدون به ذوي هوية مستقلة متميزة من سواها.

ولقد أسلفنا الإشارة كذلك إلى أنَّ لكل تراث مرجعية عقدية، فمن البدهي، إذن، أن يقترن الفعل الثقافي الذي يستوحي التراث بمذهبية هذا و(إيديولوجيته). والبيئة الثقافية، التي هي ثمرة لسلطة التراث، أوضح شاهد على ذلك، فالإيمان والإلحاد مثلاً هما «في أغلب الأحيان ينتقلان إلى الإنسان من بيئته الثقافية(...) إلا أن الذي يتعلق بالعديد الأكبر من البشر العاديين أنَّ الإيمان والجحود عندهم يفصل فيه الجو الذي نشؤوا فيه. من أجل ذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «مامن مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» إن التعبير (أبواه) يمكن، منطقيا، أن يتناول البيئة العامة التي تتحكم في تطور الطفل»(٧).

إن تباين المرجعيات المذهبية أو (الايديولوجية) للتراث أصل في تباين الفعل الثقافي واختلافه من أمة إلى أخرى؛ بل يجوز التأكيد على أن هذا الفعل، وهو الوجه الإجرائي للهوية الثقافية، لا ينتجه غير أبناء الأمة التي أنتجت أجيالُها، في القديم، تراثَها. أما غيرهم، ولأنهم لا يملكون حق الانتماء إلى التراث الذي يفرز ذلك الفعل، فهم عاجزون على إنتاجه (ولو حرصوا)، وأقصى ما يبلغونه درجة القدرة على (الاستهلاك).

عالمية الثقافة.. مصيدة

لذلك كله كان القول بعالمية الثقافة الغربية قولاً لا يقوم للبحث العلمي، فهذه الثقافة متحدرة من أحد تراثين: وثني أو نصراني محرَّف، وعلماني إلحادي مادي، تستلهمهما في صياغة هوية الأمة الثقافية: بدءًا من تفسير الوجود والإنسان، ومرورًا بالتصورات الاجتماعية والقوانين الأخلاقية، وانتهاءً بالمواقف والاختيارات الحضارية.

ومثل هذه الهوية، لمجافاة رصيدها التراثي لفطرة الإنسان الإيمانية، غير مؤهلة لأن تستقطب أو تصهر في بوتقتها (هويات) أخرى ذات ثقافة منحدرة من تراث إيماني عميق الجذور في تاريخ أصحابها؛ مثلما هو الشأن بالنسبة للتراث الإسلامي والهوية الثقافية التي تنبع منه. فنمط التفكير، وتفسير المعرفة، وأسلوب العيش تهيمن عليها جميعها قيمُ الإسلام ومُثُلُه. وهذا الأساس الديني لهوية المسلمين الثقافية هو مااسترعى نظر بعض الدارسين فكتب يقول: «... وللجميع الشعوب الإسلامية قاسمٌ مشترك واحد من الإيمان والولاء للشريعة الإسلامية يطبعها بطابع هوية واحدة يبقى ويدوم حتى ولو فُقِدَ الإيمان وأُهْمِلَتْ الشريعة (...) والوحدة التي تجمع هذه الشعوب على قاسمها المشترك هي عقيدة "لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله" (...) كان ولاء المسلمين الأساس للإسلام، وكان المعارضون والمتمردون والثائرون يسعون لتغيير الوزراء أو الحكام أو حتى الخلافة الحاكمة كلها ولكنهم لم يسعوا أبدًا لتغيير أساس الولاء لدولة الإسلام ولوحدة هويته»(٨).

وحول هذه الوحدة الوثيقة بين الدين وهوية المجتمع الإسلامي يتحدث دارس غربي آخر فيقول: «.. لا انفصال هنا - أي في المجتمعات الإسلامية - بين ماهو دنيوي وأخروي، والروح الدينية منبثة في جوانب الحياة كلها، في موصوفاتها ولغاتها ولهجاتها...»(٩).

ومثلما يهيمن هذا الروح الديني على حركة الفرد في المجتمع الإسلامي فيطبعها بطابعه ويوجهها وفق مقاصده، نجده ينفذ إلى نشاطه العقلي والفكري حين يربط بين العلم والإيمان «باعتبارهما وحدة متكاملة غير قابلة للتجزئة، ولا يفصل بين البحث عن الوسائل والنواميس،

والبحث عن النتائج والمعاني المترتبة عنها... وكذلك فالإسلام لا يفصل بين العقيدة والاقتصاد والسياسة بل يربطهما برباط لا ينفصم»(١٠).

وإذا كنا نسلم بما للتراث من فاعلية في تشكيل واقع الناس وصياغة وجودهم ومد هذا وذاك بعوامل النماء والاستمرار، فإن لنا أن نعتبر هيمنة الروح الديني على حياة المسلمين الاجتماعية والعقلية، على نحو مارأينا، أثرًا من آثار تراثهم المصطبغ بالصبغة الدينية.

وفيما يلي نعرض لعنصرين من عناصر هذا التراث نَهَضَا، بفضل حمولتهما الدينية، بدور فعّال في توحيد هوية المسلمين الثقافية:

١ ـ اللغة

ليست اللغة، كما هو معلوم، أداة تواصل فحسب؛ بل هي، قبل ذلك، قيمة فكرية وشعورية في آن واحد. وهذا هو معنى كون اللغة، أي لغة، «هي التي تجعل مجتمعًا يتصرف ويفكر بالطريقة التي يتصرف ويفكر بها، وأن ذلك المجتمع لا يستطيع رؤية العالم إلا من خلال لغته، وأن تلك اللغة بمفرداتها وتراكيب جملها محدَّدَة في ذاتها ومحدِّدة لنظرة المجتمع المتكلم بها للعالم والحياة»(١١).

وكان علماء المسلمين يُدركون إدراكًا عميقًا مثل هذه الحقائق، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية الذي أكد أنّ «اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرًا قويًا بينًا»(١٢)، وأن «اللغات من أعظم شعائر الأمم التي يها يتميزون»(١٣). ولما كانت العربية هي لغة القرآن والسنة، وهما أصلا دين المسلمين، فقد اعتبر «اللسان العربي شعار الإسلام وأهله»(١٤)، لا فَرْقَ بين عربيّهم وعجميهم، وجميعهم معنيون بالأمر بتعلمها إلى جانب الشريعة لكونهما معا من الدين كما في حديث عمر بن الخطاب: «تعلموا العربية فإنها من دينكم وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم»(١٥). وعلق ابن تيمية على هذا الحديث فقال: «وهذا الذي أمر به عمر رضي الله عنه من فقه العربية وفقه الشريعة يجمع مايحتاج إليه، لأن الدين فيه فقه أقوال وأعمال، ففقه العربية هو الطريق إلى فقه أقواله. وفقه السنة هو الطريق إلى فقه أعماله»(١٦). ومن هنا كان تعلمها فرضًا واجبًا «ذلك أن فهم الكتاب والسنة فرضٌ، ولا يُفهم إلا بفهم اللغة العربية، ومالايتم الواجب إلا به فهو واجب»(١٧).

وكان المسلمون الأولُ واعين بهذا الوعي كُلِّه؛ فوجدناهم، حين الفتح وبعده، يُلَقِّنون أهل البلاد المفتوحة قواعد الدين الجديد، ويعلمونهم العربية حتى غلبت على أقطار كثيرة، كانت لسكانها قبل إسلامهم لغات كالرومية أو الفارسية أو البربرية.

ولم تنقطع، عبر العصور المتوالية، دعوة علماء الأمة إلى تعلم العربية وتعليمها أبناءَ المسلمين قاطبة، فهذا الإمام الشافعي يَحُثُّ على تعلمها، فيقول بعد أن يشير إلى كون العربية لغةَ الكتاب والسنة: «ينبغي لكل أحد يقدر على تعلم العربية أن يتعلمها لأنها اللسان الأولَى بأن يكون مرغوبًا فيه»(١٨). وحض ابن تيمية المسلمين كافة على التخاطب بالعربية وتلقينها صغارهم؛ حتى تتوثق الأسباب بينهم وبين أصلي دينهم القرآن والسنة وتراث أمتهم الذي عبر عنه بـ (كلام السلف)، قال بعد أن نفَّر من اتخاذ لغة العجم شعارًا للمسلمين: «وإنما الطريق الحسن اعتياد الخطاب بالعربية حتى يتلقنها الصغار في الدور والمكاتب فيظهر شعار الإسلام وأهله، ويكون ذلك أسهل على أهل الإسلام في فقه معاني الكتاب والسنة وكلام السلف»(١٩). ثم أردف مشيرًا إلى أثر الخطاب اللغوي في توحيد الرؤية الفكرية والممارسة السلوكية للأجيال، وربط حاضرها بماضيها عن طريق استلهام تراث الأمة وسيرة صدرها الأول: «واعلم أنَّ اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرًا قويًا بينًا، ويؤثر أيضا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق»(٢٠).

وأولى علماء المسلمين من العرب والعجم، على حد سواء، اهتمامًا بالغًا بالعربية مما كان حصيلته تراثٌ ضخم من مؤلفات النحو ومعاجم اللغة.

وإذا كانت جهود علماء المسلمين من العجم في خدمة العربية وعلومها مما لا يحتاج إلى بيان لذيوعه وانتشاره، فإنَّ في التذكير ببعض ما تَحَدَّثُوا به عن هذه اللغة في معرض التنويه بها والدفاع عنها وردّ كيد الكائدين لها من الشعوبية وأمثالهم، مايقوم دليلاً على ما كانت تمثله في حياتهم وحياة الأمة الإسلامية بعامة من قيم روحية وفكرية.

يقول الزمخشري ذاكرًا فضائل العربية، منددا بالذين يكيدون لها ولا يستطيعون الاستغناء عنها: «اللهَ أحمدُ على أن جعلني من علماء العربية، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية... ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها لا يبعدون عن الشعوبية، والذي يُقضى منه العجب حالُ هؤلاء في قلة إنصافهم وفرط جورهم واعتسافهم وذلك أنهم لا يجدون علمًا من العلوم الإسلامية، فقهها، وكلامها، وعلميْ تفسيرها وأخبارها، إلا وافتقاره إلى العربية بيّنٌ لا يُدفع، ومكشوف لا يتقنع، فهم متلبسون بالعربية أية سلكوا، غير منفكين منها أينما وَجَّهوا، كَلٌّ عليها حيثما سيّروا...»(٢١).

وبفضل الارتباط الوثيق بين الإسلام والعربية أقبل المسلمون في المشارق والمغارب على اتخاذها شعارًا لهم؛ يستوي في ذلك من أحلَّها محل لغته أو من تبنى أبجديتها وكتب بها لغته(٢٢). وسواء على هذا المستوى أو ذاك فقد كانت العربية بالنسبة للشعوب الإسلامية كلها وعاء لعقيدتها وشريعتها وحضارتها مما كان له تأثيره الحاسم في نهضة الأمة الإسلامية وتماسك بنائها الثقافي والفكري الموحد. الأمر الذي دعا أحد زعماء الإصلاح في العصر الحديث وهو جمال الدين الأفغاني إلى مطالبة الأتراك بأمرين

اثنين: أولهما اتخاذ العربية لغةً رسمية لدولة الخلافة. وثانيهما تعميم تعليمها بين الأعاجم ممن يدين بالإسلام «ليفقهوا أحكامه، ويمشوا على سنن الارتقاء بعلومه وآدابه، ومكارم أخلاقه، ومحاسن عوائد أهله، فالعرب مانجحوا بفتوحاتهم بشكل الدين الظاهري فقط؛ بل بفهم أحكامه والعمل بآدابه، وذلك ماتم ولا يتم إلا باللسان، وهو أهم الأركان»(٢٣).

إن توحيد لغة الأمة الإسلامية هو السبيل الأقوم لتوحيد عقليتها وهويتها الثقافية «لذلك لم يكتف الإسلام بجعل العربية لغته الدينية؛ بل اتخذها لدى تحديد الحقائق والأشياء لغة الأمة كلها من دون استثناء»(٢٤).

٢- التاريخ

ليس التاريخ مجرد وقائع تُروى، وأحداث تُسرد؛ ولكنه في حقيقة أمره سريان الماضي في الحاضر بما يعنيه هذا السريان من الوعي بالإطار الثقافي لهذا التاريخ والذي يبلور، ويكرس بآن، الانتماء العقدي والفكري للأمة. من هنا كان التاريخ مقوماً من أبرز مقومات الهوية الثقافية للأمم والشعوب، تقاس أهميته وفاعليته بمدى خصبه وغنائه.

إن التاريخ في هذا التصور ثمرة الصراع بين القوى المتضادة، بين التوحيد والشرك، أي: بين الحق والاستواء والفطرة، وجميعها من مستلزمات عقيدة التوحيد، وبين الباطل على اختلاف مآتيه وشيعه. وفي قتل (قابيل لـ (هابيل) رمز لهذا الصراع والمواجهة، على اختلاف الأعصار والآماد، بين قوى الخير وقوى الشر.

ولما كان لابد كما يقول ابن حزم «لكل أمة من مُعْتَقَد ما، إما إثبات وإما إبطال»(٢٥)، فقد كان تاريخ الأمة الإسلامية ثمرة جهادها في التمكين لمعتقدها في الأرض والذود عنه في سياق أوضاع وتحديات اجتماعية وحضارية كانت أمة الإسلام تُوَاجَهُ بها هنا وهناك. ومن ثم كان للروح الديني، دون أن نسقط من حسابنا عوامل أخرى كالعامل البيئي، هيمنته الملحوظة في صنع تاريخ الأمة، وهو بالوقت ذاته، أهم تفسير للتاريخ بعامة(٢٦)، والتاريخ الإسلامي بخاصة.

ووفقًا لذلك تكونُ الأمة الإسلامية، لامتلاكها عقيدة توحد رؤيتها، وشريعةً تنظم حياتها الاجتماعية والسياسية، تتوفر على شرطيْ الوعي بحركة التاريخ في تراثها واستثمارها في بناء ذاتيتها فـ «الوعي التشخيصي الذي يعمق الحس التاريخي إنما ينشأ تحت تأثير عاملين أساسيين: الأول وجود دين عام أو شبه عام يقدم لهذه الجماعة تفسيرًا للحياة ومغزى للوجود يرتبط فيه الماضي بالمستقبل، وبذلك تصبح بدايات الأشياء ونهاياتها لها معناها في الحس الإنساني، ويتمثل ذلك في وعيها بالتاريخ بوصفه الوعاء الزماني الذي تتحرك فيه هذه الأشياء نحو غاياتها. أما العامل الثاني فهو التشكل الاجتماعي أو التنظيم السياسي المتماسك الذي يعطي هذه الجماعة وعيا خاصًا بذاتها الحضارية ورسالتها الإنسانية. فمثل هذا الوعي هو الذي ينشئ في ضمير هذه الجماعة الحس التاريخي بالماضي ومغزاه بالنسبة للمستقبل»(٢٧).

إنَّ معرفة ماكان من أثر التركيب الثقافي للأمة ـ بما يقوم عليه من أسس تربوية وما يعتمده من قيم فكرية، في صنع كيانها الحضاري ـ هو أهم مايمكن استخلاصه من تراثها التاريخي في نماذجه البانية المتمثلة في حركات الجهاد ومبادرات التوحد مما لا نطيل بالتمثيل له، فإنَّها، بنسب متفاوتة، وسواء كان مسرحها شرق البلاد الإسلامية أو غربها، أسهمت في ترسيخ الوعي بالانتماء الثقافي الموحد عند المسلمين كافة.

وبعدُ، فإنَّ الأمم السوية حين تخوض معترك الصراع الحضاري ذودا عن هويتها الثقافية تكون ملزمة بالعودة إلى تراثها لاستلهام مارجحت به موازينُها في الماضي في مجاليْ الفكر والسلوك. وإنَّ تراثها الإسلامي، لغةً، وتاريخًا، وحضارةً، ومعرفةً، وإبداعًا، قادرٌ، بنماذجه الطيبة الصالحة، أن ينشئ أجيالاً من أبناء الأمة الإسلامية موحدة الفكر، والسلوك، والوجهة؛ أي موحدة الهوية الثقافية مما تكون له معطيات إيجابية في حياة المسلمين، أهمها:

١- تجنيب الأمة مخاطر (التماهي) والذوبان في هويات ثقافية مناهضة لعقيدتها وشريعتها.

٢- منحها القدرة على إنجاز الفعل الحضاري نهوضًا بأمانة الاستخلاف كما أرادها رب العالمين.

الهوامش :

(١) تنظر دراستنا «الإسلام والغرب: محاور التحدي وشروط المواجهة»، ص ١٨.
(٢) لسان العرب، مادة (ورث) .
(٣) لسان العرب، مادة (أرث).
(٤) تنظر دراستنا «الإسلام والغرب»، ص ٢٦.
(٥) ينظر كتابنا «في معركة التراث»، ص ٤٦
(٦) ينظر كتابنا «في الهوية والثقافة»، ص ٧.
(٧) محمد أسد، «الإسلام على مفترق الطرق»، ترجمة: د. عمر فروخ، ص ٦٨-٦٩.
(٨) لويس برنارد، «الغرب والشرق الأوسط»، ص ٣٠.
(٩) نفسه ص ٢٤.
(١٠) رجاء جاروي، «الإسلام هو الحل»، ص ١٤.
(١١) د. نايف خورما، «أضواء على الدراسات اللغوية»، ص ٢٠.
(١٢) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، ص ٢٠٧.
(١٣) نفسه، ص ٢٠٧.
(١٤) نفسه، ص ٢٠٦.
(١٥) نفسه، ص ٢٠٦.
(١٦) نفسه، ص ٢٠٧.
(١٧) نفسه، ص ٢٠٧.
(١٨) نفسه، ص ٢٠٤.
(١٩) نفسه، ص ٢٠٧.
(٢٠) نفسه، ص ٢٠٧.
(٢١) جار الله الزمخشري، «المفصل»، ص ٤.
(٢٢) ينظر، على سبيل التمثيل، كتاب «الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية»، تأليف د. محمد موفاكو، سلسلة عالم المعرفة، رقم ٦٨.
(٢٣) تنظر: «الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني»، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، ص ٦٨.
(٢٤) ينظر: L'Islam devant le monde moderne عن كتاب «الإسلام والمجتمع العصري» د. صبحي الصالح، ص ١٦٦.
(٢٥) ابن حزم، «مراتب العلوم» [ضمن رسائل ابن حزم]، تحقيق: د. إحسان عباس، ص ٦٦.
(٢٦) د. أحمد شلبي، «موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية»، ج١، ص ٣٢.
(٢٧) تنظر: دراسة «التراث التاريخي» د. عفت الشرقاوي، مجلة فصول، ع١، ص ١٥٠-١٥١.

أصداء ملحمة البوسنة في الشعر المعاصر (١)



د. حسن فتح الباب حسن

من ألمع الأيام والأعوام التي تحتفظ بها ذاكرة التاريخ؛ تلك التي يَهُبُّ فيها عديد من أصحاب الضمائر الحية المدافعين عن الحق لنصرة شعب يخوض معركة مصيره ضد غاصبي قُوتِه، أو منتهكي حريته وكرامته وسيادته على أرضه، أو المعتدين على حقه في حرية العقيدة. حينئذ تشفى صدور الجرحى من آلامهم، ويشتد بأس المظلومين والمناضلين، ويستجمع المترددون عزائمهم مسارعين إلى الالتحام بالركب الصاعد الذي تخلفوا عنه.

وهنالك يقوِّم التاريخ مسيرته بعد أن تفرقت به السبل حينا، وغامت في عينيه الرؤية، واختلطت الحقيقة بالوهم وما ينفع الناس بالزبد الرغاء، ويستمر بعدها زحفه إلى الأمام عبر طريق طويل من الآلام يتحقق في نهايته دعوة الأنبياء والمرسلين إلى العدل، وحلم الفلاسفة والشعراء بوحدة الناس كافة، وتصدق بفعل انتفاضة الشعوب المظلومة وانتصار الأحرار لها حكمة الإسلام القائلة: دولة الظلم ساعة ودولة العدل إلى قيام الساعة.

وها هم هؤلاء الأحرار يتوحدون في صيحة واحدة دفاعا عن شعب البوسنة والهرسك الصغير المسلم، وهو يقبض على عقيدته وتراب وطنه مثلما يقبض على الجمر، ولكنه لا يتخلى عنهما، فترتد مقاومته سهاما في قلوب العتاة والمجرمين القتلة، ويستعصي إكراههم على الاستسلام، لأنهم يدركون أن الإسلام دين القوة، وأن المسلم القوي خير وأحبّ إلى الله من المسلم الضعيف كما ورد في الحديث النبوي الشريف، فيبذلون أرواحهم ليردوا كيد الطغاة الآثمين.

ملحمة البوسنة تفجر الإبداع

وقد وقف الشعراء العرب في مقدمة أنصار شعب البوسنة، فكان صوتهم سلاحا معنويا يؤازره، لأنهم يمثلون ضمير أمتهم الإسلامية وقدرتها على نصرة الحق مهما اشتد الطغيان واستبد، وعلا صنائع الشيطان في الأرض علوا كبيرا. فالشعراء يملكون قوة الكلمة والفكرة التي تستطيع مقاومة الأسلحة المادية، وحفز المناضلين على الاستمرار في التضحية في سبيل أقدس قضية وهي الحرية والعدل تحت ظلال الحق.

ولقد فجرت ينابيع الإلهام في نفوس هؤلاء الشعراء تلك الملحمة التاريخية التي خاضها، ومازال يخوضها، جيش جمهورية البوسنة والهرسك وقيادته السياسية مستبسلين في مواجهة عدوان غادر مجرد من أيّ حسّ إنساني يشنه صرب عنصريون تسيطر عليهم أحط الغرائز التي يعف عنها الوحش، وتقوده أشد النزعات التدميرية دناءة. وبرغم المذابح البشعة التي تستهدف إبادة الشعب البوسني أو اقتلاعه من الأرض التي تغلغلت فيها جذوره منذ مئات السنين، والحصار الطويل منذ عامين لمدينة سراييفو العاصمة وغيرها من المدن التي يعيش فيها مئات الآلاف من البشر، فإن كل أشكال العنف الدموي المسلطة عليهم عجزت أن تقتلع من صدورهم الأمل في بقاء الوطن، واستعادة السلام، وتوفير كرامة الإنسان، واسترداد الأرض المغتصبة. وما يزال الصرب عاجزين عن إطفاء شعلة هذا الأمل؛ لأنه ملء صدور يردد أصحابها الآية الكريمة: ﴿إنه لا ييأسُ من رَوْحِ الله إلا القومُ الكافرون﴾ (يوسف:٨٧)، وقوله

تعالى يحث المؤمنين على الصبر: ﴿ولا تَهِنُوا ولا تحزنوا وأنتم الأعْلَوْن﴾ (آل عمران:١٣٩).

بهذه المعاني، ومن وحي تلك المثل والقيم الإسلامية، شدا شعراء من مختلف البلدان العربية، وانعكس في مراياهم الشعرية تجاوبهم مع المجاهدين البوسنيين، وحزنهم لما حاق بالأطفال الأبرياء والنساء والشيوخ الضعفاء المسالمين من آلام يعجز عنها الحصر والوصف، وتصويرهم مشاعر الأمة الإسلامية التي هزتها الكارثة، وأحاسيس ذوي الضمائر النقية في هذا العالم المنكوب بأعداء الحرية والعدل والسلام، الذي تكيل فيه الدول الكبرى بمكيالين لتحقيق مصالحها وأطماعها، فتناصر الظالم الجاني بدلا من ردعه والضرب على يده، وتهمل شأن المظلوم ذي الحق بدلا من أن تؤازره وتكف عنه العدوان. ويضاعف من إثمها أنها تزعم أنها راعية حقوق الإنسان، وأنه في أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية التي كانت تدور في فلكه، وانتهاء عصر الحرب الباردة بين المعسكرين، قد بزغت شمس عصر آخر أطلقوا عليه اسم النظام العالمي الجديد؛ الذي يقوم على الشرعية الدولية وإقرار حق الشعوب في تقرير مصيرها، ومنع الحروب، ونبذ العنصرية وسائر أشكال التعصب، والوقوف تحت راية المنظمة الدولية في وجه المعتدين على السلم والأمن، وتطبيق ميثاق هذه المنظمة.

شعر الفروسية والفداء عبر العصور الإسلامية

وتعد القصائد التي صاغها الشعراء العرب من وحي البوسنة امتدادا لشعر المقاومة والبطولة والاستشهاد منذ غزوة بدر؛ التي صور وقائعها الشاعر الصحابي المخضرم حسان بن ثابت والشاعر الصحابي كعب بن زهير الذي خلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بردته استحسانا لشعره وتكريما له لدفاعه عن الإسلام، وإدانته للمشركين بعد أن أنشد بين يديه قصيدته اللامية المشهورة. ومن أبرز قصائده تلك التي نظمها في غزوة بدر على قافية الراء. ومن شعراء النبي الذين دافعوا عن الدعوة أيضًا كعب بن مالك، وقد صور في إحدى قصائده وقائع غزوة بدر أيضًا.

ويزخر تاريخ الشعر الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين بالقصائد التي تمجد البطولة والاستشهاد في سبيل الحق والحرية وسائر القيم الإسلامية. ومن أشهر شعراء الحماسة الشاعر الفارس قطري بن الفجاءة الذي جمع بين عبقرية الخطابة والنبوغ في الشعر، والشاعر أبوالحسن الأنباري الذي لم يُرو عنه إلا قصيدة واحدة تعد من عيون الشعر العربي، وقد نظمها في رثاء حفيد من أحفاد الإمام الحسين رضي الله عنه قتله بنو أمية وصلبوه. وبلغ من نجاح الشاعر في تصوير عظمة الاستشهاد أن قال بعض الرواة إن الحاكم الأموي القاتل وَدَّ - بعد أن بلغته القصيدة وقرأها - لو أنه كان هو القتيل ورُثي بها.

واستمر ينبوع شعر الفروسية والبطولة متدفقا في عصر العباسيين، شحذًا للهمم واستنفارا للجهاد وخوض غمرات القتال، ولا سيما في ظل الفتوح الإسلامية التي اتسع نطاقها لتقويض أركان الامبراطوريتين الفارسية والرومية اللتين كانتا تقفان بجيوشهما الجرارة في وجه الدعوة إلى دين الله الحق. فواكب الشعر معارك الفتح والفداء، إذ كان الشعراء أنفسهم فرسانا أو حاملين لروح الفروسية، متشبعين بمبادئ الإسلام ومثله العليا التي تحض على القتال في سبيل الله.

وقد بلغ شعر الحماسة في هذا العصر ذروته على يد الشعراء الكبار. وتحفظ لنا صحائف التاريخ قصيدة أبي تمام التصويرية الرائعة التي نظمها في مدح الخليفة المعتصم بعد انتصاره على الروم في موقعة عمورية التاريخية، والتي مطلعها:

السيف أصدق إنباءً من الكتب
في حده الحدُّ بين الجد واللعب

ومازالت هذه القصيدة تبهرنا بتعبيرها القوي عن تلك المعركة التي كانت نقطة تحول في التاريخ، إذ أفل بعدها نجم العسكرية البيزنطية ودولتها الباغية، وانفسح الأفق لراية الإسلام خفاقة على العالمين.

وازدهر شعر المقاومة والبطولة في العصر العباسي الثاني ولاسيما في قصائد المتنبي بفضل موهبته الفنيّة وقوة انفعاله بالأحداث الحربية والمواقف التي عاصرها واشترك في بعضها، إذ كان فارسا مقداما. ومازالت تهز قلوبنا قصائده التي استوحاها من حروب سيف الدولة الحمداني أمير حلب ضد الروم على حدود الدولة الإسلامية، إذ تمجد الفروسية التي تسترخص الحياة وتستعذب لقاء الموت دفاعا عن الحرية والكرامة وإيثارا للعزة والمجد، وتلك هي أهم شمائل الفروسية العربية.

فإذا انتقلنا من المشرق العربي إلى المغرب واطّلعنا على إنتاج شعراء الأندلس ألفيناهم يحذون حذو المشارقة في نظم القصائد التي تتناول شتى أغراض الشعر، ومنها الحماسة. ومن هذه القصائد مايدور حول وصف المعارك الحربية ومدح الملوك والسلاطين والأمراء الأندلسيين الذين خاضوا تلك المعارك ضد الغال الذين انتزع منهم العرب جزءًا من أراضيهم وأقاموا عليها دولتهم الإسلامية، وظل ملوك الغال يشنون الغارات بين حين وآخر على تلك الدولة. ومن ثم انعكس هذا الصراع على بعض الشعراء، وعلى رأسهم ابن هانئ الأندلسي الذي تفوق بإبداعه على كل أدباء المغرب والأندلس. ويضم ديوانه قصيدته التي مدح بها الخليفة الفاطمي المعز لدين الله - وكان ابن هانئ قد لحق به في المغرب -، وتتضمن وصفا للأسطول العربي الإسلامي. وكان يومئذ أقوى أسطول في البحر الأبيض المتوسط. وهي من شعر الحماسة إذ يتغنى فيها الشاعر بمناقب الفروسية التي يضفيها على ممدوحه، وتمجيد الجهاد في سبيل الذود عن حياض الإسلام، كما يصور ما أصاب الروم من روع لدى مشاهدتهم السفن الحربية الإسلامية.

أصداء ملحمة البوسنة في الشعر المعاصر

تصوير ملاحم البطولة والجهاد في الشعر الحديث

لا جرم أن يوصف محمود سامي البارودي رائد مدرسة الإحياء الشعري بأنه شاعر السيف والقلم. فلقد خاض غمار الحروب التي اشتبكت فيها الدولة العثمانية مع أعدائها في اليونان والبلقان. كما كان من زعماء الثورة العرابية التي شقت عصا الطاعة على الخديوي الخائن الموالي للمستعمر الإنجليزي، دفاعا عن الحقوق الدستورية للشعب المصري، وإيمانا بالمبدأ الإسلامي (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق). وقد دفع هذا المقاتل الحر ثمن موقفه الشجاع غاليا، إذ نُفي مع سائر زعماء الثورة بعد فشلها إلى جزيرة سرنديب (سيلان)، وبقي شعره مرآة لصورة البطل والبطولة، مما استحق به أن يعد من كبار شعراء الحماسة في ديوان الشعر العربي.

ولأمير الشعراء أحمد شوقي نصيب من شعر الحماسة يتجلى فيما نظمه من قصائد في وصف الحرب، ومنها القصيدة التي نشرت في ديوان الشوقيات بعنوان (صدى الحرب في وصف الوقائع العثمانية اليونانية)، وهي قصيدة بالغة الطول يقلد فيها شوقي الشعراء الأقدمين وإن تخللتها سمة ملحمية. وقد نظمها تمجيدا للخليفة العثماني السلطان عبدالحميد، ووظف فيها أسماء ورموزا تاريخية لشخصيات من القادة العرب.

ولشوقي قصائد أخرى في التغني بالبطولات الإسلامية والمجد العربي المؤثل قبل أن يسدل عليه الستار، ويدخل بعضها في عداد مرثيات المدن، مثل تلك التي يرثي فيها (مقدونية) وقد تكاثرت على الدولة العثمانية دول البلقان تؤازرها الدول الأوروبية الكبرى حتى نزعتها منها بعد بلاء الترك في الدفاع عنها، وذلك سنة ١٩١٢م، وقد شبَّه ضياع مقدونية بضياع الأندلس. على أن رائعة شوقي التي تكفل وحدها أحقيته في شغل موقع من قافلة شعراء المقاومة هي قصيدته المشهورة (دمشق)؛ التي استوحاها من الأصوات الغاضبة في جميع البلدان العربية بسبب العدوان الفرنسي الاستعماري على العاصمة السورية على إثر تجدد الثورة العربية في سورية سنة ١٩٢٥م ضد الانتداب الفرنسي.

ولما كان أمير الشعراء شوقي وشاعر النيل حافظ إبراهيم فرسي رهان في مضمار الشعر، فلا غرو أن يحفل ديوان حافظ بكثير من القصائد التي يتغنى فيها بالحرية والمقاومة، وقد كان في طليعة شعراء مصر الناطقين بلسان ثورة سنة ١٩١٩م بقيادة الزعيم سعد زغلول. كان البارودي المثل الأعلى لشاعر النيل في الفروسية والإبداع الشعري، ومن ثم نظم قصيدة طويلة على نمط الأرجوزة بعنوان (دولة السيف والمدفع) ضمنها صورا لمناقب البطولة العسكرية. وله قصائد متعددة في الحث على التضحية في سبيل الوطن، وفي تمجيد الضحايا المناضلين.

ومن الآثار الشعرية ذات القيمة الأدبية والتاريخية (الإلياذة الإسلامية) التي كتبها الشاعر أحمد محرم مصورا فيها وقائع الجهاد الإسلامي عبر عصور المجد والازدهار التي سادت فيها الحضارة الإسلامية العالم، وانتشرت أعلامها فوق ربوع أرجاء المعمورة، وضرب فرسانها المثل الأعلى في الدفاع عن العقيدة والاستشهاد في سبيل الله.

وإذا تصفحنا ديوان الشعر العربي الحديث بعد مدرسة الإحياء ألفيناه زاخراً بالقصائد التي تحض على الجهاد، مثل قصيدة شاعر الجندول علي محمود طه المشهورة، والتي شدا بها محمد عبدالوهاب في أغنية حماسية عنوانها (الجهاد)، وهي من وحي الثورة الفلسطينية، وللشاعر محمود حسن إسماعيل شعر حماسي بلغ ذروة التعبير الفني، ومن ذلك قصيدته في غزوة بدر. ومن مدرسة أبولو أيضًا شاعر تونس الكبير أبو القاسم الشابي، فقد عزف على قيثارة الحماسة قصيدته الرائية التي اشتهر منها هذان البيتان:

إذا الشعب يوما أراد الحياة
فلابد أن يستجيب القدر
ولابد لليل أن ينجلي
ولابد للقيد أن ينكسر

من وحي بطولة شعب البوسنة

لم يكن مستغربًا أن تطالعنا الصحف والمجلات والإذاعات والكتب في مختلف الأوطان العربية والإسلامية بفيض من القصائد التي انثالت متدفقة ومتوهجة من قلوب الشعراء وعلى ألسنتهم، مستوحية مأساة شعب البوسنة والهرسك وملحمة كفاحه النبيل في سبيل صد الهجمات الهمجية التي شنها عليه البرابرة الصرب ومن يقف وراءهم. فالشعراء هم ضمير الشعب وصوت الحق ومصابيح الوجدان التي تضيء درب الوعي، وترهف المشاعر الإنسانية لحفز الأفئدة على التآلف والتراحم والدفاع عن المقدسات. وهم بقصائدهم التي تنبع من معين الحكمة والجمال يحملون المشعل الذي يكشف الظلمات الكامنة في بعض النفوس، ويزيد الإنسان قدرة على الإيمان بالحق والخير والسلام، ويحفزه على درْء الشر واعتناق الفضيلة. ولقد جاء في الأثر: (إنّ من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا).

وإذا كانت نكبة فلسطين قد روعت الأمة العربية، وأثارت أبناءها جيلا بعد جيل تلك المظالم التي حاقت بالشعب العربي الفلسطيني،



إيفو أندريتش

فإن مأساة البوسنة ـ ولما تحل بعد المشكلة الفلسطينية التي تمثل جرحًا داميا في قلب الأمة الإسلامية ـ قد ضاعفت الآلام التي مازالت تنزف لكثرة ماسال من دماء المسلمين الأبرياء. ولكن الشعراء لم يعبروا عن أحزانهم فحسب، ولكنهم صوروا أيضًا بطولة جيش البوسنة وصموده في مواجهة عدو عنصريّ أكثر عددا وعدة، تظاهره دول كبيرة تفتح له مخازن ترساناتها المسلحة وتمده بالعون المادي والسياسي، وهو يرتكب جرائم لا مثيل لبشاعتها في العصر الحديث على مرأى ومسمع من العالم، دون أن تتحرك الضمائر، فترتفع الأيدي لردع الجناة، وإعادة الحقوق المغتصبة، ومحاكمة القتلة، والأخذ بيد المظلومين.

الشاعر المغربي
حسن الأمراني في
(ملحمة الإسلام في البوسنة)

ومن أصدق وأعمق الأصوات التي استصرخت الضمير الإسلامي خاصة والضمير الإنساني عامة، لإدانة المذابح والعذابات التي سلطتها جموع الصرب على المسلمين الآمنين في ديارهم بدولة البوسنة والهرسك، صوت الشاعر المغربي الدكتور حسن الأمراني في قصيدته (جسر على نهر درينا ـ ملحمة الإسلام في البوسنة)، وهي قصيدة طويلة تتألف من مجموعة من المشاهد الدرامية ذات الطابع المسرحي. وقد افتتحها بنداء على لسان أطفال سرايفو الذين روعتهم المجازر الصربية:

نحن أطفال سرايفو الشهيده
إنْ حُرمنا من حنان الأمهات
في الليالي الكادحات
فلأنا مسلمون

ثم يورد الشاعر إشارات مرجعية وإضاءات دالة على الصراع التاريخي الأبدي بين الظلمات والنور يبدؤها بالآية الكريمة: ﴿أُذِنَ للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولو ربنا الله﴾ (الحج:٣٩، ٤٠).

ويفصح الدكتور الأمراني عن استعارته عنوان ملحمته أو لوحاته الشعرية من الرواية الشهيرة للكاتب البوسنوي «إيفو أندريتش»: (جسر على نهر درينا)؛ التي نشرت في أعقاب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م، مبينا أنه استوحى قصيدته الدرامية المطولة من نصوص هذه الرواية التي تصور فواجع الحرب، وكأنه يريد أن يقول إن التاريخ يكرر نفسه ولكن في أشكال جديدة، أما فحواه فهو الصراع بين العدل والجور، وتصوير المآسي والتضحيات.

فرواية أندريتش التي تعد من روائع الأدب العالمي رؤية تاريخية فنية لمسيرة البوسنة والهرسك بوصفها بلادا عريقة في منطقة البلقان، وشعبا تكوّن على مر العصور الحديثة من أكثرية إسلامية وأقلية مسيحية توحدا في نسيج واحد وتضامنا في السراء والضراء، فسقط الشهداء من الجانبين وهم يكافحون الغزاة النازيين دون أن تفرق الأرض التي سقطوا فداء لها بين دمائهم. والجسر الذي كان قائمًا عند ملتقى نهري درينا ورزاف هو المحور الذي تدور حوله الأحداث وتتصارع النقائض والشخصيات، وقد بناه سنة ١٥٧١م، الوزير العثماني محمد باشا سوكولوفيتش الذي ولد في إحدى قرى البوسنة الواقعة عند ذلك الملتقى، ليكون هذا الجسر رابطًا بين إقليمي البوسنة والصرب، وداعيًا إلى التعايش السلمي بينهما بدلا من القطيعة وما تجره من ضغائن ومنازعات مسلحة.

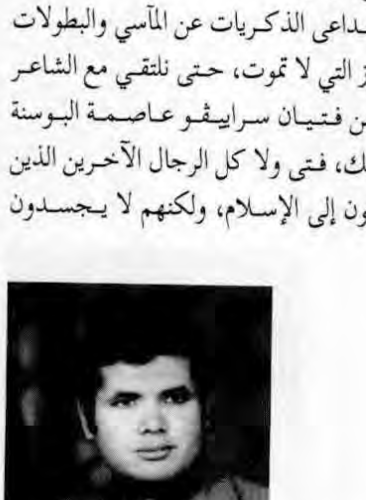
واليوم ـ كما يقول حسن الأمراني ـ يعود نهر درينا ليشهد مآسي لم يعرف لها العالم نظيرا، حيث يقوم الصرب بتذبيح المسلمين رجالا ونساء وأطفالا، ويلقون بجثثهم إلى النهر، وحين يمتنع النهر عن التهام الجثث فتظل طافية يقوم الصرب ببقرها لتستقر في أعماقه.. إن أعماق نهر درينا تضم اليوم كثيرًا من الشهداء.

ويقتبس الشاعر مقاطع أربعة من رواية جسر على نهر درينا يستعين بها في إلقاء ضوء على لوحاته أو قصائده المسرحية، إذ يُسقط الماضي ـ حين عاث الجيش النمسوي الاستعماري القديم فسادا في البوسنة والهرسك وتنكيلا بشعبهما بدعوى تخليصهما من العثمانيين ـ على الحاضر الذي يقترف فيه الصربيون الطغاة شتى صنوف الموبقات، مرتكبين أبشع جناية غزو في القرن العشرين؛ بل في تاريخ البشرية، فما أشبه الليلة بالبارحة!!.

وتتألف القصيدة التي أبدعها حسن الأمراني من ثلاث عشرة لوحة، منها: البيان ـ الجرح الهادر ـ الصلب ـ الاغتصاب ـ الذكرى ـ الرؤيا ـ الخرافة ـ الحقيقة. وأولى هذه اللوحات بعنوان (ورقة مهملة من سيرة حيران بن الأضعف). ويفصح هذا العنوان عن فحواها، فهي مرثية للنفس العربية التي جار عليها الأعداء والعاقّون من أبنائها، فأصبحت ترتع في مباءات الهوان عبر انتصارات قليلة وانكسارات كثيرة آخرها مأساة البوسنة والهرسك الدامية.

ولكن الشاعر يقدم لهذه المرثية بأغنية حنين شجي إلى عهد الشباب الممراح في زمن الشموخ العربي الإسلامي، وكيف صحا القلب من أحلام الحب وأشعار الغزل التي لم تدم إلا قليلا على دويّ الصراع الذي خاضته الأمة وماتمخض عنه من نكبات، فخيمت الأحزان في الصدور التي كانت تخفق بالآمال الحسان والأفراح الموعودة.

وتتداعى الذكريات عن المآسي والبطولات والرموز التي لا تموت، حتى نلتقي مع الشاعر بفتى من فتيان سرايفو عاصمة البوسنة والهرسك، فتى ولا كل الرجال الآخرين الذين ينتسبون إلى الإسلام، ولكنهم لا يجسدون


حسن الأمراني

قيمه، ولا يرفعون رايته لترتفع في الآفاق هداية للبشرية ومجدا لأصحاب الضمائر الطاهرة والإيمان القوي. فتى يحمل بين جنبيه قلبًا عامرًا بنور الحقيقة، وعلى لسانه آيات قرآنية يتلوها على الملأ ولو كره الكافرون. فتى في ريعان الشباب ولكنه شيخ بما عرفه واستوعبه من الحكمة.

والصورة التي يقدمها الشاعر تتسم بالجدة، ولم يسبق - فيما نعلم - أن قدمها الشعر الحديث على الرغم مما يحفل به من النماذج الرائعة في هذا المجال. ذلك أنه لم يتح للكثرة الغالبة من الشعراء المعاصرين أو الذين قبلهم أن يزوروا شعب البوسنة والهرسك، أو يتأملوا تاريخ كفاحهم البطولي للحفاظ على عقيدتهم وأرضهم وثقافتهم وهويتهم، أو يلتقوا في بلادهم - مثلما أتيح لشاعرنا كما تدلنا قصيدته - بفتى يمثل خصائص ذلك الشعب الأصيل.

وتمتاز الصورة التي أبدعها حسن الأمراني بالحركة والتقنيات الفنية الحديثة، ولاسيما الإفادة من فنون القصة والرواية والمسرحية بأساليب المزج والقطع والتداعي المتمثل في تيار الوعي والحوار الذاتي (المونولوج الداخلي)، والارتداد إلى الخلف (الفلاش باك)، وإسقاط الماضي أحداثا وشخصيات على الحاضر، والقدرة على تصوير الجو الذي جرى فيه المشهد المثير الآتي وكأنما نحن أمام أسطورة أو مشهد مسرحي:

عندما كان الفتى الأشقر إسماعيلُ
ذلك الألق القادم من قلب سراييڤو الأبيَّه
كلما قام ليتلو سورة الفتح قبيل الافتتاح
ضجت القاعة بالإعجاب أو بالصمت أو بالاحتجاج

...

يابنيّ
سوف يأتي - وأحفظ القول - على الناس زمان
تصبح اللحية فيه بندقيه
وحجاب البنت يغدو قنبله
وهو يتلو الزلزلة

تحت عنوان «البيان» أدار الشاعر حوارًا بين الفدائي علي خجا وإسماعيلوڤيتش، وهو أحد أفراد عمليات المقاومة التي نظمها شعب البوسنة، وذلك في أثناء الحصار الذي أحكمه العدو الغادر حول مدن هذا الشعب الباسل، إذ يقول الأول، وهو أحد الجنود البوسنويين الأبطال الذين استشهدوا في حرب النمسا للبوسنة والهرسك كما جاء في رواية (جسر على نهر درينا)، وقد استلهمه شاعرنا الأمراني فقال على لسانه محاورا إسماعيلوڤيتش محذرا إياه من غدر الصرب إذا أبرموا اتفاق صلح مع المسلمين:

قد نصحت القوم لكن لاتحبون النصيحة
إننا للمرة الألف عقدنا الصلح لكن
تحت خيل الكفر أضحى كل عقد
مثل أحلام كسيحة

بيد أن إسماعيلوڤيتش يرى ضوءًا في نهاية النفق الطويل المعتم فيجيب صاحبه:

لاتدع لليأس سلطانا عليك
فغدا تشرق أنوار الحقيقة

فإذا طوينا صفحات (البيان) نزف القلب شجوا مع الشاعر في قصيدته البكائية «الجرح الهادر» التي كتبها على لسان فتى من أبناء البوسنة:

كبر الحلم على كف اليقين
ثم غالته أعاصير السنين
ها أنا أحكي لكم عن قريتي
يا أحبائي الصغار الطيبين
عن طيور هَجَرت أوكارها
عن شيوخ القرية المستضعفين
هذه القرية كانت موئلا
للحساسين ومأوى الياسمين
يا سرايِيڤو جراحي جمة
ونداء القلب مكتوم الأنين
واصطباري فيك أضحى خنجرا
كلهيب يبعث الداء الدفين

وأتبع الشاعر هذه البكائية بأخرى على لسان شهيد قتلوه وعلقوا جثمانه على الجسر، فإذا هو يتساءل لم جازوه جزاء سنمّار، وهو ابن مناضل انخرط في صفوف المقاتلين دفاعا عن الوطن ضد النازية في الحرب العالمية الثانية، وظل يقاوم مع إخوته في جيش التحرير في سبيل إجلاء الغاصبين عن مدينة سرايِيڤو. فكيف يلقى اليوم أبناء هؤلاء الأبطال مايلقون من تقتيل وتشريد كأنهم غرباء وهم أصحاب الأرض الأصلاء، ويسومهم الصرب شركاؤهم بالأمس سوء العذاب فيحاصرونهم ويبيدونهم كأنهم الطاعون.

ويستدعي الأمراني في لوحته الشعرية «الواقعة» أشباح الذكرى المؤلمة لسقوط غرناطة آخر المدن الأندلسية والمذابح الرهيبة التي ارتكبها جنود فرناندو وإيزابيلا دون أن تأخذهم رحمة بشيخ أو فتاة أو وليد، فكانوا وصمة عار في جبين المسيحية التي رفعوا شعاراتها مثل الصليبيين قبلهم زورًا وبهتانًا، باسم دين عيسى بن مريم عليه السلام وهو الدين الذي بُني على التسامح والرأفة. لقد أصبحت سرايِيڤو اليوم أخت أرض الأندلس في البلوى بعد أن دمرت كثيرا من أحيائها العُصبَة الفاجرة، فأمست ضحية الذين سدوا آذانهم حتى لا يسمعوا صرخات القتلى والجرحى والمشردين.

وتشكل هذه اللوحة خريطة ممتدة مصبوغة بالدم الذي جرى أنهارًا وبحارًا، وصورة معركة غير متكافئة؛ إذ يقف الغربيون إلى جانب القتلة، ويمدهم الروس بالعتاد الحربي وهم يعلمون أن الصرب هم الجناة، وأن لديهم ترسانة ضخمة من الأسلحة ورثوها عن الاتحاد اليوغوسلافي السابق، وتأبى الدول الكبرى المهيمنة على مجلس الأمن أن تستصدر قرارا يبيح مد أهل البوسنة بالأسلحة التي تمكنهم من الدفاع الشرعي عن مدنهم وحقوقهم وفك الحصار المضروب عليهم. ويعمل الوسيطان الدوليان

أصداء ملحمة البوسنة في الشعر المعاصر

على إكراه علي عزت بيجوفيتش رئيس جمهورية البوسنة والهرسك على قبول مشروع تقسيم دولته بل تمزيقها. والأنكى أن الطاغية رادوفان كارديتش زعيم صرب البوسنة يعلن رفض هذا المشروع مما يصدق معه قول الشاعر العربي (يرضى القتيل وليس يرضى القاتل!!). ولكن القتيل هنا يأبى أن يستسلم، فيصمد مقدما أروع التضحيات:

تلك غرناطة أم تلك سراييفو الشهيده
مثل أم حُرَّةٍ غاب بنوها
خرَّ من خرَّ ومن فرَّ فقد أكرهه القوم البغاه
وعلى الأفق نداء نازف الجبهة
يستصرخ أبناء العقيدة

وليس أوجع للقلب من وقع الفظائع التي أنزلها المجرمون بأهل البوسنة، ولاسيما وقائع الاغتصاب الجماعي التي يشيب لهولها الولدان وتتمزق صدور الأحرار. وقد صورها الشاعر في مقطوعة بعنوان «الاغتصاب».

وتتقاطر أبيات قصيدة «الذكرى» عزفا شجيا على وتر الذكريات المستقاة من معين الطفولة بعد أن جف بفعل الرياح السافية التي طمرته بالرمال والحجارة فبات أثرًا بعد عين، ولم يبق من بعد غزو الصرب الطغاة مايستثيره من أطياف في عيون الأطفال المحرومين من فيضه في عهد البهجة والسرور. كما صور الشاعر نهر درينا الذي تقع على ضفافه جمهورية البوسنة والهرسك وقد تحول إلى موات:

هاهنا نهر تجمد
أيها النهر الشهيد
كيف يغدو الدم ماء
كيف يغدو القتل كاللعبة، سَجِّلْ
أيها النهر الحدث!!

وتتوالى مشاهد الطبيعة من نهر وغابة وبحر وغيوم بين أطياف الذكرى المضيئة قبل الحرب الجائرة وقد تحولت إلى أشباح داجية بعدها. وصاغ الشاعر هذه المشاهد في صور وموسيقى تجمع بين الألوان المتباينة والأصوات والأصداء المترددة للتعبير عن التناقض بين الأمس واليوم، بين الحب والسلام والقهر والعدوان:

هاهنا لفحة شمس فوقها ظل تمدد
وهناك انتصب السرو على جبهته تاريخ شعب
هدَّه القهر وضج الصبر في الصدر
فأرغى ثم أزبد
هاهنا شهقة بحرِ
هاهنا صولة غابه
هاهنا ظل سحابه
هاهنا هاجرة تنفي عن الصدر الصبابه
هاهنا أمشاج ذكرى: ضحكة، حلم، كآبه

ويشف مقطع «الرؤيا» الذي يزخر بالرموز والإشارات النابعة من ينابيع الإسلام عن روحانية مبعثها الإيمان بأن النصر من عند الله، وأن العاقبة للمتقين أولياء الله المؤمنين، والخزي لأولياء الشيطان. ويحيي الشاعر ذكرى الرابطة الإسلامية التي كانت تجمع بين تركيا ورمزها استنبول عاصمة الدولة العثمانية التي نشرت الإسلام في البلقان واستمرت عدة قرون، وبين البوسنة والهرسك ورمزها فشيجراد، وذلك بحَثّه فتى من البوسنة اسمه محمد علي أن يستمسك شعبه بهذه العروة الوثقى حتى لايكون لها انفصام. فالشاعر يأنس خيرا في تركيا وإن كانت عضوا في حلف شمال الأطلسي، الأمر الذي مازال يغلّ يدها عن تقديم العون المادي إلى البوسنة المعذبة التي تركها أبناء الإسلام فريسة ينهشها الجلادون وأعوانهم، ويودون لو أحالوها إلى جثة هامدة مالم يخرج أبناء الأم، وهي شريعة الله الحقة، ليسعفوا الضحية، ويستنقذوا البقية الباقية من الجسد المثخن بالجراح، ويبعثوا أنفاس الحياة في الأشلاء المشوهة المدماة. كما يدعو الشاعر إلى عودة التعايش السلمي بين المسلمين والمسيحيين الشرفاء:

يامحمد
قم إلى النهر
وصل مابين مشكاتين: عيسى ومحمد
إن ما بين (فشيجراد) و(استنبول) حبل مبرمٌ
عهد موطد
وغدا يعلو على نهر درينا
جسر إيمان منضد
رغم قبر يتمرد
يامحمد
أُحْدُ باسم الله.. ضع رجليك في عز الركاب
إنها قافلة الإيمان، لا تخشى الركاب

وتتوالى اللوحات والمشاهد التي تمزج بين الماضي والحاضر حتى نبلغ عودا على بدء، المقطع الأخير وهو معزوفة على لسان أطفال سراييفو تمجد المقاومة في سبيل الوطن والجهاد في سبيل الله عبر مختلف العصور الإسلامية منذ الصحابي الشهيد عبدالله بن رواحة، والصحابية الجليلة نسيبة بنت كعب الأنصارية التي أحاطت برسول الله تفتديه بروحها يوم أُحُد، حتى الفدائية الجزائرية جميلة بوحريد والشهيدتين دلال المغربي الفلسطينية وسناء محيدلي عروس الجنوب اللبناني. ويستاف القارئ عبير الملاحم التاريخية للإسلام، وأطفال البوسنة يرددون أهازيج الأمل وهم يحملون أكاليل النصر القادم بإذن الله:

نحن أطفال سراييفو الشهيده
سنصلي.. ونصلي
ونعيد الضوء باسم الله للشمس الفريده
سوف نُعلي راية الإسلام
في الأرض وإن طال الحصار
وسنبني للحضاره
هاهنا ألف مناره

(التتمة في العدد القادم)

من أدب الرحلات

(١)



حلقات يكتبها :
حمد الجاسر

مع الموسوي المكي في رحلته (١)

نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس

كتب الرحلات من أمتع المؤلفات، وأعمقها أثرا في نفوس القراء، لما تحويه من تنوع الموضوعات التي تطرقها، فكأن القارئ في مجلس علم وأدب متنوع الجلساء، من حيث ثقافتهم وسعة معرفتهم، فكل واحد يطرق الموضوع الذي يُحْسِنُ الحديث فيه، والنفوس، كما هو معروف، لايصلحها إلا التنقل من حال إلى حال، وطالب العلم أيّا كان بحاجة إلى عدم المداومة على نوع من أنواع العلم؛ فقد يحدث له من السأم والملل مايصرفه صرفا تامًا عن ذالك العلم، ولهذا ينبغي له أن يكون ذا إلمام بجوانب العلوم الأخرى لِيُروِّحَ عن نفسه، وليزيل عنها ماأحست به من آثار المداومة ومتاعبها.

وكتب الرحلات تتنوع بتنوع مؤلفيها، وتختلف من حيث الإمتاع وغزارة الفائدة، ومن حيث اجتذاب القارئ، ولاشك أنه متى كان صاحب الرحلة متنوع المعارف، فإن رحلته تمتاز على غيرها، بما يودعه فيها من معارفه ومن طُرَفِهِ التي يستطيع بها اجتذاب القارئ وامتاعه وإفادته(١).

وبين يديَّ الآن إحدى الرحلات التي سبق أن طُبعت طبعتين فيما أعلم، الطبعة الأولى بـ (المطبعة الوهبية) في مصر سنة ١٢٩٣هـ في جزءين، وهي طبعة على نمط مطبوعات ذالك العهد، خالية من التحقيق، ومن العناية بإبرازها بصورة تقرب الاستفادة منها. أما الطبعة الثانية فكانت سنة ١٣٨٧هـ (١٩٦٨م) في (المطبعة الحيدرية في النجف). وقد وضع لها مقدمة العلامة الجليل السيد محمد مهدي ابن السيد حسن الخرسان، وهذه الطبعة خير من الأولى، فهي تحوي مقدمة ضافية عن المؤلف، وعن التعريف بكتابه يحسن بالقارئ الاطلاع عليها.

مؤلف الكتاب

علوي الأصل، فهو السيد عباس بن السيد علي الحسيني الموسوي(٢) نشأ في أسرة علمية عرف منها عدد من العلماء، ومنهم والده الذي عنه تلقى العلم، وعن غيره كالسيد نصرالله بن حسين الحسيني الحائري، الذي قال عنه ماملخصه: (كنت مغرما بفن القريض، ولكنني لم أظفر بمن يُثَقِّفُ قناتي، حتى ظفرت بجهينة الأخبار، مولانا أبي الفتح السيد نصر الله، وكان اجتماعي به بمكة المشرفة عام ١١٣٠هـ، ثم

إنه دخل علينا شهر الحج فاشتغلنا إلى أن أدَّينا مناسك الفرض، وكان أستاذي قد تأهَّبَ للسفر مع حج العراق، قَصْدَ التوجه إلى بلده، وكان قاطنا بأرض كربلاء فأشار عليَّ بالسفر، فسمعت منه ماقال، واكتريت جملاً من الجمال..)، ثم استمر في سرد ماحوته رحلته.

ولد سنة ١١١١هـ وتوفي سنة ١١٨٠هـ. وصفه الأستاذ الزركلي - رحمه الله - بقوله(٣): أديب رحَّالة غزير العلم بالأخبار واللطائف، ولد وعاش بمكة، وعرضَتْ له أمور آذاه فيها أقاربه وأصحابه، فرحل سائحا في العراق والهند واليمن من سنة ١١٣١هـ إلى سنة ١١٤٢هـ، وكان يعود فيحج في أكثر السنين، وانتهى مطافه بالتردد بين بندر المخا ومكة، ثم استقر في المخا سنة ١١٤٥هـ، ورتَّب له واليها الفقيه أحمد بن يحيى(٤) مايعيش به فانصرف إلى جمع ماتفرق من أوراقه، فألف منها كتابه «نزهة الجليس» سنة ١١٤٨هـ وأهداه إلى هذا الوالي. اهـ.

والواقع أن « نزهة الجليس» تُعَدُّ من أمتع الرحلات، وأغزرها فائدة؛ لما تحويه من تنوع المعارف في التاريخ والأدب والتراجم واللغة، وفيها مقتطفات تفيد الباحثين المعنيين بتاريخ هذه البلاد، ووصف بعض مامرَّ به وشاهده أثناء رحلته في تهامة، وفي اليمن وفي نجد، وفي العراق، أما في بلاد العجم فقد أطال النَّفَس وتوسَّعَ في الكلام في وصف المدن والأمكنة التي زارها.

وقد حاولت في هذه الكلمة أن أقدم للقارئ نماذج مما مرَّ بي(٥) مما قد يكون فيه فائدة وإمتاع لقراء هذه المجلة، وقد أقف عند بعضها وقفات أوضح جانبا مما يبدو لي حيالها، مستدركًا أو مُفَصِّلاً:

وصف وادي المضيق

قال الموسوي: فلما كان عصر ثامن عشر ذي الحجة عام ١١٣١هـ خرجنا إلى الأبطح، وأقمنا به أربعة أيام، ننتظر وصول من بقي في مكة من أهل العراق والأعجام، فلما أسفر صبح ثاني وعشرين من ذي الحجة الحرام، عام ألف ومئة وإحدى وثلاثين من هجرة خير الأنام، رحلنا من (الأبطح) بعون المعين في الشدة والضيق، وسرنا إلى (وادي المَضيق) فأنخنا به العيس، في ساعة التعريس(٦):

سقَاكَ الله ياوادي المَضِيْقِ
حَيَاءً في الْمَسَاءِ وفي الشُّرُوقِ
فَإِنَّك جَالبُ الأفراحِ حَقًّا
ومُؤنس كُلِّ ذي كَرْبٍ وضِيقِ
زهورُكَ قَدْ سَكِرْنَا مِنْ شَذَاها
فَوا شَوْقِي لِوَرْدِك والشَّقِيْقِ!!

وَادٍ حَفَّتْ به الأشجار، بأنواع الثمار، وألوان الأزهار، وغَنَّتْ عليها صنوف الأطيار، ما بين قَمْرِيٍّ وبُلبلٍ وهَزَار، وأشرقت فيه شموس الضُّحى وطلعت به الأقمار، كأنه جنَّة عَدْنٍ تجري من تحتها الأنهار، فأقمنا به يوماً وليلة، ونحن في أُنس وسرور، وغبطة وحبور(٧).

ثم استرسل في الكلام قائلا ماملخصه(٨): فلما أسفر وجه الصباح، ونودي بحيَّ على الفلاح، عزمنا على الرحيل وسرنا إلى الزوال، وإذا بعرب (عُتيبة) تَرْصُدنا على رؤوس الجبال، وقد قصدوا معنا الحرب، وكان أمير الحاجِّ يومئذ الشجاع المقدام، حاكم مدينة الحلَّة (يوسف باشا)، فحين شاهد الأعراب قد رمتنا بالرصاص، أمر الحجاج إذ ذاك بالوقوف، وجَيَّش الجيوش وصف الصُّفوف. ثم إن الباشا أشار على من معه من الرجال بصعود تلك الجبال، وفتح باب القتال، فوقع إذ ذاك الكرُّ والفرُّ، والقتل والأسر، من الظهر إلى العصر، وحصر الباشا الأعراب أشد حصر. ثم إن سلطان بك نجل الباشا المذكور أشار على أبيه أن يرمي الأعراب برصاص المدافع، فصعدت الأفيال، بالمدافع إلى رؤوس الجبال، ومعهم بقية العسكر، فأبعدوا (عتيبة) وفرقوهم في تلك البراري والقفار. وكان لنا يوم يا لَه من يوم!!، لم نر فيه غير نَقْعٍ ثائر، وأسد إلى الكفاح غائر، وجبان خائف من برق السيوف ومن رعد المدافع والبنادق حائر، ورصاص كالْبَرَدِ على الفريقين مصبوب، وقتيل اختطفته أيدي شَعُوب، وفرس براكبه طامح، وجمل بحمله طائح، وذهب جمع الأعراب شَذَرَ مَذَرَ، وغنم العسكر شيئا كثيرا من الخيل والإبل والغنم، وليس لهم بقر، وأسروا أربعة من مشايخ (عتيبة) وخرجنا من بين ذاك المضيق، وتلك الجبال بالسلامة.

إضافة: المضيق هذا هو مايعرف قديما باسم وادي نخلة الشامية(٩)، كان في مضيقه عين للأشراف الحُرَّث، ومعهم أناس من هُذيل، وطغى اسم المضيق على الوادي، فأصبح يعرف بوادي المضيق وبوادي الليمون.

ثم وصف السير إلى المدينة قائلاً ماملخصه(١٠): فلم نزل نقطع البَرَّ الأقفر، والمَهْمَهَ الأغبر، إلى أن أتينا بعد تسعة أيام (سَدَّ عنتر) وهو جبل ما أضيقه وأوعره وأطوله! بينه وبين المدينة المنورة مرحلة، وفي أسفله غارٌ في نهاية السعة والكبر، يزعم عرب تلك الجهات أنه (اصطبل عنتر) وحوله غدير ماء كبير، يصدر منه الجمع الكثير، فأقمنا به يوما وليلة، ثم سرنا

«نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس»

قاصدين زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم.

إضافة: كثيرا ما تنسب بعض المواضع إلى مشاهير من القدماء، ونسبة هذا الموضع إلى عنتر ليس لها أصل، كما في نسبة (اصطبل عنتر)(١١) الواقع بين بلدتي الوجه وظبا، ومثل هذا أمكنة تنسب إلى أبي زيد الهلالي(١٢) لاحقيقة لها.

ثم قال: فأنخنا الركاب في (الحَرَّة)، وطاب وقتنا بالفرح والمسرة، ثم دخلنا المدينة.

ذكر المدينة المنورة

فائدة: قال ابن إياس في «نشق الأزهار»: مدينة يثرب سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم مدينة طيبة، وبها دُفن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي مدينة حسنة في مستوٍ من الأرض، وعليها سور مانع وقلعة منيعة، وأرضها سَبَخة، وقد طابت منذ نزل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وسكن فيها، وفيها يقول القائل:

طيبةٌ أطيب البلاد وأبهى
لفؤادي مِنْ كلِّ شيءٍ وأشْهَى
رَوْضَةٌ مِنْ رياض جنة عَدْنٍ
لَيس تحت الزرقاء أحسن منها

وأهلُها أحسن الناس خَلْقًا وخُلُقًا، وبها التمر الشَّلبي، الذي لايوجد في غيرها من البلاد في الحلاوة والطعم، وبها حَبُّ البانِ الذي تُعْمل منه الغالية، وهي ذات نخل كثير، وزروع وأشجار، وفواكه وثمار، وعيون وآبار وبساتين مبسوطة بألوان الأزهار، وإليها يُنسب الإمام أبو عبدالله مالك بن أنس المدني الأصبحي صاحب «الموطأ في الحديث». ثم استرسل في الكلام على طيبة الطيبة، حتى ذكر البقيع بقوله: وبإزاء المسجد من خارج السور البقيع، وبه قبر العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم، والحسن بن علي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق عليهم السلام - وسأذكر تراجمهم جميعا مبسوطة في تاريخي «أزهار الناظرين» أسأل الله أن يوفقني لإتمامه - والجميع في ضريح واحد، ثم قبر عائشة وقبور أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم من القبور الأخرى. ثم انتقل إلى وصف مافي المدينة من آبار حتى ذكر العين الزرقاء قائلا: وماؤها عذب لطيف، ولله دَرُّ مَن قال:

مَدينةُ خَيْرِ الْخَلْقِ تَحْلُو لنَاظري
فلا تَعْذُلوني أنْ أُموتَ بها عِشْقَا
يَقُولُون: في زُرْقِ العُيُون شآمَةٌ
وعندي أنَّ اليُمْنَ فِي عَيْنِهَا الزَّرْقَا(١٣)

ونَقَلَ عن السيد محمد كبريت في رحلته(١٤): أن العين الزرقاء منسوبة إلى الأزرق بن مروان، لأنه أجراها، وهو وال على المدينة المنورة، وأصلها في غربي مسجد قُبَا، وتجري إلى المُصَلَّى، وعليها قبة يخرج الماء منها على وجهين شَرْقِيٌّ وشماليّ. واستمر في الكلام على طيبة الطيبة بإيجاز، وذكر أنه أقام فيها أربعة أيام، وأورد مقامة الشيخ علي بن يوسف الزَّرَنْدي المدني الأنصاري(٥) الناظر في أمر الحسبة والحكم بالمدينةالمنورة، قالها عام ثمان وأربعين وسبع مئة، وسماها «المرور بين العَلَمَيْنِ إلى المفاخرة بين الحرمين»، وهي مقامة مشهورة. ثم خلص من ذكرها إلى قوله: الكلام مشتق من الكَلْم - بفتح الكاف وسكون اللام - أي الجرح لتأثير معناه في النفوس السليمة كالجراح، واسترسل في ذلك متنقلاً مابين بحث لغوي إلى نكتة تاريخية، مما ينقله من مختلف مؤلفات قديمها وحديثها، ثم ساق ترجمة مطولة لعمه السيد جمال الدين نورالدين بن أبي الحسن الموسوي من أهل مكة، ولكنه تغرب في الهند، وأقام في الدكن، وأورد نماذج من شعره ونثره، وخرج إلى موضوعات أخرى لاصلة لها بالحديث عن المدينة.

الحواشي:

١- وقد عُنيت مجلة «العرب» بتلخيص عدد كبير من رحلات الحج ونشرها، ومنها مالم يُنشر.

٢- العاملي نسبة إلى جبل (عامل) المعروف في (لبنان). ويبدو أن أسرة عباس هذا استقرت فيه.

٣- «الأعلام».

٤- «الأعلام». أما أحمد بن يحيى الخازندار فهو: والٍ يمني من أصل تركي، مولده ووفاته بصنعاء، ولي بندر المخا ثم مدينة صنعاء وأعيد إلى المخا، وفي أيامه احتل الفرنسيون المخا وفتكوا بأهلها، ولكن قائدهم قتله جندي يماني زعموا أنه مجنون، فانتهى أمر الفرنسيين بالخذلان، وتوفي الخازندار سنة ١١٥٧هـ. أما المخا فهي ميناء على ساحل البحر الأحمر، غرب تَعِز بنحو أربعة وتسعين كيلا، لاتزال مأهولة، وهي من مدن اليمن القديمة، ولها تاريخ حافل، ومنها كان يصدر البن اليمني إلى بلاد أوربة حتى عُرف النوع الجيد منه عندهم باسم (مكا MOKA). وينطق اسم المخا في اليمن بفتح الميم وكذا ضبطه صاحب «القاموس».

٥- مما له ارتباط بتاريخ بلادنا أو جغرافيتها.

٦- التعريس: هو النزول ليلا للاستراحة.

٧- «نزهة الجليس»، ص٥٦.

٨- المصدر السابق.

٩- نخلة الشامية تلتقي بنخلة اليمانية التي في أعلاها بلدة (السيل) محل الإحرام، فإذا اجتمع الواديان كوّنا وادي مَرِّ الظهران، المعروف الآن باسم وادي فاطمة.

١٠- «نزهة الجليس»، ص٥٨.

١١- انظر تحديد موقع اسطبل عنتر في قسم (شمال المملكة) من «المعجم الجغرافي».

١٢- مما يضاف إليه قبر عند فردة التي في أعلى منطقة الجبلين، وهو قبر زيد الخيل الطائي الصحابي الجليل، فغلط فيه الأعراب فنسبوه إلى أبي زيد الهلالي لاشتهار كل منهما بالشجاعة وعلو الصيت.

١٣- أورد النابلسي في رحلته هذين البيتين.

١٤- الرحلة مطبوعة ومترجم في أولها مؤلفها.

١٥- الزرندي مترجم في كثير من المؤلفات، وقيل لي إن مقامته طبعت محققة في المدينة ولم أطلع عليها.

قصة قصيدة

القلب الجموح

د. محمود جبر الربداوي

قال أبو العتاهية:

خــانك الطَّرفُ الطَّمــوحُ ... أيهــا القلب الجمــوحُ
لدواعي الخيــر والشــرّ ... دُنُــوٌّ ونــزوحُ
هـل لمطلوبٍ بـذنـبٍ ... تـوْبـةٌ منـه نَصـوحُ
كـيف إصـلاحُ قلوبٍ ... إنما هُـنَّ قُـروحُ (١)
أحـسن الـله بـنا أ ... نَ الخطـايا لاتفـوحُ
فـإذا المسـتـور منّا ... بين ثوبيـه فُـضـوحُ
كم رأينـا مـن عـزيزٍ ... طُويت عنه الكُشـوحُ (٢)
صـاح منه برحـيلٍ ... صـائح الدهر الصَّدوحُ (٣)
مـوتُ بعض الناس في الأر ... ض على بعضٍ فُـتـوحُ
سـيـصـيـر المرءُ يومًـا ... جـسدًا مـافيـه روحُ
بين عـيـنَيْ كل حيٍّ ... عَـلَـمُ المـوت يـلـوحُ
كلّنا في غـفلةٍ والـ ... ـمـوتُ يغـدو ويروحُ
لِبَني الدنيـا من الدنْـ ... ـيـا غَـبـوقٌ وصَـبـوحُ (٤)
كـل نـطّـاح مـن الدهـ ... ـرِ لـه يـومٌ نَـطـوحُ (٥)
نُـحْ على نفـسك يا ... مـسكين إنْ كنتَ تنوحُ
لتـمـوتَنَّ ولـو عُـمِّـ ... ـرت مـا عُـمِّـرَ نوحُ

تيـاران متـبـاينان، يتـصـارعـان حينا ويتعايشان حينًا آخر، والناس ينجذبون لهذا تارة ولذاك تارة أخرى. هذان التيـاران هما تيارا الزهد والمجون، وهما موجودان في كل زمـان وفي كل مكـان، يُشكِّلان في كل مجتمع لُحمته وسَداه، ولايشعر بهما المرء إلا إذا قـام (ناطقهـما غيـر الرسمي) فـأذاع أسرار التيار الذي ينتمي إليه.

ففي مجتمع كالمجتمع العباسي كان هذان التيـاران واضـحين تمامًـا، وكـان الشعراء(وهم الناطقـون غيـر الرسـميين) ينشرون على الملأ وجهات نظر التيار الذي يمثلونه ويروّجون لأفكاره (غيـر المعلنة). هكذا كان أبو العتاهية ومعه زمرة الزاهدين، وهكذا كـان أبو نواس ومعه زمرة الماجنين، كلٌّ يبثّ أفكاره وينشر أشعاره، ويجد من يصفّق له حتى في أوساط رجال السلطة، وقصر الخلافة، وحتى في شخص الخليفة نفسه.

فهذا أبو نواس كان نديمًا لهارون الرشيد - كما تذهب إلى ذلك كثير من الروايات -، وقد بالغت تلك الروايات في تصوير علاقة المنادمة بينهـمـا، وجلسـات الأنس مع أصحاب المذهب اللاهي. وإذا أراد الباحث المحايد أن ينصف هارون الرشيد، فعليه أن يجمع هـذا الجم الغفير من أخباره المتفرقة في كـتب التـاريخ والأدب، وأن يَنْخُلَهـا ليصطفي صحيحها ويستبعد موضوعها ومغرضها، ولينبذ الغث ويحلل السمين(*)، وقصارى مايوصف به أنه رجل فيـه كل صفـات الرجل العاقل الذي أوتي السلطة

وماتجرّ السلطة من جاه ومال، وهو رجل فيه نوازع الخير ونوازع الشر، تنطلق هذه تارة وتنطلق تلك تارة أخرى، وهذا مصداق ما رُوي عنه أنه كان «أغزر الناس دموعًا في وقت الموعظة، وأشدهم عسفًا في وقت الغضب والغلظة»(٦)، ينادم أبا نواس وزمرة الماجنين تارة، ويغزو سنة ويحج سنة تارة أخرى. يعج بلاطه بالغانيات، ولكن عصره أهدى أول ساعة مخترعة لشارلمان.

أقول: هذا الرشيد الذي كانت هذه بعض صفاته، كانت له جلسات علم وثقافة ومجالس زهد وورع، مع شعراء من نمطٍ آخر غير نمط أبي نواس، شعراء الزهد والوعظ، شعراء أصحاب المذهب الجاد، تراه يستمع إلى قصيدة منصور النمري العينية التي يقول فيها:

ما تنقضي حَسْرَةٌ مني ولا جَزَعُ
إذا ذكرتُ شبابًا ليس يُرتَجَعُ
أبكي شبابًا سُلِبْنَاهُ، وكان ولا
توفي بقيمته الدنيا ولاتَسَعُ

«فيبكي الرشيد حتى تخضل لحيته»(٧). والملاحَظ أن الرشيد كان إذا ثَقُل عليه عتاب الضمير نتيجةً لممارسات السطوة والبطش اللذين تتطلبهما مستلزمات الحكم، كان يستدعي أبا العتاهية ويطلب منه أن يعظه ليحقق شيئا من التوازن النفسي في سلوكه. قال ابن أبي العتاهية: «قال الرشيد لأبي: عظني، فقال له: أخافك، فقال له: أنت آمن، فأنشده:

لا تأمنِ الموت في طَرْفٍ ولا نَفَسٍ
إذا تَستَّرتَ بالأبواب والحَرَسِ
واعلم بأن سهام الموت قاصدةٌ
لكل مدَّرِعٍ منا ومُتَّرسِ
ترجو النجاةَ ولم تسلك مسالكها
إن السفينة لاتجري على اليَبَسِ

قال: فبكى الرشيد حتى بلّ كمه»(٨).

والذي تجمع عليه كتب تاريخ الأدب أن أبا العتاهية مرَّ ـ ككلّ الشباب ـ بمرحلة مراهقة وشباب صاخبة، وانتهت هذه المرحلة بصدمة أعادته للطريق السوي، فزهد في الحياة ومتاعها، بل أهلته قدراته الفنية، وربما الفكرية والسلوكية، أن يكون إمام الزاهدين، فصدع بمذهب الزهد ومارسه سلوكًا وشعرًا فتبوأ فيه كرسي الأستاذية، واتجه شعره بعد هذا المنعطف اتجاهًا زهديًا خالصًا، حتى إن الرشيد عندما طلب منه أن يعود إلى ماكان قد عرف عنه من حياةٍ لاهية وتفرُّغ لشعر الغزل ـ كما تزعم بعض الروايات ـ أبى عليه كل الإباء، وآلى على نفسه ألا ينطق إلا بالقرآن الكريم أو بـ (لا إله إلا الله) فحبسه الرشيد، فمكث أبو العتاهية في غيابة السجن، في حين كان الرشيد يتنزّه في زورق «وكان مما يعجبه غناء الملاحين في الزوارق إذا ركبها، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم، فقال: قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعرا يغنون فيه، فقيل له: ليس أقدر على هذا من أبي العتاهية، وهو في الحبس، قال: فوجه إليه الرشيد، وطلب منه شعرًا حتى يسمعه الرشيد منهم، ولم يأمر بإطلاقه من السجن، فغاظه ذلك، فقال أبو العتاهية: والله لأقولنَّ شعرًا يُحزنه ولايُسرّ به، فعمل شعرًا ودفعه إلى من حفّظه الملاحين، فلما ركب الرشيد الزورق سمعه، وهو هذه القصيدة:

خانك الطرف الطموحُ
أيها القلب الجموحُ..

إلخ القصيدة المذكورة

فلما سمع الرشيد جعل يبكي وينتحب، فلما رأى الفضل بن الربيع كثرة بكائه أومأ إلى الملاحين أن يسكتوا»(٩).

وهكذا هي قلوب البشر ـ حتى ولو كانوا خلفاء ـ ترق أحيانًا فتذيبها الكلمة الطيبة، وتقسو أحيانًا أخرى، فتغدو بقساوة الصخر.

الحواشي:

(١) القروح: فاسدة لكثرة الجروح.
(٢) طوى الكشح على الأمر: أضمره وستره، والكشح: مابين الخاصرة إلى الضلع.
(٣) الصَّدوح: الصيَّاح.
(٤) الغبوق: مايُشرب بالعشي، والصَّبوح: مايشرب في الصباح.
(٥) نطوح: أشد منه عتواً.
(*) هناك محاولات محمودة في هذا الشأن، منها ماقام به الشيخان محمد الزين وأحمد القطان في كتابهما: «هارون الرشيد.. الخليفة المظلوم»، وماقام به الباحث وليد الأعظمي في كتابه: «السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني»، من خلال نقدهم لمرويات كتاب الأغاني لأبي الفرج، وذكره بعض الأخبار المكذوبة على الرشيد (المجلة).
(٦) الأغاني ٤/١٠٤.
(٧) خاص الخاص للثعالبي ١١٢.
(٨) الأغاني ٤/١٠٦.
(٩) الأغاني ٤/١٠٤.

أجيال الرواية العربية
إراءة مشهدية

د. نعيم اليافي

قليلة هي الأبحاث التي تحدثت عن أجيال الرواية العربية وغير العربية، أو هي نادرة، لذلك فإن مقاربتنا الموضوع ستعتمد أول ماتعتمد على قراءة النصوص السردية، ثم نستخلص منها النواظم المشتركة لإراءة ظاهرة التجييل، وقد أتيح لي طوال عشر سنوات أو تزيد أن أدرِّس هذا الجنس السردي في الجامعة، من بداية تلامحه في الأدب النثري الحديث، منتصف القرن التاسع عشر حتى الوقت الراهن، مما يسمح أن أتناوله بصورة علمية أطمئن إليها وأستريح.

إن مشكلة التجييل جزء لايتجزأ من مشكلة التصنيف، شأنها في هذا شأن تقسيم الرواية إلى مراحل زمنية أو فنية أو موضوعاتية. فكلا العملين - التجييل والتقسيم - أمر أكاديمي له من المخاطر والمساوي قدر ماله من الحسنات وجماليات الأداء، ويأتي في مقدمة المخاطر والمساوي، ذلك الشعور الذي يخلفه التصنيف في الروع من وجود بدايات حاسمة، ونهايات حاسمة، ووجود أدراج عليها بطاقات، كل روائي مسجون في درج، ومسيّج بتصنيفه، وموسوم بسمته ولافكاك، ثم وجود تدرج تعاقبي غير متزامن تخضع له الأجناس الأدبية ومبدعوها من دون أن يمكنهم هذا التعاقب من الانتقال أو العبور من فترة إلى أخرى، وأن ماأتى لاحقا هو بالضرورة أفضل من سابقه بحكم مفهوم التقدم.

تأكيد المفاهيم وإبرازها

وعندي أن كل هذه المخاطر/الأحاسيس أوهام يمكن فهمها واستيعابها وتجاوزها إذا أدركنا مليا مفهومين من مفهومات الدراسة، سَعَينا من قبل، في مختلف دراساتنا، ونسعى الآن لتأكيدهما وإبرازهما: أولهما: مفهوم التطور، وثانيهما: مفهوم الجاذبية النوعية لنص الفترة السائد.

بالنسبة إلى مفهوم التطور أرى أن كل دراسة لاتهتم أو لاتعنى به على مستوييه الرأسي والأفقي دراسة قاصرة لأنه سنة الحياة والكون والظواهر، وهو في العلم يختلف عنه في الأدب، فإذا كان الجيل المعاصر أو الحديث أو الأحدث في مجال التقنيات ووسائل الاتصال والمعلوماتية أكثر براعة ورهافة وتقدما وعلمية، فليس كذلك في مجال الآداب والمعارف الإنسانية، فكل جيل أدبي أثَّر في عصره ولبّى نداء هذا العصر، ويجب أن يقوَّم أو يُفهم من خلال وظيفته التي أداها في عصره، وليس في عصر آخر يقاس إليه.

أما مفهوم الجاذبية النوعية لفن الفترة السائد - وهو مفهوم أزعم أني أول من أدخله إلى ميدان الدراسات الأدبية عام ١٩٦٤م في أطروحتي لدرجة الماجستير «التطور الفني لشكل القصة القصيرة»، ثم أكدته وأبرزته ونوَّهت به في كتابي «الشعر بين الفنون الجميلة» عام ١٩٦٧م، وفي أطروحتي لدرجة الدكتوراه «تطور الصورة الفنية» عام ١٩٦٨م - أقول: أما هذا المفهوم فأقصد به أن كل فترة لها زمنها الفني وتجربتها ورؤيتها وتقنياتها بحكم جهازها المعرفي والأدبي السائد، ومن ثمّ فلها نظمها ومعاييرها وتخوم أفقها، لها ذروتها وامتدادها، وعندما تليها فترة أخرى مغايرة فإنها ستوجد، وفق قانون التطور النوعي ولا أقول الكمي، جهازها المسيطر الذي يتحكم مرة أخرى ويهيمن على سيرورة الأجناس الأدبية، ويفرض عليها قيمه في الذروة والامتداد، ومن الصعب أن ننسب جيلاً ما إلى فترتين، فهو لايتألق ولايستجيب إلا إلى فترته الفنية حتى لو تطور، كأنما ينجذب إليها، ويبدع فيها، ونجيب محفوظ مثال صارخ: لقد أبدع الرواية الواقعية، وحُسِب عليها، وَعَدّهُ النقاد الماركسيون لاشيء خارجها، ويوم حاول أن يحدّث أدواته السردية بدءًا من «أمام العرش» هبط على السفح الآخر من الفن.

ماذا نرتب على هذين المفهومين في مجال دراستنا «أجيال الرواية العربية»؟ نريد أن نرتب عليهما أمرين: أولهما أن الجيل الذي نقصده هو الجيل الفني وليس الزمني ولا العقدي ولا الموضوعاتي برغم أن الدارسين حين يستعملون كلمة جيل فإنما يشيرون غالبا إلى الزمن. وثانيهما أن إراءة الأجيال عبر قانون التطور تعني نوعا من التتابع الضمني المتصل الذي يؤثر فيه السابق في اللاحق، وليس هذا ضربة لازب، فقد يكون التطور نكوصا، وقد يكون تأثير اللاحق في السابق أكثر من تأثير هذا فيه، وأخيرا ربما كان التواصل مقطوعا بين الأجيال، ولا أدل على ذلك من الشعار الذي رفعه أنصار الحداثة «نحن جيل بلا آباء». ومن الواقع العياني الذي سندرسه أن الجيل الرائد في ميدان الرواية لم يؤثر قط في الجيل المؤسس، بل انبتَّ هذا عنه، وبدأ حقا من الصفر الفني.

بين منتصف القرن التاسع عشر وحتى تسعينيات هذا القرن يمكن للدارس أن يميز ستة أجيال فنية من أجيال الرواية العربية تختلف اختلافا بينا في ثلاثة مظاهر أو تجليات: الأول: الامتداد الزماني؛ فجيل ماقبل الحرب العظمى الأولى امتد طويلا، والجيل الرابع الذي وسمناه بالعقدي أو المتلامح امتد قصيرًا. الثاني: التأثير والعطاء؛ فجيل السبعينيات والثمانينيات عندي هو الذي أخصب الرواية العربية، ونوّع فيها، وأعطاها رحابة وضياءً

أكثر من أي جيل آخر باستثناء نجيب محفوظ كفرد.

الثالث: التنظير والتطبيق؛ فقد اكتفت بعض الأجيال بالإبداع في حين شُغلت أخرى - إلى جانب هذا - بالحديث عن الجنس الروائي، وحاولت أن تنظِّر له، وتبحث فيه وفق ثُنائيّات: النص والخطاب، الأصالة والمعاصرة، المحلية والعالمية، ولابدَّ أن نأخذ ذلك بعين الاعتبار. وستؤثر التجليات الثلاثة، على اختلافها، في حديثنا عن الأجيال لتجعله مرة سريعًا لاهثا، ومرة بطيئا متمهلا، حسب كل جيل ومنزلته ومبلغ ماقدمه إلى الجنس الروائي من خدمات.

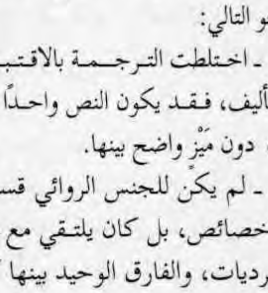
الجيل الرائد

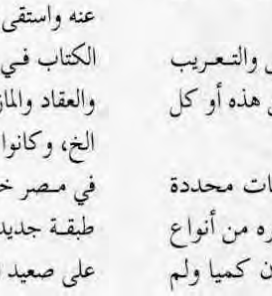
امتدت مرحلة هذا الجيل زمانيا قرابة ثلاثة أرباع القرن، من ثلاثينيات القرن الماضي حتى أوائل الحرب العالمية الأولى في هذا القرن، وجعلنا ماكتب طوال تلك الفترة من روايات يمثل فنيا جيلا واحدًا، لأن الاختلاف بين كُتّابه لم يكن كبيرا، ولأن ماطرأ عليه من تطور بين رواية الطهطاوي ورواية زيدان كان بفعل الزمن أكثر منه بفعل الفن وجماليات الأداء.

في هذه المرحلة كُتبت روايات الترجمة والتسلية والترفيه والرواية التعليمية والتاريخية، وكابد أصحابها أول ماكابدوا صعوبة نقل مكونات جنس روائي من أدب إلى أدب، وككل بداية لجنس دخيل ولكتّاب يعانون إدخاله إلى ثقافة مغايرة تلامحت جملة من السمات الفنية وَسَمَتْ نتاج هذا الجيل الرائد على النحو التالي:

- اختلطت الترجمة بالاقتباس والتعريب بالتأليف، فقد يكون النص واحدًا من هذه أو كل هذه دون مَيْز واضح بينها.

- لم يكن للجنس الروائي قسمات محددة ولاخصائص، بل كان يلتقي مع غيره من أنواع السرديات، والفارق الوحيد بينها كان كميا ولم يكن نوعيا.


رفاعة رافع الطهطاوي


نجيب محفوظ

- كانت شخصية الكاتب ماثلة في سطور الرواية، بينها وخلفها؛ إمّا من طريق التدخل وإطلالات الرأس، أو من طريق التعقيب وإبداء الرأي، أو من طريق سوق المُلَح والحِكَم والأمثال، وكانت في كل ذلك تلقي بثقلها على النص، وتقطع سير الأحداث وتسلسلها، وتعيق الحركة وعملية التشخيص معا.

- افتقدت الرواية، على اختلافها، عنصر التشخيص؛ أي رسم الشخصيات وهي تتحرك ضمن شبكة من العلاقات، في الزمان وفي المكان، وكان هذان طليقين لايُنسجان في إدراك واعٍ لهما أو لدورهما.

- عكست اللغة مبلغ المعاناة التي كابدها الروائيون في نقل الجنس، فلم تكن تملك خصوصيتها، بل لم تكن أكثر من تعبيرات عادية جاهزة للاستعمال في كل شكل أدبي.

- لبَّت الرواية رغبات الجمهور الذي كانت تكتب له ضمن محوَري المتعة والفائدة، وموضوعي الحب والمجتمع أو الحب والتاريخ.

الجيل المؤسس

شغل هذا الجيل فترة مابين الحربين بدءًا من رواية زينب، وحتى نهاية الثلاثينيات بداية التوجه نحو الواقعية، ولم يتأثر قط بالجيل السابق؛ بل انقطع عنه واستقى فنه مباشرة من الغرب، ومثَّله جملة من الكتاب في مقدمتهم هيكل والحكيم وطه حسين والعقاد والمازني وشكيب الجابري ومحمود السيد.. الخ، وكانوا جميعا يعبرون عن تحول اجتماعي طرأ في مصر خاصة بعد ثورة عام ١٩١٩م، وظهور طبقة جديدة صاغت مُثُلها في رومانسية ظهرت على صعيد الفرد والمجموع، كما ظهرت على صعيد الفن والأدب، والعلاقة وشيجة تُرَى في غير مجلى بين ماحدث في الرواية وماحدث في المجتمع، ولعلنا نستطيع أن نكشف خصائص هذا الجيل الفنية كما يلي:

- لم يكن أي فرد من أفراد الجيل متخصصا في جنس الرواية أو مشغولاً بها، بل كتبها كما كتب سواها من أشكال التعبير السردية وغير السردية، وهذا الأمر مهم لأن التخصص شرط أول من شروط الإبداع في الجنس المختار.

- غلبت السيرة على روايات الجيل، وعندي أنها أقرب إلى الترجمة الذاتية منها إلى الرواية الفنية، ولنا أن ندرسها هنا كما ندرسها هناك، والمهم في الحالين أن كاتب السيرة الذاتية/الرواية يدور حول نفسه ويجعلها محور النص في شؤونها وشجونها. إن ثمة تمازجًا فائقًا بين الأنا الأدبية والأنا الإنسانية، ويستطيع الدارس الحصيف إذا رغب أن يكشف أبعاد الثانية بالوقوف عند أوصاف الأولى.

- لعل هذا الاهتمام بالحياة الخاصة للكاتب وجَعْلَها بؤرَة الأحداث ومصدَرَها يعكس التوجه الرومانسي على مستوى المجتمع، واتكائه على دور الفرد. وضمن هذا الاتكاء لم يقدر للرواية أن تحوك خيوط العلاقة بينهما وتدرك عمق تواشجها، ومن ثمّ ظلت تعوم في مطلق الفرد ودائرته، ولم تدخل بعد في نسبية الجماعة أو في طبيعة تشابكاتها المعقدة وتحولاتها.

- انعكست عقابيل هذا الاهتمام على كل عناصر الرواية: الضمائر، الفعل، الزمان، المكان، اللغة، الأسلوب. فكانت، رغم التمايز بين بعض مؤلفيها من مثل التمايز بين لغة العقاد في سارة ولغة طه حسين في الأيام، رغم هذا التمايز فإنها جميعا أخلصت لمنطلقاتها الرومانسية الأساس في ثنائياتها الثلاث المتقابلة: الفرد في مقابلة المجموع، والإحساس في مقابل الرؤية الكلية، والحدث في مقابل مختلف العناصر المكوّنة للنص. وامتد هذا الجيل الرومانسي خارج الزمنية، وبرز بعد ذلك لدى ثلاثة كتاب كان لهم دورهم، وكلٌ من زاويته، في تطور السردية الرومانسية، وهم: محمد عبدالحليم عبدالله في الرومانسية الريفية المثالية، ويوسف السباعي وإحسان عبد القدوس في الرومانسية المدينية المادية، والكاتبان الأخيران يمكن أن يُدْرَسا من زوايا «شباك التذاكر» والانتشار التجاري، والقبول الجماهيري ودلالاته، ورغبات الجيل المراهق وميله إلى التوابل الحارة، أكثر من أن يُدرَسا من خلال البنية الفنية - موضوع الدراسة.

الجيل المكون

يشمل هذا الجيل الروائيين الذين بزغ نتاجهم في عقد الأربعينيات ومعظم سنوات الخمسينيات، ويرتبط بتطورين مهمين أصابا الواقع العربي، أولهما: تبلور الطبقة البورجوازية بشرائحها المختلفة:

الرأسمالية والتجارية والمتوسطة والصغيرة، وماحملت من توجهـات وتطلعات، وصدرت عنه من قيم ومبادئ حاولت أن تفرضها على المجتمع، أو تسوسه بها. وثانيهما: توجه المجتمع بكل ثقله نحو الواقع بعد أن سيطرت الرؤى الرومانسية الضبابية والغائمة عليه لفترة لم يفد منها شيئا. وقد ارتبطت الرواية العربية بهذين التطورين، وتحولت تحت تأثيرهما إلى أن تكون ملحمة الطبقة البورجوازية على مستوى أول، والشكل الأدبي الأمثل المعبر عن الواقعية في ضروبها الأربعة: التاريخية والتسجيلية والنقدية والنفسية على مستوى آخر. ويمثل هذا الجيل علم فرد صنع للرواية العربية أفقها المنظور على مدى عقود عدة هو الروائي نجيب محفوظ، حتى اصطلح النقاد والدارسون على تسميته بجيل نجيب محفوظ. فما ملامح هذا الجيل الفنية، وماخصائصه التي ثبّت بها قدما راسخة في ميدان القص لاتزول ولاتمحى؟ إنها الملامح الآتية:

- أولى الملامح أنه جيل متخصص في جنس السرديات، لم يكتب سواها من فنون القول، وفر لها جهده، ووقف عليها حياته، وهذا في حد ذاته ملمح مهم، لأن تكوين أي جنس أدبي والإبداع فيه، وإنشاء تقاليد راسخة له مرهون بهذا التخصص، والإخلاص في التخصص.

- الملمح الثاني أنه جيل قرأ الجيل السابق له، الجيل المؤسس، وتأثر به ولكنه تجاوزه وانعطف بالجنس الروائي نحو مسار آخر وفضاء آخر، ولاندّعي أنه لم يتأثر بالتقنيات الغربية؛ بل هضمها وأغرق فيها نفسه، بيد أنه أخلص لواقعه ولما يفرزه هذا الواقع من رؤى أولا، ومن طرائق للمعالجة ثانيا.

- ويبدو أنه، إذْ تخصص وتأثر ووقف حياته على الجنس السردي، تمكّن منه، دربة وخبرة وتقنية حتى ملكه من جميع أطرافه ومكوناته في الزمان والمكان، والشخصية والرؤية واللغة والمعالجة، حتى إننا نستطيع أن نزعم أنه أنشأ له عالما مستقلاً يعرف به وحده فيقال هذا عالم نجيب محفوظ، أو هذا فن جيله.

- نوّع الجيل في رؤاه وتقنياته وأثرى الفن والواقع إذ ارتبط بهما، وصدر عنهما. عالم نجيب محفوظ أفق قصيّ يضج بالغنى والتنوع، ووفرة الاحتمالات المتضادة والثنائية. تقرأ فيه كل الاتجاهات والمناحي، وترى على شاشته الحياة من شتى زواياها، من هنا أعجب به الجميع وسلّم له الجميع.

- طور الجيل رؤاه وأساليبه وطرائق معالجته تطويرًا كبيرا تحت تأثير حركة الواقع وحركة الفن معا، لم يحصر نفسه في مذهب، ولم يضيق على نفسه الخناق في اتجاه، وقدم من خلال نماذجه إلى النثر السردي العربي تاريخ التطور الروائي في عقود عدة وعشرات النصوص.

- صنع هذا الجيل للرواية العربية تقاليد أدبية يمكن بكل اطمئنان أن يتحدث عنها الدارسون كسنن ومعالم وتراث. قبله كان الجنس الروائي لمحة في أفق، فجاء جيل نجيب محفوظ يصنع الأفق كاملاً، به يبدأ الحديث عن نظرية في النقد الروائي، ومن غيره أو بإسقاطه لايمكن أن يبدأ هذا الحديث.

- على يديه ارتقت الرواية لتصبح تعبيرا عن المحلية وطريقا إلى العالمية، ومن خلال المحلية خلّد الواقع؛ إذ صور عمقه وأبعاده، وحركته المستسرة الغائرة، وعبر العالمية خلدّ نفسه وأدبه وأمته إذ صارت الرواية العربية ترتاد آفاق الكون.

الجيل المتلامح

يمتد زمن هذا الجيل من منتصف الخمسينيات حتى نهاية الستينيات، أو بوقفة أدق حتى حرب حزيران يونيو ١٩٦٧م، ويشمل ثلاثة أنماط من الكتابة المذهبية (الإيديولوجية) الروائية: المذهبية اليسارية، والمذهبية الوجودية، والمذهبية النسائية، ويمثل مختلف هذه المذهبيات: حنا مينة والطاهر وطّار وعبدالرحمن الشرقاوي ويوسف إدريس وذو النون أيوب وغائب طعمة فرمان وفؤاد التكرلي ومطاع الصفدي وجورج سالم وفاضل السباعي وعبدالسلام العجيلي وغسان كنفاني وسهيل إدريس وليلى بعلبكي وكوليت الخوري وليلى عسيران وغادة السمان.. الخ، وقد وصفنا رواياتهم بالمذهبية الأدلجة لأنها صدرت عن منظومة فكرية اعتقادية، سواء أكانت يسارية - ماركسية على الأغلب - أو قومية على اختلاف فصائلها، وظفت المعطيات الوجودية في سبيل الدفاع عن مبادئها، أو نسوية استغلت كل فلسفات الحرية والتقدم من أجل قضية المرأة. والملامح الفنية التي تجمع أنماط الكتابة الروائية والمذهبية الثلاثة لجيل منتصف الخمسينيات والستينيات هي التالية:

- اتكأ هذا الجيل أكثر مااتكأ على البعد الاجتماعي للأدب، وسخّر في سبيل ذلك كل العناصر الفنية الأخرى للرواية ومكوناتها.

- ربط بين النص ومهمة النضال على شتى الصُعُد، وآمن بالتغيير ودعا إلى الثورة وحض عليها.

- احتفل بالمضمون على حساب الشكل، وظلت هذه الثنائية شكل/مضمون تحكمه في أغلب نماذجه وطوال الفترة.

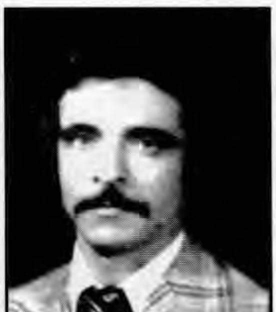
- تحت تأثير هذه الثنائية المتعارضة كانت الشخصيات تبدو سوداء أو بيضاء ترسم نماذج عليا، وتُقدَّم بريئة أو متهمة، ولم تقدم خليطا من عناصر الخير والشر نامية باطراد كما هي عليه الشخصيات الإنسانية.

- أصبح الصراع الطبقي هدفا رئيسا من أهداف الروائي، يبرزه الكاتب أو يفتعله وكأنه العنصر الأهم والوحيد من عناصر الرؤية وعناصر التكوين.

- برزت في متون الروايات دعاوى الانتماء والالتزام والانضواء إلى الأمة والمجموع، أو النزوع إلى الكيان الفردي في رؤية القضايا ومعالجتها، ولم يكن يتعارض لدى بعضهم الانتماء إلى الأمة والإخلاص للفرد.

- مرن النص الروائي في أيدي كتابه، وأصبح أكثر قدرة على التعبير عن الهدف، ومسخرا من أجل هذا الهدف، وتحت تأثير قضية الانتماء/ الالتزام انفتح النص على الواقع والتجربة، ودعمت التوجه دراسات نقدية تؤكد العلاقة المتبادلة بين الواقعين الفني والحياتي، وتؤكد أن أولهما انعكاس لثانيهما.

- على الرغم من التعددية الظاهرة على مستوى السطح، مستوى المذهبيات، فإن الواحدية هي السائدة والفاعلة في عالمي المجتمع والرواية، عالم المجتمع متمثلاً في السلطة والحكم، وعالم الرواية



إسماعيل فهد إسماعيل



عبد الرحمن الشرقاوي

أجيال الرواية العربية
إراءة مشهدية

متمثلاً في الراوي/السارد المهيمن أو البطل الفرد المسيطر والعليم بكل شيء.

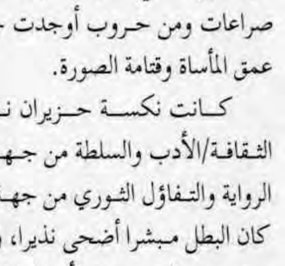
- أصبح الجنس الروائي بيد أصحابه أداة أصلح للتعبير عن التغيير. وبخلاف الشعر الذي ركدت أيامه، تقدمت السرديات القصصية لتحل محله، وتأخذ دوره، وتعبر عن تطلعات الفرد والأمة نحو غد أفضل تزول فيه الحروب، وتنتهي الصراعات، وتتسنم الطليعة سدة القيادة.

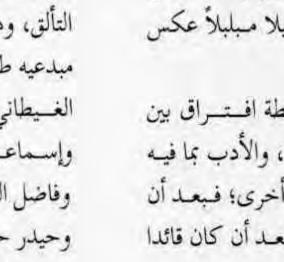
- عكست روايات هذا الجيل حركة واقعها، وكان واقعا مؤلما ومأساويا كابد شهوده على الصعيدين الداخلي والخارجي أزمة الشعارات والحروب والتمزقات، وكانوا يظنون أنه مجرد مخاض سيسفر عن أمل، ولكنه انتهى مع الأيام إلى الانكسار والسقوط والخراب.

الجيل المتألق

ترسم الحدود الزمنية لهذا الجيل حربان: أولاهما: حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧م، وثانيتهما: حرب الخليج. وبين هاتين الحربين انفجر الوطن العربي ولاسيما في مشرقه، انفجاره الثاني والكبير؛ تزعزعت أوضاعه، واهتز كل يقين فيه. وإذا كانت الحرب الثانية التي سنجعل من نهايتها أو من بداية ثورة الانتفاضة عام ١٩٨٨م فاتحة لجيل آخر جديد هو الجيل التالي، فإن الحرب الأولى وماتلاها من صراعات ومن حروب أوجدت جيلا مبلبلاً عكس عمق المأساة وقتامة الصورة.

كانت نكسة حزيران نقطة افتراق بين الثقافة/الأدب والسلطة من جهة، والأدب بما فيه الرواية والتفاؤل الثوري من جهة أخرى؛ فبعد أن كان البطل مبشرا أضحى نذيرا، وبعد أن كان قائدا يسعى نحو النصر صار مأزوما، انقلب دوره و تغيرت وظيفته، وعدَّ الجميع النكسة نكسة للعقل العربي المتجمد دون تقدم منذ مئات السنين، وعلى العرب أن يقوموا من قبر الماضي أو يقوم المستقبل على أنقاضهم، وبرز في هذه الأثناء النص الإشكالي والكتابة الإشكالية والبطل الإشكالي، ولم لا أقول: البطل المهزوم الذي يجد انتصاره في هزيمته.


د. عبد السلام العجيلي


د. شكيب الجابري

وتتالت الأحداث لتعزيز هذا الاتجاه؛ فمن اشتعال الحرب الأهلية في لبنان عام ١٩٧٥م، إلى محادثات الكامب عام ١٩٧٨م، إلى اجتياح الجنوب، وحصار بيروت عام ١٩٨٢م، وكلها بؤر ساخنة وعلامات صاحبتها أفعال وردود أفعال تركت آثارها واضحة في شتى الصُّعُد السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفكرية، ربما كان أهم عقابيلها فقدان الثقة بكل شيء: بالأنظمة التي قامت، والمؤسسات التي حكمت، والبنى التي اهترأت، والهياكل التي تآكلت، وفلسفة الأفكار التي صنعت مصير الأمة الحزين، وكان على الأدب بعامة والجنس القصصي بخاصة أن يعكسا هذه التحولات.

وجاء جيل من الرواية بدأ بكتابة نصوصه من قبل ولكن الفترة أنضجتها، ودفعت بها إلى مستوى التألق، وهو العنوان الذي آثرناه صفة للجيل، وقائمة مبدعيه طويلة سنذكر بعضها: يوسف القعيد وجمال الغيطاني وصنع الله إبراهيم وصبري موسى، وإسماعيل فهد إسماعيل وعبدالرحمن الربيعي وفاضل العزاوي وهاني الراهب وعبدالرحمن منيف وحيدر حيدر وفارس زرزور والطيب صالح وتيسير سبول وإبراهيم الكوني ومؤنس الرزاز والطاهر بنجلّون وعبدالحكيم قاسم وجبرا إبراهيم جبرا ويحيى يخلف وسحر خليفة وحليم بركات وتوفيق فياض...إلخ. لدى هذا الجيل انبثقت ملامح روائية جديدة تجاوزت حدود ماقبلها وانطلقت لتؤكد ملامحها الفنية المتمايزة رؤية وتقنية ومعالجة والتي يمكن أن نكثفها فيما يلي:

- ظهرت الرواية الكلية تماما كالقصيدة الكلية تتشظّى في كل اتجاه، وتعالج أو تصور كل القضايا، وتتعرض للسياسة، وتمعن في تَعَرُّضها للمسائل النضالية والأمور الجنسية والأطروحات المصيرية.

- من بين كل الأطروحات والقضايا يلفت النظر ثلاثة موضوعات ظهرت من قبل، إلا أن هؤلاء الروائيين أوغلوا فيها حتى الأعماق: موضوع النفط والصحراء، والقضية الفلسطينية، والمصير العربي ككل، وكثيرا ما كانت تترابط هذه الموضوعات أو تنفصل لتبرز قضايا التقدم والتخلف، الوجود والعدم، الفرد والأمة.

- تلامح نوع جديد من الرواية هو الرواية العلمية أو رواية الخيال العلمي. صحيح أن الجنس القصصي لم يكن عن العلم بمنأى، غير أن بروز هذا النمط في الفترة دليل أمرين: التوجه العالمي نحو العلم والفضاء الكوني والاحتفال بعالم المجرات اللامتناهي، والبعد عن مشكلات المجتمع أو الهرب من معالجتها والتصدي لها في ظل القمع والإرهاب.

- أصبحت الرواية كشفا وتعرية ونقدا جارحا للواقع المؤلم والمأساوي والحزين، واقع التفتت والتجزئة، وللمجتمع المادي المتعفن، مجتمع الاستغلال والاستهلاك، ولم يقصّر الروائيون في إبراز بشاعة الواقع والمجتمع وإدانتهما. حيث الحكام هم المقاولون لبيع الأرض والشعب، وحيث الاستغلال والامتهان الجسدي والمعنوي لجماهير الأمة الفقيرة هما المسيطران، وحيث الفئات الهجينة والطفيلية هي الطاغية، تغتال الشعب وتنخر في جسده وتبتزه.

- ظهر البطل الإشكالي والبطل (الفهلوي): نوعان جديدان من الأبطال، الأول: نتيجة الإحباطات والانكسارات التي كابدها في ظل الهزائم المتلاحقة حتى صار مأزوما، والآخر: نتيجة طغيان مجتمع الاستهلاك حتى صار الوصول والانتهاز بأي ثمن مطلبا وغاية. وإلى جانب هذين البطلين ظهر بطل جماعي من لون جديد في مقابل الفردي التقليدي هو البطل بالتتابع الذي يحمل راية النضال وينقلها من جيل إلى جيل.

- ضاهى الكمُّ الكيفَ في هذه الفترة وزاد، وبلغ عدد روايات الجيل أضعاف مابلغه لدى الأجيال السابقة.

- تعددت الأشكال الروائية وقوالبها، وتعددت

الأصوات ضمن الرواية الواحدة، وتجاورت على الساحة الأدبية التجارب الجديدة مع أنماط السرد التقليدية. وانسياقا وراء الحداثة تارة والمعاصرة أخرى نوعت الروايات في تجاربها الشكلية.

ـ عولجت معظم الروايات وفق جدل المتقابلات الثنائية، فجمعت مابين الحديث المنفرد (المنولوج) والحوار (الديالوج)، الشعور واللاشعور، الباطن والظاهر. حتى اللغة لم تخلُ من هذه الثنائية، فجمعت هي الأخرى مابين عامية الحوار وفصاحة السرد، وارتقت في بعض الأحايين لتكون شعرية الأداء، أو تكون مميزة خاصة بالجنس الروائي.

ـ تأثرت تقنية الروايات بتقنيات الفنون السمعية والبصرية، ولاسيما بفن السينما، ويبدو ذلك واضحا في أسلوبي القطع والوصل (المونتاج) والإلصاق (الكولاج).

ـ برزت على السطح في هذين العقدين مشكلة الأصالة والمعاصرة، وتحت تأثيرهما راح الكتّاب يفتشون في تراثهم عن قضايا السرد والحكي وأساليب القص، فجاءت نصوصهم مفعمة بالتناص التاريخي وغير التاريخي، زاعمين أنهم في ذلك يقدمون شكلا روائيا ينسب إلينا ويشتق من ماضينا.

ـ وقد رافق كل هذا التطور التقني، أو تأطّر في مسائل التنظير الروائي، مما يسمح لنا أن نقول: إن التقدم على مستوى الإبداع صَاحَبَهُ إلى حد كبير تقدم على مستوى النقد والتنظير.

هذا الغنى والثراء والتنوع الذي وصل إليه الجنس الروائي لدى كتاب الجيل هو ماجعلنا نطلق عليه بحق جيل التألق.

الجيل الجديد

لكُلِّ عصرٍ أو زمانٍ جيلُهُ الفني الجديد، وسنطلق هذا المصطلح هنا على جيل الكتّاب الذين أنتجوا كتاباتهم في عقد التسعينيات، سواء بدأ العقد بحرب الخليج أو بانتفاضة الحجارة، ونزعم أن ثمة جيلا آخر حديثا أخذ يتكون بعضه وقد ظهرت نصوصه على الساحة، وبعضه الثاني مازال يتلامح عبر الدوريات والمجلات، وإذا سلّم لنا باستخلاص سماته بعيدا من ذكر الأسماء فإنا نقول على العموم: إنه جيل مُطوِّرٌ لشيء من التقنيات التي وجدناها لدى الجيل المتألق ودَافعٌ بها إلى الذروة، ومحاولٌ إيجاد تقنيات مستحدثة يعرف بها ـ رؤية وأداء ـ وتنسب إليه، وهو يتصف في الحالين بصفة التجريب. ولعل أهم السمات الفنية التي تميزه هي سمات التمادي التالية:

ـ التمادي في الاعتماد على وسائل الفنون السمعية والبصرية وإقامة علاقات مرئية لاتخطر على بال، وإذا كان هذا التمادي يلغي إلى حد كبير نظرية الأجناس الأدبية التقليدية التي تُسيّج الأنواع بجدران، فإنه لايقدم بديلا عنها سوى واقع التجربة.

ـ التمادي في التفتيت والتشظي: تفتيت الحدث والشخصية، وتشظّي الزمان والمكان، وتترجح عقابيل هذا التمادي بين الوصول إلى انطباع موحد نهائي وبين عدم الوصول، وأرى أن أيّ نص لابد أن يترك في النهاية إحساسا بالنظام أو بشيءٍ منه، ووحدة الانطباع جزء من النظام شئنا أم أبينا.

ـ التمادي في الابتعاد من واقعية الواقع والانجراف وراء لامعقولية الحياة، وأظن أنه مهما بالغنا في هدم معقولية الأشياء فعلينا أن نحل محلها نوعا من التوازن يوصف بالمعقولية، وإلا فقد كل من الكون والإنسان والأدب مسوغ وجوده. إن مهمة الأدب بعد الهدم التجاوز إلى البناء وإعادة إنتاج الحياة.

ـ التمادي في التخاطب الداخلي ـ رؤية وإدراكا ـ، ويبرز هذا التخاطب ـ وهو حاصل جمع الرومانسية الجديدة مع الوجودية ـ في عدة مظاهر: في الضمير والمناجاة، والحديث الداخلي، والعلاقات مع الأشياء والشخصيات. وفي رأيي أن الانكفاء على جوّانية المرء وعالمه الداخلي والنظر إلى الآخر والمحيط البشري من خلاله، سيجعل الفن مجرد هذيان فردي محموم ينشغل به البطل عن الخارج ولايعود يرى من طريق أمامه سوى الانسحاب.

ـ التمادي في التكثيف والترميز و(الأَسْطَرَة)، والتمادي في تشكل اللاتشكل أو البحث عن أي شكل بأي ثمن، وهذان التماديان تُشارك فيهما الكتابة الشعرية الجديدة، حتى كأن الحداثة هنا وهناك ليست مجرد تجريب؛ بل الإغراق في شكلانية التعبير بشتى الوسائل والأدوات.

والسؤال الآن: هل هذه التماديات على اختلافها جزء من إفراز الواقع الاجتماعي للبلدان العربية، أو جزء من الوافد الغربي المستورد في النصوص والمذاهب النقدية؟ يدعي أصحابها أنها جزء من الحياة، والحياة غير الواقع، وندعي أن التفتيت فيها كالتمزّق والترف والاغتراب والغثيان، شيء منه مستمد من الواقع، وشيء آخر مستمد من واقع آخر، وأرى أنّ المبدع الحق من يقود الأمة نحو النور، ويستشرف لها آفاق مستقبلها الوضيء، وليس من يعكس ظلمات الواقع أو يعبر عنها فحسب.

خاتمة

حاولت في الصفحات السابقة أن أكشف عن تطور أجيال الرواية العربية التي امتدت زمانيا قرنا كاملا أو يزيد في صفحات عدة، وككل إراءة مشهدية لسيرورة جنس أدبي لابد أن يقع الدارس هنا وهناك في هفوات بعضها في حسبانه وبعضها خارج هذا الحسبان، ومهما يكن نصيب محاولتنا من الخطأ أو السداد فإني أود أن أضيف في النهاية إلى مامضى بعض الملاحظات حتى تكتمل الإراءة التي قصدت إليها.

عنيت بالفترة الفنية كما عنيت بامتداداتها خارج زمنها الذي رأيته لها، وفي ظني أن الجاذبية دائما هي للذروة وماالامتداد سوى تنويع عليها وتبع. ولم نكن نقصد من وراء المفردات/الأوصاف التي وسمنا بها الأجيال أكثر من تمييز بينها وتوصيف لنصوصها دون أن نوحي بشيء من المعيارية التفاضلية. وقد بذلنا الجهد ماأمكن حتى لانغرق البحث في مسارد الأعلام وقوائم الروايات، لأن الغاية هي إظهار منحى الجيل في تقنياته من غير العناية بمفرداته. كذلك ربطنا حركة الرواية بحركة الواقع. وعلى الرغم من أن مذهبنا النقدي ينطلق من نصيَّة النص، فإن عالم بعض الأجناس، ومنها الأجناس السردية يتأثر بالمجتمع، ويعكس حركته ويلبي حاجته؛ وبيان الصلة بينهما أمر ضروري مهما ابتعد أو اقترب العالمان، عالم الرواية وعالم الواقع.

قد يبدو الاتكاء على إراءة تطور الرواية في مصر أكثر بروزا منه في سواها، ولايعني ذلك أكثر من أمرين: توافر المرجعية، وتلامح التطور، وهما معا جزء من المهمة التي ندبنا نفسنا لها في هذه الدراسة.



محمد العربي الخطابي

الأدبُ الإسلاميُّ مفهومُهُ وآفاقُهُ

الأدب فنٌّ رفيعٌ من فنون التعبير، يروم إمتاع النفس وإثارة المشاعر النبيلة فيها، وصَرْفَها عن الهموم والمشاغل التي تلفُّ الإنسان وتستأثر بأوْفى نصيب من تفكيره وتدبيره.

وقوام الأدب الرفيع: اللفظ المهذَّبُ، والعبارة الجميلة، والمعنى النافذ، والخيال الخصيب، سواءٌ كان هذا الأدب شعرًا أو نثرًا، مقالة أو قصة تنبعث من أعماق الباطن، أو خطابا ينطلقُ من تجارب الحياة ويُحسن الاستفادة منها.

والإبداع من شروط الأدب الناجح، ولست أقصد بالإبداع هنا إيجاد شيء على غير مثال سابق، فإنّ لكلِّ أديب مثالاً يحتذيه، ونموذجًا يهتدي به، وإنما المقصود بالإبداع تناول الشيء ذاته بروح مطبوعة على التجديد، تُمكّن صاحبها من حُسن التصرُّف في مجال القول، وتجنبه الوقوع في الابتذال والإسفاف والتكرار، وترقى به وبالقارئ عن مألوف الكلام الذي يتداوله الناسُ في سَعيهم ومعاشهم، وتحلق بهما في سماء الخير والجمال، ذلك أنّ لكل أديب ناجح أسلوبًا يميزه، وطريقة تعرب عن ذاته. وقد قال أحد رجال الغرب: إن الأسلوب ليس حلية، ولكنه انعكاسٌ مباشرٌ للفكر نفسه، وهو الذي عليه أن يمنحه الحركة والوضوح... بل إن الأسلوب هو الرجلُ ذاته(١).

إن الأدب نتاجٌ إنسانيٌّ قبل أن يكون أي شيء آخر، بمعنى أن يعكس آمال الناس ويستوعبَ أفراحهم وآلامهم ويعبّر عن أحلامهم. والنفسُ الإنسانية واحدةٌ في طينتها ومعدنها، فهي مورد الطمأنينة والقلق، والبهجة والحزن، وهي التي تتطلع إلى السعادة، وتعاني الشقاء؛ تستحسن الحسن وتستقبح القبيح، وهي معدن الحبِّ والكراهية، والعدل والجور، والأمنِ والخوف.

وهذه العناصرُ كلها هي موضوع الأدب وساحةُ جولاته، وإذْ كان الأمرُ كذلك صار من المتعذّر أن يُحيط بالأدب تعريفٌ جامعٌ يحدُّهُ ويتفق عليه الجميع، لاسيما وأنّ أغراضه متعددة، وألوانه متباينة، ومناهجه مختلفة، ومدارسه متضاربة.

فالأدب ينقسم بالقسمة الأولى إلى شعرٍ ونثر، ثم ينقسم الشعر إلى غنائي وملحميٍّ ووصفيٍّ وغير ذلك، كما ينقسم النثر إلى مقالة وقصّة وحكاية ومسرحية ونَقْد، ثم تختلف بعدَ ذلك مذاهبه ومدارسُه وأوطانه ولغاته كما تختلف أذواق عشاقه، لا يخلو من هذا الاختلاف عَصْرٌ ولايسلم منه جيل.

وقد انتجت القرائح البشرية آثارًا أدبية لا يُحصيها العدّ، منها أعمالٌ اكتسبت بُعدًا عالميًا، وتسارع الناقلون إلى ترجمتها، والناقدون إلى دراستها وإظهار محاسنها وعيوبها، وانتقلت بين أرجاء الدنيا فلمْ يُصِبْها إحْساسٌ بالغُربة، إذ تَذَوقها واستساغها جمهور عريض من الناس؛ لغاتهم متعددة، وأقطارهم متباعدة، وأجناسهم متباينة، فيها الأبيض والأسود والأصفر والأحمر. ومنها آثارٌ أدبية أخرى بقيت محصورة في نطاق قوميٍّ ضيِّق وبُعد مكانيٍّ محدود، يتناقلها أهلها، الخلفُ منهم عن السلف، فلا تتسع لها آفاقُ الدنيا إلا إذا اكتشفها مكتشفٌ من غير قومها ونقلها إلى لغة غير لغتها الأصلية، فيتهيأ لها بذلك الذيوع والانتشار في أطراف الدنيا، كما وقع لرباعيات عمر الخيام التي بقيت حبيسة الرقعة الفارسية منذ أن ظهرت في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) إلى أن وقعت في يَد الكاتب والمترجم الإنجليزي إدوارد فيتزجرالد(٢) فنقلها إلى لغة قومه في القرن التاسع عشر الميلادي، وأضفى عليها من حُسْن بيانه، وجمال أسلوبه ماأكسبها الشهرة والذيوع في بلاد الغرب، وتُرْجمت إلى لغات متعددة، وتبوأت مكانها بين عيون الأدب العالمي.

والأدب نتاجُ البيئة التي ينشأ فيها ويترعرع، فإذا ماأدرك الأديبُ درجةً عاليةً من الإبداع والأصالة بحيث يسمو حسّه الإنساني، فإنه يجاوز الحدود القومية والمحلية متى واتته الظروف فيكتسب إشعاعا عالميًا من غير أن يفقد خصوصياته الذاتية وطابعه الأصيل.

وفي عصرنا هذا اتسعت المفاهيم المرتبطة بالأدب، وتعددت اتجاهاته، وتباينت مناهجُه وأساليبه بفعل التأثير العميق الذي يُحدثه تقدم المعارف وتدفق الأفكار، وتعدد الوسائل المتاحة في ميادين العلاقات الإنسانية التي تزداد تعقيدا

وتشعبا، ولاسيما في أبعادها الروحية والخلقية.

فمنذ القرن التاسع عشر ظهرت في دول الغرب حركات أدبية واتجاهات فنية زعزعت البناء الكلاسيكي القديم، وفتحت أمام الكُتّاب والشعراء وأهل الفن آفاقًا مجهولة، وسبلاً للإبداع جديدة أطلق عليها أصحابها أسماء تميزها؛ كالرومانسية والدادية والسوريالية والواقعية والرمزية والانطباعية، وغير ذلك من النزعات التي بعثت في الحقل الأدبي تجديدًا وتنوعًا، وجعلت أصحابها والداعين إليها يشعرون بأنهم يسايرون تغيرات الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي ماانفكت تثير القلق في النفوس، والاضطراب في وتيرة السلوك الإنساني.

وفي خضم هذه الحركات الأدبية والفنية مالت أقلام كثير من الكتاب والشعراء والنقاد في دول الغرب إلى تبني أساليب جريئة في التعبير يستخف بعضها بالعقيدة الدينية (المسيحية) ويَسْخَر بعضها الآخرُ من القيم الخلقية التقليدية، ويدعو إلى نبذها، وأشهر كثيرٌ من المفكرين والأدباء إلحادَهم باسم الحريات التي أتاحتها لهم الأنظمة اللبرالية القائمة على فصل الدين عن الدولة، فضلا عن الأنظمة الاستبدادية التي قامت في دول أوربية أخرى من أجل إقرار العنصرية العرقية، أو نشر الشيوعية المادية بقوة الحديد والنار. وقد نهض لمواجهة التيارات المنحرفة أدباء ومفكرون «محافظون» أعلنوا الحرب على المنازع الإلحادية المُنْكرة للديانات في محاولة منهم للإبقاء على القيم الخلقية والروحية مع تجديد النظرة إليها؛ كي تنسجم مع مايشهده العالمُ من تقدّم في ميادين العلوم والأفكار. ومايزال الصراع بين الطائفتين قائمًا، وهو يتخذ صورًا فكرية وفنية مختلفة، ويظهر أثره في الشعر والرواية والمسرح والنقد وفي الفنون الجميلة على وجه العموم.

أما في المجتمعات الإسلامية فإن طوائف من المثقفين قد بهرتهم الحركات الأدبية والمذاهبُ الفنية التي تتابع انسيابها في دول الغرب - ولاسيما في إنجلترا وفرنسا وألمانيا -، فكان أن تأثروا بها وحاولوا النسج على منوالها، فمنهم من أدرك غاية الإجادة والإبداع، ومنهم من لم يتجاوز عتبة التقليد والمحاكاة، ولكنهم جميعًا



د. محمد رجب البيومي

حرصوا على احترام واقع مجتمعاتهم وقيمها الروحية والخلقية؛ إلا قلّة منهم شذّوا عن قاعدة الالتزام بما ينبغي الالتزامُ به من سلوك رشيد لايستهين بالعقيدة الدينية ولايحيد عن مكارم الأخلاق. وشتان مابين فنٍّ يروم الكشف عن صور الجمال الحقّ الذي أبدعه الخالقُ ويملأ الوجود من حولنا، وبينَ نزعات تنشد الملذات الحسية وتتغنّى بالانحلال الخلقي والتهافت الروحي والفكري، وتتشبثُ بأذيال العبث والفراغ والضياع، وكل ذلك باسم الفنّ وحرية التعبير!

وخشيةً من اتساع هذه الموجة المشحونة بالقلق، المنذرة باختلال القيم الأساسية المثلى برز إلى الوجود تيارٌ أطلق عليه أصحابُه اسم «الأدب الإسلامي» وبدؤوا الترويج له في أوساط المثقفين وحملة القلم، وأُنشئت من أجل تنشيطه وتنظيم الدعوة إليه هيئةٌ هي «رابطة الأدب الإسلامي العالمية» التي تشرف على إصدار دورية هي «مجلة الأدب الإسلامي»(٣)

فماذا يراد بالأدب الإسلامي ياتُرى؟ ومامبادئه وغاياته؟

يقول باحثٌ معاصر صَرَف جهدًا مشكورًا من أجل صياغة نظرية للأدب الإسلامي: «فُهِمَ مصطلح الأدب الإسلامي من زوايا عدة، منها: أنه الأدب في عصر صدر الإسلام، ومنها أنه الأدب ذو المضمون الديني الإسلامي، ومنها - وهو أقل شيوعًا في استعمالنا العربي للمصطلح - أنه الأدب الذي يصدر عن الشعوب الإسلامية كلها. ولكن هذه المفهومات - على قيمتها - لاتساعد على تحديد الأبعاد في نظرية نقدية تقيم الأدب وتقوّمه من منظور إسلامي متميز»(٤).

إنّ هذه المفاهيم الثلاثة قد تكون مقبولة إذا نحن نظرنا إليها من جهة تاريخ الأدب الذي يقتضي ترتيبا زمنيا ومكانيا وموضوعيا لايكتمل منهج البحث إلاّ به، غير أن الأخذ بهذه المفاهيم - مجتمعة أو منفردة - لايرفع الإشكال ولايُشْبع حاجتنا إلى تحديد المعنى الدقيق الذي يقصده الداعون إلى «الأدب الإسلامي»؛ وربما يزداد الإشكالُ إلحاحًا حينما يقال: «إنه الأدب ذو المضمون الديني الإسلامي»؛ وذلك أن الدين الإسلامي عقيدة وأصولٌ وأحكامٌ تشمل العبادات والمعاملات ومكارم الأخلاق المُبيّنة في الشريعة، وهي تلزم المسلمين جميعًا. وأما الأدبُ فإنما هو فنٌ، أي إنه نشاط فكري وتوجه شعوري إنسانيٌ قوامه الموهبة والخيال، وشرطهُ التمكن من وسائل التعبير المؤدية إلى الانسجام مع عالم الحياة والطبيعة، والقادرة على الغوص في أعماق النفس البشرية، والكشف عما تنطوي عليه من جمال أو قبح، من خيرٍ أو شرٍّ، من رجاء أو يأس، بالكلمة الرفيعة والعبارة الجميلة والخيال الجَوّاب.

إن استقراء ماأمكننا الاطلاع عليه من نصوص في موضوع «الأدب الإسلامي» يجعلنا نميل إلى الافتراض بأن المقصود بهذا المصطلح - إن جاز أن نسميه مصطلحًا - هو الأديب نفسه، أعني الأديب المسلم الذي يُفترض فيه - فضلا عن إتقان عمله الفنيّ والإبداع فيه - أن يلتزم تلقائيا بمراعاة أحكام الشريعة التي يدين بها، لا بأن يصوغ الأحكام الشرعية والنوازل الفقهية صياغة أدبية، بل أن يلتزم قانون السلوك الخلقي الإسلامي في أقواله وأفعاله وكتاباته، ثم له بعد ذلك أن ينتهج الطريقة الفنية التي توافق ذوقه، وتستجيب لها مواهبه، وتعملُ على تفجير قوة الإبداع والابتكار والأصالة الكامنة في نفسه.

جاء في مقال كتبه حديثا د. محمد رجب البيومي مانصّه: «إن ارتقاء الحسّ هو أول خصائص الأديب المسلم، لأن مُثُله الدينية الرفيعة ترتقي به إلى حيث ينأى عن مزالق الإثم... ونحن الآن نقرأ قصص الحبّ المتداولة؛ فنجد منها مايدفع إلى الرذيلة السافرة دون حياء، كما نجد من يُحبّذ هذا الاتجاه»(٥). فهذا الكلام - على إيجازه - يوضّح أن «الأديب المسلم» هو المعْنيُّ بالأمر أولاً وأخيرًا، فهو الذي عليه أن ينأى عن مزالق الإثم والرذيلة، فكيف به إذا انساق بوعي وإصرار مع تيار الإلحاد ونكران الحقيقة

الإلهية والاستخفاف بأصول العقيدة بدعوى التحرر والتجديد؟ وهو إنما يندفع بقوة مجاراة بلهاء ومحاكاة عمياء لطائفة من أدباء الغرب ومفكريه الذين يجاهرون بالدعوة إلى تقويض مابقي من القيم الأخلاقية في مجتمعاتهم المادية، ويَرون مع ذلك أن إصلاح الأحوال في بيئتهم أمرٌ لايهمّهم، فهم - في زعمهم - ليسوا أصحاب رسالة اجتماعية، وأنهم إنما يمارسون الفنّ لأجل الفن نفسه، وأن آثارهم لاينبغي لها أن تتضمن خطابًا يروم التقويم والإصلاح. على أنّ الإنصاف يقتضي منا أن نعترف بأن أدباء الغرب ومفكريه لا يسيرون جميعًا على نهج واحد، بل فيهم طائفةٌ يلتزمون قواعد السلوك الخلقي فيما يُبدعونه من أعمال ترقى إلى درجة الفن الرفيع، وتخلو مع ذلك من فحش القول ونذالة التعبير، محاولين بذلك أن يخدموا مجتمعاتهم لإنقاذها من غلواء المادية والفساد والتحلل.

إن الأديب المسلم لايمكن إلا أن يكون ملتزمًا يحمل عقيدته في قلبه، ويتحلى بالصدق والأمانة وعفة القلم واللسان، وله بعد ذلك أن يُحلق في سماء الفن كيف يشاء، طليقًا حُرًا، يستعين بموهبته للإعراب عن ذاته ومكنون نفسه بإحساس صادق، وامتلاك تام لوسائل التعبير الراقي الذي تتيحه سلامة الفطرة وصفاءُ الذهن وقوة الخيال، مع التمكن من الأدوات الضرورية التي لايستقيم أدبٌ من دونها؛ كاللغة وتاريخ الأدب والاطلاع الواسع على روائع الآثار الفنيّة التي أبْدعها عباقرة الشعر والنثر عبر الأجيال.

إنّ الأدب الإسلامي لايمكن إلا أن يكون إنساني النزعة، عالمي النفس، يخدم الحق والخير والجمال والوئام بين الناس، فهو إذن أدبٌ ذو رسالة؛ وهذا هو معنى الالتزام في وجدان المثقف المسلم الذي ينتظر منه المشاركة الفعلية في إصلاح مجتمعه وترقية السلوك الخلقي لأفراد هذا المجتمع، كما يُطلب منه الإجادة في عمله على قدر المواهب التي حباه الخالق بها.

إنّ الهدف الأبعدَ للرسالة الإسلامية هو تتميم مكارم الأخلاق، فعلى هذا تدور العبادات التي هي بمثابة الإعراب الأسمى عن وجدان الفرد المسلم في صلته بربّه، والمعاملات الشرعية كذلك تتجه كلّها إلى ترسيخ البرّ والتعاون والتكافل والمناصحة والصدق والإخلاص، وغير ذلك من المكارم التي يُمكن تلخيصها في لفظين هما: الإيمانُ والاستقامة.

إن العقيدة والعمل يسيران في اتجاه واحد نحو الغاية المرسومة في رسالة الإسلام؛ التي يمكننا أن نستخلص منها مبادئ فكرية وخلقية ينبغي للمثقف المسلم أن يجعلها نصب عينيه مهما كان ميدان نشاطه. ونلخصها فيما يلي:

- الكائنات كلُّها من إبداع الخالق، أوْجدها من العدم وهو يتصرف في شؤون خلقه بقدرته ومشيئته، يُدبّر أمور الموجودات بعنايته الأزلية وحكمته التي لاتنقطع؛ وهو وحده المنفردُ بالبقاء والدوام، المخصوص بالعبادة، وعليه وحده التوكل، وإليه الإنابة والتوجّه بالدعاء وطلبُ العون والتوفيق والغُفران، لا يُشركه في ملكه أحد.

- كرم الله الإنسان بالعقل، ووهبه القدرة على التمييز بين الحق والباطل، والخير والشرّ والحَسَن والقبيح: ﴿الذي أعطى كُلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه: ٥٠)، وما يقصرُ العقلُ عن إدراكه يتولى الوحيُ بيانه.

- حمل الإنسانُ الأمانة عن ربّه ليعمر الأرض بالمعروف، ويسعى فيها بالصلاح والعدل والإحسان.

- وُلد الناسُ أحرارًا لايَدينون بوجودهم إلا لله، وهم متساوون في الحقوق والواجبات، متفاوتون في المعايش، لكلّ نفس ماكسبت وعليها مااكتسبت، وكلّ مخلوق ينالُ من الرزق على قدر سعيه وطاقته واجتهاده وما قسمه الله له. فإذا اختلّ هذا النظام بتفشي الجَوْر والزيغ فسدَ الاجتماعُ الإنساني كله.

- العملُ ضربٌ من العبادة، وطلب العلم واجب، والتقدم في شعابه من مقتضيات العمران، وعليه يتوقف ازدهار المجتمع الإنساني، وغاية العلم النفعُ العام في الدنيا والسعادة الأبدية في الآخرة.

- الانسانُ هو صانعُ الحضارات بإذن الله، فإن هو تصرّف فيها بالسداد، والحكمة وحُسن القصد نمت وازدهرت، وإن هو انحرف بها عن السبيل السوية تداعت وبادت.

- مكارم الأخلاق هي قوام الاجتماع الإنساني وأُسُّ العمران، وإنما تَقصر أعمار الدول وتتصدّع أبنية المجتمعات بتفشي الفساد الخلقيّ، وغلبة الرذائل المهلكة على الفضائل المقوِّمَة.

- المجتمعات الإنسانية كلها تتطلع إلى الأمن والاستقرار وكفاية العيش، ولاسبيل إلى ذلك إلا بتعاون الجميع على رعاية الضرورات الخمس، وهي: الدينُ والعقل والنفس والمال والنسْل.

- الحرية المثلى إنما تتجلى في قدرة الفرد على قهر سلطان المادة ومغالبة الأهواء الزائغة التي تستعبد الإنسان وتسلبه كرامته وتهوي به إلى أحطِّ دَرَك المهانة؛ فإنه لاحرية دون كرامة؛ والحكمة إنما هي في الاعتدال المؤدّي إلى حدوث التوازن بين تطلعات الروح ومطالب المادة وفقا لأحكام الشرع ومقتضيات التعايش بين الناس.

بما تَقدّم أحسب أنني قد اقتربت بعض الشيء من بيان المعنى المقصود بالأدب الإسلامي، وقد توسّع غيرنا في هذا الباب(٦)، ومجال البحث فيه رحيب.

وقبل الختام أقول: إن الأدب الإسلامي ليس تيارًا عابرًا من تيارات المعرفة والفكر والشعور، بل هو حقيقة راسخة في قلب المثقف المسلم الذي يؤمن بأنّ حَمْلَ القلم أمانة، وربّنا قد أمَرَنا بحفظ الأماناتِ وتأديتها إلى أهلها.

الهوامش :

(١) من كلام الأديب وعالم الطبيعة الفرنسي ج.ج.ل بيفون (١٧٠٧ - ١٧٨٨م) من خطاب ألقاه عند استقباله عضواً بالأكاديمية الفرنسية.

(٢) إدوارد فيتزجرالد، مؤلف وشاعر ومترجم انجليزي (١٨٠٩-١٨٨٣م)، اكتسب شهرة واسعة بترجمته رباعيات الخيام وآثار أدبية أخرى.

(٣) يشرف على هذه المجلة العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي (لكنهو - الهند)، ولها مكاتب في الرياض والقاهرة وعمّان.

(٤) د. محمد أحمد حمدون، «نحو نظرية للأدب الإسلامي»، إصدارات «المنهل» (جدة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م) ص١٥٨.

(٥) د. محمد رجب البيومي، «منهج الأدب الإسلامي في السيرة الذاتية»، مجلة الأدب الإسلامي، المجلد الأول - العدد الثالث، (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م)، ص٨.

(٦) قرأنا في الدوريات العربية عن صدور كتاب بعنوان «الأدب الإسلامي... ضرورة» من تأليف د. محمد أحمد علي، صدر عن دار الصحوة برابطة الجامعات الإسلامية؛ ولم يُتح لنا بعدُ الاطلاع عليه. وقد سبقت الإشارة في هذه الهوامش إلى كتاب د. حمدون: «نحو نظرية للأدب الإسلامي.

الفقه الشرعي والثقافة البشرية



الشيخ أبو عبد الرحمن
ابن عقيل الظاهري

روى مسلم في صحيحه بإسناده إلى عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى بصاقًا في جدار القبلة فحكَّه، ثم أقبل على الناس فقال: «إذا كان أحدكم يصلي فلايبصق قِبَل وجهه إذا صلى».

وروى بإسناده إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مثل ذلك، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم نهى أن يبزق الرجل عن يمينه أو أمامه، ولكن يبزق عن يساره أو تحت قدمه اليسرى.

ومثله عن أنس بن مالك، وأبي هريرة رضي الله عنهما.

وروى بإسناده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا كان أحدكم في الصلاة فإنه يناجي ربه، فلا يبزقن بين يديه ولا عن يمينه، ولكن عن شماله تحت قدمه».

وروى بإسناده إلى أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «البزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها».

ومثله عن أبي ذر رضي الله عنه، وعبدالله بن الشخير رضي الله عنهما.

قال أبو عبدالرحمن: أحاديث دفن البصاق صحيحة متواترة عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم، ولقد رأينا مساجد لبعض الفرق الإسلامية يتموج الماء في أكنافها، ويهزج الذباب في مصلياتها، ويجلسون دون تحية المسجد، ويرمون أعقاب السجاير في المصلى، ثم يُنْهون أكثر صلاتهم وقوفًا، فإذا سلم إمامهم نهضوا نهضة رجل واحد وتفرقوا.

وهذا أكبر برهان على أنهم لايرضون سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم مصدرًا للتشريع، ويبغضون جيل الصحابة رضي الله عنهم، فلا يقبلون منهم بلاغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم الواسطة الوحيدة التي لاواسطة غيرها.

وقد استظهر القاضي أبو الوليد الباجي من هذه النصوص أحد ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن البصاق تجاه القبلة منهي عنه في كل حال من الأحوال، وإنما ورد النص مقيدًا بحال الصلاة لفضيلة تلك الحال على سائر الأحوال فخصّها بالذكر.

والوجه الثاني: أنه إنما خص الصلاة لأن المصلي مستقبل القبلة بلاريب بخلاف غير المصلي فقد يكون اتجاهه لغير القبلة، وقد يكون اتجاهه نحو القبلة.

ولهذا فالنهي عن البصاق نحو القبلة ثابت على كل حال سواء أكان مصليًا أم غير مصلٍ.

والوجه الثالث: بينه الباجي بقوله: فلو لم ينص على حالة الصلاة لجوَّز المكلف أن يكون النهي تُوُجِّه إلى سائر الأحوال، وأن حال الصلاة لايجوز أن يقصد فيها إلى شيء وليبصق كيف تيسر له في قبلته وغيرها، فبين أن هذا من إكرام القبلة وتنزيهها.

ومعنى هذا الكلام أن المصلي لايتعمد البصاق، فإذا بصق فليبصق كيف شاء، هذا لو لم يرد النهي مقيدًا بحال الصلاة، فلما ورد مقيدًا بحال الصلاة عُلم من ذلك أن النهي عام للبصاق نحو القبلة في كل حال من الأحوال.

قال أبو عبدالرحمن: هذه الاستنباطات التي ذكرها شيخ المالكية بالأندلس في عصره أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي إنما هي من نوع الاستنباطات التي هي من باب الثقافة البشرية؛ ذلك أن فهم المكلفين المجتهدين لنصوص الشرع تأتي على رتبتين:

إحداهما: سرد الأحكام الواضحة.

وأخراهما: استنباط الأحكام الخفية التي لاتتأتى لقلة من المجتهدين إلا بدقة نظر وطول تأمل وإحاطة بنصوص الشرع، وبهذا ميَّز الله درجات العلماء وفضل بعضهم على بعض.

إلا أن الاستنباط الموجود في الكتب اليوم منه ماهو ثقافة بشرية تدل على عبقرية المستنبط وقوة نظره وليس عليها دلالة لغوية من النص، وأكثر مايوجد هذا الاستنباط أحيانا في كتب الفقهاء الذين يُخَرِّجُونَ الأحكام على مذاهب أئمتهم؛ ككتاب المنتقى للباجي، ومعظم كتب أتباع أبي حنيفة باستثناء المحدِّثين منهم كمحمد بن الحسن والطحاوي.

والنوع الثاني من الاستنباط ماكان عليه من النص دلالة لغوية بعيدة، أو ماكان مركبًا من دلالات بعيدة لعدة نصوص، أو ماكان مفهومًا عقليًا ضروريًا لا احتمال غيره من نص أو عدة نصوص، فهذا هو النص الذي ننسبه باطمئنان إلى الشرع ولاننسبه إلى رأي المجتهد.

ومثل هذا الاستنباط يوجد كثيرا في كتب فقهاء المحدِّثين؛ كالشافعي وداوود بن علي وابن جرير الطبري وابن عبدالبر وابن حزم، ويوجد بكثرة في

كتب شيخ الإسلام ابن تيمية.

وإنما قلت إن هذا هو الاستنباط الشرعي الصحيح لأن كلام الشرع ورد بلغة العرب ولاسبيل لفهمه إلا بالوسائل التي يُفهم بها كلام العرب، فإذا عري النص من دلالة لغوية قريبة أو بعيدة أو عري من ضرورة عقلية لا احتمال فيها فليس استنباطًا شرعيًا.

والاستنباطات التي هي من باب الثقافة ورياضة الفكر ولايدل عليها وجه من اللغة بدلالة قريبة أو بعيدة ظاهرة أو خفية تعد في حكم الاحتمالات والآراء والمشاركة في التشريع.

والالتزام بمدلول لغة العرب من النصوص الشرعية، والالتزام بالحتميات العقلية التي يفهمها العقل من النص دون أي احتمال آخر هو المنهج السليم الذي أمر به الشرع، وهو المقتضى الصحيح الذي يعصم من الاختلاف والتنازع.

وهذا التقرير تقرير للضرورات الشرعية، فقد بين لنا ربنا سبحانه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو عربي، وبين التاريخ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصح العرب قاطبة، ثم بين لنا ربنا بالنصوص المتواترة أن تحريف الكلم عن مواضعه حرام، وهذا يعني الالتزام بمدلول لغة العرب.

وبين لنا ربنا أنه تجب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، ونهى عن التقديم بين يديه، ونهى عن استبدال الرأي بالشرع، وفي الوقت نفسه ندبنا ربنا إلى الاعتبار والتدبر والتفكر والاستنباط، وبكَّت ربنا من كانت لهم قلوب لايعقلون بها، ففهمنا بهذا فهمًا ضروريًا لا احتمال فيه أنه لامجال للعقل في الشرع إلا بالفهم والتمييز دون إضافة أو اقتراح أو استبدال أو زيادة أو تنقيص، وأن يكون ذلك الفهم العقلي أو التمييز العقلي مدلولاً عليه من النص الشرعي بموجب لغة العرب التي نزل بها الشرع.

قال أبو عبدالرحمن: الأحاديث التي نهى الرسول صلى الله عليه وسلم فيها عن البصاق في الصلاة تجاه القبلة لم تحرم ذلك في غير الصلاة، فمن قال: يحرم البصاق نحو القبلة في غير الصلاة، فقد قال قولاً زائدًا على النص، لأن النص نهى عن البصاق حال الصلاة.

والمنهج الأسلم في مثل هذا أن يقال: هذه النصوص حرَّمت البصاق نحو القبلة حال الصلاة فقط.

أما البصاق نحو القبلة في غير الصلاة فلا يُفهم من هذه النصوص، وإنما نبحث عن حرمته أو كراهته أو إباحته من براهين أخرى.

قال الباجي رحمه الله: النهي عن البصاق نحو القبلة عام لكل حال، وإنما خُصَّت حال الصلاة لفضيلة حال الصلاة على جميع الأحوال فخصت بالذكر.

قال أبو عبدالرحمن: في مثل هذه الآراء يقال: إذا كانت الصلاة خصت بالذكر لفضيلتها فما يدرينا لعلها خصت بالذكر لأنها مخصوصة بالحكم.

ويقال ثانية: إذا خُصت بالذكر فقد خُصت بالحكم لأن الحكم للمذكور بالنص، وليس في الشرع شيء اسمه مخصوص بالذكر وشيء اسمه مخصوص بالحكم، بل جميع نصوص الأحكام ترد بحكم منصوص عليه وبمحكوم منصوص عليه، وهو الذي يسمونه المخصوص بالذكر؛ فالحكم المنهي عنه هنا هو البصاق، والمحكوم عليه هو المصلي، والمحكوم فيه حال الصلاة.

ويقال ثالثة: لاريب أن الصلاة من أفضل الأحوال، وقد حرم الله فيها البصاق إلا أن كون حالة الصلاة أفضل الأحوال لايعني تحريم ماالأصل فيه الإباحة في غير الصلاة وهو البصاق تجاه القبلة، وإذن فالأصل في البصاق تجاه القبلة الإباحة إذا لم يكن في صلاة، ولايقال بكراهتها أو حرمتها إلا بنص غير النصوص الخاصة بحال الصلاة.

وقال الباجي رحمه الله: إن النصوص الواردة في تحريم البصاق نحو القبلة حال الصلاة عامة لجميع الأحوال، وإنما خصت حال الصلاة بالذكر لأن المصلي تجاه القبلة حتميًا.

قال أبو عبدالرحمن: القول بعموم النهي لغير حال الصلاة من باب الدعوى، ولاتقبل هذه الدعوى إلا بنصوص أخرى غير النصوص الخاصة بالصلاة.

وكون المصلي تجاه القبلة دائمًا لايعني عموم النهي لغير حال الصلاة؛ بل القول بذلك مجرد احتمال، والاحتمالات العقلية لاتسقط المفهومات اللغوية، كما أن المصلي قد لايهتدي إلى القبلة فتكون قبلته حيث صلى.

وفي بعض تلك الأحاديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن البصاق نحو القبلة، وقال: «فإنَّ الله تبارك وتعالى قبل وجهه..»، إلا أن شيخ الأشاعرة في عصره أبا الوليد الباجي جنح إلى التأويل فقال: هذا الكلام وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «فإنَّ الله تبارك وتعالى قبل وجهه..» يحتمل معنيين:

أحدهما: أن ثواب الله وإحسانه وتفضله قبل وجهه، فيجب أن ينزه تلك الجهة عن البصاق.

وثاني الاحتمالين: أن الباري سبحانه وتعالى أمرنا باستقبال القبلة وتعظيمها وتنزيهها ولاسيما في حال الصلاة، فإن الله قبل وجهه بمعنى أن ماأمر الله بتنزيهه وتعظيمه كائن قبل وجهه، وأن في تعظيمه تلك الجهة تعظيم الله وطاعته، وهذا كما يقال: إذا ورد عليكم فلان من قبل الإمام فأكرمه.. فإن الأمر يرد عليك بوروده.

هذا هو تفسير الباجي للحديث الشريف وجَّهه بمقتضى أصول الأشاعرة في العقائد رحمهم الله وعفا عنهم.

قال أبو عبدالرحمن: قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فإن الله تبارك وتعالى قبل وجهه» لايفسر بالاحتمالات، فالاحتمالات كثيرة لاحصر لها، وعقول المفكرين خصيبة تستطيع أن تستظهر أكثر من احتمال، وكلما تعددت الاحتمالات تعدد الاختلاف بين المسلمين وكثر التحزّب للآراء والاحتمالات.

وإذا فُتح باب الاحتمالات لتفسير الشريعة أصبح دين الله غير منضبط، وأصبح دين الله متكيفًا مع الآراء والأهواء، وهذه آفة تَقَرّ بها عين إبليس ويفرح بها كل مستبطن لريبة.

ونحن نرى أن كتب القانون الوضعي، وعقود المعاملات الشرعية، ونصوص المعاهدات الدولية، وتحاور الناس في عادي كلامهم تأبى إباء معنفًا صرف مرادات المتكلمين إلى احتمالات السامعين، فما بال نصوص دين الله تُحْرم من هذه القداسة وتترك لحرية السامع والقارئ والدارس كيف شاء؟

لقد سمعنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لمانهى عن البصاق تجاه القبلة: «فإن الله تبارك وتعالى قبل وجهه».. فوجب أن نفهم هذا النص كما أمرنا الله بفهم كل نص على مثاله عن أسماء الله وصفاته، وهو أن نثبت لله من الأسماء والصفات ماأثبته لنفسه، وننفي عنه من الأسماء والصفات مانفاه عن نفسه.. أما ماسكت عنه من الأسماء والصفات فالأصل فيه التوقف بأن لا ننفيه ولانثبته.

ولكن لما صحَّ الشرع بأن الله لايُسمَّى ولايُوصف إلا بما سمى به نفسه أو وصف به نفسه صح بذلك أن لانسمي الله ولانصفه بغير ماعينه من الأسماء والصفات، ولهذا نقول: إن الله تبارك وتعالى

صداع العقول

الفقه الشرعي والثقافة البشرية

قبل وجه المصلي فحسب، لأن النص أثبت لنا ذلك، فلا ننفي ماأثبته الله بتأويل أو تعطيل، ولانكيِّفه بتشبيه ولاتمثيل.

ونقول نحو ماقال الإمام مالك: «القبَلُ معلوم، والإيمان به واجب، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة».

إن النص الشرعي إذا ورد إلينا فلا يخلو من حالات:

أحدها: أن يكون إحالة إلى مُسلَّمة شرعية فُرغ من تفسيرها كقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا»، وكقوله صلى الله عليه وسلم: «فإن الله تبارك وتعالى قبل وجهه»، فنزول الله، وأنه جل جلاله قبل وجه المصلي لايفسر بالاحتمالات، ولايفسر بأعراف الأدباء والشعراء، ولايفسر بالمفهومات اللغوية من معاني نزل وقبَل، ولايستنبط منه معنى احتمالي من أساليب البلاغة العربية.. نعم لانحتاج إلى شيء من ذلك لأننا قد كُفينا المؤونة بالمسلمة الشرعية، فيتحتم علينا أن نفسر كلام الشرع بمراد الشرع، والمسلمات الشرعية اقتضت أن نثبت لله من الأسماء والصفات ماأثبته لنفسه، وننفي عنه مانفاه عن نفسه، فلا ننفي ماأوجبه بتأويل أو تعطيل، ولانكيِّفه بتشبيه أو تمثيل، ولهذا نقول: الله جل جلاله: قبل وجه المصلي.. نقول هذا فحسب ونقف عنده، ونُمسك بكل حذر عن إضافة في التفسير تقتضي تعطيلاً أو تكييفًا.. وهكذا كل نص شرعي مسبوق بمصطلح شرعي، فنفسر النص الشرعي بالمصطلح الشرعي، ولانلتفت إلى تحذلق المفكرين، ولانلتفت إلى احتمالات اللغويين والأدباء والبلاغيين إلا أن يوجد عندنا برهان آخر يصرف معنى النص الشرعي عن المصطلح الشرعي، فنتبع البرهان أنى وجدناه ككلمات الصلاة والزكاة والصوم والحج والربا والكفر والإيمان، فالأصل في تفسيرها الحمل على المصطلح الشرعي، ولا تفسر بالمعنى اللغوي العرفي أو التوجيه البلاغي الفني إلا ببرهان.

وإحدى حالات النص أن لايكون مسبوقا باصطلاح شرعي أو مسلمة شرعية، ففي هذه الحالة نوجهه حسب لغة العرب وقانونها في الحمل على الحقيقة أو المجاز مستعينين بعد الله بدلالة السياق وقرائن الأحوال، ونُعيِّن ماعينته بدائه اللغة.

وثالث حالات النص: أن تتكافأ دلالاته اللغوية، ولايوجد لأحد المتكافئين من الدلالات مرجح من نصوص أخرى أو من قرائن أخرى، فهذا أمر يسع فيه الاختلاف ويؤجر فيه المصيب والمخطئ معًا إلا أن المصيب يتميز بزيادة أجر.

وتفسير النص الشرعي في هذه الحالة باحتمالات التأويل جائز، ولكن بشرط أن تكون تلك الاحتمالات جميعُها مدلولاً عليها بلغة العرب دلالة متكافئة، فإن خرج المجتهد عن هذه الاحتمالات وجاء باحتمال لاتدل عليه اللغة لم يكن مأجوراً معذوراً في الخطأ، لأنه ابتغى الخطأ بخروجه عن توجيه الشرع لمسالك المجتهدين.

وبحمد الله وفضله علينا لم توجد هذه الحالة من حالات النص الشرعي إلا في المسائل العملية دون الاعتقادية.. أما أمور الاعتقاد فالأمر محسوم فيها شرعًا ولايسع فيها الاختلاف.

قال أبو عبدالرحمن: ومما يقتضي فقهًا شرعيًا دقيقًا حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه الثابت في صحيح مسلم أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ومنا رجال يخطُّون. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك».

قال أبو عبدالرحمن: فسَّر ابن الأعرابي اللغوي الخط بقوله: إن الرجل يأتي عند العراف وبين يديه غلام فيأمره بأن يخط في الرمل خطوطًا كثيرة، وهو يقول: ابني عيان أسرعا البيان. ثم يأمره أن يمحو منها اثنين اثنين، ثم ينظر إلى آخر مابقي من تلك الخطوط. فإن كان الباقي منها زوجًا فهو دليل النصر والفلاح، وإن كان فردًا فهو دليل الخيبة واليأس.

والحكم في الخط أغلظ حرمة من التطير لأن التطير مناف للتوكل، أما الخط فهو ادعاء للكهانة وتصديق للمتكهن إضافة لمنافاة التوكل.

فالخط واعتقاده حرام بلاريب؛ بيد أن بعض شراح الحديث رحمة الله عليهم فسروا الحديث تفسيراً يلزم منه أن الخط مباح إذا وافق الواقع.

وتكوَّن هذا التفسير الخاطئ من وقفتين وقفوهما عند قوله صلى الله عليه وسلم: «كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك».

الوقفة الأولى: عند قوله: فذاك.. أي فذاك مصيب.

والوقفة الثانية: عند قوله: فمن وافق خطه.. فقد قال الشيخ علي بن سلطان القاري في مرقاة المفاتيح: معنى الحديث أن من وافق خطُّه خطَّ ذلك النبي في الصورة والحالة، وهي قوة الخاطر في الفراسة وكماله في العلم.

قال أبو عبدالرحمن: الصواب توجيه ابن قيم الجوزية، فقد قال رحمه الله: وقوله صلى الله عليه وسلم: فمن وافق خطه فذاك: يشبه أن يكون أراد به الزجر عنه وترْكَ التعاطي له، إذ كانوا لايصادفون معنى خط ذلك النبي، لأن خطه كان عَلَمًا لنبوته وقد انقطعت نبوته فذهبت معالمها.

والبرهان على صحة ماذهب إليه ابن قيم الجوزية من أمور كثيرة:

أولها: أن مصادفات الخط في الرمل لاعلاقة لها بالفراسة مطلقًا، لأن الفراسة توقع نتائج راجحة الاحتمال من واقع أسباب وبواعث محسوسة أو معقولة.

وخطوط الرمل ليس فيها شيء من ذلك وإنما هي محض المصادفة على يدي مُدَّعٍ للكهانة، وهي محض الكهانة على يد كاهن يتلقى أكاذيب الجن بواسطة الخطوط.

وثانيها: أن النبي الذي ذكر رسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يخط لايمكن أن يُحمل خطه على الفراسة، لأنه لاعلاقة لخطوط الرمل بالفراسة.

وعلى فرض أن الخط من ظواهر الفراسة ـ وهو افتراض باطل ـ، فلايجوز حمل أخبار الأنبياء على الفراسة؛ لأن ادعاء الفراسة للأنبياء تكذيب لصحة النبوة المبنية على التوقيف من الله سبحانه وتعالى.

وثالثها: مادام ثبت أن خبر ذلك النبي عليه الصلاة والسلام بواسطة الخط ليس كهانة ولافراسة ولاتخرُّصًا ودجلاً وإنما هو وحي أوحاه الله إليه، فمعنى ذلك أن الأخبار بواسطة الخطوط إنما تصح إذا كانت وسيلة جعلها الله لأحد أنبيائه.

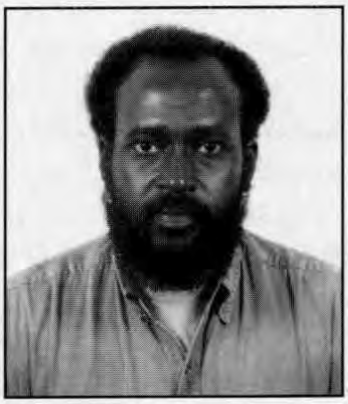
ومعنى هذا أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرَّم الخط بأسلوب من أساليب كلام العرب وهو التهكم فقال: «كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك».

فإذا كنا نعلم أن النبوة والرسالة ختمت برسول الله صلى الله عليه وسلم، فمعنى ذلك أن الخط الصادق انتهى بانتهاء زمن ذلك النبي، وأنه لن يوافق صدق خطه إلا نبي.

حوار مع

حقّار بن محمد أحمد (٢)

الدعوة إلى الإسلام تفتقر إلى التنظيم.. وهذا هو الحل..



أجراه: حسين حسن حسين ـ محمد القعطبي

في العدد الماضي تحدث الداعية الأستاذ حقار بن محمد أحمد عن نشأة حركة التنصير في أفريقيا، وكيف أن المستعمرين الأوربيين خدعوا الناس البسطاء باسم الدين والدعوة إلى السلام والحب بين الناس. وأزاح الداعية الستار عن تطور أساليب التنصير في أفريقيا، وكيف استطاع المنصرون ـ انطلاقا من هدفهم الاستعماري في الأساس ـ أن يحولوا الأفريقي الساذج البسيط إلى أداة لتنفيذ مخططاتهم، كي يستطيعوا استنزاف ثروات القارة الأفريقية لصالح العنصر الأوربي الأبيض. وكشف عن حقيقة خفيت على كثير ممن يعملون في مجال الدعوة؛ وهي أن كبار رجال الأعمال في أوربا هم من أكبر ممولي حركة التنصير في أفريقيا.

وفي هذا العدد يسلط الأستاذ الداعية الضوء على تحريفات المنصرين للإنجيل، والعلاقة بينهم وبين الفرق المنحرفة التي تدّعي انتسابها للإسلام زورا، ثم يختتم حديثه بما يجب على المسلمين فعله في هذا المجال.

نسمع كثيرًا عن نجاح الدعاة المسلمين في مواجهة المنصرين، ونسمع عن جهود قليلة تُبذل ويكون لها نتائج كبيرة كدخول قرية كاملة في الإسلام بتأثير داعية في فترة وجيزة، فمامدى صحة هذه المقولات واقترابها من الواقع؟

هذا ممكن إذا كان الداعية لديه وسائل الدعوة، من السهل دخولهم في الإسلام لسببين: الأول: أن الأفريقي يفهم أن التنصير أقوى بكثير من الدولة التي ينتسب إليها، ويشعر بأن هذا التنصير مسؤول عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية، ومسؤول عن معظم الأمراض المتفشية، بسبب وجوده في السلطة.

السبب الثاني: أن القسّ الأوربي يشعر دائما بأنه ولي أمر العنصر الأسود الأفريقي، لذا فهناك تمييز واضح بين القس الذي عنده رتبة (قس) وهو من أوربا وبين القس الأفريقي، فتجد القس الأفريقي يشعر بغربته حتى وهو في الكنيسة.

هما في الرتبة سواء، لكن الأبيض يظهر نفسه دائمًا وكأنه المسؤول الأول، وإذا تصرّف القسّ الأسود بالطريقة نفسها يتم تغييره بسرعة، وهذه العنصرية سبب في ارتداد بعض القساوسة الأفارقة من النصرانية إلى الوثنية خصوصًا المتأثرين منهم بحركة الزِّنْوَجَة لسيدار سنجور.

إذن ماالوسائل التي أشرتم إلى ضرورة أن يتحلى بها الداعية لينجح في مهمته؟

إذا سمعتم أن داعية نجح في منطقة كذا فلاتصدقوا، إلا إذا كانت لديه معرفة مقبولة بالدراسات التوراتية والإنجيلية، وكان عالمًا بلغة هؤلاء الناس. لابد أن تكون لديه معرفة بالتناقضات الموجودة بين العهد القديم والجديد، والموجودة بين نصوص العهد الجديد نفسه، وبالنسخ التي حذفوا منها وأعادوا ثم حذفوا. من لديه أدنى علم بذلك يستطيع إدخال القساوسة الأفارقة في الإسلام. فأنا شخصيا جربت ذلك عندما عدت من فرنسا.

كانت مناظراتي في فرنسا على عتبات جامعة فرانسو أبلينو، لكنني كنت دائمًا أشعر أن إقناع العنصر الأفريقي بدرجة قسيس أو أسقف بالإسلام صعب جدا، لأن علاقة العربي المسلم الجاهل بدينه بالأسود الأفريقي علاقة غير جيدة، فهذا الأفريقي في ذهنه أن العرب والإسلام شيء واحد، وهذا يشكل عائقًا رئيسًا.

عندما عدت إلى تشاد دعوني إلى مناظرة بعد أن

كلفوا قسًا خاصًا بتتبع خطواتي، فأثاروا شبهة لغوية حول القرآن الكريم. قالوا: إن محمدًا ليس أفصح العرب كما تدّعون، وإذا لم يكن كذلك فيحتمل أن يكون هناك خطأ آخر مماثل في القرآن، أو أن الذين نقلوا عنه أضافوا من عندهم أو حذفوا، ويحتمل أن يكون القرآن الكريم ليس واردًا من الله تعالى حرفيًا ثم قالوا: فَسِّر. وقد فسرت لهم، ثم قادت هذه المناظرة إلى مناظرة أخرى بعنوان: محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل، وعيسى عليه السلام في القرآن الكريم.

كان هذا هو الاحتكاك الأول بهم، وكان في المدينة قساوسة أوربيون، وفي نهاية المناظرة أعلن سبعة عشر قسيسا وشماسا إسلامهم. وكان هذا أول احتكاك لي بالقساوسة المحليين. وقد شجعني ذلك. وفي اليوم التالي وصل العدد إلى اثنين وثلاثين، وقد دفع هذا الأمر إلى جهود أخرى لي ولدعاة آخرين. وبدأنا في إرسال أناس لديهم معرفة بالدراسات الإنجيلية والتوراتية، وبدأنا نحتك مباشرة بالصفوة.

هذا كله أدى إلى ماحدث في تشاد، وهو مالم يحدث في تاريخ أفريقيا من قبل،إذ تحول عدد من المؤسسات الكنسية برمتها إلى الإسلام؛ مما أدى إلى تأسيس إدارة شؤون المهتدين، وهذه الإدارة لها مندوب في الرياض هو الدكتور عبدالله عمر نظيفة الذي يحاضر بقسم النحو والصرف في جامعة الإمام.

بدأ الأفريقي الآن يفرق بين العربي الجاهل بأمور دينه والإسلام الذي مصدره وحي إلهي. وبدأ يعرف أن العربي إنسان يصيب ويخطئ، وأن علاقته بالإسلام كعلاقة أي إنسان يعتنق الإسلام. وإذا كانت له خصوصية فهي خصوصية اللغة العربية التي تصبح لغة أي إنسان يعتنق الإسلام بحكم انتمائه لهذا الإسلام الذي نزل بهذه اللغة.

ووجدنا بعد ذلك أن مايعاني منه الأفريقي من الناحية النفسية من القسّ الأوربي قد أنساه الصورة القبيحة التي اختزنها في ذهنه عن العربي الجاهل.

وأنا بهذه المناسبة أدعو كل جهة غيورة على الدعوة أن تشارك في بناء أو فتح قسم للدراسات التوراتية والإنجيلية، ويكون هذا القسم خاصًا بتخريج الدعاة الذين لديهم مقدرة على المناظرة.

إننا عندما نقول للقساوسة مثلاً: قال الله وقال رسوله، يقولون: هذا في اعتقادكم أما نحن فلا يشكّل لدينا أدنى دليل، والمعتاد عندنا حسب التوراة والإنجيل أن كل نبي يبشر به سلفه، وليس لدينا أي شيء يبشر بنبيكم محمد.

عندئذ يرتبك المسلم ولايسعفه إلا اللجوء إلى ماظل صحيحًا، ولم تمتدّ إليه يد التحريف، وبحمد الله فهناك أكثر من ستة آلاف موضع تشير إلى مجيء شخصية ملقبة بالنبي وترتيبها بعد عيسى عليه السلام، ولاتنطبق صفات هذه الشخصية على أنبياء العهد القديم ولا على أنبياء العهد الجديد، ولا على أبطال العهد القديم، ولا على أبطال العهد الجديد.

ولم أر في تاريخ اليهود والنصارى من تجرأ على تفسير هذه الشخصية ومحاولة تأويلها، وجعلها تنطبق على شخصية نبوية معروفة من «جماليل» إلى هذه الساعة إلا ثلاثة أشخاص: اثنان منهما أسلما والثالث تهرطق.

هل هناك كتابات معينة تفيد في هذا الجانب؟

نعم، توجد نسخ الإنجيل. وازن بين النسخة المنقحة وغير المنقحة تجد فارقًا كبيرًا.. وهناك تناقضات الإنجيل خصوصا الإنجيل المطبوع في القدس، ونسخة ملك جنس في بريطانيا، وهناك كتب يُرجع إليها مثل «إظهار الحق» لرحمة الله الهندي، هذا الكتاب يعطيك محتويات آيات موجودة فيه تجاوزها النصارى بالحذف أوالتعديل، وكل مايكتبه أحمد ديدات يعتبر بحثا جيدًا.

حاولت توضيح التناقضات في موضوعي الذي قدمته لمعهد الآباء اليسوعيين لإعداد الأئمة في التنصير، الذي انتهى إلى كتيب بعنوان «محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل وعيسى عليه السلام في القرآن الكريم». واستغرق مني هذا البحث أربع سنوات وقفت فيها على (٣٩) سفرًا من أسفار العهد القديم و(٢٧) سفرًا من أسفار العهد الجديد. ماتركت آية أو فقرة، واطلعت على النسخة الماسولية ونسخة وادي قمران التي تناقض العهد القديم كثيرًا، وبعضهم يعدها نسخة غير شرعية.

البحوث الإسلامية في هذا الأمر شحيحة، ولم يكن أحد يعتقد أن عالمنا سيصبح صغيرًا جدًا، القرآن أصبح متداولاً في أيدي الكفرة يشترونه من أي مكتبة ويقرؤونه، ويبدو لهم ككتاب أدبي جميل، ويتكلمون عنه بجرأة غريبة.

ستضطر عند ذلك أن تدرس ماعندهم، طبعًا لايمكن لغير المتخصص أن يرجع إلى الكتاب المقدس، ولا أن يستخرج منه المعلومة لأن فيه تعقيدًا غريبًا، ولو أردت توثيق نص واحد ولم يكن لديك بعض المصادر، فستبقى سنوات وقد لاتصل إلى هذا النص لأن السفر الواحد أكبر من القرآن الكريم، والعهد القديم منه (٣٩) سفرًا والجديد (٢٧) سفرًا، ونسخة وادي قمران أكبر من العهد الجديد بكثير، والنسخة المأسولية أكبر من التوراة، وهناك نسخ ضائعة أخرى.

هل كل هذا من التوراة والإنجيل أم من تفسيراتهم؟

هناك جزء هو عبارة عن تفسيرات وهو الجزء الأكبر، لكن هناك آيات صحيحة أظن أنها ظلت من غير تحريف.

حاولت أن أقوم ببحث حول رسولية شخصية بولس، وجرني هذا إلى الموافقات بين القرآن والتوراة والإنجيل، فوجدت مايمكن أن يكون بحجم (١٦) سفرًا موافقة تماما للقرآن الكريم في المعلومات الواردة فيه، وكأن المعلومة نفسها كتبت بالعربية وكتبها شخص آخر بالعبرية، الموضوع نفسه والقصة نفسها من غير زيادة أو نقص.. وهذا يكشف أن هناك نسخًا لم تتغيّر. ومعلوم أن العهد القديم - حسب رأيي - غيَّر فيه اليهود الجانب المتعلق بـ: تظلم ولاتظلم، تأكل أموال الناس ولاتأكل، أي تلك التي توضح الجانب الاقتصادي من أجل أن يأخذوا حريتهم وهم يحاولون تطويع الكتاب حسب مصالحهم المادية، وهذا الجزء هو الذي ناله التغيير أكثر من غيره. كذلك المسائل المتعلقة بالأخلاق وخصوصًا الزنا غيروا فيها كثيرا، لأن أحكام الزنا عندهم متشددة فقاموا بتغييرها وتطويعها لأهوائهم. أما المعلومات العامة والأماكن الجغرافية والأشياء المتعلقة بالله تعالى فهي مطابقة تمامًا للقرآن الكريم.

أين موقع المسلمين وجهود الدعاة؟

التنصير كتاريخ وديانة دخل أفريقيا سنة ١٨٥م، وجاء الإسلام فأوقفه عند حدود مصر والسودان والحبشة، ومنذ سنة ٢٠ للهجرة وُضع حاجز أمام النصرانية بفتح مصر. أما التنصير كحركة فقد نشأت كرد فعل للهزائم في الحروب الصليبية.

بعد الحروب الصليبية بفترة أصبحت الدول الإسلامية في الشرق والغرب كأنها أصيبت بالشيخوخة. كانوا ينظرون إلى العربي بصورة قبيحة وهم يعانون المرارة، وكان العربي يتصرف وهو مطمئن، أما الأوربي فكانت تصرفاته تصرفات المتأهب للقتال.

أول فكرة كانت محاربة الإسلام فكريا وعلميًا

جوامع

حقّار بن محمد أحمد

بعد معرفة الإسلام، والفكرة الثانية كانت على النطاق العسكري، وهي تجميع الفلول المنهزمة من الحروب الصليبية، وقد تمّ تجميعها، وفي فترة وجيزة تمكنت إيزابيلا القشتالية من طرد العرب من إسبانيا (١٤٤٤ - ١٤٨٩م)، ولم تقف الهزيمة عند حدود إخراج العرب من إسبانيا، بل تابعت ايزابيلا القوات المنهزمة إلى شمال أفريقيا.

وفي الشرق تعرضت الدولة الإسلامية إلى نكبات التتار، والدول التي حكمت باسم الإسلام، لكنها كانت ذات نعرة شعوبية أو وثنية وكان العرب ضحايا الحركات العنصرية، ففقدت الدولة العربية توازنها في الشرق بسبب فقدان الشخصية العربية المسلمة نفسها توازنها لاتجاهها إلى الفلسفة وانقطاعها عن المصادر الأصيلة، وكأن الشخص الذي لايتعاطى الفلسفة ليس رجلاً مثقفًا متمدنا. الإنسان الذي يصل إلى هذه الدرجة لا شك ميت يسقط بأقل هزّة. وهذا الذي تمّ فعلاً على يد وثني مملوء بالضغينة، مع أن العربي حتى في الجاهلية يعتبر من الشعوب السامية الأكثر تمرسًا على القتال.

وهكذا تم إسقاط الدولة العربية، وتزامن ذلك مع ولادة الحركة التنصيرية؛ التي وجدت دعمًا من القوة الأوربية التي نهضت على أنقاض الصليبية وهي مملوءة بالحقد، وتعتبر نفسها مباركة بالصليب فرفعته، وكانت الصليبية والاستعمار والتنصير ثلاثة أسماء لمسمى واحد. جاؤوا إلى شمال أفريقيا، وحصل منهم ماحصل مع موسى بن وزان الفاسي، وأثاروا الفتن ووضعوا الأطر لاختلاف المسلمين من خلال إنشاء المساجد ثم تطويرها إلى طرق وفرق أدت إلى التقسيم وقصم ظهر المسلمين.

هذا يقودنا إلى الحديث عن القاديانية والبهائية والمقولة التي تشير إلى أن هناك علاقة وطيدة بين هذه الحركات والتنصير.

البهائية والقاديانية صريحة في الكفر وظاهرة، وقد أنشأها التنصير في بريطانيا، لكن هناك ماهو أخطر من هذه الحركات بكثير، وهي الاختراقات التي حدثت في داخل من يدعي تمثيله الإسلام خير تمثيل، وخصوصا في شمال أفريقيا.

الذين أنشؤوا المساجد كان بعضهم من القساوسة الذين تخرجوا في مدرسة سلمنكا، ومهمة هذه المدرسة جمع أذكى الأطفال في أوربا وتعليمهم الأسس الأساسية للتوراة والإنجيل، ثم إجبارهم على حفظ القرآن الكريم وأكبرقدر ممكن من الأحاديث وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة. كما علموهم اللغة العربية بدقة متناهية، وزودوهم باللهجات المحلية في شمال أفريقيا: البربرية بفرعيها والعربية الدارجة، ثم أرسلوهم بأسماء عربية.

ويبدأ أحدهم على أنه شيخ متصوف لاعلاقة له بالدنيا وينكب عليه الناس، فينشئ مسلكا، والمسلك يتطوّر بعد سنة أو سنتين إلى طريقة .. هذا الاختراق أخطر بكثير من القاديانية التي تعرف أنها كفرية بمجرد النظرة الأولى.

لو أردنا الموازنة بين جهود المؤسسات التنصيرية ومؤسسات الدعوة الإسلامية، فكيف تبدو لكم هذه الموازنة؟

ليس هناك مجال للموازنة بين جهود المؤسسات التنصيرية ومؤسساتنا الإسلامية، لأنك في هذه الحالة كمن يريد أن يوازن بين جبل شاهق وحجر صغير.

من الجبل؟

مع احترامي الشديد للجهود التي تبذلها المنظمات الإسلامية، فإن الإجابة ستكون بالموازنة على النحو التالي:

من الناحية الإدارية: التنصير يتمتع بوحدة قيادة وبوحدة إدارة وبوحدة خطة وبالتنسيق في التنفيذ. وحدة القيادة من البابا إلى مجلس كرادلة روما إلى مجلس أساقفة الكنائس المحلية إلى الفاتيكان إلى رسل الكرسي البابوي إلى القساوسة المحليين الإقليميين. مامن شيء ينفذ إلا بعلم كل هؤلاء وبتنسيق شديد، وليس هناك مجال للتعارض. الذي يستلم مكتبا من مكاتب التنصير أو منظمة من منظماته، لابد أن يكون قد تم تأهيله فكريا على المستوى الديني ومرّ بامتحانات كثيرة، وإداريا له قدرات إدارية يتمكن من خلالها من إدارة الهيئة أو المنظمة فنيا بشكل متكامل.

عندنا يمكن لشيخ لايعرف غير القرآن الكريم وعلومه وشيئا من الحديث أن يصبح مسؤولاً عن فرع لمنظمة. نحن نحتاج أن يكون لدينا شيخ مهندس وشيخ طبيب وشيخ إداري وشيخ محاسب.. نحن نفتقر إلى هذا وهذا كله موجود عندهم.

هل يمكنكم الموازنة من ناحية حجم النشاط؟

من حيث الحجم: نأخذ المتوسط، رقم مقابل رقم، هناك (٨٦) منظمة كنسية تقابلها (٤) منظمات إسلامية فقط، والتنصير له أربع منظمات تقريبا لها فروع في كل مدينة من مدن أفريقيا كلها، ومنظماتنا الإسلامية لها مكاتب إقليمية في أفريقيا، وليس لها وجود في كثير من الدول الأفريقية.

في تشاد على سبيل المثال، وهي دولة تخاف منها حركة التنصير نوعًا ما، ونشاطها فيها أقل من كثير من الدول الأفريقية يوجد الرقم الذي ذكرت: ٨٦ منظمة نصرانية مقابل ٤ منظمات إسلامية. وهذا ينطبق على الدول المجاورة لها كالكاميرون وبعض الدول الواقعة في وسط أفريقيا وشرقها، وهذا رقم متوسط لها جميعا، بينما يوجد في نيجيريا ١١٠ ملايين مسلم ،والمنظمات الإسلامية فيها ثلاث مقابل ٢٠٦ منظمة كنسية. وعمومًا يوجد في أفريقيا كلها ٥٠٠٠ منظمة كنسية مقابل ٤ منظمات إسلامية، والمنظمة الكنسية تعتبر كالدولة ولها فروع في كل مكان.. وهي منظمات تخصصية: بعضها مختص في مجال الزراعة، وبعضها مختص بتنصير المسلمين الصغار، وأخرى متخصصة بإخراج المسلم من الإسلام فقط وجعله ليس مسلمًا ولانصرانيًا، وبعضها متخصص في مجال الطب، وبعضها في تأهيل أعضاء جهاز الدولة بحيث يصبح غدًا رئيسًا أو وزيرًا أو رجلاً يحمي هذه المنظمات، بينما لانجد من يحمي منظماتنا الإسلامية.

تبحث المنظمات الكنسية عند أول وصولها إلى أفريقيا عن مصادر التمويل، وكيفية ضمان استمرارية هذه المصادر، فيعتمدون على التجارة والاستثمار، وبعد إنشائها، تبقى قادرة على تمويل نفسها بنفسها لو انقطعت المساعدات من المحسنين في أوربا أو في أفريقيا، بالمقابل تظل منظماتنا تمد يدها إلى السعودية أو الكويت وإلا ماتت، مع أن الإمكانات متوافرة وأرض إفريقيا تسمى العذراء ومعظم أراضيها زراعية لأنها بركانية بطبيعتها.

والوقف من الأفكار الإسلامية الأصيلة..

نعم والأيدي العاملة رخيصة كأرخص ماتكون، فلم لايكون لكل مشروع دعوي مشروع استثماري؟ الأصل أن لايسلّم المحسنون أموالهم إلى أي منظمة أفريقية أو لها مكاتب في أفريقيا هكذا أبدًا. بل

جوامع

حقّار بن محمد أحمد

يقولون لهم: نعطيكم أموالاً لنرى مشروعاً يُموِّل نفسه بنفسه وإلا اعتبرناكم فاشلين، عندئذ هذا الذي تعوّد أن يقوم بما يشبه التسوّل يتعلم الاعتماد على النفس.

ماالدور المنوط بالمسلمين في الفترة القادمة للمواجهة مع هذه الهجمة الشرسة للنصرانية؟

حسب رأيي والله أعلم:

أولاً: لابد من إنشاء جامعة إسلامية واحدة على الأقل في أي دولة من الدول الأفريقية، علماً بأن للتنصير جامعات في المدينة الواحدة، وهذه الجامعات مشاريع استثمارية وعلمية ووسائل للسيطرة على أفريقيا.

ومع هذه الجامعة تفتح مدرسة واحدة على الأقل في كل محافظة من محافظات الدول الأفريقية، ويجب أن تتمتع هذه المدارس بازدواجية المنهج فتدرس المواد الشرعية والمواد الكونية على حد سواء لتكون شهادتها معترفًا بها وخريجها لا يُهَمَّش في الحياة.. فيستطيع الدخول إلى أي كلية، ويركز على الجانب التربوي منذ البداية ويتابع الطالب بعد تخرجه حتى يتأكد من أنه يظلّ مخلصًا للإسلام أينما ذهب. هذه الازدواجية تسمح لهذا الطالب أن يصبح يوما ما في موقع يحمي منه مؤسساتنا الدعوية، كما يحمي المنصر مؤسساته. ولابد أن تكون في مناهج هذه المدارس ازدواجية للغة أيضا، إذ لايكفي تعلم العربية الفصيحة المنمقة، بل لابد من معرفة لغة هؤلاء الناس والاحتكاك بهم من أجل توصيل صوت الإسلام إليهم ودعوتهم بلغتهم.. هذا هو الداعي القوي الذي ننتظره، إذا ألهمه الله الصدق والخوف من النار وطلب الجنة ومكنه أن يعطي نفسه كلها للإسلام.

ثانيا: يجب أن يكون لهذه الجامعات فروع تخرج دعاة لديهم ثقافة توراتية إنجيلية لمحاجّة هؤلاء الناس عند عقد المناظرات، أو إيصال صوت الإسلام إلى الخاصة منهم. والخاصة متى مادخلوا في الإسلام جرّوا معهم العامة.

ثالثا: إنشاء مجلس للجمعيات الدعوية في أفريقيا يضع استراتيجية وخططًا وينسق بين المنظمات وجهودها، وأفضّل أن يكون بإشراف إحدى المنظمات الإسلامية، وأرى أن رابطة العالم الإسلامي مرشحة للقيام بهذا الدور.

رابعًا: إنشاء معهد واحد على الأقل في طول أفريقيا وعرضها بشرط أن يكون معهدًا بمعنى الكلمة يُعنى بتخريج دعاة متخصصين في مجال الدعوة، ربما كان خريجو الجامعات متخصصين في فروع عملية لكن هذا لموضوع الدعوة فقط.

خامسًا: تأسيس منظمة خاصة بتطوير اللغة العربية في أفريقيا، وأقترح أن يكون الذين في هذه المنظمة متخصصين في الشريعة الإسلامية وتاريخ الوجود العربي في أفريقيا.

ماالغرض من تأسيس هذه المنظمة؟

غرضها أن يحترم الناس اللغة العربية. فنحن نعاني من هيمنة الثقافة الغربية، ولكي نتخلص من هذه الهيمنة، لابد أن يكون لدينا قارئ جيد بالعربية، وكتاب عربي جيد، ولايكون ذلك إلا إذا كان هناك احترام للغة وحب صادق لها.

ولنحصل على عدد كاف ممن يحترمون الثقافة العربية واللغة العربية لابدّ من اللجوء إلى بعض العوامل التاريخية والدينية.

على هذه المنظمة أن تنادي بأن كل من قال: «لاإله إلا الله محمد رسول الله» فهو ينتسب إلى اللغة العربية بالنسبة نفسها التي ينتسب إليها العربي القحّ، وبحكمة إلهية، لأنها وسيلة هذا الدين البيانية، والله عز وجل يقول:﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ (النحل: ١٠٣)، ويقول سبحانه:﴿أأعجمي وعربي قل هوللذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عَمى﴾ (فصلت:٤٤)، ويقول تعالى:﴿نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين﴾(الشعراء:١٩٣-١٩٥). أي إن عنصر البيان حصره الله عز وجل في العربية لأنها ترقى على اللغات جميعها في خصائصها..

هذا العامل الديني والعامل التاريخي هو أن معظم قبائل أفريقيا خصوصًا في الوسط الغربي والشمالي تعود في أصولها إلى عنصر عربي جاء إلى أفريقيا واختلط بالأسود، وهذه العناصر فقدت لغتها بمجاورة قبائل زنجية محلية، وبعضها لايزال محتفظًا بالعربية وبالشكل العربي. هنا يقول لهم المتخصص في التاريخ: كل هذه القبائل تعود في أصولها إلى الجزيرة العربية أو اليمن أو الحيرة في العراق أو بادية الشام، والمصادر التي تؤكد هذا موجودة، وليس هناك من يحرك هذه المصادر للاستفادة منها. متى أصبحت هذه المنظمات قادرة على جرّ الناس إلى هذه العوامل التاريخية من خلال نشر الكتيبات ونشر هذا الوعي بكل الوسائل، يحصل لدينا احترام نابع من الداخل، يشكّل لنا انتماء إلى العنصر العربي وهذا مفيد جدا، وخاصة مع الذي لايتمتع بالتزام الدين فيحترم العربية، وإن كان متفرنسًا أو مثقفًا بالثقافة الإنجليزية فيميل إلى احترام العربية، لأنه حينئذ يشعر بأن ذلك يحقق له الهوية الشخصية، وعندئذ يبرز الكتاب العربي والقارئ العربي الذي يحتم ضرورة جلب الكتاب العربي إلى السوق الأفريقي.

عندئذ فالقارئ للثقافة العربية والأدب العربي والتراث العربي سينجذب إلى الإسلام. قد يظهر من هؤلاء من يصاب بمرض القومية العفلقية، لكن بوجود هذه المنظمات الإسلامية فلن تكون عند الناس القومية الضارة بالإنسان والإسلام، وحتى لو حدث فإن التحول إلى عمق الإسلام سهل، وعندئذ تتم الغلبة الحقيقية على الهيمنة الثقافية الغربية.

إذن، فأنتم تعتقدون أن التعليم هو المدخل الأول لأفريقيا؟

نعم، فالجهل شيء خطير مع وجود هيمنة ثقافية غربية. ونحن لانعادي أحدًا، وأفضل أن يتمّ كل شيء بهدوء شديد لا كما يفعل بعض الناس: الله أكبر الموت لأمريكا، الله أكبر الموت لفرنسا، هذا كلام فارغ يجلب الأعداء أكثر مما يجلب من فوائد.

إذن، فمادور الإعلام؟

الإعلام سلاح خطير، والإذاعات الأفريقية موجودة، لكن كلّ المديرين العاملين بها هم من النصارى ومن كبار المنصرين. إذاعة أفريقيا رقم (١) هي وليدة منظمة «سيكوت» التنصيرية، وتصل إلى الأفارقة في كل مكان وبلهجات محلية. إذا استمعت إليها ففيها ٣٠ دقيقة «مقطع موسيقي» و ٤٥ دقيقة «مقطع تنصيري»، وهكذا باستمرار، أما عن أفريقيا وتاريخها وإنسانها فقليل لايتجاوز ١٥ دقيقة ثم يأتي التنصير. في الشارع الأفريقي تجد كلّ الناس حتى المسلم يقول: كلامي صحيح مثل الإنجيل، إذا أراد أن يؤكد صدق مايقول، لماذا؟ لأنه يسمع في هذه الإذاعة باستمرار مقولة: هذه حقيقة إنجيلية، ومعناه حقيقة ١٠٠٪، وهذا مجرد مثال يستطيع القارئ أن يتبين منه خطورة الإعلام.

فن الحوار

د. خالص جلبي

يروى في حوار جرى بين اثنين أن أحدهما قال للآخر: هل لك في الحوار؟ فقال: على عشرة شروط!! قال: وماهي؟ قال: ألا تغضب، ولا تعجب، ولا تشغب، ولا تَحكُم، ولا تُقبِل على غيري وأنا أكلمك، ولا تجعل الدعوى دليلاً، ولا تجوّز لنفسك تأويل آيةٍ على مذهبك، إلا جوزت لي تأويلَ مثلها على مذهبي، وعلى أن تؤثر التصادق، وتنقاد للتعارف، وعلى أن كلاً منا يبغي من مناظرته؛ أن يكون الحق ضالته والرشد غايته(١).

دخل عليّ صديقي التركي (عاصم) مع طفله الصغير، الذي أعجبته مكتبتي، فانطلق في هذا العالم الجديد يكتشف، إلا أنه سرعان ماعاد إلى منعكسات اللجم التي عُوِّد عليها، فكانت والدته لا تنطق إلا بلفظ: لا تلمس وممنوع! المهم كان حرف (لا) المقدس يتكرر كالمطرقة على رأس الصبي المذهول، وبقي الطفل يتأرجح بين كلمات اللجم، والقانون الميمي الثلاثي: (مايصير، ممنوع، مافي) ونظرات التخويف، وبعض صفعات والده التربوية! وأردت أن أقوم بتجربة صغيرة مع هذا الطفل، فبدأت في (حواره)، وكان دوري أن أعلمه (أسماء الأشياء)(٢)، فبدأ الطفل فتجرأ ف (نطق)، ولكنني أدركت أن هذاالطفل (الصفحة البيضاء) يتشكل فيه (نَقشُنا) بقدر الجهد المبذول.

والإنسان في الواقع كمعادلة ليس أكثر من وضع صيرورة، ومحصلة تراكمية بطيئة للحظات الجهد الواعي خلال وحدات الزمن التي مرت قبل كل لحظة جديدة، وهذا التراكم لا يتوقف إلا بالموت، فالموت هو توقف الصيرورة، وإن كان كثير من الناس أمواتًا وهم محسوبون من الأحياء.

هذه الواقعة السابقة أثارت في ذهني بعض الذكريات من الوسط الألماني الذي عشت فيه فترة طويلة، وطريقة المرأة الألمانية في معالجة طفلها اليومية. كنت أتأملها وهي تعطيه كل الوقت: تنمي عقله باحترام السؤال، وتشجيع الحوار وطرد شبح الخوف منه، وجرأة النقد والنقد المضاد، والتعبير عن وجهة النظر أمام الملأ دون وجل أو اضطراب، جنبًا إلى جنب، مع العناية بغذائه ونظافته وحمامه اليومي، وتشكيل السلوك عنده في عدم إلقاء شيء على الأرض، أو عدم إخراج الأصوات من فمه أثناء ارتشاف الحساء أو الشاي. وأدركت أن الطفل في مجتمعنا ينبت وقد اغتيلت عنده مجموعة من الصفات النفسية الإيجابية، لعل أبرزها (روح الدهشة) في تأمل العالم، وبكسب العادات العقلية الجديدة هذه، لا ينشأ على الانطلاق وحب اكتشاف المجهول، بل على السلبية والجمود والخوف والتقليد الأعمى.

فكرة الزوجية

إن الزوجية هي القاعدة الأولى التي ينطلق منها الوجود المخلوق، فكل شيء من الأناسي والحيوان والثمار و(الأفكار) خُلِقَ زوجين وليس فردًا، وبغرض التزاوج: ﴿ومِنْ كلِّ شيءٍ خلقنا زوجين لعلكم تَذَكَّرون﴾ (الذاريات: ٤٩). فالإنسان يولد من زوجين أب وأم، كذلك الحيوان والنبات، وكذلك الأفكار، فكل فكرة هي مولودٌ من أب وأم، وفروع وأصول... وتزاوج فكرتين يخصب العلاقة بذرية جديدة صحيحة البنية، ولكن مع هذا قد يحدث زواج ولا يحصل الإنجاب، بفعل عقم أحد طرفي العلاقة أو كليهما.

إذا فشلت العلاقة الجنسية فشل الزواج في الغالب، ولكن إذا نجحت فإن هذا لا يعني أن الحياة الزوجية في مركب استقرار، بل لابد من الشرط الكامل الجامع والمانع: المودة والرحمة. فحتى يأتي الأطفال إلى الدنيا لابد من زواج بين رجل وامرأة، وحتى يرى الحيوان ذريته من أي نوع، لابد من زواج ذكره بأنثاه، وحتى يتم إثمار النبات، لابد من اللقاح والزوجية، ف (ولادة) البشر و(تكاثر) الحيوان، و(إثمار) النبات، يتوقف كله على التلاقح والزوجية. فالزوجية هي أسُّ الكون وأساس الوجود المخلوق، وهذا القانون ينطبق أيضًا على الأفكار، باعتبارها وحدات مخلوقة. وتعبير القرآن: ﴿من كل شيء﴾ يجعل القاعدة تعم المخلوقات كلها، فتدخل دنيا الأفكار تحت هذه القاعدة، باعتبار أن كل فكرة هي (مخلوقة) من مخلوقات الله، فكما أن كل شيء مخلوق، كذلك فهو خاضع لقاعدة الزوجية. ولا تشذ الأفكار عن هذه القاعدة، ففكرة (أ) عندما تتزاوج مع فكرة (ب) يتولد منهما فكرة (ج)، وكما أن كل إنسان له أب وأم، كذلك فكل فكرة لها آباؤها وأبناؤها بل وأحفادها، وكما كان للبشر أبناء وحفدة كذلك كان للأفكار ذرية صالحة وطالحة. مع هذا فإنه ليس كل الأزواج عندهم ذرية، واجتماع جاهلين هو اجتماع عقيمين،

والعقيم من طرف واحد يسبب عدم الإنجاب فكيف إذا كان من الطرفين؟!

إلا أن علاقات الأفكار في تزاوجها تخضع للقوانين التالية (أو بعضها على الأقل):

١- تقول الفكرة الأولى: الفكرة كائن حي، بمعنى أنه يحمل صفتي (الحركة والتكاثر)، وهكذا فالفكرة تحمل في ذاتها قدرة الاندفاع الذاتية، لذا يجب علينا أن لا نزهد بأي فكرة ندلي بها في أي وسط إنساني واع. والقرآن اعتبر أن الكلمة الطيبة كائن حي: ﴿كشجرة طيبة أصلُها ثابتٌ وفرعها في السَّماء. تُؤتي أُكُلَها كُلَّ حين بإذن رَبِّها﴾ (إبراهيم:٢٤، ٢٥).

٢- وتقول الفكرة الثانية: هناك في عالم الأفكار قانون (النمو أو الفناء الذاتي) فالفكرة السيئة فيها خلل صبغي (كروموزومي)، يقودها إلى وضع سرطاني فتنمو إنما بشكل شاذ، مما يؤدي بها في النهاية إلى ٣٤عيا: ﴿ومثلُ كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتُثَّت من فوق الأرضِ مالها من قرار﴾ (إبراهيم:٢٦)، خلافًا للفكرة الجيدة التي فيها صفتا (الخيرية والديمومة).

٣- وتقول الفكرة الثالثة: اعتبر القرآن أن العاقبة هي للأفكار الصالحة، فهي التي ستبقى في حين أن بقية الأفكار السيئة تمتاز بالجزئية وعدم الصمود مع عنصر الزمن: ﴿فأمَّا الزَّبدُ فيذهب جُفاءً وأمَّا ماينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرض﴾ (الرعد:١٧). وهكذا سقطت الشيوعية ومضت الفاشية وانقرضت النازية. فهو قانون تاريخي صارم.

وتقول الفكرة الرابعة: إن الكون يقوم على مبدأ التعددية، فالجبال مختلف ألوانها، والألسنة متعددة، والشعوب متباينة، والأفكار متضاربة، وهذه القاعدة متأصلة في الوجود، وعلى أساسه تمت صياغته (ولذلك خلقهم)؛ فهو جل جلاله خلقهم مختلفين حتى تبقى الحياة في حالة صحة ونمو ويقظة.

وكما أن العُقْم ليس حالة مستعصية، وثبت علميًا أنه يمكن معالجة العقيم كي يصبح منتجًا، كذلك العقول والأفكار واللقاءات. قد يحصل اجتماع، وتبادل آراء بين العُقَمَاء، ولكنه من نوع تبادل الجهل، وكثير من الاجتماعات هي في الواقع في صورة (مجاملات)، أو إذا حصل خلاف في الرأي حدث (نزاع)، فكثير من الناس يدرجون في لقاءاتهم على الانعكاس على أحد طرفي علاقة مشؤومة هي (مجاملات - منازعات)، وبذلك يتعطل الجهد العقلي في هذا اللقاء، فلا يثمر. إن جو المجاملة في البحث يعني بكلمة أخرى: التهرب والالتفاف حول الموضوع، والاحتفاظ بالخنادق الفكرية، وبذلك لا تتعرض الأفكار للتجلية والتمحيص، ومن ثم إلى النمو والبلورة، فهو تَهَرُّبٌ لبق من البحث تحت ضغط فكرة: إن البحث سيقودنا إلى النزاع واختلاف القلوب، ولذا، وحفاظًا على علاقاتنا الشخصية يجب أن نتجنب البحث الجدي والحوار الفعّال.

والكثير لا يتصور خلاف الرأي إلا في صورة (النزاع)، وإذا حصل النزاع حصل تبادل الجهل، وارتفعت الأصوات، وعمّ الصخب، وتفشّت المهاترة. لذا كان من الأفضل في مثل هذه الأجواء أن يتوقف العقل عن المتابعة، لأن العتبة العقلية تتوقف هنا، وتبدأ عتبة الحنجرة والحبال الصوتية!!.. وجرت سنة الله في خلقه أنَّ رَفْعَ الصوت في مثل هذا الجو، يتماشى بشكل طردي مع ضعف الحجة، فكما يلجأ البعض إلى ثخانة الصوت وذبذبات الحبال الصوتية، كتعويض عن عمق الحجة وقوة البرهان، فإن آخرين قد يلجؤون إلى رفع العصا أو فوهة البارودة، بل حتى سَبَطانة المدفع والرأس النووي الموجّه؟!

وفي البلاد المتخلفة توقف العقل عن العمل منذ فترة طويلة، فهو في إجازة مفتوحة حتى إشعار آخر، وعندما ينطق العقل، فعليه أن يقول قولاً لا يوقظ نائمًا ولا يزعج مستيقظًا! فلا يُرَحَّب بمقلقي (النوم العام)، ذلك أن حركة العقل خطرة أكثر من الانشطار النووي: ﴿ومايستوي الأعمى والبصيرُ. ولا الظلماتُ ولا النورُ. ولا الظلُّ ولا الحرور. ومايستوي الأحياءُ ولا الأمواتُ﴾ (فاطر:١٩-٢٢). وكما أن الحوار وتبادل الآراء هو جو زوجية الفكر فإن (الصممية) هي عقم هذا الجو. والصمم أنواع: فقد يكون عضويًا (فيزيولوجيًا)، وقد يكون لغويًا، وقد يكون ثقافيًا. فكما أن الحروف لها رموزها الخاصة بها، لكل حرف وكلمة في الدماغ، ولكل لغة، كذلك هو في عالم الأفكار. فإذا اجتمع مثلاً من يؤمن بمادية التاريخ وفائض القيمة وآلية وسائل الإنتاج، مع آخر قضى عمره في دراسة النحو والصرف والمعلقات الشعرية فقط، فإن الحوار بينهما سيكون عجبًا، ليس لأن الحروف والكلمات غير مفهومة، بل لأن موجة الحديث كلها متباينة، كما في جهاز المذياع عندما يوضع على الموجة القصيرة والبث على الموجة المتوسطة(٣).

العقل في مفترق الطرق

أحسن الفيلسوف الفرنسي (ديكارت) حينما اعتبر أن أفضل الأشياء توزعًا بين الناس بالتساوي هو العقل، لأن كل فرد يعتقد أنه أوتي منه الكفاية، فلا يريد المزيد ولا التغيير، وعندما ينظر الإنسان إلى نفسه في المرآة فقد يشتهي أن يجعل أنفه أصغر، أو شفتيه أكثر حمرة، أو جسده أكثر رشاقة، أو قامته أكثر طولاً، ولكنه لا يفكر ـ للحظة واحدة ـ أن يجعل عقله أفضل بناءً، وأكثر نضجًا، وأحسن توجيهًا، فعنده شعور بالاطمئنان لهذا الجانب، أكثر من اطمئنان التماسيح وهي تتشمس على شطآن الأنهار! ويصل ديكارت إلى تقرير هذه الحقيقة: «إن قوة الإصابة في الحكم وتمييز الحق من الباطل يشهد بأن اختلاف آرائنا لا ينشأ من أن البعض أعقل من البعض الآخر، وإنما ينشأ من أننا نوجه أفكارنا في طرق مختلفة، ولا ينظر كل منا في نفس ماينظر إليه الآخر، لأنه لا

يكفي أن يكون للمرء عقل، بل المهم هو أن يحسن استخدامه، وإن أكبر النفوس لمستعدة لأكبر الرذائل مثل استعدادها لأكبر الفضائل»(٤). وإذا كان الأمر بهذه الأهمية فيمكن وضع قاعدتين عقليتين مهمتين في الحوار والبحث، تتولد منهما نتائج في غاية الخطورة في أرض الواقع، سلبًا وإيجابًا حسب الزحزحة العقلية:

١- تقول القاعدة الأولى: في أي حوار عقلي أعتبر أن ماعندي صحيحٌ يحتمل الخطأ، وما عند الآخر خطأ يحتمل أن يكون صحيحًا.

٢- وتقول القاعدة الثانية: وهي قاعدة فكر الفيلسوف الألماني «ليسنغ»(٥) التي توضح أن الرغبة في البحث أهم من امتلاك الحقيقة، لأن امتلاك الحقيقة الحقيقية المطلقة ادعاء، وخدعة، وتعطيل للجهد الإنساني، وغير ممكنة لأنها ملك لله وحده فقط.

فالعقل بين احتكار تفسير النصوص، أو تشغيله لفهم النصوص، فالأول يقع في مغالطة أن فهمه للنص يساوي النص، والثاني يتحرر بإدراكه أن فهمه للنص هو (كم) أقل من النص دومًا - وإلا أصبح هو النص - ويتناهى إلى الصفر، لا بل قد ينقلب تحت خط الصفر فيصبح سلبيًا، كما حصل للخوارج في التاريخ الإسلامي الذين قتلوا المسلمين وأبقوا على المشركين.

يقول ليسنغ: «لو أخذ الله الحقيقة المطلقة في يمناه، والشوق الخالد للبحث عن هذه الحقيقة في يسراه، ومعها الخطأ لزام لي، وسألني أن اختار، إذًا لجثوت ذليلاً عند يسراه بكل تواضع، ثم قلت: يارب، بل أعطني الرغبة في البحث، لأن الحقيقة المطلقة لك وحدك».

والآن ماالنتائج المترتبة على العقليتين والتفكيرين؟؟

هذا التحليل يترتب عليه نتائج خطيرة، فما دامت العقلية الأولى قد رأت أن هناك هامشًا للخطأ والصواب في الفكر الذي تحمله، فإنها تميل إلى المراجعة والنقد الذاتي، ومن ثم تفتح المجال أمام تصحيح الأخطاء والنمو والنضج. في حين تنبع من العقلية الثانية نتائج مختلفة تمامًا؛ فما دامت امتلكت (الحقيقة النهائية) فهذا يعني وبشكل آلي: أنه ليس هناك هامش للخطأ، بل كل ماعندها صواب، وهذا يعني أنه لا حاجة للمراجعة، ومن ثم لا داعي لتصحيح الأخطاء إذ لا أخطاء، وكيف يخطئ من هو مقدس؟!

إذن لا نمو ولا نضج، أي (لا حياة) وبذلك يُستل نور الحياة تدريجيًا من هذه العقلية فتنتقل إلى مرحلة توقف نبض الحياة، ومن ثم التجمد والتحجر والتحول إلى كائنات محنطة في متحف الحياة المتحرك.

ومن الناحية العملية تفضي العقليتان إما إلى مجتمع مزدهر، وإما إلى حرب أهلية مبطنة أو قائمة، فحين تترك العقلية الأولى المجال لهامش من الخطأ، ومن ثم قدرة المراجعة والنقد الذاتي، فإن هذا ينبني عليه التسامح مع الطرف الآخر، بل احترامه، بل حمايته، بل طلبه، لأنه مع جدلية الطرف الآخر يميل الطرف الأول إلى التصحيح، وتقويم الأخطاء، لذا فإن الطرف الثاني يصبح ضروريًا، ليس فقط للتقابل والتوازن، بل هو ضروري لصحة الأول ودوام استقامته ونضجه، لذا كان على الطرف الأول ليس احترام وجود الطرف الثاني، بل أن يسعى لإيجاده إن لم يكن موجودًا، وليس على العكس إلغاءه إن كان موجودًا.

فرق عظيم إذن بين العقليتين.

فالعقلية الأولى تقوم على (ثنائية التفكير = الديالوج)، تفسح المجال للأخطاء، للنقد المضاد، للمراجعة الذاتية، للتسامح مع الطرف الآخر، لاحترامه لما فيه من خير عميم، ولحمايته لأنها بذلك تحمي نفسها بالذات(٦). لإيجاده إن لم يكن موجودًا، لأنها تضمن وجودها باستمرار وجوده. وإذا اختلفت مع الآخرين، أخذت بعين الاعتبار أن الموضوع لا يتعدى (خطأ في الفهم) يمكن إصلاحه بالحوار، والصبر عليه، و(قتل الموضوع بحثًا وليس قتل الإنسان إعدامًا).

أما العقلية الثانية فليس عندها قدرة المراجعة، ولماذا المراجعة مادامت تملك الحق المطلق؟ فمهمتها إذن محصورة في نشر ماتعرفه، وعلى الآخرين أن يحظوا بشرف الاستماع، من مصدر المطلق!!. هي عقلية (أحادية التفكير = المونولوج)، لا تقبل الاعتراض ولا تسمح به، فإذا قام اعتراض العقل كان شاذًا غير مرحب به، فكان مسوغًا لتصفيته (ELIMINATION) وحذفه من الوجود غير مأسوف عليه، وهي على ما يبدو طريقة سريعة واقتصادية!! فلماذا الحوار الطويل في ساعات غبية تافهة، لمردود هزيل!! في حين أن طلقة واحدة (كلمح البصر) تحل المشكلة دفعة واحدة، كما يحدث في كثير من أرجاء عالمنا اليوم!

العقلية الثانية تلغي الطرف الثاني إن كان موجودًا، وبكل حماسة وإخلاص وطمأنينة بال، بأنها نفذت إرادة الوجود، كي تنفرد هي بالوجود.

إذن فالاتجاه الأول يوجد مَلغيًا، والثاني يُلغي موجودًا، وهذا هو الفرق بين العقليتين، ومن ثم يكون هو الفرق بين الحياة والموت، ولا يستويان.

الهوامش:

(١) مجلة الفكر الإسلامي المستقبلي، العدد ١١، السنة الثالثة، ص ٤ (بتصرف).

(٢) تأمل الآية: ﴿وعلَّم آدم الأسماء كلها﴾ (البقرة: ٢١).

(٣) يراجع بالتفصيل كتاب «النقد الذاتي» للكاتب، بحث: لماذا النقد الذاتي، مؤسسة الرسالة، ص ٩٣.

(٤) رينيه ديكارت، المنهج لإحكام قيادة العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم، ترجمة فواز الملاح ومحمود صالح، دمشق، ص ٢٢.

(٥) من فلاسفة التنوير في القرن الثامن عشر الميلادي.

(٦) ومفهوم الجهاد في الإسلام ينبع من هنا في حماية الإنسان بما فيه المخالف، حتى لا يبقى إنسان يُفتَن ويضطهد من أجل آرائه: ﴿حتى لا تكون فتنة﴾(البقرة:١٩٣)، لأن المجتمع الإسلامي هو مجتمع اللاإكراه: ﴿لا إكراه في الدين﴾(البقرة:٢٥٦).

مدرسة سوكوتو وحركة الاجتهاد



د. عبدالحميد إبراهيم

شيء ما في الإسلام يتحدى الأزمنة والأمكنة، ولكنه يظل ثابتا. قد يتبدى تحت أسماء مختلفة، وقد يعايش شعوبا متباينة، ولكنه يبقى كما هو. قد نسميه جوهر الإسلام، أو روح الإسلام، أو شخصية الإسلام، أو مايحلو من الأسماء، ولكنه في النهاية يتخطى الحدود والأزمنة، قد يظهر مرة في الشرق، وأخرى في الغرب من حيث لاندري.

إن المسلمين يعرفون أن الله يبعث على رأس كل قرن من يجدد الدين، أو يكشف عن الجوهر، ويزيح المشتبهات.. ولكن أين يظهر؟ تلك هي المعجزة التي لايحسب لها حساب.

وهذا الشيء الذي يبقى متحديا، لم ينقطع في تاريخ الأمة الإسلامية، قد يظهر فجأة وبلا توقعات، وأحيانا أثناء اشتداد الأزمات وغلبة اليأس، وقد يتخذ أسماء مختلفة مثل ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ/١٣٢٨م)، ومحمد بن عبدالوهاب (ت ١٢٠٦هـ/١٧٩١م)، وعثمان بن فودي (ت١٢٣٢هـ/١٨١٧م)، ومحمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٥م)، ومحمد بن علي السنوسي (ت ١٢٧٦هـ/١٨٥٩م)، ورفاعة الطهطاوي (ت ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م)، ومحمد أحمد المهدي (١٣٠٢هـ/١٨٨٥م)، وجمال الدين الأفغاني (ت ١٣١٥هـ/١٨٩٧م)، ومحمد عبده (ت ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م)، ومحمد إقبال (ت ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م).

قد يظهر تحت أسماء مختلفة، وفي أمكنة غير متوقعة ومتباعدة قد تكون في نجد، أو في بلاد السودان، أو اليمن، أو ليبيا، أو مصر، أو الباكستان، ولكنه يظل متشابها في جوهره وأهدافه.

وهذه الحركات التجديدية هي المقياس الحقيقي لتاريخ هذه الأمة، فهي تمثل تحدياتها الخاصة، وتعبر عن تطلعاتها المشتركة.. ذلك أنه من الخطأ المنهجي والتاريخي أن نقيس نهضة الشعوب الإسلامية في العصر الحديث بمجيء الاستعمار إلى البلاد (جرت العادة أن تُعَدّ الحملة الفرنسية على مصر بداية البعث). هو خطأ منهجي أن نجتلب مقياسا من تاريخ مختلف وغريب ونطبقه على تاريخ آخر.

وهو خطأ تاريخي أيضا، فقد ثبت أن الحملة الفرنسية لم تكن بداية بعث، وإنما هي بداية انحراف عن الطريق الصحيح، وعن تلك السلسلة التي تنبثق فجأة، وتمتد على فترات التاريخ، قد تسبق الحملة الفرنسية وقد تعاصرها، وقد تأتي بعدها، لا يهم.. فلها منطقها الخاص النابع من ثقافتها.

ومدرسة سوكوتو هي حلقة في تلك السلسلة تتآزر مع ماقبلها ومع مابعدها، صاحبها الشيخ عثمان بن فودي، لم يسافر إلى الشرق، ولم يذهب إلى الحج، ولم يلتق بالشيخ محمد بن عبدالوهاب، حتى يمكن أن نتحدث عن تأثير مباشر كما يزعم البعض، ومع ذلك يظل مشابها معه ومع المهدي، ومع السنوسي، ومع غيرهم، لسبب واحد هو أنهم جميعا يستقون من جوهر واحد ثابت يتحدى، وينتمون إلى إمام كل الحركات التجديدية في العصر الحديث، وهو ابن تيمية، ومن ثم نجد عندهم جميعا دعوةً إلى التجديد، وعودة إلى القرآن والحديث، ونبذاً للبدع ومقاومةً للظلم، وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر.

وسوكوتو هذه مدينة تقع في غرب أفريقيا، في تلك البلاد التي كان العرب قديما يسمونها بلاد السودان أو بلاد التكرور، وتسمى الآن نيجيريا.

وقد أصبحت سوكوتو (شمال نيجيريا) عاصمة للخلافة الإسلامية التي تأسست ١٢١٨هـ (١٨٠٤م)، وشملت كل بلاد الهوسا في تلك المنطقة التي تقع جنوبي الجزائر وبلاد المغرب، وتمتد حتى المحيط الأطلسي جنوبا وغربا، وظلت تحكم بالشريعة الإسلامية، وتتخذ من اللغة العربية لغة رسمية لها حتى سقطت في يد الاستعمار الإنجليزي ١٣٢١هـ

(١٩٠٣م).

والشيخ عثمان بن محمد الملقب بابن فودي وهو لقب يعني «الفقيه» في اللغة الفولانية - لغة القبيلة التي ينحدر منها - قد تقمصته روح أهل السنة، فهو قد فهم مراميهم، وتنبه للخيط الدقيق جدا الذي يفصل بينهم وبين المذاهب الأخرى، ذلك الخيط يسميه الشيخ عثمان بالصراط المستقيم، ويضرب له مثلاً، في أول كتاب أصدره تحت عنوان «إحياء السنة وإخماد البدعة»، بهذا الخط الذي خَطَّهُ الرسول صلى الله عليه وسلم، وخَطَّ عن يمينه خطوطا، وعن شماله خطوطا، وأخبر أصحابه أن خط الوسط هو سبيله التي يجب اتباعها، وأن الخطوط الأخرى على الجانبين هي سبيل الشيطان التي يجب اجتنابها، ثم تلا عليهم الآية الكريمة (من سورة الأنعام:١٥٣): ﴿وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتَّبعوه ولاتَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَنْ سبيله﴾.(ص٢٢). وهذا الموقف الوسطي الذي يميز أهل السنة، وسُمُّوا من أجله بأهل الوسط (راجع الوسطية العربية للكاتب ص٢٠٤)، يميز موقف الشيخ عثمان، ليس فقط في الآراء التي يتابع فيها أهل السنة، ولكن حتى في اجتهاداته الخاصة التي يستلهم فيها روح الكتاب والسنة. ومن أمثلة ذلك مايظهر في كتابه «حصن الأفهام من جيوش الأوهام»:

أ- فوظيفة العقل عنده لاتختلف عن مفهوم أهل السنة، فهو يستخدمه في الأمور الظاهرة، لأنه ميزان الله في أرضه - إذا استعرنا تعبير الغزالي (مشكاة الأنوار ص٥٧) - الذي يحتكم إليه الناس في حياتهم الدنيا، ولكنه يضعه في موضعه، ولايضخمه، فهناك أشياء خارج إدراك العقل، لايرفضها ولكن لايعمل بها، لأنها لاتدخل في مقدور علمه «إذ لايُكلف أحد بما لم ينته إليه علمه، بل لايجوز له اتباعه ﴿ولا تَقْفُ ما لَيْسَ لك به علم﴾» (ص٧٢).

ب - وموقفه من الاختلاط بالناس أو اعتزالهم يتميز أيضا بتلك الشعرة الدقيقة؛ فالاختلاط بالناس أفضل إذا كان يسلم من أذاهم ولايتعرض لآفاتهم، وعلى هذا يُحمل قوله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أفضل من المؤمن الذي لايخالط الناس ولايصبر على أذاهم».

أما إذا كان لايصبر على أذاهم فالعزلة له أفضل، وعلى هذا يُحمل قوله صلى الله عليه وسلم لعقبة بن عامر وقد سأله ماالنجاة: «أمسك عليك لسانك».

جـ - وله بحث دقيق (٥٥ - ٥٨) يحدد فيه الألفاظ الإسلامية، وينبه للشعرة الدقيقة، أو للصراط المستقيم الذي يفصل بين لفظ ولفظ، والذي لايهتدي له إلا من أوتي البصيرة، أما غيره فقد ينحرف من حيث لايشعر إلى الجانب الآخر، فيقع في النار، وذلك مثل الاختلاط بين التوكل والتواكل، بين التأنيب والنصح، بين حب الرياسة وحب الدعوة إلى الله، بين الذل والعفو، بين التيه وشرف النفس، بين الشرف والخور، بين سوء الظن والإضرار، بين الجزع والرّقة، بين القسوة والصبر، بين بله القلب وسلامته، وغير ذلك من ألفاظ تصلح مدخلاً لقاموس إسلامي تتحدد فيه الألفاظ على طريقة أهل السنة ومذهب الوسط.

ولكن هذا الموقف الوسطي لايعني التساهل، أو اختيار طريقة التلفيق بين الآراء، بل على العكس، فإن هذا الموقف يعني الشخصية الواثقة من نفسها، التي تعرف طريقها. إنه يصدر عن حكمة تدرك الحقيقة، وتتمسك بها مهما كانت دقيقة وخافية، ومهما يحيط بها من مشتبهات، وانحرافات تلبس أحيانا ثوب الحقيقة.

وتلك هي السمات المميزة لشخصية الشيخ عثمان، الحكمة والطلب للأشياء، والتساهل في الأمور الصغيرة التي لاتمس المبدأ، فهو مشهور عنه التسامح. وكان يدخل في مناقشات مع أخيه عبد الله، الذي كان يرى تطبيق تعاليم الشريعة حرفيا، وقد خالف أستاذه جبريل الذي كان يحكم بتكفير العوام.. أما هو فيرى: «كل من يظهر الإسلام جازت لنا معاملته مالم يظهر كفره بالقول والفعل...» (ص ١٣).

ولكن هذا لايعني التساهل في المبدأ، فهو يرى أن قوله صلى الله عليه وسلم: «الدين يُسر» إنما ينصب على النوافل، أما الواجبات فلايجوز التساهل فيها. وقد تمسك بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تمسكًا جازما، وقال في نهاية كتابه «إحياء السنة»: «يجب على كل عالم ألا يسكت في هذه الأزمنة، لأن البدع قد ظهرت وشاعت فيها، وفي الحديث: إذا ظهرت الفتن وسكت العالم فعليه لعنة اللّه». وقد ظل أكثر من تسع عشرة سنة يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى استطاع في النهاية أن يقيم الخلافة الإسلامية في غربي أفريقيا.

ومدرسة الشيخ عثمان في سوكوتو مدرسة شاملة وعملية بمعنى الكلمة، فهي أولاً ذات نظريات اجتهادية، تستقي من الكتاب والسنة، وتبيح لنفسها أن تقول رأيها حتى ولو خالف الآخرين، أيا كانت منزلتهم من أهل السنة، أو من أساتذة الشيخ نفسه. وهي ثانيا تطبق هذه النظريات على المواقف العملية في حياة الناس. وهي أخيرا استطاعت أن تجسد أفكارها في حكومة إسلامية، لها قادتها العلماء، وشعبها الذي امتد في بلاد الهوسا، وتوحد لأول مرة تحت راية الإسلام والعروبة.

ومنهجه في البحث العلمي، يقوم على الموضوعية والتجدد والحيادية والبحث عن الحقيقة دون نظر للأشخاص، فهو لايتحيز لعالم ضد آخر لأسباب ذاتية، لأن الجميع مجتهدون، وغايتهم الحق، وهو كما يقول «كنز دفين يصادفه من شاء الله أن يصادفه» (حصن الأفهام ص٦٩).. ومن هنا فإن الخلاف بين العلماء لايؤدي إلى العداوة، لأن الجميع يبحثون عن الحقيقة «وحاشا أمناء الله وورثة الأنبياء أن يكون بينهم عداوة، وإنما المقصود من اعتراض المجتهد على المجتهد إظهار ماهو الحق ليعمل به، لأن كل واحدمنهم مأموم، والإمام واحد وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال بعض السلف: ما أتانا عن النبي صلى الله عليه وسلم قبلناه على الرأس، وما أتانا عن الصحابة نأخذ بعضا ونترك بعضا، وما أتانا عن غيرهم فهم رجال ونحن رجال»(ص٦٧).

إنه يناقش أساتذته أمثال الغزالي، والشيخ جبريل بطريقة موضوعية، يذكر آراءهم، ويبين منشأها، ثم يعترض عليها بطريقة مهذبة، تصلح مثالاً لأدب البحث الذي ينبغي أن يُحتذى، وسنضرب مثالا على ذلك هو مناقشته رأي الغزالي في أن معرفة المعبود مقدمة على عبادته أو باصطلاح المعاصرين «تقديم الماهية على الوجود» فيورد أولاً نص كلام الغزالي، ثم يعترض عليه بطريقة مهذبة، فيرى أن كلام الغزالي لايؤخذ على ظاهره وهو «أن العبد لايعبد ربه إلا بعد معرفة مدلول الشهادتين على التفصيل الذي على طريقة المتكلمين، وذلك باطل بالإجماع، بدليل أن الكافر يؤمن بالصلاة إذا أسلم وقت حضورها»، ثم يلتمس للغزالي فهما آخر غير هذا الظاهر «فلعل مراد الغزالي إخباره أن كل من لم يجتهد في تصحيح اعتقاده بواسطة التعلم أو مباشرة العلماء فإنه في خطر الوقوع في الكفر إن لم يعصمه الله تعالى، ولذلك قال (يعني الغزالي): «وربما تعتقد في صفاته شيئا والعياذ بالله مما يخالف الحق فتكون عبادتك هباء منثورا إن لم يعصمك الله تعالى».

ثم يستأنس على صحة هذا التفسير بآراء أخرى للغزالي تنهج النهج نفسه، فيفيد منها، وذلك مثل من لم يجتهد في تعلم مايلزمه من علم الشريعة كالصلاة والطهارة والوضوء فهو عرضة لإفساد العبادة «ولذلك قال الغزالي أيضا: فربما كنت مقيما على شيء سنين وأزمانًا مما يفسد عليك طهارتك وصلاتك وأنت لاتشعر..».

وكذلك من لم يجتهد في تعلم مايلزمه من علم التصوف مثل: السخط والأمل والرياء والكبر، فهو في خطر الوقوع في هذه الصفات «ولذلك قال الغزالي أيضا: وربما أنت مُصر على معصية من هذه المعاصي التي تستوجب بها النار، وتترك مباحا من طعام وشراب ونوم مبتغيًا به قربة الله عز وجل، فتكون عبادتك لاشيء». فهو إذن يعرض الفكرة، ويناقش مفهومها، ويستدل على بطلانها بطريقة القياس. وكل ذلك يصدر فيه عن تواضع واحترام لأساتذته.

إن قيمة تلك المدرسة لاتقاس بآرائها الاجتهادية، ولا بطريقتها في البحث فقط، ولكن الأهم من كل ذلك هو سمة الحركة المتجددة التي تميزها، فتمنحها البقاء والتحدي على مدى العصور.

إن قيمة الشيخ عثمان لاتقاس بعلمه فحسب، وإنما بمنهجه الذي ينفخ الحركة في تلاميذه، ويدفعهم دائما إلى التجدد، ومواجهة التحديات الطارئة.

وسنتابع في خطوات سمات تلك الحركة معتمدين على كتاب واحد من كتبه، وهو كتاب «حصن الأفهام»:

١ـ يبدأ فيقاوم عادة الاستنامة إلى المألوف، ويحرك الذهن لكي يفكر فيما حوله، فهو يناقش الفكرة الشائعة بين كثير من العلماء، والتي تتخفى تحت عبارات خادعة مثل: «عادة البلد كالسُّنَّة»، أو «النهي عن المنكر في بلد المنكر عين المنكر». ويرى أن مثل ذلك باطل، إنما تسرب إلى نفوس العلماء بسبب خلودهم إلى القواعد التي عليها آباؤهم. ثم يرى «أن هذ االفهم الخاطئ هو الذي أهلك الأمم الماضية، وأهلك اليهود، فقد: ﴿كَانُوا لايَتَنَاهَوْنَ عَن مُنكرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(المائدة:٧٩)»(ص٤٢)

٢ـ ثم يستثير النفوس نحو الاجتهاد، ويخلصها من التردد والخوف وضعف الثقة، وأهم شيء يصيب النفوس هو الخوف من التاريخ، ولاسيما إذا كان تاريخا ناصعًا كالتاريخ الإسلامي لايقاس إليه الحاضر بما فيه من تخاذل ومحن، فإن هذا الوضع قد يصيب النفوس باليأس، وترديد عبارات مثل «ماترك الأوائل للأواخر شيئا» «ولاجديد تحت الشمس»

إن الشيخ عثمان يقاوم ذلك بشدة، ويرى أن الله قد يفتح للمتأخر بما لم يفتح به للمتقدم «لأن فضل الله لايختص بزمان ولامكان، ﴿وأنَّ الفضلَ بيد الله يؤتيه من يشاء﴾ (الحديد:٢٩)، ﴿يَخْتَصُّ برحمته من يشاءُ والله ذو الفضل العظيم﴾(آل عمران:٧٤)» (ص٦٦).

٣ـ ويحاول بمثل هذا الجهد ألا يضفي العصمة على كتب التراث ـ ماعدا الكتاب والسنة ـ، وأن يستثير حاسة النقد والترجيح عند أتباعه حتى لايخلعوا على الأوائل هالة من التقديس تحجبهم عن طلب الحقيقة «فهم رجال ونحن رجال» (ص٦٧).

وليس عمل أحد بحجة على الآخر، ويعرض قاعدة اجتهادية يقول فيها: «نعرض ماجاءنا عن الأئمة على الكتاب والسنة، فما قبلاه قبلناه، وما لم يقبلاه تركناه، وإن كان من جنس من يقتدي، لاردًا ولا اعتراضًا عليه، لأننا لم نفهم وجه رجوعه إلى القواعد الشرعية كما فهمنا غيره»(ص٤١).

ثم يدعو إلى تمحيص التراث وعدم تقبله كلية، فمثلا ليس كل مافي كتب التفسير حقا كما ادعى البعض لمجرد أنها تفسير لكلام الله «فكتب جهلة المفسرين مملوءة بالأباطيل ومالا يليق بالأنبياء»(ص٦٦).

بل إنه يجوز الخطأ حتى من كبار العلماء، فما رُوي من اللحن البيّن في القراءات هو خطأ ولو صدر من كبار الشيوخ «لأن مانقل عنهم ليس له وجه بيّن في كلام العرب، حتى لو كان له وجه لما اتبعناه، لأن القراءة توقيفية ولامجال للرأي فيها»(ص٦٥).

ويحذر المجتهد من الوقوع في شبكة الأحكام المسبقة، ويدعوه إلى الاعتماد على اجتهاده حتى لو خالف ماهو شائع.. فقول العلماء: هذا حديث صحيح، هذا حديث حسن، هذا حديث ضعيف، ليس مصدره القطع واليقين، لأنه اجتهاد، وكل اجتهاد يقبل اجتهادا آخر، وهم يقولونه «على اعتماد الظاهر لا على اعتماد حقيقة الأمر»(ص٦٧).

ويوقظ لدى المجتهد حاسة الترجيح والاختيار، فليس كل ماورد من الأحاديث الصحيحة يوافق جميع المذاهب الأربعة، فبعضها يوافق مذهب مالك، وبعضها يوافق مذهب أبي حنيفة، وبعضها يوافق مذهب الشافعي، وبعضها يوافق مذهب أحمد، وبعضها يوافق المذاهب الأربعة.. «فكل واحد من أهل هذه المذاهب يراعي ماوافق مذهبه

فيها»(ص٦٧).

٤- حتى أهل السنة، وهي الفرقة التي ينتمي إليها الشيخ عثمان، إنما هم بشر، وعرضة للخلاف فيما بينهم فلا اعتقاد بأنهم لايختلفون، وأن كل ماورد عنهم من خلاف، إنما مضدره اللفظ لا الحقيقة، هذا الاعتقاد وَهْمٌ باطل، وغاية مايمكن قوله «إنهم لايختلفون في أمهات المسائل فيؤدي ذلك إلى أن يكون بعضهم مبتدعًا».

ثم يرى أن الرجل من أهل السنة قد يخطئ، وأن خطأه حينئذ يجب أن يُرد، خلافا لمن يتوهم أن خطأ أهل السنة لايرد «لأن كل من قال قولا خالف نص الكتاب أو نص السنة أو الإجماع أو القياس الجلي يرد، ويقال: هذا باطل، سواء كان ذلك القائل من أهل السنة أو من أهل البدعة»(ص٢٧).

٥- وبعد أن حَرَّرَ المجتهد من الأحكام السابقة، سواء كان مصدرها التاريخ أو كتب التراث، أو المذاهب السائدة، قدم له تعريفا للاجتهاد يقول فيه: «الاجتهاد بذل الوسع لتحصيل ظن بحكم من الأحكام الشرعية؛ وليس كل مجتهد مصيبا، بل مأجور لقوله صلى الله عليه وسلم: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد» (ص٢٧). وهو تعريف حركي لايجعل المجتهد يتشبث برأيه، فكما أن له الحق في أن يرد أيّ رأي خالف الكتاب والسنة، حتى لو صدر من أهل السنة، أو من كبار الشيوخ، فكذلك للغير أن يرد رأيه، لأن أحكام الاجتهاد مبنية على الظن، وليست على القطع كما يقول: «ولايرجح عالم على عالم إذ كلٌ قائل بلا اجتهاد»(ص٦٩).

ومنهج الشيخ عثمان قد طبقه في آرائه الاجتهادية حين كان يعود فقط إلى الكتاب والسنة، ويرفض ماعداهما من البدع.. ففي كتابه «إحياء السنة وإخماد البدعة» قدم لتلاميذه طائفة من الفتاوى تعتمد على الكتاب والسنة، في الإيمان، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والبيوع، والحدود، واللباس، والطعام، والشراب وغير ذلك مما يمس العبادات والمعاملات. وفي كل باب يحدد ماهو من السنة، وماهو من البدع الشيطانية.

حقا، قدم في هذا الكتاب تعريفين للبدعة، تعريف يرى أنها «ماخرج عن الكتاب والسنة» (ص٢٢)، وعلى هذا التعريف يجب تركها، وتعريف آخر يرى «أنها مالم يكن في عهده صلى الله عليه وسلم» (ص٢٦)، وعلى هذا التعريف نجد منها الممدوح والمذموم.

وكان في آرائه واجتهاداته النظرية يميل إلى التعريف الأخير للبدعة، فيتقبل منها ماهو محمود، ولكنه في تطبيقاته التي ضمنها كتابه «إحياء السنة» رفض كثيرا من المستحدثات، في المأكل والمشرب والملبس، واعتبرها من البدع الشيطانية على الرغم من أنها من الحياة اليومية التي تتجدد وتختلف مع العصور والشعوب، ولاتمس جوهر العقيدة في شيء.

وتمثل ذلك المنهج واقعيا في الخلافة الإسلامية التي أسسها الشيخ عثمان، وظلت نحو قرن من الزمان، تحكم بالشريعة الإسلامية وتحقق العدل والمساواة، واستطاعت أن تنقل المجتمع من الوثنية والقبلية والتخلف إلى نظام شامل يلقي بظلاله على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

ولم يكن المهم هو تلك الإنجازات المادية التي ركز عليها الغربيون وأتباعهم، بل المهم هو المثل والمبدأ الذي يقف وراء هذه الإنجازات؛ كما لاحظ الشيخ عثمان بن بوجيج في كتابه عن «مدرسة سوكوتو كنموذج يحتذى THE SAKKWOTO MODEL». إنه يرى أن المبدأ لم يغب عن بال قواد هذه الحركة، فالشيخ عثمان نفسه بعدأن انتصر، اعتزل الحكم وتفرغ للعلم، وأخوه الشيخ عبدالله ترك القتال وأزمع أن يحج، ولم تكن المناقشات بينهما حول الغنائم أو الحكم، بل كانت حول الاقتراب من «المثال». لقد كان الهدف في تلك الخلافة يعلو فوق الحكم والمال.

والمؤلف نفسه يختم كتابه بملاحظة ذكية، وهي أن المسلمين اليوم قد اتجهوا نحو الرأسمالية الغربية، ببرلمانها ومحاكمها، قوانينها وجامعاتها، وثقافتها، ولم يجدوا في هذا الاتجاه حلا لمشكلاتهم، وهو يقدم لهم «سوكوتو» كنموذج عملي، وجدت فيه الجماهير نفسها وحققت ذاتها، فعسى أن يكون - فيما يرجو المؤلف - هذا النموذج نافعا للحركات الإسلامية المعاصرة.

إن الشيخ عثمان قد تربع على مدى أجيال كثيرة في ضمير كل النيجيريين، يقرؤون كتبه، ويرددون فتاويه، ويكتبون الرسائل والمؤلفات عنه، ويعقدون الندوات حوله، وتلك منزلة يستحقها بلاريب، ولكن هنا أيضا مكمن الخطر، وهو أن تتحول الحركة إلى شيء مقدس يُخشى الاقتراب منه. إن هذا مخالف لمنهج الشيخ عثمان نفسه، وهو منهج كما رأيناه يتميز بالحركة، ويحذر من الوقوع في الأحكام الجاهزة، ويرى أن وراء كل مجتهد مجتهداً آخر، لأن الحق كنز دفين، قد يفتحه الله للمتأخر دون المتقدم، فالفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

إن الشيخ عثمان كما رأينا هو حلقة في سلسلة قد تظهر مرة في الشرق، وأخرى في الغرب، يضمها جوهر واحد، وهدف واحد، والوقوف عند حلقة واحدة مهما كانت منزلتها أمر مخالف لطبيعة تلك المدرسة المتجددة. لقد كان الشيخ عثمان نفسه وفي حياته يخشى على أصحابه من تقديس الأشخاص، فحين رأى أتباعه يضفون عليه الكرامة والتقديس كالمشي على الماء، واختراق النار، نهاهم عن ذلك وأنشأ من القصائدماينفي ذلك.

إن نيجيريا اليوم في حاجة إلى حلقة جديدة، تؤازر الشيخ عثمان، ولاتقف عنده. في حاجة إلى رجل جديد يبعثه الله لكي يجدد لها دينها كما فعل الشيخ عثمان في مكانه الذي يمثل حلقة جديدة، لاتتنكر لما قبلها، ولاتطغى على من بعدها.

دراسات في أدب الجزيرة العربية (١٣)

مِنْ شِعْرِ الاسْتِسْقَاءِ فِي تِهَامَةَ



د. عبدالله أبو داهش

يتميز الأدب التهامي بسمات ظاهرة فريدة، وبظواهر أدبية مهمة، وما شعر الاستسقاء، وبكاء المنازل والمساجد، والحنين، ورثاء الحجيج ببعيد من هذا القول. ولعل لامية ابن عمر الضمدي في الاستسقاء من أظهر الشواهد على هذا الواقع الأدبي، إذ هي الدليل الحقيقي لما قيل، فلقد ذكر عاكش (١٢٢١ - ١٢٩٠هـ) في معرض حديثه عن محمد بن علي بن عمر الضمدي ومناسبة قصيدته: «روي أنه عمّ الجدب هذه الجهات [المخلاف السليماني]، فخرج بالناس لصلاة الاستسقاء، وأنشد هذه القصيدة ارتجالاً بعد الصلاة، فما أكملها حتى منَّ الله سبحانه بالمطر، ولم يُحمل من موضعه إلا على رقاب الرجال لشدة ماوقع من المطر، وهذا من كراماته»(١).

لذلك يمكن القول: إن الداعي لنظم هذه القصيدة، إنما هو من أجل طلب الفرج من الله؛ لدفع ماحلّ بالناس من الضيق والشدة، حيث أمحلت الأرض، واحتاج الناس إلى المطر، وأن ذلك كان في سنة ٩٧٣هـ/١٥٦٥م، حيث: «اجتاحت المخلاف السليماني مجاعة ضارية، فتكت بالأغلب الأعم من سكانه، وعزّت الأقوات، بل لم يجد الناس مايقتاتون به، فاضطُر الأغلب من سكان البوادي إلى سحق العظام، وسفها، وقلي الدم، وأكْلِ الميتة، والأطفال، وتشتهر المجاعة في المخلاف بسنة أم العظام»(٢). ومن أبيات هذه القصيدة:

إن مسنا الضرُّ، أو ضاقت بنا الحِيَلُ ... فلن يخيب لنا في ربنا أمل

وإن أناخت بنا البلوى فإن لنا ... ربًّا يُحَوِّلُها عنّا فتنتقل

اللهُ في كل خطب حسبنا وكفى ... إليه نرفع شكوانا ونبتهل

من ذا نلوذ به في كشف كربتنا ... ومن عليه سوى الرحمن نتكل

وكيف يُرجى سوى الرحمن من أحد ... وفي حياض نداهُ النهل والعَلَل

لايرتجى الخير إلا من لديه، ولا ... لغيره يُتَوقّى الحادثُ الجلل

خزائن الله تُغني كلَّ مفتقر ... وفي يد الله للسُّؤَّال ما سألوا

وسائل الله مازالت مسائله ... مقبولة مالها رَدٌّ ولا مَلل

فافزع إلى الله واقرع باب رحمته ... فهو الرجاء لمن أعيت به السبل

يامالك الملك فادفع ماألم بنا ... فما لنا بتَولّي دفعه قِبَلُ

ضاق الخناق فنفسي ضيقة عجلى ... عنا فأنفعُ شيءٍ عندنا العجل

وَحُلَّ عُقدةَ مَحْلٍ، حلّ ساحتنا ... بضرّه عَمَّت الأمصارُ والحلل

وقُطِّعت منه أرحام لشدته ... فما لها اليومَ غيرُ الله من يصل

وأهمل الخل فيه حق صاحبه الـ ... أدنى وضاقت على كلٍّ به السبل

فرب طفل وشيخ عاجز هرم ... أمست مدامعه في الخد تنهمل

وبات يرعى نجوم الليل من قلق ... وقلبه فيه نار الجوع تشتعل

أمسى يعج من البلوى إليك، ومن ... أحواله عندك التفصيل والجمل

فأنت أكرم مَنْ يُدعى، وأرحم مَنْ ... يُرجى، وأمرك فيما شئت ممتثل

فلا ملاذ ولا ملجا سواك ولا ... إلا إليك لحي عنك مرتحل

فاشمل عبادك بالخيرات إنهم ... على الضرورة والشكوى قد اشتملوا

واسق البلاد بغيث مسبل غدق ... مبارك مرجحن مزنه هطل

سَحٍّ عميم ملث القطر ملتعق ... لرعده في هوامي سُحبِه زَجَلُ

تُكسى به الأرض ألوانًا منمنمة ... بها تعود بها أحوالها الأول

ويصبح الروض مخضرًا ومبتسما ... من النبات عليه الوشْيُ والحلل

وتخصب الأرض في شام وفي يمن ... به وتحيا سهول الأرض والجبل

يارب عطفًا فإن المسلمين معًا ... مما يقاسون في أكبادهم شعل

وقد شكوا كل مالاقوه من ضرر ... إليك يا مالك الأملاك وابتهلوا

فلايردك عن تحويل ما طلبوا ... جهل لذاك ولا عجز ولا بخل(٣)

وإزاء هذه الأبيات يمكن القول إنها قيلت ارتجالاً في المصلى عقب صلاة الاستسقاء، وإن ناظمها: ابن عمر نفسه إمام المصلين في تلك الصلاة، كما أنه أنشأ قصيدته هذه وقد بلغ من العمر عتيا، إذ دنا عمره من المائة سنة، وهذا يشير إلى مكانة هذا العالم، وعلو منزلته، ويدل على قيمة قصيدته، وما اتصفت به من ملامح الشعور الإسلامي الفياض. فالحق إنها تمثل الاتجاه الإسلامي في الأدب التهامي، وتدنو من مكونات المنهج التاريخي الأدبي الإسلامي المأمول.

ومع ذلك يمكن القول إن أبيات هذه القصيدة غير مترابطة، إذ يمكن تقديم بعضها على بعض، أو حذفها دون أن يخل هذا الأمر بمضمون القصيدة ومقصدها، ولعل ذلك يعود إلى كونها قيلت ارتجالاً، كما أن الصورة الشعرية المعهودة تعد نادرة في هذه الأبيات سواء أكانت صورًا مركبة أو جزئية، وكان الشاعر يلجأ أحيانًا إلى اللغة التقريرية المباشرة، مما أضعف لغة الشعر عنده. كما يلاحظ في أسلوب التعبير عند الشاعر أنه يميل إلى التدوير، والتضمين، وشيوع بعض الألفاظ القلقة في موضعها، إلى جانب غرابة بعض الكلمات وقاموسيتها.

ومهما يكن من أمر فقد أتت معاني هذه القصيدة رفيعة مقبولة، حيث صدرت من روح صادقة مؤمنة، وحققت إيمان هذا الشاعر في إقباله الحقيقي نحو الله تعالى في تضرع وخشية، مظهرًا صدق أحاسيسه، وشعوره، فأتت النتائج ظاهرة مؤيدة، ولذلك يمكن القول إن القيمة المعنوية لهذه القصيدة تفوق قيمتها التاريخية المهمة. وذلك كله يزيد في أهمية معاني هذه القصيدة، ومضمونها.

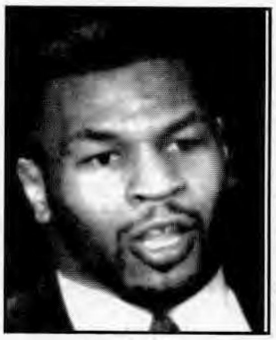
الحواشي:

(١) «الديباج الخسرواني»، مخطوط ورقة ١٢، توجد منه نسخة خطية ناقصة لدى الباحث.

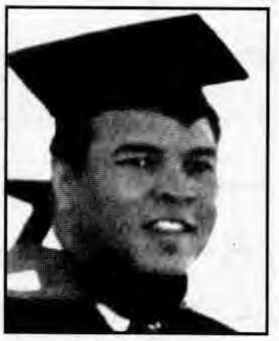
(٢) محمد بن أحمد العقيلي، «تاريخ المخلاف السليماني»، ٣٠٨/١، ط٢، مط نهضة مصر، القاهرة،١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

(٣) يمكن الوقوف عند بقية أبيات هذه القصيدة، ومايتصل بها من دراسة في رسالة «لامية ابن عمر الضمدي في الاستسقاء»، تحقيق الباحث، ط١، مط الثغر، خميس مشيط،١٤١١هـ/١٩٩١م.

مايك تايسون
في السجن عرف الله



مايك تايسون



محمد علي كلاي

كان مولده في أحد الزوايا الفقيرة من حي بروكلين الشهير بمدينة نيويورك في الولايات المتحدة الأمريكية، وسط ظروف بالغة الصعوبة؛ إذ تفتحت مداركه على الحياة ليجد والدته تكافح لتطعمه مع شقيقه وشقيقته معتمدة على مساعدات أهل الخير والجيران، بعد أن هجر والده المنزل فرارًا من مسؤولية تحمل أعباء الأسرة، فكانت طفولته قاسية، عرف فيها الحرمان من حنان الأبوة ومن لذائذ الطعام التي يشتهيها أمثاله من الأطفال.

جذور .. وحرمان

كان مايك تايسون، ذلك الأمريكي الأسمر المنحدر من جذور أفريقية يرى غيره من الأطفال يتلذذ بأكل أصابع الشيكولاته والكريم المثلج، فيبتلع ريقه، مكتفيًا بمراقبة الطفل، لعله يجود عليه بقطعة، ذلك أن من المحال أن تتمكن والدته من شراء مثل هذا الترف الذي لايعرفه أبناء الفقراء في مجتمع مادي يزداد فيه الغني غنى، والفقير فقيرًا.

قسوة الحياة التي عاشها نمت في داخله قسوة وتمردًا على مجتمعه وظروفه، ظهرت بوادرهما الأولى حين اشتد عوده قليلاً وبلغ التاسعة من عمره، ففي تلك السن الغضة اتجه إلى السرقة والنهب في شوارع مدينة نيويورك المزدحمة، كان يتبع أسلوب «اضرب واهرب»، وغالبًا ما كانت تنتظره «علقة ساخنة» من أخيه الأكبر، لاينقذه منها سوى وصول الوالدة.

اتجاه إلى العنف

كبر الطفل مايك تايسون، صار صبيًا ذا بنيان متين رغم قصر قامته نوعا ما، إذ أكسبته قسوة العيش قوة جسمانية هائلة، وطاقة كبيرة من العنف، لهذا لم يكن غريبًا أن يتعثر في دراسته، إذ إن سلوكه العدواني حال بينه وبين التركيز في الدرس، مكتفيًا بضرب زملائه، وممارسة العنف والشغب في قاعة الدرس، مما اضطر إدارة المدرسة إلى فصله نهائيا قبل أن يكمل المرحلة الإعدادية (المتوسطة)، وبدلاً من المدرسة، أُلحق بإحدى إصلاحيات الأحداث، حيث يوجد أمثاله من المشاغبين والمتمردين على المجتمع.

في الإصلاحية لم تُجْدِ مواعظ القس أو المشرف الاجتماعي في علاج السلوك العدواني لدى الصبي مايك، خاصة بعدما لمس من واقعه المعيشي كيف أن الكنيسة تبيع الوهم للفقراء، ولاتفعل شيئًا لمساعدتهم، إلا أن فترة الإصلاحية عادت عليه بالخير، إذ اكتشفه كاوس دي أماتو أحد مديري صالات التدريب على الملاكمة، الذي رأى في ذلك الصبي الساخط على حياته ومجتمعه خامة طيبة تبشر بمستقبل كبير في عالم الملاكمة، ذلك العالم الذي تَفَوَّقَ فيه السود وبزوا غيرهم.

الملاكم الصاعد

حين طرق مايك تايسون أبواب عالم الملاكمة، كانت أمامه صور من بطولات بني جنسه، وفي مقدمتهم البطل العالمي المسلم محمد علي كلاي، فتمنى أن يضاف اسمه إلى تلك القائمة الذهبية من الملاكمين الأفذاذ، وماهي إلا سنوات قلائل حتى تحقق له ماأراد، وبدأ العالم يعرف ملاكمًا صاعدًا يدعى مايك تايسون، ومالبث أن أعلن احترافه رسميًا عام ١٩٨٥م متخذًا الملاكمة مهنة بعدما كانت هواية.

ارتفعت أسهم مايك إلى القمة بعدما استطاع عام ١٩٨٦م أن يحرز بطولة العالم للوزن الثقيل على الملاكم الكندي بيبرك بالضربة القاضية في الجولة الثانية، وبدأ البطل يحس بالدنيا تقبل عليه، بعدما كانت تنفر منه، ففي سنوات قلائل انتقل من الفقر المدقع إلى قائمة أصحاب الملايين، حيث بلغ رصيده عام ١٩٨٨م مايقارب المائة مليون دولار.

لقد عشق تايسون الملاكمة لأنه كان يحس وهو يلاكم أنه يصارع الفقر الذي عاشه، فلم تنسه الملايين التي ربحها آلام الفقراء الذين نشأ بينهم، وعانى مايعانون من جوع وحرمان. إضافة إلى أن رحلته في عالم النجاح لم تكن

سهلة، ففي عالم ملاكمة المحترفين بالذات تحيا عصابات منظمة تمتص دماء الملاكمين، وويل لمن يفكر في الخروج عن طاعتها، حتى ولو كان يحمل لقب بطل العالم. إلى جانب ذلك فإن رحلة تايسون مع النجاح قد واكبتها مآس عدة، منها وفاة والدته وهو في سن التاسعة عشرة، ففقد بذلك الصدر الحنون الذي كان يحنو عليه بعاطفة صادقة، ثم لحق بها مدربه، فزادت أحزانه، وشعر مع استمرار التفرقة العنصرية في المجتمع الأمريكي أن بني وطنه لاينظرون إليه كإنسان، وإنما مجرد وسيلة للترفيه عن الرجل الأبيض وتسليته.

ترسبات سنوات الحرمان

كان لإحساس تايسون بالظلم الناتج من التفرقة العنصرية، إضافة إلى ترسبات سنوات الحرمان في الطفولة أثرهما في استمرار مشاعر العداء في نفسه تجاه مجتمعه، وميله إلى الشغب، ولم يتمكن من التخلص من هذا الاحساس والعداء المستحكم للآخرين برغم ماحققه من نجاح، وبرغم زواجه من الممثلة السمراء روبين جيفنز، إذ ظل الصبي مايك يسكن عقل الرجل فيه، ويشحنه بشريط من ذكريات أيام الحرمان والجوع والظلم، ولم تشفع الملايين ولا عشرات السيارات من مختلف الماركات في إطفاء جذوة الماضي المشتعلة داخله.

كان طبيعيًا في ظل مثل تلك الشخصية المضطربة أن ينال مايك تايسون سخط الآخرين، الذين رأوه شخصًا عنيفًا متجبرًا، يستخدم العنف وسيلة وحيدة للتفاهم، فساءت علاقاته الاجتماعية، وطلّق زوجته بعد ستة أسابيع فقط من الزواج، بعد أن أذاقها طعم قبضته الفولاذية، ووصل الأمر إلى حد أن اتهمته إحدى الفتيات بالاعتداء عليها بعد انتخابها ملكة لجمال السود في أمريكا، فحكمت عليه المحكمة بالسجن مدة ست سنوات. وفي الأول من تموز/يوليو ١٩٩١م، وصل تايسون إلى السجن المركزي لولاية إنديانا بوليس لقضاء مدة عقوبته رغم تأكيده المستمر على براءته.

اعتناقه الإسلام

لقد شاءت عناية الله تعالى أن يدخل تايسون السجن لتهتدي روحه الحيرى، فالحكم عليه بالسجن أتاح له أن يترك مستنقع الوحل الذي كان يعيش فيه، وأن يجد فرصة لمراجعة نفسه، وتأمل مجرى حياته، بل إنه وجد في نفسه «شوقا عارما للتعلم» على حد قول معلمه «محمد صديق»، الذي قام بتعليمه داخل السجن، ويكن له تايسون إعجابا كبيرا.

وفي السجن اطلع على رواية «الجذور» لاليكس هيلي، وعرف منها أصله الأفريقي، وديانة أجداده المسلمين، فهفا إلى قراءة شيء عن الإسلام، ووجد في مكتبة السجن مبتغاه. وحين بدأ يقرأ عن الإسلام أحس بقلبه ينقبض بعنف، كأن شيئًا في داخله يصرخ به: هذا دينك ودين أجدادك، بل هو دين الفطرة السليمة، فعد إليها.

عند ذلك لانت مشاعر الملاكم القاسي، ونزعت الطمأنينة روح الشر من أعماقه، حيث أسهمت قراءاته عن الإسلام في إكسابه روحًا إنسانية جديدة محبة للخير، كارهة للعنف، وما لبث أن فاجأ العالم من داخل السجن بإعلانه اعتناق الإسلام.

حين خرج مايك تايسون من سجنه في شوال ١٤١٥هـ (مارس ١٩٩٥م) بعد قضاء نصف مدة عقوبته نظرا لحسن سلوكه داخل السجن، كان شخصًا آخر، إذ ترك وراءه في السجن آثام الدنيا وشرورها، ليخرج نقيًا باحثًا عن طاعة الله، وكان أول مافعله لدى خروجه



تايسون .. يوم كان يذيق منافسيه طعم قبضته!

أن ذهب إلى المسجد ليصلي مع إخوانه في الله، وليعلن بهذا العمل مولد إنسان آخر، غير الذي كان مسجونًا قبل سنوات بعد أن تطهرت روحه وتحررت من عبودية غير الله.

يقول مايك تايسون ـ أو مالك عبدالعزيز كما سمى نفسه بعد إسلامه ـ: «أنا مسلم عن اقتناع ودراسة، درست القرآن الكريم ووجدت فيه الإجابات عن كل الأسئلة، في الحياة وفي الموت»، ويقول: «اليهود لايعترفون بعيسى المسيح، والمسيحيون لايعترفون بمحمد صلى الله عليه وسلم، لكن الإسلام يعترف باليهودية والمسيحية». ويقول أيضا: «شيء آخر يعجبني في الإسلام: كل فرد يتقرب إلى الله تعالى مباشرة وبلاوسيط. الأديب الفرنسي فولتير كتب قبل مئات السنين عن فساد رجال الدين المسيحيين لأنهم لايخدمون الدين بل السلطة»(*).

(*) الأقوال المنسوبة لتايسون منقولة باختصار عن: محمد علي صالح، مجلة «المجلة»، العدد ٧٨٩، ٢٦/٣/١٩٩٥م.

طريق الهدى

فضيلة الشيخ :
د. صالح بن سعد اللحيدان

عمر بن عبدالعزيز

هل كان عمر بن عبدالعزيز مجددًا؟

د. مصطفى زغلول ناصر فرهود، غينيا.

يقول الإمام العيني في كتابه العظيم «عمدة القاري» (ج١ ص١١٣): «وقال الإمام أحمد بن حنبل: يروى في الحديث أن الله تعالى يبعث على رأس كل مائة عام من يصحح لهذه الأمة دينها، فنظرنا في المائة الأولى فإذا هو عمر بن عبدالعزيز، قال النووي في «تهذيب الأسماء»: حَمَلَةُ العلماء في المائة الأولى على عمر»... الخ.

قلت: هذا هو الصواب، فقد جدّد عمر حقيقة التوحيد، والحكم بما أنزل اللّه تعالى قولاً وعملاً بعقل وحكمة، فأعانه الله تعالى على هذا بما وهبه من أعوان صالحين أتقياء بررة. وليس معنى التجديد أن من كان قبله كان أهل شرك كلاّ، لكن بعد معاوية رضي الله عنه حصل تساهل، فبعث الله تعالى هذا الحاكم السيد فجدد الدين وبيّنه في القول والفعل.

والتجديد أعم من هذا، فهناك تجديد في الحديث، وهناك تجديد في اللغة العربية الصحيحة، وهناك تجديد في التاريخ، وهكذا.

العم من الرضاع

هل يكون الأخ من الرضاع محرمًا لبنات من رضع معه؟

م.ل، ليبيا.

ورد في الصحيح: «يحرم من الرضاع مايحرم من النسب»، فعلى هذا تكون بنات الذي رضع معه رضاعًا شرعيًا خمس رضعات في الحولين محارم له، فهو عمّهن من الرضاع. والله أعلم.

الخضر عليه السلام

هل الخضر حي؟

ج.ج.أ، مصر.

الذي عليه أهل العلم من أهل الحديث والتفسير، وكتب الأخبار المعتمدة على صحة الرواية، وسلامة الدراية، أن الخضر ميت كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ (الأنبياء٣٤)؛ أي الخلود ودوام الحياة في دار الدنيا. والخضر عليه السلام رجل تقي وصالح، ولعله ـ حسب علمي ـ من الأنبياء، فإن سورة الكهف تُشير في إخبارها عنه أنه أُوحي إليه. والمقصود أنه قد توفاه الله تعالى، وأنه لو كان حيًا لجاء وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، لأن دينه صلى الله عليه وسلم ناسخ لكل دين قبله كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران ٨٥)، وكما قال سبحانه: ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (الأحزاب ٤٠). فلا دين بعد دين الإسلام، ولا نبي بعد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

فلمّا لم يرد بنص صحيح أنه جاء وتابع محمدًا صلى الله عيه وسلم عُلِمَ بالضرورة أنه لم يعش، ولهذا ورد في الحديث مايؤكد هذا: «والله لو كان موسى حيًا ماوسعه إلاّ اتباعي»، ولأن عيسى عليه السلام حينما يأتي ويكسر الصليب ويقتل المسيح الدجال يكون على دين محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا هو المعتبَر الصحيح ومما هو معلوم بالضرورة من النصوص والآثار. والله تعالى أعلم.

ماء السيل للزراعة

ما حكم حمل ماء السيل لسقيه في الزراعة؟

ل.ل.ل، البحرين.

مياه الأمطار التي في البر غالبا ماتتعكر عند شفطها، ولكن لا بأس بهذا إذا اندفع الضرر.

العلاج في رمضان

هل يحسن ترك العلاج في رمضان من باب التقوى؟

فيصل. ن. محمد، جدة.

فعل الأسباب المعينة على العبادة؛ كالعلاج في ليل رمضان، وفعل الأسباب الدافعة للمرض هذا هو الذي من باب التقوى لقوة العقل والبدن. والمقصود أن فعل الأسباب لاينافي التوكل.

ردود خاصة

الأخ داود. ل.ل، الجهرا ـ الكويت:

هذا بينك وبين الأقارب.

الأخ سلمان ع.ع، الرياض:

فكر بعين عاقلة، واجمع، وحلِّل، والزيارة ممكنة.

الأخ علي بن راشد بن ودنان، قطر:

أولاً: يصلك جواب خاص حول: تزكية عروض التجارة: العقار والمشتريات المعروضة للبيع. وكذا زكاة الذهب المستعمل، والأحجار الكريمة.

ثانيا: يمكن العودة إلى مايلي: ١ـ كتاب الحضارة الإسلامية أسسها ومبادؤها، للمودودي. ٢ـ تفسير سورة هود عند ابن كثير

ثالثا: «الدنيا دول» ليس حديثًا، لكنه كلام صحيح، وقد قال تعالى: ﴿وتلك الأيامُ نُداولُها بين الناس﴾(آل عمران: ١٤٠).

الشيخ صنيدان م.ل.، نجران:

«مروج الذهب» للمسعودي كتاب تاريخ فيه أحاديث مكذوبة وضعيفة، وفيه مبالغات.

الشيخ نهار. ن.أ، أحد رفيدة:

لاتصح، وماذكرته عن المرأة جيد.

الأخ سيف بن محمد بن ودنان، جيزان:

اسأل غيري.

الأخ علي م.م. ـ مكناس، المغرب:

يصلك جواب مفصل عن زراعة الأعضاء.

الأخ ضيف الله بن محمد اللحياني، حائل:

يصلك جواب مفصل حول الطلاق بلفظ واحد.

الأخ ع.م.ل، الرياض:

هذا بينك وبين المحكمة الشرعية.

الأخ سعد. ب. أ، مكة:

راجع الإمارة بجدة فهي صاحبة النظر.

الأخ س.س.أ، مكة:

فيك عجلة، انتظر، سوف يردك جواب خاص عن تقسيم الإرث وكيفية توزيعه.

الأخ عمر. م. ل. ي، الكويت:

لعلك تعود إلى «المحلى» لابن حزم جـ١ ص١٢٠/ ١٢٢، و«فتح الباري» لابن حجر جـ١ ص ١٤٠/١٥٦.

الأخ م.م.م.،سورية:

لم يقع الطلاق.

قصيدة

الحقُّ.. أنْ يرعاهُ أغلى حُبِّنا

شعر:
محمد سعد دياب

لا.. لا تقولوا إنَّهُ لَمُعاقُ   كلاَّ.. ولا هو والقُنوطُ رِفاقُ
إنْ كان قد أخْنَى عليه زمانُهُ   وَقَسَتْ على أيامِه الأطواقُ
فهو الإرادةُ.. كم تُزلزلُ ريحُها   صخرَ الطريق.. أوارُها دفَّاقُ
تتكسرُ الأهوالُ تحتَ صمودِه   ولِرَعد عَزْمَتِه الوَلودِ مذاقُ
ويَدُكُّ وجهَ المستحيلِ مُصادِمًا   مُتَوَثِّبًا نحو السُّهَا توَّاقُ
يرنو إلى هَامِ الذُرَى.. في روحِه   سَكَبَ الجسارة بَيْرقٌ خَفَّاقُ
يستصرخُ الحلمَ البعيدَ تطلُّعًا   أبدًا بمقلتِه الضُحى بَرَّاقُ
ويصوغُ من مأساتِه أهزوجةً   تهوَى العُلا.. هي بارقٌ خَلاَّقُ
ونظنُ أنَّ إعاقةً حاقت به   سَتُميتُهُ وَعْدًا.. ولاتَ لَحَاقُ
يابئسَنا الراؤونَ محنةَ عُمْرِه   هي هكذا.. يُضني يديهِ وِثَاقُ
هو شامخٌ لا يرتضي من مشفِقٍ   عطفًا.. لَكَمْ يؤذيه ذا الإشفاقُ
هو طاقةُ الإصرار لاشطٌّ لها   هو جَذْوةٌ فاضت بها الأحداقُ
ما فَتَّتَ الطلْقَ القويَّ بجفنِه   دهرٌ.. ولاشَلَّ الفؤاد خِناقُ
يَسْتَبْدِلُ اليأسَ المريرَ تفاؤلاً   سَمْحًا..و ملءُ أكُفِّهِ الإشراقُ
لاينتهي النبضُ الطمُوحُ بقلبِه   أبدًا يسافرُ نَهْرُهُ الغَيْداقُ
كَمْ نابغ حَفِلَ الرواةُ بِذكرِه   وهو المُعاقُ.. فإذْ به العملاقُ
حفر اسمه حَفْرًا.. فَضَاءَ برسمِه   تاريخُ دنيا.. هَامَت الآفاقُ
كَمْ من معاقٍ كان واحدَ عَصْرِه   زَانَ الشموسَ بهاؤه الرقراقُ
منهم أتى العلماءُ.. منهم قادةٌ   منهم ثِقاتٌ بحرُهم صَفَّاقُ
تَاهَ الوجودُ بهم.. وسَطَّرَ نورَهم   زَهْوًا.. فَهُمْ رَيْحانُه العَبَّاقُ
أنَّى التفتنا فالشواهد ثرَّةٌ   لفيالقٍ إنجازُهاسَبَّاقُ
وَشَمُوا جبين البدرِ فجرًا صادِحًا   غرسوا السَّنا.. فإذا الدُّنا إيراقُ
شُعَلٌ سمت كالذارياتِ نَصَاعَةً   عَشِبَ الطريقُ وأزهرت أوراقُ
هو هذه الأمجادُ.. هل من عَاهَةٍ   قد كَبَّلَتْهُ خُطىً.. فقيل مُعَاقُ
الحقُّ.. أنْ يَرْعَاهُ أغلى حُبِّنَا   أنَّى مَشَى.. حَفَّتْ به الأشواقُ

التوراة والقرآن وتاريخ العبريين في مصر

«موسى والخروج»

تأليف: د. موريس بوكاي

ترجمة وتعليق: د. محمد خير البقاعي

يمثل هذا النص قسمًا من المقالات التي ضمها كتاب «نظرات في القرآن Réflexions Sur Le Coran» الذي اشترك في تأليفه د. محمد طالبي و د. موريس بوكاي.

فالقسم الأول للدكتور طالبي، والثاني للدكتور بوكاي، وقد اخترت أن أترجم هذا النص لما له من أهمية في المقاربة بين المعارف الدنيوية وتعاليم الكتب المقدسة. فصاحب هذه المقالة هو الدكتور Maurice Bucaille، وهو معروف في العالم العربي من خلال كتابه "التوراة والقرآن والعلم"؛ الذي تُرجم إلى عشر لغات حيّة، وحصل على جائزة الكتاب الذهبي في عام ١٩٨٦م. وهو طبيب ممارس، له اهتمامات بالكتب المقدسة، ومن كتبه الأخرى التي تُرجمت إلى العربية: من أين أتى الإنسان L'Homme d'ou Vient-il Les reponses de La Science et des Ecrits sointes وقد صدرت كتبه عن دار النشر Seghers، الأول في عام ١٩٧٦م والثاني عام ١٩٨١م. أما الكتاب الذي اخترنا منه هذا المقال فقد صدر عام ١٩٨٩م.

وسبق لنا أن ترجمنا من هذا الكتاب مقالة عن «مساوئ الترجمات المتداولة للقرآن» ونشرناها في مجلة الفيصل الغراء، العدد ٢٠٤ - جمادى الآخرة ١٤١٤هـ/ نوفمبر - ديسمبر ١٩٩٣م ص ٥٨ - ٦٢.

ويتحدث المقال المترجم هنا عن كتابه المهم: "مومياء الفراعنة والطب Les Momies des Pharaons et la Médcine"، رعمسيس الثاني في باريس، Ramsés II à Paris, فرعون وموسى Le Pharaon et Moise هذا الكتاب الذي نال جائزة المجمع الفرنسي للتاريخ في عام ١٩٨٨م. وبانتظار أن نوفق إلى ترجمة الكتاب إلى العربية نقدم للقارئ العربي عرضًا موجزًا لما يعالجه، وقد أضفنا إليه في الحاشية ماجاء في الموسوعة العالمية عن تاريخ كلمة فرعون(*) لما لذلك من أهمية

في إيضاح مايريد المؤلف قوله، فضلاً عن الفائدة العظيمة التي يتضمنها هذا النص، والله من وراء القصد.

تاريخ العبريين في مصر: موسى والخروج

يثير التاريخ الديني الممتد من دخول العبريين إلى مصر حتى خروجهم منها بقيادة موسى، نقاطًا عديدة تقبل العرض باهتمام كبير على المعارف الدنيوية.

ويقتضي عرض بعض هذه الجوانب التي تبدو ذات أهمية خاصة التذكير أولاً ببعض المعطيات.

إن أول الأسئلة التي طرحت كانت تخص دخول العبريين إلى مصر وزمن الخروج Exode في التاريخ، والتعرف إلى ملك مصر الذي أشار إليه كل من التوراة والقرآن ببساطة باسم "فرعون".

أعتقد أنني بدأت في كتابي (التوراة والقرآن والعلم) الصادر عام ١٩٧٦م الإجابة عن ذلك، قلت حينئذ على سبيل الافتراض الذي يقترب من الترجيح: إن المقصود بفرعون موسى هو Mineptah(١) وريث رعمسيس الثاني، وإن الخروج كان في السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر قبل المسيح، ودعَّم هذا التحديد الفكرة المقبولة عموما وهي: إنَّ دخول يوسف وأبيه يعقوب تم، كما يُفْتَرض، خلال فترة حكم الهكسوس، وهذا تحديد موافق تماما لما تذكره التوراة عن إقامة مدتها أربعمئة سنة أقامها العبريون في مصر (سفر الخروج: ١٢، ٤٠).

ويتضح بهذا أن رعمسيس الثاني الذي مات بعد أن بلغ من العمر عتيًا ليس هو فرعون الخروج Le Pharaon de L'Exode، وأن وريثه Mineptah هو الفرعون الذي فقد حياته في مطاردته العبريين كما تخبرنا بذلك الكتب المقدسة دون أي لبس.

وَقُمْتُ في مرحلة تَلَتْ ذلك مع عدد كبير من المساعدين بدراسة طبية، وطبية ـ شرعية لمومياء هذَيْن الفرعَوْنَيْن بحثًا عن معطيات محتملة إضافية، وعرضت النتائج في كتابي (مومياء الفراعنة والطب، رعمسيس الثاني في باريس، فرعون وموسى)، وسمحت الدراسة المتعمقة لهذه الفترة من التاريخ الديني بإيضاح أنَّ بعضًا من معلومات الكتب المقدسة تلتقي في عصرنا مع معارف إنسانية لايرقى إليها الشك وهي: معطيات التاريخ المصري والنصوص الهيروغليفية التي تمكِّنُ تاريخية الأحداث.

وتحتل التعليمات القرآنية في هذا السياق مكانًا رائدًا، ولكي نُعطي هذه المعلومات حَقَّها من التقويم فإن موازنتها بالمعلومات التوراتية تبدو مفيدة كل الفائدة:

١- إن تسمية حاكم مصر في التوراة والقرآن تشكل أولى نقاط التفكير فيما يخص عصر «موسى» من جهة وعصر «يوسف» من جهة أخرى.

يُسَمَّى الحاكم المصري في التوراة والقرآن (عَصْرَ موسى) بـ "فرعون". وقد ظهرت الكلمة في النصوص الهيروغليفية لتسمية الحاكم في القرن الرابع عشر قبل المسيح وبالتحديد إبَّان حكم أمينوفيس الرابع، أي حوالي ١٣٧٠ قبل المسيح.

أسْمَت الكتب المقدسة الحاكم بمصطلح مطابق للمعطيات التاريخية، ولايستخدم التوراة والقرآن، في مقابل ذلك، التسمية نفسها للحاكم في عصر «يوسف».

وقد كان الأستاذ "Jacques Berque جاك بيرك"(٢) أخبرني لسنوات خلت، وأُنْسِيتُ ذلك، أن القرآن لايستخدم في هذا العصر كلمة فرعون لِيُسَمّي الحاكم؛ فهو في السورة (١٢:يوسف) مُسمّىً (ملك) فقط. في حين أن التوراة تُسَمِّي الحاكم في عصر يوسف (فرعون) مرات عديدة (سفر التكوين، الفصل ٣٩ إلى ٥٠).

ويستخدم النص مرة واحدة كلمة (ملك) ليشير في بداية قصة ابن يعقوب إلى الحاكم. إن المفارقة التاريخية واضحة في نص التوراة. وأنصح للقارئ بخصوص كلمة (فرعون) ـ أصلها والمعنى التوسعي الذي اكتسبته حتى صارت تشير إلى شخص الحاكم نفسه ـ أنْ يعود إلى الملخص الوافي والجيد الذي قدمه الأستاذ J. Vercoutter للدراسات في هذا الموضوع في مقالة (فرعون) ضمن (الموسوعة العالمية، المجلد ١٢، ص ٩١٥ من طبعة ١٩٧٣م، ١٤/٣٨٢ ـ ٣٨٤ من طبعة ١٩٨٥م).

لقد قارن J. Vercoutter المعطيات السابقة بالمعنى الذي تحمله كلمة (Élysée) في اللغة المحكية المعاصرة: إن استخدام كلمة فرعون فيه مفارقة تاريخية كاستخدام Élysée لتسمية ملك فرنسا في عصر لويس الرابع عشر.

وإنْ كُنّا اليوم نستطيع أن نفرق بين استخدام كلمتَيْ (فرعون) و (مَلِك)، فهذا بسبب المعرفة التي نملكها اليوم للهيروغليفية. ولكن هذه اللغة اختفت تماما بين القرن الثالث من تاريخنا وشامبليون في القرن التاسع عشر، ولم أستطع أن أجد

تفسيرا إنسانيًا لكيفية أنَّ القرآن في القرن السابع كان قد حدد تماما الفرق بين التسميتين.

إنَّ هذه المعاينات الموضوعية توحي إليَّ بما يلي:

- عندما أنجز رجال ألهمهم الله، نصوص التوراة كانوا يكتبون بحسب أفكار زمنهم ومعارفه، وكانوا متأثرين بأن حاكم مصر في زمنهم كان يُسَمّى (فرعون)، وكانت نتيجة ذلك أنَّهم سمُّوا في قصصهم كل حاكم في مصر (فرعون) مهما كان زمنه.

- عندما نزل القرآن للناس، وإبّان قرون قبل ذلك كان كل مايخص الهيروغليفية قد خرج من الذاكرة البشرية، مما يعني أنه لم يكن هناك في ذلك العصر لِمَخلُوق، مهما بلغ من العلم، أنْ يُسَمّي تسمية صحيحة حاكم مصر وذلك بالاسم المخصص لعصر حكمه.

إنَّه لمن المؤكد أنَّ أيَّ كاتب للنص القرآني كان مدفوعًا للتأثر بالتوراة وتكرار المخالفات في تسمية حكام مصر، لأن التوراة كانت حينئذ المصدر الوحيد لمعرفة حوادث الماضي هذه.

٢- لقد منحتني السورة رقم (١٢: يوسف) دافعًا آخر للتفكير: إنَّ لذلك علاقة بنتائج ترجمة سيئة عندما تقع عليها عيون مَنْ هو قادر على التقريب بين معارف دنيوية خاصة، وإنَّني أعتقد كل الاعتقاد أنَّ الأمر كذلك فيما يخصُّ بعض التفسيرات الموروثة في العربية لبعض الفقرات المعنية بحسب معرفتي.

أما فيما يخص التراجم(٣) فإنَّني أشير إلى أن ثماني تراجم بالفرنسية والإنجليزية وهي من التراجم الشائعة، موسومة بالخطأ نفسه في هذا الموضوع.

فالآيتان ٦٥ و٧٢ من السورة (١٢) تتحدثان عن وسيلة النقل التي استخدمها إخوة يوسف في نقل حمولتهم من القمح من مصر وهي (البعير)(٤) التي ترجمت بـ Chameau = جمل، ولو كانت هذه الترجمة صحيحة لَكُنَّا أمام مفارقة تاريخية ظاهرة.

إنه لَمِن المؤكد أنَّ نصوصًا أخرى تسبق القرآن أشارت إلى وجود الجمل كحيوان مُدَجَّن بوقت يسبق الميلاد، فالتوراة تشير إلى الجمل على أنَّه حيوان حمولة في زمن يوسف وإسحاق وحتى في زمن إبراهيم (الفصل ١٢، ٢٤، ٣٧ من سفر التكوين). ولكن هناك احتمالا كبيرا أن يكون ذلك زيادة تالية للنصوص الأولى، وقد حصلت في زمن كان فيه الجمل قد دُجِّنَ حقا.

٣- هناك حجتان دامغتان تنفيان وجود جمال مُدَجَّنة في ذلك الزمن البعيد كل البعد:

- مايذكره هنري لوت Henri Lhote حول تاريخ الجمل والدرومادير في كتابه (الناشر: Groupe Média - international - Paris) يُظهر هذا الكتاب بجلاء أنّ الجمل لم يُدَجَّن إلا في العصر الروماني.

- ليس هناك أي نص أو نقش يتحدث عن جمل استخدم كدابة. إنَّ مَنْ زار مَعْبَد أبي سنبل الضخم في النوبة، ومَنْ يعرف العدد الضخم من النقوش التي تفحصتها وأنا أعرف ذلك معرفة عناية، يجد أن النقوش التي تتحدث عن معركة قادش التي جرت على بعد مئات الكيلومترات من قواعد جيش رعمسيس الثاني، لاتذكر من الحيوانات التي سيرتها الحملة إلا الأحصنة والعجول والحمير.

ويمكن لنا أن نتخيل بسهولة أنَّه، وفي القرن الثالث عشر قبل الميلاد عندما جرت معركة قادش، لو كان الجمل مدجنًا لما كان فرعون توانى في اتخاذه دابة مثالية لقطع أصقاع واسعة جرداء.

لقد استطعت لحسن الحظ أنْ أعرض وضع هذه الكلمة على واحد من كبار المشتغلين بالإسلاميات كان في سبيله إلى ترجمة القرآن. لقد كنت بحاجة إلى رأي يُوثَقُ به كل الثقة حول ماخُيِّل إليَّ أنه خطأ من نوع لغوي ذاع وانتشر.

وبعد أن تفحص وثائقه حول تأثيل الكلمة التي تقلقني والشروح المستفيضة في «لسان العرب» بهذا الخصوص؛ أكد أنه ليس من الصواب ترجمة الكلمة بـ "جمل"، فعنده أن كلمة "بعير" تعني ببساطة: "كل ما يَحْمل"، كل ماهو "مركوب". هذا هو المعنى بحسب ما يعبر عنه جذر الكلمة في كل المعاجم العربية القديمة، وعدا عن ذلك فإنَّ الجمل مذكور في القرآن بكلمة مأخوذة من جذر آخر تماما "جَمَل" "جمل" الذي نجده في الآية (٤٠) من (سورة ٧) (٥). وأخذ على نفسه أنْ يترجم الكلمة في ترجمته المقبلة بـ "دابة حَمُولَة" أو "مركوب".

إن هذا مثال واضح على أهمية أنْ يعود المترجم إلى معارف دنيوية تلفت نظره إلى تفصيلات وتسمح بتلافي الأخطاء بنفسه، كما يظهر ضرورة إعادة النظر في مخالفات تجري على نطاق واسع!

ويمكن أنْ يكون لهذه المخالفات عواقب كبيرة وسيئة؛ إذْ تدفع بعض الذين يملكون المعارف الدنيوية الضرورية لكي يحكموا على الحالات المشار إليها هنا وأن يتخيلوا أنّ خطأ تاريخيًا قد وقع في النص القرآني.

التوراة والقرآن وتاريخ العبريين في مصر

«موسى والخروج»

إن مثل هذا الاستنتاج يتعارض في واقع الأمر مع المصدر السماوي للقرآن، أو أنه أصاب نصه بعض التحريف بالنسبة لِمَا أُنْزِل حقيقة.

إنَّ غياب أي فكرة خاطئة من هذا القبيل في القرآن الكريم يدفع إلى استبعاد أي تحفظ على النقطتين المذكورتين.

٤- إن القصة التوراتية التي تخص موسى لاتذكر اسم أي شخص، بينما تذكر القصة القرآنية شخصًا باسم «هامان» هو من حاشية فرعون، وقد طلب إليه هذا الأخير أنْ يبني صرحًا عاليًا يَسْمَحُ له، كما يقول ساخرًا مِنْ موسى، أنْ يبلغَ ربَّ عقيدته(٦) (السورة ٢٨ الآية ٣٨، والسورة ٤٠ الآية ٣٦).

وأردت أنْ أعرف إنْ لم يكن هذا الاسم يتصل باسم هيروغليفي من المحتمل أنَّه محفوظ في وثيقة من وثائق العصر، عندئذ سيكون قد حصل نقحرة(٧) translitération من لغة إلى أخرى.

ولم أكن لأرضى بإجابة إلا إذا كان مصدرها شخصية حجة فيما يخص اللغة الهيروغليفية، وتعرف في الوقت نفسه قدرًا كافيا من العربية الفصحى، وطرحت السؤال على عالم مصريات Égypto-logue فرنسي يتوافر فيه الشرطان المذكوران تماما. لقد كتبت أمامه اسم العلم العربي، ولكنني أحجمت عن إخبار مخاطبي بحقيقة النص المعنيّ، واكتفيت بإخباره أن هذا النص يعود تاريخه بشكل لايقبل النقض إلى القرن السابع الميلادي.

وكان جوابه الأول أن هذا الأصل مستحيل؛ لأن أي نص خلال كل الفترة الطويلة التي نُسِيَتْ فيها الهيروغليفية لايمكن له أن يضم اسما هو حتى ذلك الوقت مجهول وله جَرْس هيروغليفي، جَرْس كان بالتحديد لهذه الكلمة العربية. بيد أنه نصح لي بمراجعة "معجم أسماء الأشخاص في امبراطورية Ranke الجديدة"، والبحث فيه إن كان هذا الاسم الذي يمثل عندي الهيروغليفية، موجودًا فيه حقا.

لقد كان يفترض ذلك، وعند البحث وجدته مسطورًا في هذا المعجم تماما كما توقعته.

وياللمفاجأة، ها أنا فضلا عن ذلك أجد أنَّ مهنته كما عُبِّر عنها باللغة الألمانية "رئيس عمال المقالع" ولكن دون إشارة إلى تاريخ الكتابة، إلا أنها تعود إلى الامبراطورية الجديدة، عصر يقع فيه زمن موسى، وتشير المهنة المذكورة في الكتابة إلى أنّ المذكور كان مهتمًا بالبناء؛ مما يدعو إلى التفكير بالموازنة التي يمكن إجراؤها بين الأمر الذي أصدره «فرعون» في القرآن وبين هذا التحديد في الكتابة. ولكنني أحب أن ألفت النظر خصوصًا إلى الأمر المحدد التالي: هل من التصرف العقلي في شيء القول إن القرآن ألّفته يد بشرية عندما نرى أن اسمًا ذا جرس هيروغليفي، لايقبل الشك عند الخبير الذي سألناه، موجود في النص القرآني بعد أن خضع لِنَقْحرة دقيقة من المفروض أنّها وقعت في وسط مرحلة نِسْيان الكتابة الهيروغليفية؟.

لقد قادتني الفكرة التي خطرت لي بتجريب تحقيقات من نوع طبي على المومياء بَحْثًا عَنْ معطيات متممة عن الخروج، قادتني، إلى الاهتمام خصوصا بمومياء الفرعون Mineptah وأنبأ بأهمية هذا المشروع معلومتان في الكتب المقدسة:

الأولى هي معطىً توراتي: فالآيتان (٢٨، ٣٠ من الفصل ١٤ من سفر الخروج) تُخْبران أن بني إسرائيل رأوا المصريين وقد هلكوا جميعا، ميتين على ضفة ساعد البحر الذي كانوا قد عبروه منذ قليل ولم تَبْتَلَّ لهم رِجْل(٨).

ويأتي القرآن بتحديد إضافي: لقد سبق موت فرعون الذي كان على رأس مطاردي العبريين إنذار الله الذي وُجّه لفرعون بقوله تعالى (السورة ١٠، الآية ٩٢): ﴿فاليوم ننجِّيك بِبَدنك لتكون لِمَنْ خلفك آية....﴾(٩). إن المعطى التوراتي يدع مجالا للافتراض أن البحر قد لفظ أبدان كل المصريين بسرعة، وجاء القرآن بعد التوراة بقرون ليشير إلى أنَّ بَدَن فرعون قد استعيد في اليوم نفسه.

فما المعطيات الدنيوية التي يمكن مقاربتها مما جاء في الكتب المقدسة حول هذا الموضوع؟

إنها على نوعين: أحدهما يخص علم المصريات والآخر يخص الطب.

لقد عُثِرَ في عام ١٨٩٨م وفي وادي الملوك من مقبرة «طيبة» الكبرى على مومياء لم يحصل اتفاق مباشر على هويتها لأنه كان يجب انتظار استئصال الشرائط في عام ١٩٠٧م لكي تتحصل عنه أمور لارجعة فيها.

خلال تلك العملية ظهر الاسم، وعلمنا أننا بحضرة Mineptah وريث رعمسيس الثاني الذي كان عالم المصريات المشهور ماسبيرو Maspero قد اقترح عام ١٩٠٠م أنَّه يمكن أن يكون فرعون الخروج.

«موسى والخروج»

لقد عرضت في كتابي المؤلف عام ١٩٧٦م الدلائل التي تجعل من هذه الفرضية أمرًا محتملا كل الاحتمال. ويحمل آخر كتبي المذكور فيما مضى والمؤلف عام ١٩٨٧م معطيات جديدة تمضي في الاتجاه نفسه.

أوَّل المعطيات، وهو عظيم الإثارة من وجهة نظر مايقوله القرآن من استعادة البدن بعد الموت، إن بقايا فرعون التي وُجدت محنطة ومحددة الهوية تحمل أوَّل تصديق لقصة الكتاب المقدس.

وجاءت نتائج التحقيقات الطبية لتدعم الفرضية السابقة، ففي عام ١٩٧٥م جرى في القاهرة انتزاع خزعة صغيرة من النسيج العضلي بفضل المساعدة القيمة التي أسداها الأستاذ Michel Durigon وأظهر الفحص الدقيق بالمجهر حالة الحفظ التامة لأصغر الأجزاء التشريحية للعضلات. ونشير إلى أنَّ مثل هذا الحفظ التام لم يكن ممكنا لو أنَّ الجسد بقي في الماء بعض الوقت، أو حتى لو أنَّ البقاء خارج الماء كان طويلا قبل أن يخضع لأولى عمليات التحنيط. وفعلنا أكثر من ذلك ونحن مهتمون بالبحث عن الأسباب الممكنة لموت فرعون. جرت الدراسة الطبية الشرعية للمومياء بمساعدة الأستاذ Ceccaldi مدير مختبر الهوية القضائية في باريس والأستاذ Durigon، وسمحت لنا بالتحقق من وجود سبب لموت سريع كل السرعة بفعل كدمات جمجمة ـ مُخيِّة سَبَّبَتْ فجوة ذات حجم مهم في مستوى صاقورة القحف مترافقة مع آفة رضيَّة.

يتضح أن كل هذه التحققات متوافقة مع قصص الكتب المقدسة التي تشير إلى أن فرعون مات حين ارتد عليه الموج، كل هذه المعطيات الطبية معروفة في آخر كتبي (مومياء الفراعنة والطب...) مع مزيد من التدقيقات التي ليس هنا مكان التوسع في الحديث عنها.

إذن، ما الذي يجب أكثر من هذا لكي نتبين التقارب المهم الذي يجب أن نقوم به بين التعاليم الدينية والمعطيات الدنيوية؟ وتقدم لنا هذه الدراسات المعمقة توافقا أخاذًا بين تعاليم الكتب المقدسة ومعطيات التاريخ والنصوص المصرية من جهة وتصديق خلاصة الموازنة الأولى لنتائج التحقيقات الطبية من جهة أخرى. وبهذين الاتجاهين، ألا تُشكّل اليوم بقايا فرعون الخروج المحنطة آية للناس الذين يملكون من الآن فصاعداً المعطيات التي تسمح بالنظر إلى الخروج من مصر على أنَّه حادثة تاريخية واقعية؟.

الحواشي:

(*) نقدم هنا ترجمة للقسم الخاص بكلمة فرعون من المقال الذي يذكره الدكتور موريس بوكاي، وترجمتنا عن الموسوعة العالمية ١٤/٣٨٢ ـ ٣٨٣ من طبعة ١٩٨٥م يقول: تنحدر كلمة "فرعون" من النسخة الإغريقية للتوراة حيث تظهر في المخطوطة الأصلية (التكوين ١٢/١٥) بشكل (Pharao) ΦapaŴ واكتفى العبريون بنقل الكلمة المصرية المركبة على طريقتهم فجاءت Per-aâ وهي تعني حرفيًا (البيت الكبير). إنّ هذه العبارة الموثقة منذ الامبراطورية القديمة (حوالي ٢٤٠٠ قبل المسيح)، تشير في الأصل إلى القصر الملكي، وأولئك الذين يسكنونه، وهذا قريب الشبه بالفرنسية عندما يقول الفرنسيون (الإليزيه) ليشيروا في الوقت نفسه إلى مسكن رئيس الجمهورية وإلى الوظيفة الرئاسية وإلى الرئيس نفسه، مكاتبه أو الموظفين الذين يعملون فيه. لم تكن الكلمة في زمن متقدم تستخدم لتشير إلى الشخص الملكي وحده. ولم يوثق استخدامها لتسمية ملك مصر إلا في النصوص بَدْءًا من عصر العمارنه (مملكة اخناتون) حوالي ١٣٧٠ قبل المسيح، ومنذ ذلك الحين كانت عبارة Per - aâ متلوة دائمًا بصيغة (عسى أن يعيش ويكون ناجحًا وبصحة جيدة) .على أي حال وبما أنّ العبارة كانت حينئذ شائعة كفاية فإن الكتّاب كانوا يُفَضّلون غالبًا تسمية الملك بكلمة (ملك) (ناسوت Nesout) أو (السيد Seigneur) (نيب Neb) أو أيضًا بـ (جلالته Sa majesté) (هيميف Hemef).
ولم تستخدم عبارة فرعون Per - aâ إلا في آخر التاريخ المصري تحت حكم العائلة الثانية والعشرين (٩٥٠ ـ ٧٣٠ قبل المسيح) في النصوص المصرية بالطريقة نفسها التي نجدها في التوراة، أي على شكل لقب يسبق الاسم الخاص لحاكم ما، على سبيل المثال Per - aâ Sheshonq الفرعون شيشنق، وعلى ذلك فإنّ هذا الاستعمال يبقى نادرًا. كانت كلمة Per - aâ قبل زمن العائلة الثانية والعشرين مستعملة وحدها دائمًا، كما كان يُقال قديما (الباب العالي) في الحديث عن السلطان العثماني.

(١) Minephtah ou Méneptah فرعون من العائلة التاسعة عشرة (١٢٣٥–١٢٢٤ ق.م).

(٢) جاك بيرك Jacques Berque : واحد من كبار المستشرقين الفرنسيين، اهتم بالأدب القديم والقرآن الكريم، وترجم المعلقات إلى الفرنسية، وصدرت له في عام ١٩٩١م ترجمة جيدة لمعاني القرآن الكريم هي نتيجة عمل طويل ومستمر منذ وقت طويل.

(٣) حول رأي المؤلف في التراجم المتداولة للقرآن الكريم انظر ماترجمناه بعنوان «مساوئ الترجمات المتداولة للقرآن الكريم» المنشورة في مجلة الفيصل العدد ٢٠٤، جمادى الآخرة ١٤١٤هـ، ص ٥٨.

(٤) المعني هو قوله تعالى في الآية (٦٥) من سورة يوسف: ﴿ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم رُدَّت إليهم قالوا يأبانا مانبغي هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا ونَمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيْلٌ يسير﴾، وفي الآية (٧٢) من السورة نفسها: ﴿قالوا نَفْقِد صواع الملك ولِمَنْ جاء به حمل بعير وأنا به زعيم﴾.

(٥) المعني قوله تعالى في الآية (٤٠) من سورة الأعراف: ﴿إنّ الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتُفتَحُ لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط وكذلك نجزي المجرمين﴾. ولم ترد كلمة الجمل في القرآن الكريم إلاّ في هذه الآية.

(٦) المعني قوله تعالى في الآية (٣٨) من سورة القصص : ﴿وقال فرعون يأيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيري فأوقد لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحًا لعلّي أطّلع إلى إله موسى وإني لأظنُّه من الكاذبين﴾، والآية (٣٦) من سورة غافر: ﴿وقال فرعون ياهامان ابْنِ لي صرحًا لعلي أبْلُغُ الأسباب﴾.

(٧) نقحره ترجمة مقترحة لمصطلح Translitération ويعني كتابة حروف لغة بحروف لغة أخرى ككتابة الأسماء العربية بحروف لاتينية.

(٨) يقضي هذا المعطى أن (البحر) المعنيّ في التوراه "بحر (حلفاء) جونك= Mer de Joncs " وليس "البحر الأحمر = Mer de Rouge" من المفروض أن يكون ضيقًا كفاية لكي تبدو معالم الشاطئ الآخر مرئية للعبريين بعد أن قطعوه.

(٩) ﴿نُنجّيك﴾ وقرئ ﴿نُنجِّك﴾ قالوا في تفسير الأول: المعنى نُنجّيك لابفعلٍ بل نهلكك فأضمر قوله لابفعل؛ قال ابن بري: قوله: لابفعل يريد أنّه إذا نجا الإنسان ببدنه على الماء بلافعل فإنّه هالك ...، وفي الثاني أي نجعلك فوق نجوة من الأرض فنظهرك أو نلقيك عليها لتعرف، لأنّه قال: ببدنك ولم يقل بروحك ... (اللسان ـ نجا).

بختنصر

كان بختنصر من الملوك الأربعة الذين ملكوا مابين المشرق والمغرب، وكان كافرًا وثنيًا كما قال ابن عباس، وقد ذكر ابن أبي حاتم قصة عجيبة في كيفية ترقيه من حال إلى حال إلى أن ملك البلاد بعد أن كان فقيرًا مقعدًا، ضعيفًا يستعطي الناس. وتفصيل ذلك حسبما جاء عند السيوطي في تفسيره – وهو من الأحاديث الإسرائيليه – من طريق أبي هاشم العبدي، أن رجلاً صالحاً من أهل الشام دعا ربه أن يريه الثانية التي حصلت على بني إسرائيل – وجاء ذكرها في سورة الإسراء – فأُتي وهو قاعد في مصلاه قد خفق برأسه، فقيل له: الذي سألت عنه ببابل واسمه بختنصر، فعرف الرجل أنه قد استجيب له، فاحتمل جرابًا من دنانير، فأقبل حتى انتهى إلى بابل، فدخل على ملكها الفرخان فقال: إني قد جئت بمال فاقسمه بين المساكين، فأمر به فأنزل، فجمعوهم له، ثم جعل يعطيهم، وسألهم عن أسمائهم، حتى إذا فرغ ممن بحضرته قيل له: فإنه قد بقيت منهم بقايا في الرساتيق، فجعل يبعث فتاه، حتى إذا كان الليل رجع اليه فأقرأه رجلاً رجلاً، فأتى على ذكر بختنصر فقال: قف كيف قلت؟ قال: بختنصر. قال: ومابختنصر هذا؟ قال: هو أشدهم فاقة.. وهو مقعد، يأتي إليه الفارّون، فيلقي أحدهم اليه بكسرة، ويأخذ بأنفه. قال: كيف الوصول إليه، قال: إنه في خيمة له يحدث فيها، انتظر حتى أذهب إليه فأنظفها واغسّله. قال: خذ هذه الدنانير فأعطها إياه. وبعد أن أعطاه إياها رجع إلى صاحبه، فذهبا فدخلا الخيمة، فقال: ماسمك؟ قال: بختنصّر قال: من سماك بختنصر؟ قال: من عسى يسميني إلا أمي. قال: فهل لك أحد؟ قال: لا والله إني لههنا أخاف بالليل أن تأكلني الذئاب. قال: فأي الناس أشدُّ بلاء؟ قال: أنا. قال: أفرأيت إن ملكت يوماً من دهر أتجعل لي أن لاتعصيني؟ . قال: أي سيدي لايضرك أن لاتهزأ بي؟. قال: أرأيت إن ملكت مرة أتجعل لي أن لاتعصيني؟.



د. محمد بن سعد الشويعر

قال: أما هذه فلا أجعلها لك، ولكن سوف أكرمك كرامة لأأكرمها أحدًا. قال: دونك هذه الدنانير، ثم عاد إلى الشام. فقام بختنصر على رجليه، ثم انطلق فاشترى حمارًا وأرسانًا، ثم باع الحمار والأرسان واكتسى كسوة فأتى باب الملك، فجعل يشير عليهم بالرأي، وترتفع منزلته حتى انتهوا إلى أبواب من دون الملك، فقال له الملك: قد ذكر لي رجل عندك فماهو؟ . قال: مارأيت مثله قط. قال: ائتني به. فكلمه فأعجبه. قال: إن بيت المقدس وتلك الديار، قد استعصت علي، وإنا باعثون إليهم بعثًا، وإني باعث إلى البلاد من يختبرها. فنظر حينئذ إلى رجال من أهل الأرب والمكيدة فبعثهم جواسيس. فلما فصلوا إذا بختنصر قد أتى بخرجيه على بغلة، فقيل له: أين تريد؟ قال: معهم. فلما وصلوا تفرقوا، فسأل بختنصر عن أفضل أهل البلد؟ فدل عليه، فألقى خرجيه في داره، ثم سأله: ألا تخبرني عن أهل بلدك؟ قال: على الخبير سقطت؛ هم قوم فيهم كتاب فلايقيمونه، وأنبياء لايطيعونهم، وهم متفرقون. فكتب ذلك في ورقة وألقاها في خرجه. وقال: ارتحلوا. فأقبلوا حتى قدموا على الفرخان، فجعل يسأل كل رجل منهم، وهم يخبرونه. قال يابختنصر ماتقول؟ قال: قدمنا أرضًا على قوم لهم كتاب لايقيمونه، وأنبياء لايطيعونهم، وهم متفرقون. فندب الناس وبعث إليهم سبعين ألفًا، وأمَّر عليهم بختنصر، فلحق بهم البريد بأن الفرخان قد مات ولم يستخلف أحدًا.. فأخذ البيعة لنفسه وكتب بذلك كتابًا، ثم سار إلى بيت المقدس، فلما سمعوا بهم تفرقوا خوفًا، فأفسد البلاد، وقتل من قتل، وخرّب بيت المقدس، واستبى أبناء الأنبياء وفيهم دانيال.

فسمع به صاحب الدنانير فأتاه، فقال: هل تعرفني؟ قال: نعم. فأدنى مجلسه وأكرمه. ثم إن بختنصر رأى رؤيا فأفظعته، فأصبح قد نسيها. قال: عليَّ بالسحرة والكهنة. قال: أخبروني عن رؤيا رأيتها الليلة، والله لتخبرنّي بها أو لأقتلنكم. وكان قد قتل من بني إسرائيل خلقًا كثيرًا، قالوا: ماهي؟ قال: قد نسيتها. قالوا: ماعندنا من هذا علم، إلا أن ترسل إلى أبناء الأنبياء. فأرسل إليهم فقال لهم مثل القول الأول.. قالوا: غيب ولايعلم الغيب إلا الله. قال: والله لتخبرني أو لأضربن أعناقكم. قالوا: فدعنا حتى نتوضأ ونصلي وندعو الله تعالى، قال: فافعلوا. فانطلقوا، فأحسنوا الوضوء فأتوا صعيداً طيبًا فدعوا الله، فأُخبروا بها، ثم رجعوا إليه فقالوا: رأيت كأن رأسك من ذهب، وصدرك من فخار، ووسطك من نحاس، ورجليك من حديد. قال: نعم فأخبروني بتأويلها وإلا قتلتكم. قالوا: رأيت رأسك كأنه من ذهب، ملكك هذا يذهب عند رأس الحول من هذه الليلة، قال: ثم مه؟ قالوا: ثم يكون بعدك ملك يفخر على الناس، ثم يكون ملك يُخشى على الناس شدته، ثم يكون ملك لايفله شيء، إنما هو مثل الحديد: يعني الإسلام. فأمر بحصن فبُني له، بينه وبين السماء، وملأه بالرجال والحراسة، وقال لهم: لم يبق إلا هذه الليلة على تعبيرهم، فلايمرّ بكم أحد، وإن قال أنا بختنصر إلا قتلتموه مكانه، كائنًا من كان من الناس. فاهتم كل منهم بحراسة ماوكل إليه، أما بختنصر فقد اهتاج عليه بطنه في الليل، فمرّ بهم وهم نيام لقضاء حاجته، ثم لما عاد استيقظ به بعضهم. فقال: من هذا؟ قال: بختنصر. قال الحارس: هذا الذي حُذِّرنا منه منذ الليلة. فضربه فقتله.. فأصبح بختنصر قتيلاً. بعد أن ساقه الله عذابًا لبني إسرائيل بمعاصيهم كما قال تعالى: «وَإِنْ عُدتُّم عُدْنَا»(الإسراء:٨) حيث أقام بنو اسرائيل مائة سنة ببابل يعذبهم المجوس وأبناء المجوس (انظر تفسير السيوطي).

الرسائل الدبلوماسية في التراث العربي

لا مجال للمبالغة في دور الرسالة في العمل الدبلوماسي، فهي مداره ومحوره، بل يمكن النظر إلى الدبلوماسية كلها بوصفها وسيلة لإبلاغ الرسائل - شفوية كانت أم تحريرية - إلى المعنيّين بها متضمنة رؤية الدولة ونظرتها للأمور. وبطبيعة الحال هنالك مواقف معلنة ومواقف سرية، وهنالك ماهو امتناع عن اتخاذ المواقف.

وتتنوع الرسائل الدبلوماسية بتنوع تلك المواقف أو عدمها. فليس كل شيء يُكتب ويُخط، ولا كل رأي يُعلَن ويذاع، ولا كل تصويت يُخاض غماره ويُشرح الموقف فيه ويسوَّغ. ومع ذلك فإن معظم العمل الدبلوماسي يتم بواسطة الرسائل والمذكرات والمفكرات.

محمد المكي إبراهيم



متى بدأت؟

الرسالة في تراثنا الدبلوماسي فن متقدم وصناعة عريقة، يرى المؤرخون أنها بدأت منذ عصر النبوة، وحافظ عليها الخلفاء والحكام المسلمون في مختلف حقب التاريخ الإسلامي. وعن ذلك يقول القلقشندي(١):

«اعلم أن هذا الديوان - يريد ديوان الإنشاء - أول ديوان وضع في الإسلام، وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه من الصحابة رضوان الله عليهم ويكاتبونه. وكتب إلى مَنْ قَـرُبَ من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام وبعث إليهم بكتبه ورسله... وكتب لعمرو بن حزم عهدا حين وجهه إلى اليمن. وكتب لتميم الداري وإخوته بإقطاع الشام. وكتب كتاب القضية بعقد الهدنة بينه وبين قريش عام الحديبية. وكتب الأمانات أحيانًا إلى غير ذلكم مما يأتي ذكره.. وهذه المكتوبات كلها متعلقها ديوان الإنشاء بخلاف ديوان الجيش، فإن أول من وضعه ورتبه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته. وقد رأيت في سيرة لبعض المتأخرين أنه كان للنبي نيف وثلاثون كاتبا».

ولم يأت عهد من عهود الحكم الإسلامي لم يكن له كتابه المتخصصون في إنشاء الرسائل الداخلية والخارجية. ففي عهد الأمويين اشتهر عبدالحميد بن يحيى الذي قيل عنه: بدئت الكتابة بعبدالحميد وختمت بابن العميد. وفي عهد العباسيين اشتهر جماعة من الكتاب منهم الحسن بن سهل وابن المقفع وسهل بن هارون وابن العميد والصاحب بن عبّاد. وفي هذا الفن وضع المؤلفون العرب عشرات التآليف والتصانيف مثل (مواد البيان) لعلي بن خلف المتوفى سنة ٤٣٧هـ، و(القانون في ديوان الرسائل) لابن الصيرفي المتوفى سنة ٥٤٢هـ، و(قوانين الدواوين) لابن مماتي المتوفى في ٦٠٦ هـ، و(صناعة الكتاب) لأبي جعفر النحاس، و(كنز الكاتب) لكشاجم، و(كتاب الصناعتين) لأبي هلال العسكري، وغيرها كثير مما وصلنا ومما لم يصل إلينا من أوائل التآليف. والكثير من أمهات الكتب اللغوية التي نطالعها اليوم باعتبارها آثارا أدبية محضة، كانت موجهة بالأساس إلى محترفي الكتابة الديوانية؛ مثل كتاب القلقشندي الآنف الذكر، وعنوانه الكامل (صبح الأعشى في صناعة الإنشا)، ومثله في ذلك كتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة، و(المثل السائر) لابن الأثير. وذلك فضلاً عن مئات الكتب التي جرى تأليفها لمحترفي الكتابة الذين صاروا يعرفون باسم الوزراء في لاحق العصور. فقد كتب الجاحظ جملة من رسائله لصديقه الكاتب الوزير محمد بن عبدالملك الزيات. وكتب أبو حيان التوحيدي كتابه المشهور (الإمتاع والمؤانسة) لصديقه وحاميه الوزير ابن الفرات. بل إن مئات كتب التراث جرى تأليفها وإهداؤها لرجالات ديوان الإنشاء وهم في الأصل متأدبون هجروا طريق الأدب واستعاضوا عنه بالوظيفة الرفيعة ذات الطابع شبه الأدبي.

ديوان الإنشاء الذي تحدثت عنه تلك المصادر كان شاملا لكل سجلات الدولة بما فيها المكاتبات الداخلية والخارجية، والأخيرة منها هي موضوع بحثنا. وقد أفرد ابن الصيرفي في قانونه فصلا خاصا عن المتصرف في مكاتبات الأمير مع غيره من الملوك، وتطلب فيه صفات ومزايا تابعه فيها القلقشندي(٢)، وهي صفات العلم والمعرفة والفصاحة والبلاغة وحسن الألفاظ وإتقان الإنشاء وعلو الهمة وقوة العزم وكبر النفس: «فإنه يكاتب الملوك عن مَلِكه. ومكاتبة الملوك أحوج شيء إلى التفخيم والتعظيم، وذكر التهاويل الرائعة والأشياء المرعبة، فكلما كان الكاتب أقوى نفسا وأشد عزما

وأعلى همة، كان في ذلك أمضى، وعليه أقدر، وكلما نقص في ذلك نقصت مخاطبته بقدره».

لكل مقام مقال

ويستطرد ابن الصيرفي ليوضح لهذا الكاتب أصول صناعته، وما ينبغي أن يتوخى فيها من السهولة والوضوح: «ومما يحتاج أن يفهمه هذا الكاتب أن يعرف الفرق بين مخاطبة الملوك الإسلامية وبين مخاطبة الملوك المخالفين للملة واللسان، لأن مخاطبة من يتكلم باللسان العربي مشهورة المقاصد معروفة الطرائق، يستعمل فيها الأسجاع وتنميق الألفاظ وتحسينها وزخرفتها وترتيبها مع ضبط المعنى وحسن التأليف. وأما مكاتبة المخالفين للسان فإنه لا ينبغي أن يلم فيها بالألفاظ المسجوعة ولا ضرب الأمثال والتشبيهات والاستعارات، فإن ذلك إنما يستحسن مادام مفهوما في تلك اللغة وغير منقول إلى غيرها. وأكثر هذه الضروب إذا نقلت من لغة إلى لغة فسدت معانيها وعاد حسنها قبيحا. ومنها ما لايفهم بعد نقله البتة، ومنها ما إن فُهم له معنى كان غير ما قُصد، لاسيما إن كان الناقل لها مقصرا في العلم باللغتين المنقول منها والمنقول إليها. وأرى أن الأفضل في هذا الباب أن يتولى هذا الكاتب نقل مايكاتب به إن كان عارفا بلغة من يكاتبه بنفسه، وإن لم يكن عارفا بها فيتطلب من يكون عارفا بها فينقل ما يكتب به ويكتبه بخط أهل تلك اللغة ولسانهم، إما في ذيل الكتاب أو في كتاب طيه. لأنه قد لا يجد الملك الذي يصل إليه الكتاب ناقلا ماهرا عالما باللغتين، فربما أفسد الناقل المعنى فعاد الكتاب المصلح مفسدا، فيبطل الغرض الذي قصد به. وهذا باب يجب صرف العناية إليه جيدا. وليس يحتاج في مكاتبة أهل اللغات المخالفة لمواضع الحجج التي تبقى جزالتها ونضارة معانيها وبهجتها مع النقل والترجمة، وهذه المرتبة أعلى مراتب الكتابة، ولا يجب أن تناط إلا بمن كان يصلح لتولي هذا الديوان».

قدرة على المعاصرة

لقد اقتبسنا هذه الفقرة الرائعة بكاملها حتى لا يتبادر إلى ذهن امرئ ما أنها قد تعرضت من جانبنا لأيّ نوع من "التحديث"، حتى نثبت لتراثنا قدرته على المعاصرة دون أن ندعيها له ادعاء. ولا شك لدينا أن أعتى بيوت الخبرة المعاصرة لا تستطيع أن تقدم نصيحة أعظم من هذه النصيحة لمن يريد أن يكتب للدول الأجنبية كلاما مفهوما مستساغا، يؤدي المقاصد بسهولة ويسر، ويستمد جماله من قوة معانيه لا من بلاغة ألفاظه، أو بتعبير ابن الصيرفي ببراءته من الاستعارات. ويريد الكاتب القدير للرسالة العربية أن تحتفظ "بنضارة معانيها وبهجتها" حتى بعد النقل والترجمة. إنها كلمات فنان متمكن يرى عنصر البهجة والجمال في عمل إنشائي رسمي الطابع ووقور، ولكنه يدرك بقريحة الفنان العاشق لصنعته أن البهجة والجمال يمكن أن يدخلا دهاليز العمل الرسمي ويشيعان فيه الروعة والإشراق. وهذه النصائح المقصود بها الرسائل الرسمية للدولة، تنطبق تمام الانطباق على كل كتابة موجهة لغير العرب مثل الكتابة الإعلامية والدعائية، فإن مايسري على الرسائل يسري عليها من جهة السهولة والوضوح والبعد من جماليات اللغة الأصل التي لا محالة سوف يفسدها النقل والترجمة، فلا يعود هنالك معنى لإضاعة الوقت في ترصيفها وتصفيفها، فضلاً عن صرفها نظر الكاتب عن الوضوح والسلاسة وبساطة الحجج، إلى شكليات لغوية تنهار أمام الضربات الأولى (لإزميل) الناقل والمترجم.

ومن الأسباب الإضافية التي تجعلنا نسعد بهذا التوجيه التراثي أن رصفاء ابن الصيرفي من رجالات ديوان الإنشاء - إن لم يكن ابن الصيرفي نفسه - قد ألزموا أنفسهم بالعكس تماما في بعض المراسلات الداخلية التي أنشؤوها لأمرائهم، فقد التزموا الأسجاع، وأسرفوا في الاستعارات والمترادفات، وفي معظم ماكتبوا كانوا بعيدين جدا من اللغة السهلة البسيطة التي أوصى بها ابن الصيرفي. فمن حسن حظ الرسائل الموجهة للدول الأجنبية أنها سلمت من تلك الأدواء، وهو أيضًا من حسن حظ الدبلوماسية التراثية بشكل عام.

تبدأ الرسائل التراثية بالبسملة وإزجاء الحمد لله، ثم تلقى التحية إلى المهدى إليه بواحدة من الصيغ الإسلامية المتعارفة مثل (السلام عليكم) أو (السلام على من اتبع الهدى)، وتحرص على مخاطبة المهدى إليه بلقب من ألقاب التعظيم والاحترام مثل (فلان ملك الروم) أو (فلان عظيم الروم)، ولكنها لا تعمد إلى المبالغة في تعظيم المهدى إليه على غرار ما يفعل الروم والإفرنج في مكاتباتهم مع ملوك المسلمين. وتكون الرسالة مؤرخة ومختومة بحسب مااستقر عليه عمل المسلمين منذ العهد النبوي كما سبق ورأينا.

تتضح هذه المعاني بمضاهاة هذه الرسالة الواردة إلى الخليفة العباسي الراضي بالله بالرد الذي أصدره جوابًا عليها، وقد أورد النصين ابن الجوزي في كتابه (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم)(٣):

«من رومانوس وقسطنطين وأسطفانوس عظماء ملوك الروم إلى الشريف البهي ضابط سلطان المسلمين. بسم الله والابن والروح القدس الإله الواحد. الحمد لله ذي الفضل العظيم الرؤوف بعباده الجامع للمفترقات، والمؤلف للأمم المختلفة في العداوة حتى يصيروا واحدا، ولما بلغنا ما رزقته أيها الأخ الشريف الجليل من وفور العقل وتمام الأدب واجتماع الفضائل أكثر مما تقدمك من الخلفاء، حمدنا الله تعالى إذ جعل في كل أمة من يمتثل أمره........».

وجاء رد الخليفة على هذا النحو:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من عبدالله أبي العباس الإمام الراضي بالله أمير المؤمنين إلى رومانوس وقسطنطين وأسطفانوس رؤساء ملوك الروم. سلام على من اتبع الهدى وتمسك بالعروة الوثقى وسلك سبيل النجاة والزلفى...».

ومن ناحية فنية محضة، تعتبر رسالة الخليفة العباسي أقرب إلى روح عصرنا هذا حيث يستنكر الإطناب في المجاملة، والمبالغة في الألقاب، والتودد إلى الرؤساء بالمَلَق والزلفى. خاصة وأن الأوضاع الديموقراطية التي تسود عالم اليوم تضع سلطة القرار بين أيد عديدة ربما استعداها على منشئ الرسالة إفراطه في التودد والمَلَق، واعتباره الرئيس حاكما مطلقا، بينما واقع الحال أن له من الأعوان من يكاد يرتقي إلى درجة الشريك في السلطة واتخاذ القرار كالوزراء المفوضين بالتصرف والمستشارين والأعوان.

ولا شك أن كتاب الرسائل التراثية كانوا يضعون نصب أعينهم المنصب الديني للخلفاء المسلمين؛ الذي يقتضيهم أن يكونوا الحفيظين على أمر الدين الإسلامي، ومواجهة أعدائه ومخالفي ملته، الأمر الذي يمنعهم من التباسط على لسانهم مع الملوك المخالفين للملة سواء بتعظيم شأنهم أكثر من اللازم، أو بتلقيبهم بألقاب الأخوة والأصدقاء كما هو الحال في عصرنا هذا؛ حيث غدت أمثال هذه الألقاب جزءًا من مواضعات العصر التي لا تعني شيئًا محددًا، واقتضى الخطاب العصري استعمالها حتى حين تنعدم العلاقات الودية بين رئيسي البلدين المعنيين.

رسائل استفزازية

والمشاهد في الرسائل التراثية التزامها حدود

الأدب العام في التخاطب بين الملوك، وإذا كان هنالك من استثناءات قليلة فإن الداعي إليها ليس سوء الأدب، وإنما - أحيانًا - ضرورات الحرب ومايتبعها من الإكثار من التهديد والوعيد. فمن ذلك أن ملك الروم أرسل إلى الخليفة المعتصم كتابا يتهدده فيه فأمر بجوابه، فلما قُرئ عليه الرد الذي أُعد له، استضعف لهجته ولم يرضه فقال للكاتب: اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فقد قرأت كتابك وسمعت خطابك، والجواب ماترى لا ماتسمع، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار».

وفي خبر مماثل ينسب إلى هارون الرشيد أنه - وقد استفزه الغضب من سوء خطاب الملك الرومي - دعا بدواة وكتب: «من عبدالله هارون الرشيد إلى نقفور كلب الروم قرأت كتابك ياابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمع به والسلام».

إلا أن الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك كان أسوأ حظا - إذا صحت روايات الرواة - فقد كتب إلى ملك الروم كتابا عنوانه: «من هشام بن عبدالملك أمير المؤمنين، إلى الطاغية ملك الروم»، فلما وصل إليه الكتاب وقرأ العنوان قال: «ما ظننت أن الملوك العقلاء يسبون، وما يؤمنه أن أكتب إليه: من ملك الروم إلى الملك المذموم الأحول المشؤوم»، وأعاد الكتاب ولم يفضه ولا قرأه(٤).

ومن رسائل الدبلوماسية الأندلسية رسالة استفزازية من ألفونس إلى يعقوب المنصور تحداه فيها أن يهبَّ لنصرة مسلمي الأندلس قال فيها: «وقد علمت الآن ما عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال أمر الرعية وإخلادهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحكم القهر وإخلاء الديار وأسبي الذراري وأمثّل بالرجال. ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم إذا أمكنتك يد القدرة».

فلما تسلم يعقوب المنصور ذلك الكتاب مزقه، وكتب على ظهر قطعة منه الآية الكريمة: ﴿ارجع إليهم فلنأتينَّهُم بجنود لا قِبَلَ لهم بها ولَنُخرجنَّهُم منها أذلةً وهُم صاغرونَ﴾ (النمل:٣٧). ثم سار إليهم فألحق بهم الهزيمة.

أخطأ رغم رقته

ويذكر المؤرخون غلطة باهظة الثمن وقعت في كتاب وجهه صلاح الدين الأيوبي إلى يعقوب المنصور الموحدي الآنف الذكر، يستعين به في صد الصليبيين الذين كان يواجههم وحيدا دون مناصرة تذكر من الخليفة العباسي في بغداد. ويبدو أنه كان كتابا رقيقا تواضع فيه صلاح الدين للأمير الموحدي حتى إنه أشار إلى نفسه بلقب (الفقير إلى ربه يوسف بن أيوب) وقد تفنن كاتبه، القاضي الفاضل، في إنشائه أيما تفنن وحشده بصنوف البلاغات كما تشهد بذلك هذه الديباجة الموفقة: «الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنيفية من استعمر الأرض، وأغنى من أهلها من سأله القرض، وأجرى على يده السنة والفرض، وزين سماء الملة بدراري الذراري التي بعضها من بعض».

وكان الكتاب مصحوبا بهدية سنية اشتملت على مصحفين ومائة درهم من دهن البيلسان، وعشرين رطلا من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر، وخمسين قوسا عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية وعدة سروج موشاة(٥). إلا أن كل ذلك لم يفلح في تخفيف حنق الأمير الموحدي الذي ساءه كثيرا أن يلقبه صلاح الدين بلقب (أمير المسلمين) بدلاً عن (أمير المؤمنين). وأسرّها الرجل في نفسه، فأكرم وفادة الرسول دون أن يحقق له غرضا.

ويبدو أن أدب الخطاب لم يكن وقفا على الحكومات وحدها، وإنما يتعداها إلى ممارسات ما يمكن تسميته بالدبلوماسية الشعبية لذلك الزمان. فقد حفظ لنا التاريخ رسالة شخصية وجهها ابن تيمية إلى ملك قبرص بشأن بعض الأسرى المسلمين في الجزيرة الذين ترامى إلى سمع الفقيه الكبير أن الملك قد قصّر في حقهم وسمح لأعوانه بإساءة معاملتهم. وليس ذلك بغريب على ابن تيمية فقد سبق له أن واجه التتار وَجَبَهَ زعيمهم بكثير من غليظ القول وشجاعة حتى رده إلى جادة الصواب. وتعرف هذه الرسالة في تراث ابن تيمية باسم الرسالة القبرصية، وتقع في نحو ست وثلاثين صفحة امتلأت بالحجج الإسلامية والمسيحية والمنطقية حول واجب الدول في إحسان معاملة الأسرى.

يقول شيخ الإسلام في مطلع رسالته: «من أحمد بن تيمية إلى سرجوس ملك قبرص وعظيم أهل ملته ومن تحوط به عنايته من رؤساء الدين وعظماء القسيسين والرهبان والأمراء والكتاب وأتباعهم: سلام على من اتبع الهدى، والحمد لله الذي لا إله إلا هو إله إبراهيم وآل عمران، ونسأله أن يصلي على عباده المصطفين وأنبيائه المرسلين، ويخص بالصلاة والسلام أولي العزم الذين هم سادة الخلق وقادة الأمم الذين خُصُّوا بأخذ الميثاق؛ وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد كما سماهم الله في كتابه».

وتظهر هذه الديباجة احترام المسلمين للأديان المخالفة والأنبياء الكرام الذين حض القرآن الكريم على تصديقهم والإيمان بهم كمرسلين من لدنه، كما تظهر بصورة غير مباشرة ما يكنه المسلمون للمسيح عيسى بن مريم من التصديق والإجلال، فهو من الأنبياء الخمسة المقدمين (أولي العزم) الذين هم سادة الخلق وقادة الأمم. وبعد هذه الديباجة الموفقة يدخل ابن تيمية على موضوعه فيروي للملك كيف طلب من ملك التتار إطلاق سراح الأسرى فسمح بإطلاق سراح المسلمين دون النصارى واليهود فاحتج عليه ابن تيمية قائلاً: «بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا فإنا نفكهم ولا ندع أسيرا لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة».

وبعد ذلك يتقدم ابن تيمية بالقوانين الإنسانية والدينية التي تلزم الملك عدم الاعتداء على المدنيين، فإذا فرغ من ذلك ساق إليه ألوانا من التهديد المبطن فيسأله مايكون تصرفه إذا قام المسلمون بحبس من معهم من أهل ملته المقيمين بينهم وهم أضعاف مافي مملكته من المسلمين. ثم يعود ويحذره من مغبة العدوان على العلماء وحفظة القرآن، لأن الله ينتقم لهم ممن يظلمهم فيعجّل له النقمة في هذه الدنيا ويدّخر له يوم القيامة أليم العذاب.

وهكذا يرى المرء أن فن التراسل مع الدول الأجنبية كان معروفا للدبلوماسية العربية القديمة، وأن آدابه كانت مرعية ومتعارفة بين خاصة الكتاب وعامة العلماء والفقهاء والأدباء، وأن فن التراسل الدبلوماسي خلا من عيوب التفصح والتقعر اللغوي وفنون السجع والمحسنات البديعية التي اشتهر بها منشئو الرسائل القدماء.

الهوامش:

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، الجزء الأول، ص ٩١.

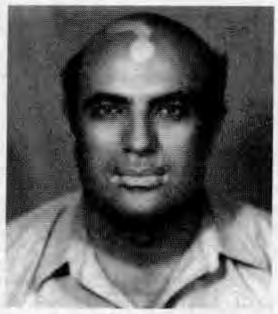
(٢) ومنشأ ذلك أن القلقشندي نقل عن مؤلف يدعى أبا الفضل الصّوري قام بتلخيص كتاب ابن الصيرفي وأسماه (تذكرة الكاتب)، ولم يعرف أن الكاتب للأصل هو ابن الصيرفي مؤلف (قانون ديوان الرسائل)؛ بل فات عليه أن يذكر ابن الصيرفي في عداد كتاب ديوان الإنشاء الذي خدم فيه خمسين عاما. انظر تفصيل ذلك في مقدمة المحقق، د. أيمن فؤاد سيد: (القانون في ديوان الرسائل)، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٠م.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الجزء السادس، ص ٢٩٣.

(٤) ابن الفراء: رسل الملوك، صفحة ٧٨.

(٥) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، الجزءالرابع، ص ٢٢٨.

تجربتي مع الشعر



د. حسين علي محمد

حينما كنتُ في العاشرة من عمري، ذهبت مع والدي إلى الطبيب في الزقازيق التي تبعدُ عن قريتنا نحو ثلاثين كيلاً، وفي انتظار عودة الطبيب من المستشفى وجدت بعض المجلات، أخذتُ أقلِّبُ فيها، فاكتشفت عالمًا غير الذي أعرفه، في الكتب المدرسية الرَّصينة التي يُدرِّسها لنا المعلمون، وكنت أتمنى ألا يجيء الطبيبُ حتى أقرأ المجلات جميعها، التي كانت تحوي صورًا لامعةً، وقصصًا طريفة، وأخبارًا أدخلتني عالمًا جديدًا.

خطوة في الطريق

في اليوم التالي، بدأت أتنبّه إلى المكتبة التي في مدرستنا (مدرسة قريتنا «العصايد» وهذا اسمها)، فوجدت فيها عشرات القصص لكامل كيلاني، وديوان «القروي»، وديوان «الماحي» وقد فَهمت الكتب النثرية، وتجاوبت معها، أما الشعر، فكنت أحسُّ به إحساسًا ممتزجًا بالغموض الذي يشف عما وراءه، وقليلاً ما كنت أسأل أساتذتنا عن معنى كلمة.

اكتشاف الشعر

بعد عامين، من القراءة المبكِّرة، اكتشفت أني شاعرٌ حينما ألفت بيتين من الشعر بعنوان «نسيم الفجر» أقول فيهما (من باب تمرين اللسان على القول، والتدريب على قول الشعر، فليست هناك «بثينة» على الإطلاق)، وكان ذلك عام (١٩٦٢م) وأنا في الصف السادس الابتدائي:

ألا يا نَسيمَ الفجرِ بلِّغ تحيتي
بثينةَ، واشرحْ مابقلبي من الجَمرِ
لعلَّ التي في القلبِ ترنو إلى فتى
يذوبُ هوي في حبِّها وهي لا تدري

وعرفني طلاب مدرسة قريتي الصغيرة باسم «الشاعر»، وهي الصفة التي أطلقت عليَّ حينما ذهبتُ إلى المدرسة الإعدادية في مدينة «ديرب نجم» - وهي مدينة صغيرة مجاورة لقريتي - بعد عدة شهور ملتحقًا بها.

كان أبي تاجرًا، يقرأ بصعوبة، ولم يكن في بيتنا كتابٌ غير القرآن الكريم، وبعض الملاحم الشعبية مثل «سيرة عنترة»، وماأزال أتذكر بعض صور الفرسان التي كانت معلقة في الدور الثاني من بيتنا الطيني، وقد انتقلت إلى مدينة تُباع فيها الجرائد والكتب. أخَذْتُ في تكوين مكتبتي الخاصة شيئًا فشيئًا، وبدأت أرسل للمجلات - التي فيها أبواب للقراء - أشعاري القليلة، التي أكتبها بين الحين والآخر.

بعد عدة أعوام من كتابتي للشعر، ظهرت مجلة «الشعر»، ووجدت أغلبها قصائد من شعر التفعيلة تَخْتَلفُ عن أشعار الماحي، وهاشم الرفاعي، والقروي، وكامل أمين، وصالح جودت، ومحمود حسن إسماعيل، وغيرهم من الذين قرأت دواوينهم في مكتبة المدرسة الإعدادية، أو في مجلة "الرسالة" التي عاودت الصدور (١٩٦٣-١٩٦٥م)، ومع ذلك فقد وجدت في هذا النوع من الشعر جمالاً صادف هوى في نفسي، فكتبت قصيدة بعنوان «زنجي من أمريكا»، وقصيدة أخرى بعنوان «رسالة إلى آنسة»، ونشرت الأولى في «صوت الشرقية» (١٩٦٥م)، ونشرت الثانية بعد عامين في المجلة نفسها التي نشرت لي الكثير من أشعار البواكير. وهذه المجلة إقليمية ما زالت تصدر، وكان لها أثرٌ كبير فيَّ، وفي نخبة من أدباء جيلي من أبناء محافظة الشرقية.

حدث هزّني

أعلنت مجلة «صوت الشرقية» عام (١٩٦٦م) عن مسابقة للأدباء الشبان في الشعر، والقصة القصيرة، والزجل، وأعلنت أن لجنة التحكيم الخاصة بالشعر ستكوَّن من الأساتذة: صالح جودت، وكمال النجمي، ومرسي جميل عزيز، وصلاح عبدالصبور. كنت وقتها في السادسة عشرة، ولي عدد قليلٌ من القصائد لا يتجاوز الخمس عشرة قصيدة، اخترت

إحداها واشتركت في المسابقة، وبعد عدّة أشهر أُعلنت النتيجة، فإذا بي (الأول) في الشعر.

لقد هزّني هذا الفوز، وأشعرني أني أضع قدمي على الدّرب، ومن الصعب التراجع أو الانسحاب.

شُغلتُ بعد ذلك بتجويد أدواتي الإبداعية، ولم أشترك في مسابقات للشعر بعد ذلك إلا في مسابقة المجلس الأعلى للثقافة (١٩٨٢م) حيث فزت بالجائزة الثالثة، ومسابقة «مسرح الشباب» التي سأتناولها لاحقًا.

الكاتب في سطور:

- مواليد قرية «العصايد» بمحافظة الشرقية، مصر (١٩٥٠/٥/٥).
- نُشرت أشعاره في الصحف والمجلات المصرية والعربية.
- شارك في عدة مهرجانات ولقاءات حول الشعر.
- صدر له عدد من الدواوين، هي:

١- حوار الأبعاد الثلاثة (مشترك) مصر ١٩٧٧م، سورية ١٩٧٩م.
٢- السقوط في الليل، القاهرة ١٩٧٧م.
٣- ثلاثة وجوه على حوائط المدينة، القاهرة ١٩٧٩م.
٤- شجرة الحلم، القاهرة ١٩٨٠م.
٥- الحلم والأسوار، القاهرة ١٩٨٤م.
٦- الرحيل على جواد النار، القاهرة ١٩٨٥م.
٧- حدائق الصوت، الزقازيق ١٩٩٣م.

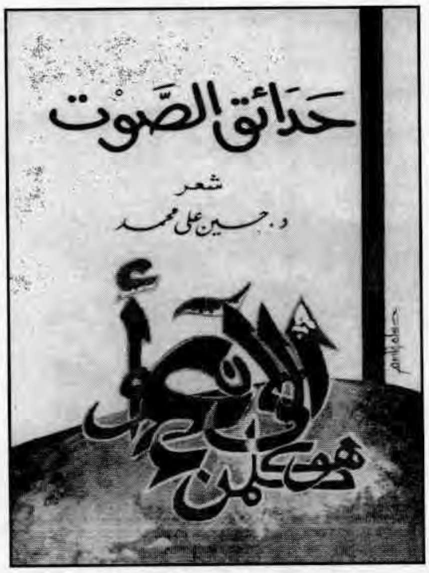
- كتب عدة مسرحيات شعرية، هي:

١- الرجل الذي قال، ١٩٧٥م، (نشرت عام ١٩٨٣م).
٢- الباحث عن النور، ١٩٧٧م، (نشرت عام ١٩٨٥م).
٣- ملك وثيران، ١٩٨٤م، (لم تنشر).
٤- بيت الأشباح، ١٩٨٨م، (لم تنشر).
٥- الزلزال، ١٩٩٢م، (لم تنشر).

المسرحية الشعرية

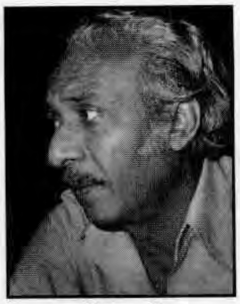
درسْتُ المسرح الشعري، فرأيته في معظمه مسرحًا تاريخيًا، ومن ثم فقد أردت تجريب قدراتي في كتابة المسرحية الشعرية، بعد أن قال لي أستاذاي د. السيد يعقوب بكر، د. أحمد الحوفي: "إن شعر التفعيلة يمكنُ أنْ يجود في المسرح الشعري" وإن كانا لا يعترفان بالمنجز الغنائي في شعر التفعيلة، الذي قدّمه جيلُ الروّاد: علي أحمد باكثير، وعبدالرحمن الشرقاوي، وصلاح عبدالصبور.

وقد كانت تجربتي الأولى مع المسرح





الشعري عام (١٩٧٥م)، حيث كتبت مسرحية «الرجل الذي قال»، وهي تتخذ شخوصها، وأماكنها،


صلاح عبد الصبور

وأحداثها من الواقع المعيش. وقد تقدمت بها إلى مسابقة «مسرح الشباب» التي أقامتها وزارة الشباب والرياضة، ففازت بالجائزة الأولى لعام (١٩٧٧م). وقد شجعتني هذه التجربة، فكتبت بعدها أربع مسرحيات هي «الباحث عن النور: أبو ذر الغفاري» (١٩٧٧م)، و«ملك وثيران» (١٩٨٤م)، و«بيت الأشباح» (١٩٨٨م)، و«الزلزال» (١٩٩٢م).

ولم ألجأ إلى التاريخ إلا في مسرحيتين، الأولى: «الباحث عن النور: أبوذر الغفاري» وهي مسرحية قصيرة في فصل واحد، والثانية: «بيت الأشباح» التي قدَّمتُ فيها أحد ملوك الفراعنة تقديمًا جديدًا.

لكن تجربتي وتجربة غيري في المسرح الشعري محتاجة إلى مراجعة، فالمسرحيات الشعرية لا تُقَدَّم على خشبة المسرح ـ الآن ـ غالبًا، والمسرحية تُكتب لتُعرض، لا لتُحنَّط بين صفحات كتاب!.

سبعة دواوين شعرية

في عام (١٩٧٧م) صدرت في القاهرة مجموعة شعرية تضم عددًا من القصائد لي، وعددًا آخر لمحمد سعد بيومي، وعددًا آخر لمصطفى النجار، وقد صدرت هذه المجموعة تحت عنوان: «حوار الأبعاد»، وقد صدرت منها طبعة ثانية في حلب (١٩٧٩م)، وقد انضم إلى الطبعة الثانية الشاعر السوري الراحل سمير دَدَم. وقد رحّب بهذه التجربة عدد كبير من النقاد؛



عدنان مردم بك

منهم الناقد الراحل محمد العدناني (الشاعر، وصاحب «معجم الأخطاء الشائعة»). كما رحّب بها الشاعر السوري الراحل عدنان مردم بك (صاحب المسرحيات الشعرية الرائعة، والدواوين الرصينة).

وقد كرّر هذه التجربة - بعدنا - بعض الشعراء، وأرى أنها تجربة طيِّبة تلفت الانتباه إلى الشعراء الذين هم في أول الطريق، إذا كانوا جادين، ويقولون شيئا. فهل تستمر تجربة إصدار الدواوين المشتركة؟

وقد أصدرت في عام (١٩٧٩م) ديواني «ثلاثة وجوه على حوائط المدينة»، وفي عام (١٩٨٠م) «شجرة الحلم» الذي صدر بمقدمة للناقد المعروف الدكتور علي عشري زايد (نُشر قسمٌ منها في مجلة «الأديب» المحتجبة). ثم أصدرت عام (١٩٨٤م) ديوان «الحلم والأسوار» بمقدمة للشاعر الراحل عامر محمد بحيري، وفي عام (١٩٨٥م) صدر ديوان «الرحيل على جواد النار».

حدائق الصوت

لم أصدر بين عامي ١٩٨٦، ١٩٩٢م أية مجموعة شعرية، فقد كنتُ في رحلتين للعمل خارج مصر (في اليمن، ثم في السعودية)، وقد كتبت في هذه الفترة مجموعة شعرية ضخمة صدرت عام (١٩٩٣م) بعنوان «حدائق الصوت». وأرى أن شعري على امتداد رحلته يحاول أن يقترب في لغته من لغة الواقع المعيش بمفرداته اليومية، كما تحاول معظم أشعاري أن تهتم ببناء الصورة الكلّية، المنتزعة من الشعور، والمتكئة على الواقع المعيش ومفرداته، ومنها قصيدة «زهرة الصبار» وهذا نصُّها:

هذا الفتى الجميلُ
كيف صار أصلعا
وأبيضَ الفودينْ
هذا الفتى الضحوكُ
كيف صار عابساً
ومثقل العينين
بالبكاء
في الأَسحارْ
هذا الذي يحادثُ الحِجَارَ
والأشجارْ
بأعذب الأشعارْ
متى ترينه يازهرةَ الصبار
يعودُ مُفْعَما بالوجدِ
والغناء
هُزِّي إليك جزْعَهُ الحميمَ
جُرْحَهُ القديم
تسّاقط البروقُ والأقمار
وتُشرقُ القصائد العصماء
في أُفقه
وتُرعدُ السَّماء

كما تحاولُ هذه الأشعار أن تقدم القصيدة المكثفة، البعيدة من الترهُّل، التي تقتربُ من الدراما، مستفيدة من إنجازات الفنون الأخرى مثل: الموسيقا، والتصوير، والسينما، والمسرح.... وغيرها.

شعر التفعيلة والنقد

يشكو كثيرٌ من أبناء جيلي، وهو الجيل الذي بدأ ينشر شعره بعد هزيمة (١٩٦٧م)، من إهمال النقاد لهم، وهذه الشكوى ليست في محلها، فقد كُتبت كثيرٌ من الدراسات عن عدد من شعراء هذا الجيل، وأنا منهم.

فقد تناولني مصطفى نجا في كتابه «ثلاثة شعراء: نجيب سرور، وأمل دنقل، وحسين علي محمد» وخصص فصلاً لدراسة «الأمل الإنساني المحبط في ديوان «ثلاثة وجوه على حوائط المدينة»»، وتناولني د. حلمي محمد القاعود في كتابه «الورد والهالوك»، وخصص قسمًا لدراسة شعري في تجاربي جميعًا، وتناول تجربتي الشعرية د. أحمد زلط في كتابه «دراسات نقدية في الأدب المعاصر» من خلال ديواني الأخير، كما كتب د. صابر عبدالدايم دراستين عني في كتابه «التجربة الإبداعية في ضوء النقد الحديث».

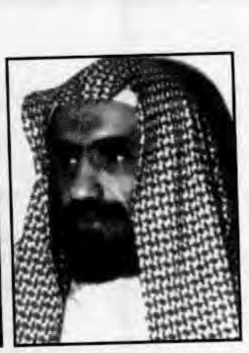
ونُشرت فصول عن شعري بأقلام: د. علي عشري زايد، د. طه وادي، د. محمد داود، أحمد فضل شبلول، مصطفى النجار، محمد عبدالواحد حجازي، عزت جاد، ماهر قنديل، أحمد زكي عبدالحليم، عبود كنجو، أحمد دوغان، حسني سيد لبيب، محمد سعد بيومي، بدر بدير حسن، أحمد سويلم، د. حسن البنا عزالدين.

ومن ثم، فإنني أرى أن النقد ليس مقصراً في القيام بدوره تجاه تجربتي الشعرية، أو محاولاتي في المسرح الشعري.

شعر التفعيلة وفن الملاحم

فن الملاحم فن صعبٌ، ولم يحاول شعر التفعيلة أن يقترب منه - وإن كانت له خطوات لعبده بدوي وغيره في فن «الأوبرا» -، وقد حاولت أن أكتب ملحمة - من خلال هذا الشكل - عن «عمرو بن العاص رضي الله عنه» وقد كتبت منها قدرًا كبيرًا، ولما طال عليَّ الأمدُ دون إكمالها نشرتُ الجزء الذي كتبته في ديواني الأخير تحت عنوان «من إشراقات عمرو بن العاص، أو التحديق في وجه الشمس»، وأرجو أن تُتاح لي الفرصة مستقبلاً لأكتب ملحمة عن هذه الشخصية الثرة المضيئة.

العنوان: كُتُب تراجم الرجال بين الجرح والتعديل.
المؤلف: د. صالح اللحيدان.
الناشر: دار طويق للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م (٤٠٨ص).





تناول الشيخ د. صالح اللحيدان في كتابه: «كتب تراجم الرجال بين الجرح والتعديل» مجموعة من المؤلفين القدامى الذين ترجموا لرواة الأحاديث، وماكتب عنهم وعن مؤلفاتهم، وذلك من خلال الرؤية النقدية، وتحليل مواقف أصحاب تلك المؤلفات وآرائهم من حيث منهج الجرح والتعديل. وهؤلاء الرجال ومؤلفاتهم هم:

أولاً: سؤالات الإمام الحافظ أبي جعفر محمد بن عثمان العبسي لحافظ العصر علي بن المديني.

ثانيا: ابن عمر بن واقد الأسلمي وكاتبه محمد بن سعد وكتابه الطبقات الكبرى.

ثالثا: أحمد العجلي، الإمام المعروف الشهير بأبي الحسن وكتابه: الثقات أو تاريخ الثقات.

رابعًا: الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني وكتابه: أحوال الرجال.

خامسًا: أبو محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم الحنظلي الرازي، وكتابه: الجرح والتعديل.

سادسًا: محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي، وكتابه: الضعفاء الكبير.

سابعًا: الإمام علي بن عمر بن أحمد الدارقطني، وكتابه: الضعفاء والمتروكين.

ثامنًا: الحافظ أبو بكر أحمد بن محمد بن غالب البرقاني وسؤالاته للحافظ الكبير الدارقطني.

تاسعًا: موفق الدين أبو محمد عبدالله بن محمد بن قدامة المقدسي، وكتابه: التوّابون.

عاشرًا: الحافظ النحرير جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي، وكتابه: التهذيب، أو (تهذيب الكمال في أسماء الرجال). وهو منقول من كتاب (الجرح والتعديل) لابن أبي حاتم السابق.

الحادي عشر: الإمام أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عبدالهادي الدمشقي الصالحي، وكتابه: طبقات علماء الحديث.

الثاني عشر: الإمام أبو عبدالله شمس الدين محمد الذهبي، وكتابه: تذكرة الحفاظ.

الثالث عشر: الحافظ ابن حجر، وكتابه: تقريب التهذيب.

الرابع عشر: الحافظ صفي الدين أحمد بن عبدالله الخزرجي، وكتابه: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال.

إن هؤلاء الحفاظ الأئمة من العلماء المسلمين، وماقدموه في تراجمهم ورؤاهم عن رواة الحديث، في التوثيق والتقويم، ليشكل موسوعة تراثية في منهجية البحث الديني.. مما ينقله لنا الشيخ اللحيدان بلمحاته أو تفصيلاته عن تلك الكتب والتساؤلات والتراجم، معجبًا حينًا، ورادًا على أمور تُسيء لأولئك الأئمة والحفاظ من القدامى أو المعاصرين الذين تناولوا تلك المؤلفات والموسوعات حينًا آخر.

وقد ركز اللحيدان في بحثه على مقدمات كثير من تلك الكتب مما توضح منهج النقد والبحث عند أولئك الاعلام، وتصلح لأن تكون قاعدة راسخة في دراسة أمور الدين ومعرفتها كما جاءت معانيها في القرآن والسنة، وذلك من خلال نقل الرواة، والتمييز «بين عدول النقلة والرواة وثقاتهم وأهل الحفظ والثبت والاتقان منهم، وبين أهل الغَفْلة والوهم وسوء الحفظ والكذب واختراع الأحاديث الكاذبة». كما يقول ابن أبي حاتم في (الجرح والتعديل).

ومن هنا يأتي الهدف الكبير، والقصد الواضح، من وراء تأليف كتاب الرجال هذا للشيخ اللحيدان.. لإبراز سيرة كثير من العلماء الذين كان لهم فضلٍ سبق جليل في حمل السنة وحمايتها، والذّب عنها، بحسن فهم وسداد رأي، وحفظ كريم للنص. ولهذا فقد أشار الإمام النووي في رسالته المعنونة بـ «ماتمس إليه حاجة القاري لصحيح الإمام البخاري» بقوله:

«ومن أهم أنواع العلوم تحقيق معرفة الأحاديث النبويات. أعني معرفة: متونها صحيحها، وحسنها، وضعيفها، متصلها، ومرسلها، ومنقطعها، ومعضلها، ومقلوبها، ومشهورها، وعريبها، وشاذها، ومنكرها.. وغير ذلك من أنواع المعروفات. ومعرفة علم الأسانيد: أعني معرفة حال رواتها، وصفاتهم المعتبرة، وضبط أنسابهم، ومواليدهم، ووفياتهم، وجرحهم، وتعديلهم.. وغير ذلك من الصفات. ومعرفة التدليس والمدلس، وطرق الاعتبار والمتابعات، ومعرفة حكم اختلاف الرواية في الأسانيد والمتون.. وزيادات الثقات، ومعرفة الصحابة والتابعين، وتابعيهم وغيرهم».

وكأن معظم الدارسين والباحثين في مصطلح علوم الحديث من القدامى والمعاصرين قد أخذوا بتلك الروح، وهذا مالمسه الشيخ اللحيدان. لذلك نبه إلى أن القارئ المعاصر، وهو يرحل مع سِيَر كبار العلماء خلال القرون الثلاثة الأولى، سيجد منهلاً عجبًا من كتب التراجم. ويستشهد بمقدمة «الجرح والتعديل»، التي تقول: «ليس نقد الرواة بالأمر الهيّن، فإن الناقد لابد أن يكون واسع الاطلاع على الأخبار المروية، عارفًا بأحوال الرواة السابقين وطرق الرواية، خبيرًا بعوائد الرواة ومقاصدهم وأغراضهم، وبالأسباب الداعية إلى التساهل والكذب، والموقعة في الخطأ والغلط».

وكان الشيخ اللحيدان يركز على الثقات من العلماء ورواتهم، وإلباسهم ثياب الورع والتقوى، ويجانبهم الخطأ كلما وجد لذلك سبيلاً، مستعينًا برؤية الأئمة حينًا، وبرؤيته الشخصية المتروية حينًا آخر. فكان ابن أبي حاتم ماثلاً أمامه، فينقل بعض رؤاه فيما هو بصدده، مثل قوله: «من كان منهم في منزلة الانتقاد، والجهبذة، والتنفير، والبحث عن الرجال، والمعرفة بهم، وهؤلاء هم أهل التزكية والتعديل والجرح». وكذلك فيما قاله ابن أبي حاتم عن الصحابة، والتابعين ممن «اختارهم الله عز وجل - لإقامة دينه، وخصّهم بحفظ فرائضه، وحدوده، وأمره ونهيه»، وعمن خلفهم من تابعي التابعين «وهم خلف الأخيار، وأعلام الأمصار في دين الله..».

وتبقى العلوم الدينية موضع تركيز الشيخ اللحيدان، ولاسيما الأسانيد.. التي قالوا عنها: «لكل دين فرسان، وفرسان هذا الدين الأسانيد». ومما قاله البخاري، وكان قد سمعه من علي بن المديني: «التفقه في معاني الحديث نصف العلم، ومعرفة الرجال نصف العلم». ومما قاله محمد بن عبدالله بن عمار الموصلي عن ابن سعيد: «لاتنظروا إلى الحديث، ولكن انظروا إلى الأسانيد، فإن صح الإسناد، وإلا فلاتغتروا بالحديث إذا لم يصح الإسناد».

ثم تبلورت الأفكار حيال الجرح والتعديل، إذ كان المقصود من الجرح مثلاً بيان حال السند لا بيان حال الرجل ذاته، وإلا لما كان لذلك فائدة إلا من لحقه فُسُوق ليحذر منه، أو من كان من دعاة الباطل وإن اتسموا بالمثل نطقًا ومجاملة فيجدر حينئذ التنبه لهذا «بعقل ودين ونية خالصة».

كما يركز الشيخ اللحيدان على مسألة أخرى جديرة بالاهتمام والتبصر.. وهي أن إبراز عيوب الراوي لايعد من الغيبة إذا كانت التقوى والعدل.. ويخلص إلى فكرة أساسية يستمدها من العلماء القدامى الأجلاء أمثال الذهبي وابن حجر والخطيب البغدادي، هي أن من عرف بالتشدد في جرح الرجال لايقبل قوله إلا إذا تم التثبت. فالاقتصار على نقد المتشدد قد يكون فيه عجالة لمن أخذ به، والعجلة محلها الذم. وهذا لايعيب هؤلاء المتشددين.. ومادفعهم إلى التشدد إلا الحرص على السنة وحماية الدين، لكن قد تؤدي الشدة ـ دون قصد ـ إلى المبالغة في الجرح، فيسبب هذا جرحًا لا محل له، وينتج عنه الرد المطلق لهذا الراوي، وهذه جرأة، فلابد إذن من التثبت.

ويظل الشيخ اللحيدان منصفًا لأولئك العلماء، الذين اشتهروا بالورع، ولايفوته الدفاع عنهم، ولو جرحوا جرحًا خفيفًا. مثلاً: رغم إعجابه بالذهبي، فإنه يرد على ماذكره بحق الواقدي الذي قال عنه: «لم أسقْ ترجمته هنا لاتفاقهم على ترك حديثه»، فيقول معلقًا على تلك العبارة: «لعلها عبارة ليست على إطلاقها، ولقد عرفت أن الواقدي صاحب دعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولاء لله وحده لاشريك له».

كما أن الشيخ اللحيدان يحسن التوفيق بين أعلامه في التقويم من حيث الجرح والتعديل، فيأخذ القول، ويزنه، ويعبر عن رؤيته باعتدال وإنصاف.. مثلا حين عرّف الذهبي بالعجلي صاحب كتاب (الثقات)، نقل لنا نصًا له من خلال التعريف به: «ومن كلامه ـ رحمه الله ـ قال: من قال القرآن مخلوق فهو كافر، ومن آمن بالرجعة فهو كافر. وقيل: إنه فرّ إلى المغرب أيام محنة القرآن، وسكنها للتفرد والتعبد، مولده سنة اثنتين وثمانين ومائة، ومات بطرابلس سنة إحدى وستين ومائتين. ماعلمت وقع لنا شيء من حديثه، وما أظنه روى سوى حكايات». ويأتي الشيخ اللحيدان ليقف حيال بعض تلك العبارات التي تستوجب منه توضيحًا وتخريجًا، ومعادلة تخفف من رؤية الذهبي المتشددة فيقول: «قلت: قول الذهبي:«وما أظنه روى سوى حكايات» فيه نظر، لكن يشفع للذهبي قوله أول الكلام: «ماعلمت وقع لنا شيء من حديثه»، فهو بمعنى (حسب علمي)، وإلا فإمام مثل العجلي يقارن بأحمد ويحيى ليس بصاحب هذا غريب».

إن الشيخ اللحيدان تناول قضايا عديدة صادفته وهو يعرض كتبه ويقدمها، منها قضية (السؤالات) التي وردت في تلك الكتب، وبخاصة لدى أبي بكر البرقاني. فقد أوضح أنها علم مستقل، وتثير «عجائب العلم وعميق أصل العلل، وقد تدفع بالإمام إلى استنطاق مواهبه، فيأتي بما لم يكن ليأتي به لو قصد التأليف، لأن طبيعة السؤال إيراد ماموجبه إيراد العلة في السند أو المتن أو فيهما معًا. ولأن السؤال له فن في الإلقاء، خصوصًا إذا كان السائل ذا قدرة ونباهة، حتى يكون الجواب علميًا بعيدًا من الوعظ، ومجرد النصح كهروب من الجواب، لعدم معرفته، أو لكون المجيب ضعيف التحصيل في الحديث فيعلل من هنا، وهاهنا، فالسؤالات بهذا مفيدة، ومثل الدارقطني إمام كبير، هو أهل للإجابات».

كذلك يعرض قضية التواصل والنقل في المعلومات والمعارف والآراء، فيما يأخذه الخلف عن السلف حين يؤلفون كتبهم، فيورد ـ مثلا ـ مااعترف به المزي صاحب كتاب: (تهذيب الكمال في أسماء الرجال) من نقل مادته من كتاب: (الجرح والتعديل) لابن أبي حاتم. ويشيد اللحيدان بجميل صنعه، ولكنه يأخذ عليه تقصيره في نقد أو تحليل أو إبداء الرأي والنقد «ممن عوّل عليهم في تراجمه».

العنوان: أحمد محمد جمال: الداعية ـ المفسر ـ الأديب.
المؤلف: مجموعة من الأدباء.
الناشر: رابطة العالم الإسلامي، كتاب: دعوة الحق، العدد ١٤٤، السنة الثانية عشرة، ذو الحجة ١٤١٤هـ (٢٢٨ص).



تقديرا لجهودات الكاتب الأديب الراحل أحمد محمد جمال، قامت رابطة العالم الإسلامي بإعداد كتاب عنه، بأقلام مجموعة من الأدباء السعوديين والعرب، من خلال كتابها الشهري (دعوة الحق)، الذي كان مشرفًا على إصداره منذ عام ١٤٠٢هـ، وحتى وفاته عام ١٤١٣هـ. وكان المشاركون في تحرير هذا الكتاب هم: محمد محمود حافظ بمقدمته، ومحسن باروم بفصله الأول عن «أحمد محمد جمال رائد من رواد الأدب الإسلامي»، تناول فيه مفهوم الأدب الإسلامي، والتزام الراحل به، ودعوته للتمسك بالأصالة والأدب، ورفضه الحداثة، ودفاعه عن القرآن والسنة وقضايا أمته.

واللواء علي زين العابدين بفصله الثاني الموسوم بـ «رفيق صباي وشيخوختي»، وقف فيه عند نشاطه وكتبه ومؤلفاته، وشعره وأدبه، وآرائه الصريحة، وشخصيته الإسلامية.

والدكتور حسن محمد باجودة بفصله الثالث الذي كتبه عن رحلاته الإسلامية، فضلاً عن عناية الراحل بالشباب والمرأة، وغيرته على اللغة العربية.

والدكتور عبدالصبور مرزوق بفصله الرابع وعنوانه: «أنا وأحمد محمد جمال»، رجل ودعوة.

والدكتور عاصم حمدان بفصله الخامس، وعنوانه «أحمد محمد جمال بين العلم والأدب».

والدكتور حسن ضياء الدين عتر بفصله السادس الذي كان بعنوان «العناية بتفسير القرآن»، وتناول بعض الشؤون التفسيرية مثل: القصص القرآني، والنسخ في القرآن، ونظام الحكم في القرآن، والشورى في القرآن.. وأخيرًا منهج الراحل في تفسيره.

أما الكاتب الصحفي زهير محمد جميل كتبي فقد تناول بفصله السابع «أحمد محمد جمال: ظاهرة فكرية، وحديث وحوار».

وجاء الفصل الثامن والأخير بقلم أبناء الراحل، وبخاتمة عن سيرته الذاتية.

إن ماقُدّم في هذا الكتاب من معلومات ودراسات، يندرج تحت فرعي الترجمة الشخصية والسيرة الأدبية. ولكن يظل المضمون الفكري، لما كان يحمله الراحل من مواقف وآراء، هو الغالب على كتابات أولئك الدارسين، التي استمدوا الكثير من أفكارها من كتب الراحل نفسه، ومن خلال تجاربهم ومعايشتهم لحياته الشخصية والعلمية والأدبية والدينية.

وإذا كانت روح الحب والأسى على فقد العزيز الراحل أحمد محمد جمال تغلب على وجدان الكتّاب ومشاعرهم، فإن شيئًا من الإعجاب التقريري المباشر بخصائص شخصيته الفكرية والأدبية يغلب على تلك الكتابات أيضا، وبخاصة في مقدماتها، مثل مطلع كتابات صاحب مقال «رفيق صباي وشيخوختي» إذ يقول: «هو الكاتب الإسلامي الكبير، والشاعر المجيد، والصحفي الناجح، والأديب الألمعي، والمؤلف الناضج، العالم المدرس الجامعي.. إلخ».

على أن هذا الكاتب - على زين العابدين - يمنحنا جوانب من حياتهما المشتركة بدءاً بتعريفه بالأخ الأكبر صالح جمال صاحب مكتبة الثقافة بباب السلام، وماكانت تحفل به من كتب دينية وأدبية واجتماعية وسياسية ومجلات وفي مقدمتها «الرسالة» وكتابها، فكان لابد لذاك الشاب أحمد جمال وهو في مقتبل العمر، أن يقرأ ماكانت تضمه المكتبة من كتب ومجلات «وينهل العلم من مناهله سهلاً ميسوراً»، مما سيجعله «على سعة من الاطلاع، تجعله يفوق الكثيرين من أقرانه ولداته».

ثم يسترجع لنا بداية الصداقة والمعرفة، إذ يقول: «تعرفت على هذا الشاب الأديب أحمد محمد جمال في الحرم المكي الشريف، في حصوة باب السلام عام ١٣٥٩هـ، إذ صحبني الصديق الزميل عبدالعزيز الربيع ذات يوم قائلاً: سأعرفك بصديق جديد. وتم التعارف. فقد كان الصديق الجديد باسم الوجه. طلق المحيا، ترتسم الابتسامة البريئة على شفتيه...». ويذكر أن سنة ميلادهما واحدة هي ١٣٤٣هـ: «العمر متساو، والميول متفقة، والبيئة ملتزمة، فلم لايتفق الأثنان؟ ولم لاتنشأ بينهما صداقة؟! استمرت من عام ١٣٥٩هـ حتى يومنا هذا. فروحه الطاهرة مازالت معي صديقة حميمة».

وقد أورد العابدين أعلامًا أدبية، كان لها دور مهم في حياة الراحل الشخصية والأدبية، أمثال: صديقهما الثالث عبدالعزيز الربيع، والرابع عبدالعزيز المنصوري، ثم حسن عبدالله القرشي، فضلاً عن الأصدقاء في المعهد الذين كانو معه، وممن عرفوا بحسن سلوكهم وميولهم الأدبية أمثال: (سراج خراز، وسراج مفتي، وعبدالعزيز الرفاعي)، ويشير لكوكبة من الأدباء السعوديين أمثال: حمزة شحاته وأحمد قنديل، ومحمد علي مغربي وجماعتهم «وهم من الرعيل الأول، يجلسون كجلستنا بعيدا عنا، نرقبهم ونشهدهم، ونتمنى أن نكون ذات يوم مثلهم في الشعر والأدب».

أما الأعلام الأخرون فقد أورد مالهم من تأثير في أساليبهم وكتاباتهم، التي كانوا يتداولون أسماءها، وعلى رأسهم صاحب «الرسالة»، الزيات وافتتاحياته فيها، وزكي مبارك، وطه حسين، ومحمود حسن إسماعيل، وفكري أباظة.

ومن الموضوعات التي وقف عندها العابدين: شعر الراحل وأدبه. فأشبع هذا الموضوع، ولاسيما أن شاعريته تفجرت وهو في الثالثة عشرة من عمره، وإن كان أقلع عنه بعد أن ترك لنا ديوانًا، لينصرف إلى الأدب الإسلامي. وشؤون المسلمين وقضاياهم.

ومما تجدر الاشارة إليه في هذا الكتاب، ماكتبه الدكتور حسن باجودة، عن رحلات أحمد محمد جمال الإسلامية. وإن كنا لانتفق معه في إدراج ماجاء بكتابه، المتعدد الأجزاء، المعنون بـ «خطوات على طريق الدعـــوة»، تحت أدب الرحـــلات الإسلامية؛ لأنه كتاب يتناول قضايا المسلمين في الداخل والخارج.. وإن كان أغلب الموضوعات يدور حول التعبير عن مهماته، بصفته مبعوثا لرابطة العالم الإسلامي، والتي يفصح فيها عن المؤتمرات، والندوات، والمحاضرات، واللقاءات.. وماذا فيها من أحاديث وكلمات، ودوره المنبري الارتجالي من خلال تلك المناسبات والمهمات.

أما كتابات الدكتور عبدالصبور مرزوق - نائب رئيس المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر - عن أحمد محمد جمال، فتحاول أن تبرز بعض مواقفه الدينية والسياسية من خلال الإعجاب والتقدير.

أما الدكتور عاصم حمدان، فقد أضاء لنا جوانب أخرى في حياة أحمد محمد جمال الشخصية والنقدية، وذلك من خلال المعايشة والمحادثة بينهما، فقد حدثه ذات يوم عن سؤال أحدهم - ربما في لقاء أُجري معه -: هل يشاهد المصارعة في التلفاز؟ فكان جوابه: «نعم أشاهدها، وأشاهد بعض المسلسلات التلفزيونية المناسبة.. وكما نرى فالتلفزيون في غرفة جلوسي». ويستطرد الحمدان قائلا: «ولعلي لا أبيح سرًا إذا ماقلت إن أحمد جمال لم يكن متشددًا أبدًا. فهو يستمتع بالفنون مادامت ترتقي بالمشاعر، وتسمو بالأحاسيس. فلقد ذكر لي أنه كان يحب سماع قصيدتي: نهج البردة، وحديث الروح.. وذلك ليس بغريب على عالم مثله تفتحت مداركه على قول الشعر وسماعه. وإنني أجزم قائلاً بأنه لو استمر أحمد جمال في قول الشعر لكان من رواده القلائل في بلادنا».

ثم ذكر لنا الحمدان بعض شؤونه النقدية، وبخاصة مع أحمد قنديل في حوارهما عن كتاب «الأغاني» الذي كان يراه أحمد جمال قد أساء للتراث الإسلامي والعربي.

ورغم أن أحمد محمد جمال يستحق مثل هذه المقالات والكتابات التي أبرزت فضله وسماته الخلقية والأدبية والدينية، إلا أنها ظلت كتابات يعوزها التألق والإثارة الفنية والوجدانية، ولاسيما أنها في الترجمة الذاتية والشخصية.

قبرص

عروس البحر والحضارة والسياحة

كامل يوسف حسين

يحلق طائر الحزن في سماء القلب، عندما يتكشف أفق بحيرة الملح ـ على بعد أربعة كيلو مترات غربي لارناكا في جنوب غربي جزيرة قبرص ـ عن مسجد «خالة سلطان»؛ الذي يعود تاريخ إنشائه إلى العام ١٨١٦م، والذي تتعلق به قلوب كل المسلمين في قبرص كأشد مايكون التعلق، فالزرقة المتألقة وخضرة البساتين الباهرة تتناقض تمامًا مع ماتقع عليه العين، عندما تتجاوز السور المحيط بالمسجد، فتلمح البناء الرائع، الذي أبدعته عبقرية المهندسين الأتراك، وقد نالته يد السنين، وضراوة الرطوبة، وغياب جهود الترميم.

هذه المئذنة الشامخة لاتنتمي إلى الأساليب التركية المعهودة في بناء المآذن البديعة، المستدقة، كأنها يد نحيلة تمتد لتصافح زرقة الأفق، ولاتعيد إلى ذاكرتك التشكيل بتداخل الكتلة والفراغ، كما في مآذن القاهرة المملوكية، ولاتتردد فيها استدارات مآذن الهند المغولية الفاتنة، وإنما العينان تصافحان مئذنة ينتمي جمالها إلى تقاليد العمارة في شرقي المتوسط، حيث لاتبعد الجزيرة عن غربي سورية إلا ٦٤ ميلاً، ولايفصلها عن جنوبي تركيا إلا ٤٤ ميلاً.

فهي مئذنة شُيِّدت لتجمع بين البهاء المعماري والقدرة على الصمود في وجه عاديات الزمن، وربما من النظرة الأولى يمكنك القطع بأنها في صمودها حققت آمال من شادوا صرحها، وربما مضت إلى أبعد مما تصوروا.

تسرع بك الخطى في المدخل الذي تعلوه الأقواس البديعة التصميم، ويرتفع سقفه الخشبي عاليًا، لتجد نفسك أمام باب المسجد، وثمة لافتة صغيرة كتبت عليها باليونانية والإنجليزية كلمات تدعوك إلى نزع حذائك، قبل دخول المسجد، وهو ماتقوم به من فورك، بعد أن تتوقف



شاطئ بيسوري

عيناك عند عاملين أو ثلاثة يعكفون على مهمة تبدو مستحيلة، أمام أدواتهم البسيطة وجهودهم المتواضعة، وهي محاولة ترميم الجوانب الأكثر تضرراً في مدخل المسجد من ضراوة عاديات الزمن والرطوبة والقدم.

في داخل المسجد، حيث تسود عتمة خفيفة، تتوقف أمام المنبر والقبلة، حيث تبدو واضحة آثار أنياب الرطوبة، النابعة من وجود المسجد قاب قوسين أو أدنى من بحيرة الملح، فيشتد حزنك، الذي عاد يطل وأنت ترى أرض المسجد عارية إلا من كساء من ليف النخيل، وأكلمة تقادم العهد بها، وعدد قليل من قطع السجاد، التي توشك يد الفناء أن تطويها.

يقول أبناء المنطقة في اللقاء معهم - وهم يقدمون لك دفترا لتوقع باسمك فيه، ويلحون أن يكون ذلك بالعربية تيمنا بلغة القرآن الكريم -: إن الكثيرين نسوا هذا المسجد، ولم يمدوا يد الدعم لجهود ترميمه، حتى من تربطهم به الصلات والأسباب.

ويضيفون: إنهم يعرفون أن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز امتدت مآثره لرعاية العديد من مساجد العالم، ومنها مساجد غير بعيدة منهم في شرقي أوربا، ويطالبونك بأن تنقل على لسانهم رسالة، يقولون فيها: «إن في الرياض قلبا لاينسى، وصدرا يتسع لهموم المسلمين، فليت مكرماته تمتد لتشمل بيد الرعاية هذا المسجد، الذي تتعلق به أفئدة المسلمين في هذه الجزيرة، التي يتناسى الكثيرون مأساتها».

وعندما تمضي بك السيارة في الطريق إلى لارناكا لاتملك إلا أن تلمح كنيسة سانت لازاروس، وقد أحاطت بها أعداد غفيرة من العاملين بالترميم، وامتدت إليها يد العناية والرعاية بالزخرفة والتجميل، فتألقت تحت الشمس.

وتعجب: كيف يُكال بمكيالين على هذا النحو لدارَىْ عبادة لاتفصلهما إلا خمسة كيلو مترات؟

الخط الأخضر وصناعة السياحة

وربما كان هذا التمييز هو السبب الحقيقي وراء مأساة الجزيرة، التي بدأت برغبة غالبية سكانها من القبارصة اليونانيين في الانضمام إلى اليونان، واستعانة الأقلية من القبارصة الأتراك بتركيا، في مواجهة مايتعرضون له من مظالم، مما أسفر في النهاية عن تقسيم الجزيرة، ومرابطة قوات الأمم المتحدة على مايعرف بالخط الأخضر، الذي يفصل بين شطريها، والذي يقسم العاصمة نيقوسيا ذاتها.

وفي نيقوسيا يتحول هذا الموضوع على وجه الدقة، إلى السؤال الأول الذي تُبادر إلى طرحه على نيكوس

فيلا ستيديس، المسؤول بهيئة السياحة القبرصية، فيبادر إلى القول، ردًا على سؤال محدد تطرحه عليه عن أثر الموقف السياسي المعقد في الجزيرة في الصناعة الأولى فيها وهي صناعة السياحة: «إن الوضع السياسي يشكل جزءا من الحياة اليومية لأبناء قبرص، والمشكلة الحقيقية هي تقسيم الجزيرة إلى شمال يضم القبارصة الأتراك، وترابط فيه القوات التركية، وجنوب تقطنه الغالبية من القبارصة اليونانيين، وأنه تجرى حاليًا مفاوضات بين الجانبين برعاية الأمم المتحدة، والآمال معقودة على إمكان الوصول إلى حل، يتمثل في دولة اتحادية، يتعايش في ظلها الجميع، وإذا كانت قبرص تستقبل الآن مليوني سائح كل عام، أي حوالي أربعة أضعاف سكانها، فإنها يمكن في حالة التوصل إلى حل لمشكلتها أن تستقبل خمسة ملايين سائح، وهو مايعني المزيد من التنمية والازدهار للجزيرة».

يمتد الخط الأخضر، غير بعيد من أسوار المدينة التاريخية، الذي لاسبيل إلى عبوره إلا بتصريح مسبق، وإذا كانت نيقوسيا هي العاصمة، وأكبر مدن قبرص، فإنك ستجد قلب المدينة النابض بالحركة والحياة في الشارع الرئيسي بها، والذي يفضى بك إلى ميدان الينفيريا، وتنطلق في رحلة مع المتاجر والمحال الحديثة في شارع ليدرا.

الحي الشعبي

أما الذين لاتستهويهم الأحياء الحديثة ومراكز التسوق، حيث السلع الأوروبية والزحام والسيارات، وإنما ينشدون الهدوء والسكينة، فلابد لهم من الانطلاق إلى «لايبكي بيتوينا» أو «الحي الشعبي»؛ حيث الشوارع الضيقة الملتوية المرصوفة بالأحجار الرمادية، والبيوت القديمة التي تم ترميمها واستعادة أجمل ملامحها.

هنا أجمل مايمكن لقبرص أن تمنحه لزوارها، الهدوء والسكينة وجولة على الأقدام، تتأمل خلالها بعيون فضولية المصنوعات التقليدية القبرصية، من المطروقات النحاسية، والحلي الذهبية، والفضية، والمنسوجات اليدوية، والأعمال الخزفية والعرائس، والمخرمات ذات الشهرة العالمية.

والكثيرون لايستطيعون زيارة نيقوسيا دون مشاهدة بوابة فاما جوستا، أشهر بوابات سورها القديم، لكن البعض قد يؤثر - مثلي - أن يذهب إلى حيث تقوده قدماه، فيجد نفسه في مكتبة الجسر، التي تضم أحدث الإصدارات باللغتين الانجليزية والفرنسية، وكم كنت سعيدًا، وأنا أمضي خارجًا من المكتبة، حاملاً طبعة نادرة من أعمال فرانز كافكا، وأحدث ماصدر للروائي الأميركي بول أوستر، والروائي الانجليزي ذي الأصل الياباني كازو إيشيجيرو، والعديد من مسرحيات إدوارد ألبي.



مسجد «خالة سلطان» كما يبدو من اتجاه بحيرة الملح



صخرة «بتراتو روميو»



ركن هادئ في «لايكي بيتونيا»، أو الحي الشعبي في قبرص

وجود عربي

لكن قبرص ليست ساحلاً وعاصمة فحسب، وإنما لابد لك من أن تمضي إلى أجمل معالمها الداخلية، إلى قمم جبال ترودوس البديعة التي ترتفع مايزيد على ستة آلاف قدم، وسرعان ماستكتشف أن الفتى العربي ليس غريب الوجه واليد واللسان هنا، فالكثير من العرب وبصفة خاصة من أبناء الخليج لديهم مساكن خاصة هنا، ويترددون إلى هذه المنطقة، ويتم ذلك غالبا في فصل الصيف، لذلك لايشهد الكثيرون منهم هطول الجليد هنا، ومن ثم لايحضرون مهرجانات ولا سباقات التزلج التي تتواصل من ديسمبر إلى أبريل من كل عام.

قرى سياحية

والعديد من قرى قبرص تم تحويلها من قرى تقليدية، يعمل سكانها بالزراعة في بساتين الحمضيات والكروم وشتى أنواع الفاكهة، إلى قرى سياحية، تحتفظ بملامحها القديمة ومهرجاناتها التي لاتنقطع، وتعد قرية كاكوبتريا من أبرز هذه القرى، حيث لاينقطع السياح عن زيارتها وقضاء الأوقات في حدائقها وبساتينها ومقاهيها ومطاعمها.

وربما لم يكن من قبيل المصادفة أن قبرص شهدت قيام تسع ممالك، في إحدى مراحل تاريخها، فكل مكان على ساحل الجزيرة يتمتع بالوفرةالنابعة من بساتينها وحقولها يمكن أن يتحول إلى مملكة ـ مدينة على غرار المدن الإغريقية القديمة، ومن ثم فكل ضربة فأس في أرض الجزيرة قد تكشف آثار مثل هذه المملكة ـ المدينة.

وهذا هو على الأقل ماتحس به وأنت وسط آثار كوريون، في جنوبي الجزيرة، حيث يمتد الأفق الأزرق أمامك، معانقًا خضرة البساتين، وأنت تجلس على المسرح الحجري القديم، الذي أقيم بعبقرية هندسية مدهشة، بحيث إن أقل همسة على خشبة المسرح تدوي وسط صفوف النظارة الحجرية ربما لأن النسيم المنعش المتدفق من البحر إلى الساحل يحملها على جناحيه.

وخطوات قليلة ستنقلك من المسرح لتشاهد جداريات كوريون، ذات الشهرة العالمية، فيما يعرف باسم فيللا إيستوليوس، وهي جداريات ماتزال تحتفظ بألوانها وتصميمها المدهش، في أدق تفاصيله.

والكثيرون من عشاق قبرص

يسألونك، فور علمهم بأنك زرتها، عما إذا كنت قد زُرت «بترا تو روميو» أو «صخرة أفروديت»؟ فإذا قلت إنك لم تزرها بادروا على الفور إلى ايضاح أنه قد فاتك الكثير، لأن هذه الصخرة التي تنهض من البحر هي الموضع الذي تقول الأساطير إن «أفروديت» ولدت فيه!

قلعة شهدت عرس قلب الأسد

لكنك ربما تكون أكثر اهتمامًا بالواقع منك بالأساطير الإغريقية، فتحرص على زيارة ليماسول، المعقل القوي لصناعة السياحة في قبرص، وثاني أكبر مدينة فيها، والميناء الرئيس، الذي يمور بالحركة، والحياة والنشاط، وفي نهاية «البروميناد» تنهض شامخة قلعة ليماسول، التي تعود إلي القرن الثالث عشر، وقد أقيمت في مكان تحصينات قديمة يقال إنها شهدت عرس الملك ريتشارد قلب الأسد ملك بريطانيا والأميرة برنجاريا دي نافار في العام ١١٩١م خلال الحروب الصليبية.

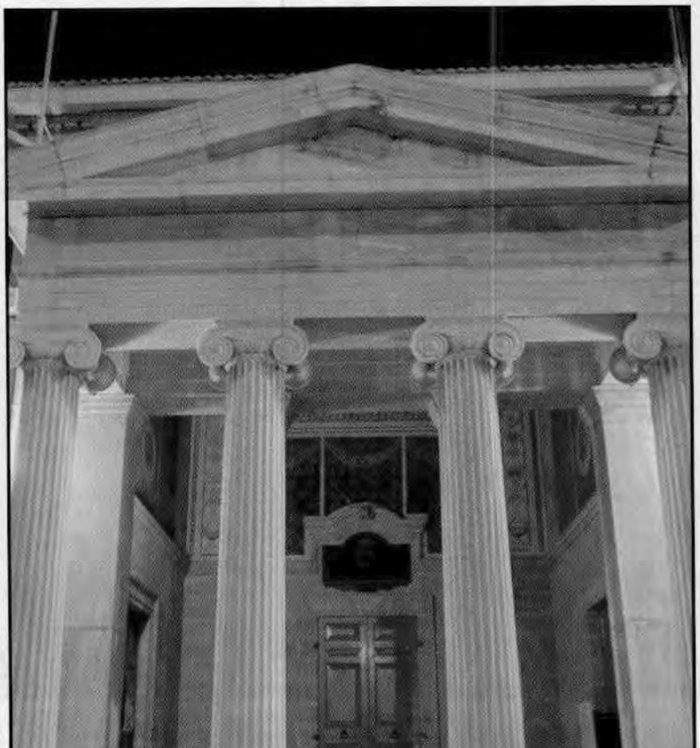
ولهواة المتاحف تقدم ليماسول متحفها الفريد، الواقع خلف حدائق البلدية، والذي يضم كنوزاً أثرية تعود إلى العصر النيوليثي، ومتحف الفن الشعبي الفريد في نوعه، والمقام في دار تعود إلى القرن التاسع عشر تم ترميمها على نحو فريد، ويضم العديد من الأزياء والحلي التقليدية والأعمال الخزفية وغيرها من القطع الفنية الفريدة والآلات الموسيقية، ومنها «البوزوكي» الذي تتردد أنغامه ملء الأذن في أنحاء الجزيرة، وهي نفسها آلة «البزق» العربية المعروفة.

وعشاق الآثار قد يزورون بافوس، وهواة التنزه سوف يمضون تحت أشجار النخيل في بروميناد لارناكا، لكن الكثيرين - مثلي - يتمنون أن تمضي بهم الخطى، ذات يوم، إلى غابات ترودوس الحالمة، وإلى مسجد «خالة سلطان» وقد استرد بهاءه القديم.

مع ذلك تظل صورة قبرص، التي تعد ثالث أكبر جزيرة في البحر المتوسط، بعيدة من الوضوح في ذهنك، إلى أن تقوم بتلمس ملامح تاريخها، لدى زيارتك لمتحف قبرص الذي يعود تاريخ البدء في إنشائه إلى العام ١٩٠٨م، والذي يضم ثروات هائلة من الكنوز الأثرية، ويضع يدك على تضاريس تاريخها الذي يعود إلى تسعة آلاف عام، تعاقبت على الجزيرة خلاله بحكم موقعها الجغرافي الحضارات الآشورية والفرعونية والرومانية والإغريقية والعربية، وفي ١٥٧١م فتحها الأتراك، واستولى عليها الانجليز في العام ١٨٧٨م إلى أن نالت استقلالها في العام ١٩٦٠م.

متحف قبرص .. واحة لقاء للحضارات

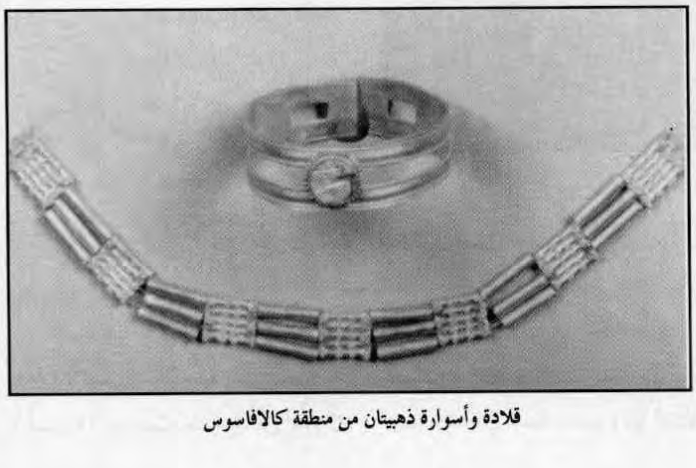
يقع متحف قبرص في شارع المتحف، في قلب العاصمة نيقوسيا على مرمى حجر من الأسوار التاريخية، ومن الخط الأخضر الفاصل بين شطري



مدخل المتحف ليلا



حليتان ذهبيتان من إنكومي



قلادة وأسوارة ذهبيتان من منطقة كالافاسوس

قبرص عروس البحر والحضارة والسياحة

نيقوسيا، الذي ترابط عليه قوات الأمم المتحدة، في تجسيد فاجع لمأساة تقسيم الجزيرة والخلافات المحتدمة بين القبارصة اليونانيين والقبارصة الأتراك،.. وهي الخلافات التي لم تفلح في حسمها حتى الآن المفاوضات الجارية بين الجانبين، بإشراف الأمم المتحدة.

مظهر متواضع وتاريخ عريق

وكشأن جزيرة قبرص نفسها، فإن متحفها يصافحك منذ اللقاء الأول بكثير من الود والترحاب، مع بُعد ملحوظ من التفاخر والادعاء، ولكن هذا المظهر الذي يخيل إليك أنه يعكس قدرًا من التواضع والتقشف، سرعان مايتكشف عن كنوز حقيقية بالمعنى التاريخي للكلمة.

وربما كان تاريخ هذا المتحف هو خير تلخيص لحركة التنقيب وللاهتمام بالآثار القبرصية، ففي أواخر القرن التاسع عشر شهدت الجزيرة نشاطًا هائلاً لمقتحمي المواقع التاريخية ومحترفي الاتجار بالقطع الأثرية، ووصلت الأمور إلى حد أن الدبلوماسي الإيطالي بالما دي سيسنولا استطاع أن يضع يده على مجموعة هائلة من الكنوز الأثرية المنتزعة بوساطة مجموعات من محترفي نهب المواقع الأثرية، ومعظم قطع هذه المجموعة تحتل مكانها الآن في قاعات متحف المتروبوليتان في نيويورك.

وفي ظل الإدارة البريطانية للجزيرة ابتداء من العام ١٨٧٨م بدأت أولى عمليات التنقيب المشروعة عن الآثار، غير أن عددًا محدودًا من القطع التي تم اكتشافها شقّ طريقه إلى متحف قبرص، فقد انتهى الأمر بمعظم القطع المكتشفة في هذه المرحلة إلى الاستقرار في قاعات المتحف البريطاني.

والمبادرة الخاصة والفردية كانت هي التي دفعت إلى النور أول متحف قبرصي بالمعنى الحقيقي في طريق فيكتوريا في نيقوسيا القديمة، بفضل منحة شخصية في العام ١٨٨٨م، وفي العام ١٩٨٩م أصدر سير جون ميرز، و م. أوينفالخ ريختر - اللذان كانا من أوائل علماء الآثار الذين اهتموا بصورة جذرية بآثار قبرص - «الدليل التصنيفي لمتحف قبرص» فكان الإصدار الأول من نوعه.

وفي العام ١٩٠٥م صدر أول قانون للآثار في قبرص، وأحرز متحف قبرص وضعا شبه رسمي. وفي العام ١٩٠٩م بدأ بناء متحف قبرص الحالي ليكون مبنى تذكاريا للملكة فيكتوريا، وفي العام ١٩٢٤م اكتمل البناء.

اليوم، وبعد هذا التاريخ الحافل للمتحف الذي صمد خلال الحربين العالميتين وحرب تحرير قبرص من الاحتلال الإنجليزي، وكذلك الأحداث العاصفة التي واكبت تقسيم الجزيرة؛ فإنه توضع حاليًا خطط لبناء متحف جديد للآثار القبرصية بعد امتلاء القاعات والمخازن بالمكتشفات والكنوز والوثائق والقطع الأثرية والكتب والمخطوطات.

طبيعة متحف قبرص

هذه الحقيقة نفسها ستفرض على زائر متحف قبرص سؤالاً صعبًا: كيف يمكن أن يزار متحف مثل هذا؟

مصدر الصعوبة في الإجابة عن هذا السؤال هو أن الأسلوب التقليدي الذي يتبعه ذوو الخبرة في التعامل مع المتاحف المحتشدة بالأعمال المهمة، هو زيارة مايسمى بـ«الأعمال النجوم» أي الأعمال ذات الشهرة العالمية، والتي لامثيل لها في أي متحف آخر. لكن هذا الأسلوب لايمكن اتباعه في حالة متحف قبرص.

صحيح أن متحف قبرص يضم عددًا من «الأعمال النجوم» الجديرة بالمشاهدة مثل تمثال الإمبراطور سبتميوس سيفيروس البرونزي الذي يتجاوز الحجم الطبيعي، ويعد عملاً فريدًا لامثيل له، ومجموعات الأسلحة البرونزية التي تعيد إلى الأذهان اعتقاد



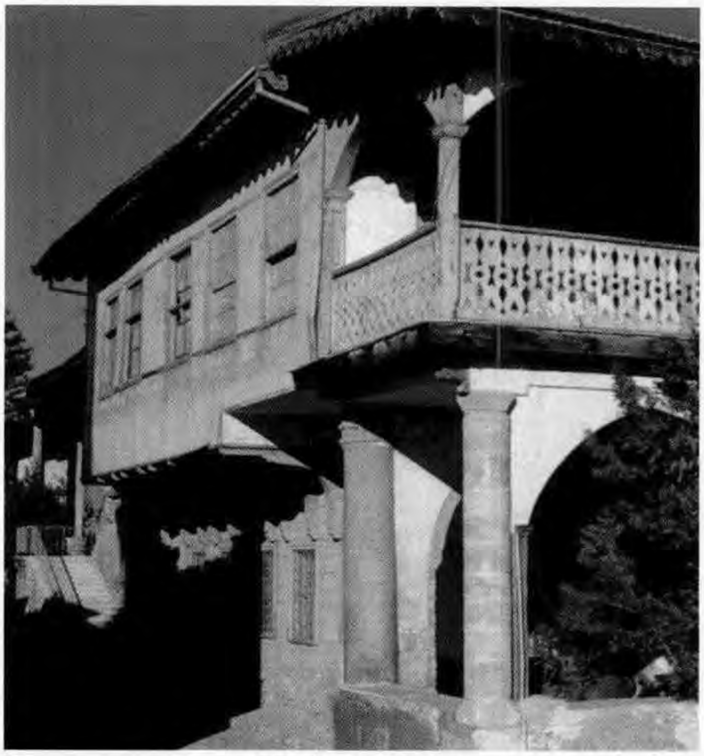
حامل برونزي يعود إلى العام ١٢٠٠ ق.م



أمفورا ذات نقوش فريدة



مرجل برونزي يعود إلى العام ٧٠٠ ق.م من سلاميس



متحف الفن الشعبي في نيقوسيا

الكثير من الباحثين بأن حرب طروادة خاضها المتقاتلون بالبرونز القبرصي، وغيرها من القطع الفريدة من الذهب والفضة والخزف.

ولكن الحقيقة الأساس التي يجب على زائر متحف قبرص أن يتذكرها هي أن هذا المتحف قد صُمِّمَ ليتيح دراسة تطور الحضارة على أرض جزيرة قبرص، وبتعبير آخر فإن ترتيب القاعات وتصنيف الأعمال المعروضة والشروح المقدمة للزائر كل ذلك يصب في تأكيد أنه متحف تعليمي في مجال الآثار، وليس متحفًا للفن على نحو حصري.

ما الذي يعنيه هذا؟ إنه يعني ببساطة أن زائر متحف قبرص سيجد «الأعمال النجوم»، وحشداً هائلاً من الأعمال الفنية الرائعة في قاعات المتحف، ولكنها ليست معروضة لزيارتها في حد ذاتها، وإنما لتتم مشاهدتها في سياقها التاريخي، الذي يوضح التطور الحضاري، الذي شهدته الجزيرة، منذ تسعة آلاف عام.

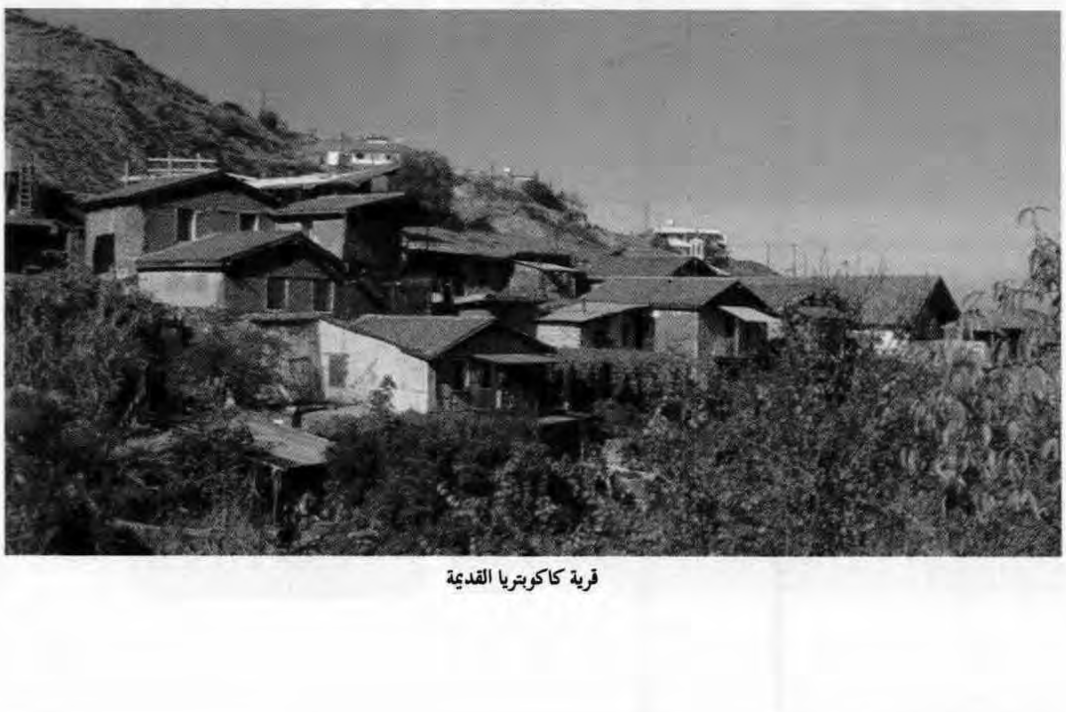
إذن، ماالسبيل إلى الانطلاق في هذه الرحلة الممتعة دون الغرق في الكثير من التفاصيل من ناحية، ودون إهدار الملامح الفنية والتاريخية الأكثر أهمية من ناحية أخرى، مع الأخذ في الاعتبار عنصر الوقت الذي يطارد السائح دائمًا؟

الخطوة الرئيسة تبدأ مع إدراك الحقيقة القائلة بأن هذا المتحف كيان عضوي حي، فالقطع والأعمال التي يتم جلبها له تشق طريقها بداية إلى ورش المتحف والمعمل التابع له، ليتم تنظيفها ودراستها والحفاظ عليها وإطالة عمرها بما لايمس أصالتها التاريخية والآثارية، ثم رسمها وتصويرها لإكمال الجانب الوثائقي ولإصدارها في المطبوعات الصادرة عن دائرة الآثار التي يتبعها المتحف، والتي تشكل جزءًا من عشرة آلاف مجلد ثمين يضمها قسم خاص يعتز به المتحف هو المكتبة التي يقصدها الخبراء والباحثون والدارسون من كل أنحاء العالم، ثم أخيرًا تعرض القطع أو تحفظ في المخازن، بحسب قدرتها على خدمة المخطط العام للمتحف.

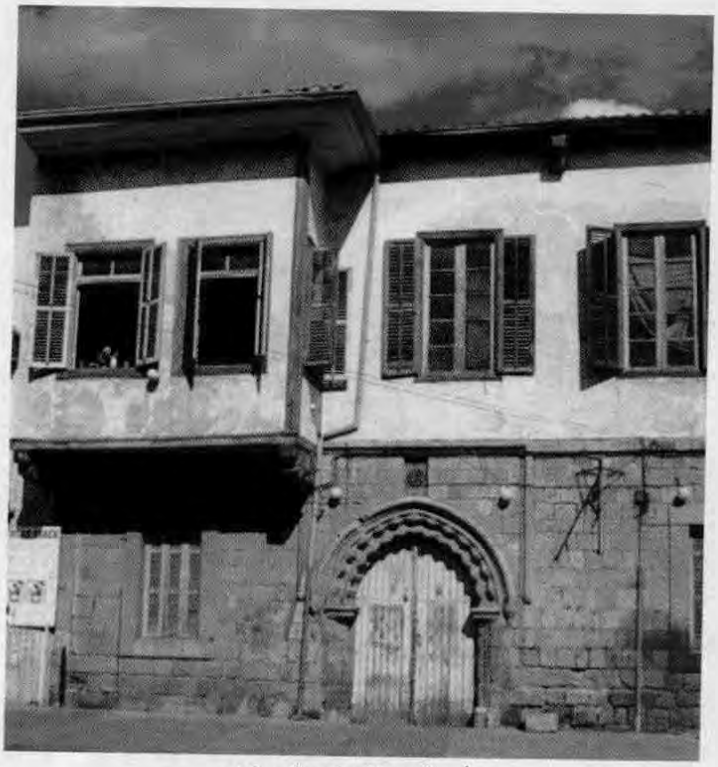
خارطة لزيارة المتحف

ومن خلال التجوال في متحف قبرص بغير قليل من الأناة والتمهل، وبمطالعة المراجع ومراجعة المرشدين في المتحف، أستطيع أن أرسم لك خارطة لزيارة هذا المتحف تمر بالخطوات أو المراحل التالية:

دعنا ننطلق من البداية، كما يقولون، وهذه البداية أوَّلها أن تنسى فضولك التقليدي الذي سيدفعك إلى إمضاء وقت طويل في غرفة تقع إلى يسار المدخل تباع فيها بعض المطبوعات والهدايا التذكارية، وعليك بالاستعداد: فَهُمْ هنا لايقبلون إلا التعامل بالجنيه القبرصي، وليس بأي وسيط دفع آخر في الكون ، سواء أكان من العملات الصعبة أم البطاقات الائتمانية. ولست أدري الحكمة من هذا في بلد صناعته الأولى هي السياحة، ومن ثم عليك بتأجيل مثل هذه المشتريات والانطلاق إلى القاعة الأولى في المتحف، حيث ستجد نفسك وجهًا لوجه مع أقدم العصور التي وصلت إليها يد التنقيب والاستكشاف، وهو العصر النيوليثي بكل مراحله، تجده أمامك متمثلاً في المعثورات الصغيرة والنادرة كالتماثيل والأواني والأوعية والقطع الحجرية المزخرفة التي يعتقد أنها شكلت أولى العملات في الجزيرة إلى جوار العقود



قرية كاكوبتريا القديمة



أحد البيوت القديمة من القرن ١٩

النادرة والجرار القديمة.

في القاعة الثانية ستقف طويلاً، وأنت تستعيد في ذهنك ما قرأته في صدر عمرك من كلمات هوميروس في «الإلياذة» عن «الفرسان الذين يعضون التراب بعد أن اخترق صدورهم البرونز المصقول». فأنت هنا أمام مجموعة تعود إلى العصر البرونزي المبكر حيث اكتشف النحاس في قبرص منذ أقدم العصور، وهاهي أمامك الأوعية المتألقة الحمرة بمختلف الأشكال، ومالا حصر له من الأدوات البرونزية بما في ذلك الأسلحة والخوذات والدروع.

في القاعة الثالثة أنت على موعد مع مشهد بانورامي لتطور الخزفيات والنحاسيات القبرصية منذ العصر البرونزي الوسيط امتدادًا إلى عهد الرومان.

أما في القاعة الرابعة فستتوقف أمام مجموعة مدهشة من الأشكال المجلوبة من موقع أيا إيريني الأثري، حيث الأصالة الفريدة في التصميم والإبداع والثراء في المادة في الخامات والتفاصيل، ويسترعي النظر أن هذه المجموعة معروضة على نحو ما وجدت عليه تقريبًا دون مساس بها.

وتعد القاعة الخامسة من الملامح المهمة في متحف قبرص، حيث تتيح الفرصة لدراسة تطور فن النحت في قبرص، وكما سبقت الإشارة فإن التركيز هنا ليس على جماليات الأعمال المعروضة وإنما على دلالتها في التطور الحضاري للجزيرة، ففي البداية ستجد المؤثرات القوية لفن النحت في تقاليده الفرعونية، وستجد ملامح من الفن الأشوري، وستتوقف طويلاً في القاعة السادسة أمام أحد «الأعمال النجوم» وهو تمثال الإمبراطور سبتميوس سيفيريوس. وهنا يلاحظ أن غياب مادة المرمر كان له أثر في النحت القبرصي، حيث اضطر الفنان القبرصي إلى استخدام الحجر الجيري، الذي لايتيح ذلك الاهتمام المدهش بالتفاصيل وجماليات العمل الذي نجده في المنحوتات الإغريقية.

من المؤكد أن جولة أي زائر لمتحف قبرص لن تكتمل إلا إذا قام بمشاهدة مايسمى بقاعة المقابر، وفي هذه القاعة قام المشرفون على المتحف بإعادة إنشاء مقابر تنتمي إلى كل العهود البارزة في التاريخ القبرصي، ويصل الطابع التعليمي الآثاري للمتحف هنا إلى قمة وضوحه، وقد تم توسيع هذه القاعة مؤخرًا لتستوعب مواد جديدة في ضوء المكتشفات الحديثة في المواقع الأثرية الفنية في سلاميس، والتي أثْرَتْ مجموعة المتحف من التماثيل والمنحوتات المرمرية التي كانت محدودة في السابق.

في القاعة التاسعة من المتحف يتوقف الزائر أمام مجموعة كبيرة من التماثيل من الصلصال وحجر الستيتايت التي تنتمي إلى مراحل متعددة أحدثها العهود الرومانية.

في القاعة العشرين سيبدو بوضوح معنى ماقلناه من أن هذا المتحف كيان عضوي حي، فالمشرفون عليه لايترددون في إضافة قاعات جديدة مع كل اكتشافات أثرية كبرى جديدة تشهدها الجزيرة. وفي هذه القاعة تعرض ثمار عمليات التنقيب في المواقع الأثرية في سلاميس، ومن بينها بصفة خاصة مجموعة من قطع الأثاث المصنوعة من العاج.

وقفة مع فكرة الموت!

وحينما مضيتُ لألوّح تلويحة الوداع لمتحف قبرص، لم أملك إلا أن أحمل معي - كوني رجلاً أمضى جانبًا ليس بالقصير من حياته في تأمل فكرة الموت - التأثر الكبير بمشهد ذلك القبر الذي يعتبر من أوائل القبور في الجزيرة، والموجود في قاعة المقابر، والذي يبدو فيه أن هؤلاء القدماء الذين عاشوا في قبرص قبل تسعة آلاف عام دفنوا أحد نبلائهم في داره، وقد حرصوا على وضع حجر على صدره، فهنا التمزق الإنساني أمام فكرة الموت، هنا اللوعة في مفارقة هذا الراحل، ومن هنا دفنه في هذا القبر البدائي في بيته، وهنا أيضًا الخوف من هذا الموت الغامض والغريب والملتبس، ومن هنا وضع الحجر على صدر الميت، وهنا أيضا الحرص على أن يترك الميت وراءه ما يوحي بنبل عمله ومن هنا النقوش على جدران القبر.

وإذ يرحل متحف قبرص بعيدًا من عين الزائر، فإنه يبقى منه في الذاكرة نبل العمل المتمثل في محاولة رسم صورة (بانورامية) للجهد الحضاري الإنساني الرائع في مواجهة غول كبير اسمه النسيان. وبهذا المعنى فإن قبرص، متمثلة في متحفها، تظل قادرة على إدهاش زائرها، وعلى ترك لمسة جميلة في أفق حياته، هي المزيد من التأكيد على نبل الجهد الحضاري للإنسان في محاولته لتجسيد قيم الحق والخير والجمال.

المراجع:

١) GEORGIOS KYRIAKOU - CYPRUS IN COLOUR - K.P.KYRIAKOU - LIMASOL 1987.

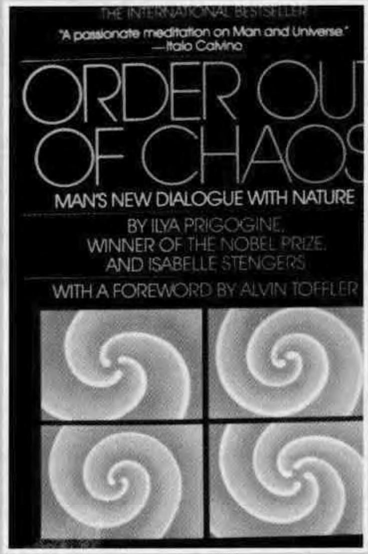
2) DR. S. NASIF- TRAVELERS GUIDE TO CYPRUS - SABIANO PUBLISHERS - NICOSIA -1994.

٣- إدوارد دانيال - قبرص: دليل السائح - د.ن - ليماسول - ١٩٩٤م.

٤) VASSOS KARAGEORGHIS , THE CYPRUS MUSEUM. C. EPIPHANIOU PUBLICATIONS LTD. 1989, NICOSIA.

نافذة على ثقافة العلماء

النظام من الفوضى الحوار الجديد بين الإنسان والطبيعة



تأليف:
إيليا بريغوجين
إيزابيل ستنجرز
عرض:
محمد الحديدي

إيليا بريغوجين عالم وباحث، روسي المولد، بلجيكي الجنسية والإقامة، فرنسي اللغة، حاز جائزة نوبل في العلوم سنة ١٩٧٧م عن بحوثه في الديناميكا الحرارية للمنظومات غير التوازنية، ومايسميه المتخصصون في الفيزياء: البنية التبددية DISSIPATIVESTRUCTURES. وهو ـ عادة ـ أمر لايهم القارئ العادي إلا إذا تصادف أن كان باحثا في دنيا المادة، تلك الدنيا التي يقول عنها فيلسوف العلم والرياضيات برتراند راسل: كلما تعمقنا في المادة وجدنا أنها أقل مادية مما تبدو لنا، وكلما غُصنا في أعماق العقل وجدناه أكثر ماديه مما نظن!

وسوف نأتي في عرضنا لهذا الكتاب لدور قوانين نيوتن ثم النسبية ثم ماتلا ذلك، في محاولة لكشف أسرار الكون والحياة. إلا إنني أسارع فأقر للقارئ مسبقا بأنه لا هذا الكتاب الخطير ولا غيره يدلنا على سر من هذه الأسرار، ولا العلوم التجريبية ـ على عظمة ماهو مبذول فيها من جهد ـ هي الطريق إلى إدراك أمور لايعلم إلا الله ماإذا كانت في طائلة الإنسان..

ومؤلفنا إلى جانب باعه الطويل في الفيزياء، متبحر في التاريخ وعلوم الآثار والفنون التشكيلية. وقد ولد سنة ١٩١٧م ،ويعيش في بروكسل مع زوجته المهندسة، ومازال يشتغل بقيادة فريق من الباحثين في أمور واسعة النطاق، من السلوك الاجتماعي لطوابير النمل إلى التفاعلات التفرقية للمنظومات الكيميائية ومعادلات نظرية الكم.

أما إيزابيل ستنجرز شريكته في وضع هذا

الكتاب، فهي دارسة في الفلسفة والكيمياء وتاريخ العلوم، تعيش في فرنسا. وقد ظهر الكتاب أول الأمر بالفرنسية بعنوان «التحالف الجديد»، ويقول المؤلفان في مقدمة الطبعة الإنجليزية المترجمة: إنهما لم يجدا مقابلاً مناسبًا في الإنجليزية لهذا العنوان، لذا فقد وضعا له هذا العنوان الجديد وهو بالعربية يعني استنباط «النظام من الفوضى»، أو الاستدلال على العلاقات التي تحكم الأشياء في هذا الكون من الفوضى التي تسوده، ولعل هذا مقام تذكير القارئ بعرضنا لكتاب «الفوضى CHAOS» في العدد ٢٠٦ من «الفيصل».

ولسنا نشاركهما هذا الرأي ولكننا نتقبله طبعًا، وفي أول الكتاب مقدمة أخرى طويلة للعالم الاجتماعي الاقتصادي وواحد من مفكري العصر المرموقين «ألفين توفلر» صاحب الكتابين الشهيرين: «صدمة المستقبل» و«الموجة الثالثة»(*).

وسنورد في عجالة سريعة بعضا من تعليقاته المهمة التي تشير إلى أن التصنيع والإنتاج الكثيف، وهما من نواتج الكشوف العلمية، قد أديا بنا إلى تصور خاطئ للحياة والكون، فأصبح كل شيء يبدو لنا نظامًا أو منظومة، مما أثر في البحوث العلمية وفي العلم ذاته، ولم يعد أكثرنا يدرك أن العلم يتأثر بالبيئة الاجتماعية بدرجة تفوق التصور. «نموذج نيوتن» يصور كونا وفضاء منفصلين عن إدراك الإنسان، وهذا هو الذي يجعل تصورات نيوتن ولابلاس وأضرابهما بعيدة من الحقيقة ـ على الأقل كما يراها الإنسان ـ، ثم تأتي النسبية لتعيد المراقب إلى نطاق «العملية». أما مؤلفنا بريغوجين، فيصر على أنه إذا كان هناك نظام للكون فإن هذا النظام كفيل بأن ينمو، من تلقاء ذاته، من أعماق الفوضى ويمارس ماتدور حوله فلسفته، وهو ما يسمى «التنظيم الذاتي» SELF ORGANIZA-TION.

وسنلقي نظرة شاملة سريعة على تكوين الكتاب ومنهاجيته قبل أن ننتقل إلى أخذ مقتطفات منه تعبر عن مضمونه، إذ لانستطيع نقل كل مافيه في مقالة واحدة! فالكتاب يتناول ـ باختصار شديد ـ تقدم العلوم وأثرها في الفكر الإنساني ونظرة الإنسان إلى الحياة والكون ومايسميه المؤلف «الحوار مع الطبيعة». آفاق عريضة لا يتسنى اختصارها في عجالة، كما أنها إثارة للموضوع أكثر منها حلاً للمشكلة بطبيعة الحال.

يقع الكتاب في ثلاثة أجزاء كبرى:

ـ الانخداع بالكونية THE DELVSION OF THE UNIVERSAL ويدور حول الثورة العلمية التي أحدثها نيوتن بقوانينه في الفيزياء والرياضيات منذ أكثر من ثلاثمائة سنة (بالتحديد سنة ١٦٨٦م) وماتسمت به أفكاره من مطلقية الزمان والمكان والمادة، وهو مانفته النسبية بعد ذلك. ثم يعرض المؤلفان فصلاً بعنوان: «الثقافتان» يعرضان فيه أفكار فلاسفة الغرب من أمثال: ديديرو، وكانت، إلى فلاسفة القرن العشرين الذين عاصروا النسبية من أمثال: هيجل الألماني و ألفرد نورث هوايتهيد الإنجليزي، أستاذ راسل ثم زميله في كتاب «المبادئ الرياضية»، ثم برجسون الفرنسي.

ـ علم التعقيد THE SCIENCE COMPLEXITY وفي هذا القسم يغرق المؤلفان في بحور العلم التجريبي، وأثر كشوف الديناميكا الحرارية والبيولوجيا الجزئية والكم، وأثر هذا في فلسفة الزمن وإدراكنا لحركة الفضاء والكون ومشتملاته.

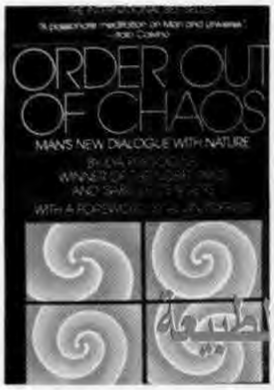
ـ من «الكينونة» إلى «الصيرورة» FROM BEING TO BECOMING «إعادة اكتشاف الزمن» عنوان أحد الفصول العويصة، ثم «سهم الزمن» كما يسمى، ومدى انعكاسية الأحداث وحدود المفاهيم التقليدية ومبادئ الانتقاء والعشوائية أو «الصُدفية».

وينتهي الكتاب بفصل إضافي



علماء النسبية قالوا: ليست هناك جاذبية، إن كل شيء في الفضاء في حركة دائمة

النظام من الفوضى الحوار الجديد بين الإنسان والطبيعة



بعنوان: الخلاصة: من الأرض إلى السماء: اكتشاف الطبيعة من جديد

والآن، إلى المقتطفات التي وعدنا بها:

الكون كما صوره نيوتن

جاءت كشوف نيوتن وقوانينه لتصور لنا عالما تسوده القوانين الفيزيائية التي تحكم المادة الصماء المصمتة، كل شيء بالحساب والمعادلات. وقد تنبأ نيوتن باكتشاف الكوكب «نبتون» أو «أحس» بوجوده في المجموعة الشمسية ثم ثبت ذلك بعد وفاته، فكان ذلك انتصاراً لنظريته: «وقد بدأنا في هذا العصر نتعامل مع الشكوك والصراعات التي نتجت من هذا الانتصار، ونرى بدرجة أكبر من الوضوح حدود العقلانية النيوتونية، وبدأت نظرة جديدة تسود العلم والثقافة والفكر الحديث».

ينتقل بنا الكتاب بعد ذلك إلى ردود الفعل الفكرية لحتمية الفكر النيوتوني، ويأتي بآراء ثلاثة من المفكرين، هم مارتن هايديجار وآرثر كوستلار والكسندر كويريه:

فهايديجار يرى في العلم القائم على قوانين نيوتن وسيلة لإخضاع الطبيعة لأغراض الإنسان، كمحطة لتوليد الكهرباء تُخضع نهر الراين لمطالب البشر من الكهرباء، ناهيك عن الإغراق والإطماء والتلويث، وإن كان يرى في ذلك - وفي تدمير الحياة في النهر - اعتبارا ثانويا. أما كوستلار فيقول: لقد سمعنا جوقة كاملة من حملة جوائز نوبل تتغنى بموت المادة والحياة المادية ومعها الجبرية والحتمية والسببية، لقد آن الأوان لأن نتخلص من جميع الأفكار والفلسفات المادية. فقط هذا يأتي متأخراً، فقد امتلأ بها القرن العشرون مع أن العلماء غاصوا في أعماق المادة في أوائل ذلك القرن ولم يعثروا على شيء. أما كويريه فيقول: لقد تسبب نيوتن وأنصاره في انقسام الحياة إلى شطرين: ذلك الذي نحيا فيه ونتنفس ونحب ونموت، وذلك الذي يسوده الحساب والقياس والهندسة، شطر للنوعية وشطر للكمية، إن العلم لم يستطع أن يفسر الحياة، وبذلك انتهى بنا الأمر إلى نوعين من الحقيقة. وإذا كانت هناك حقيقتان فليست هناك حقيقة! إن مأساة العقل الحديث تتمثل في أنه يقدم حلا للغز الوجود، إلا إن هذا الحل ليس إلا لغزا جديدا.

يعرض الكتاب بعد ذلك لمشكلة الانعكاسية. فالعملية PROCESS عند الفلاسفة العلميين مثل هوايتهيد، قد تكون قابلة للانعكاس وقد لاتكون. علماء النسبية مثل ادنجتون وأينشتاين يرون أن إحداثيات الفضاء والزمن قابلة للانعكاس وأن الزمن قد يكون له أكثر من اتجاه، وهم ينفون قانون الجاذبية: ليست هناك جاذبية، إن كل شيء في الفضاء في حركة دائمة، ولكن وجود المادة يحدث التواءً أو انبعاجًا في نسيج الفضاء والزمن، تخيل ملاءة بيضاء مصنوعة من نسيج من المطاط نبسطها في وضع أفقي ونضع عليها كرات سوداء في حجم كرات البلياردو، كل واحدة منها ستوجد بثقلها التواء في السطح، فإذا تصورنا جسما صغيرا يتحرك على الصفحة البيضاء، فإن هذا الجسم إذا اقترب من موقع كل كرة من الكرات فسوف ينحدر بتأثير هذا الالتواء مقتربا من كرة البلياردو، هذا هو مايحدث، والذي يرقب هذه الحركات قد يظن أن اقتراب الجسم من المنحدر هو تأثير الجاذبية. بعبارة أخرى: مافسره نيوتن على أنه قانون كوني يجعل الكتل المادية تجذب بعضها بعضا في الفضاء ليس إلا التواءات في هذا الفضاء تجعل الأجسام المتحركة تغير اتجاهاتها منحدرة نحو بعضها البعض، هذا طبعا في فراغ ثلاثي الأبعاد بدلا من مستوى ذي بعدين كالذي استخدمناه في هذا المثال.

تحت عنوان «بداية جديدة» يقول الكتاب: «كانت الطبيعة عند القدماء مصدراً للحكمة، مصدرا لادراك وجود الله، أما في العصر الحديث فقد أصبحت صامتة وسلبية إلى حد أن الفيلسوف الألماني كانت يرى أنه يجب أن نفرق تماما بين العلم والحقيقة. وقد عشنا قرنين من الزمن في هذا الازدواج وآن الأوان لأن نضع له حدا. أول خطوة في الطريق نحو توحيد المعرفة جاءت في القرن التاسع عشر باكتشاف نظرية الحرارة وقوانين الديناميكا الحرارية. إن علم الديناميكا الحرارية يبدو أنه أول صورة متاحة لعلم التعقيد».

وهكذا نمضي إلى الجزء الثاني من الكتاب.

الطاقة والعصر الصناعي

البارون الفرنسي جان جوزيف فورييه، صاحب المعادلات الرياضية الشهيرة المعروفة باسمه: «تحليلات فورييه»، حصل سنة ١٨١١م على جائزة الأكاديمية الفرنسية للعلوم مكافأة له على نظريته في سريان الحرارة في المادة. كتابنا هذا يعد تلك السنة بداية لعصر جديد في الفكر الإنساني. كانت قوانين نيوتن تفسيراً لحركة المادة في الفضاء، أما قوانين الحرارة فتتناول مايدور في داخل هذه المادة، لا مجرد تحركها ككتلة واحدة، والذي يدور في داخلها قد يكون تفاعلاً كيميائيا باعثا أو باثا للحرارة أو الطاقة، ومن ثم فهي منظومة SYSTEM تُحدث أثراً في الكون كله الذي هو أيضًا منظومة. منذ ذلك الحين أصبحنا نفرق بين الرياضيات والفيزياء والعلوم النيوتونية. في القرن الثامن عشر كانت الرياح والمياه والدواب هي مصدر الطاقة، ولم يكن فيلسوف الاقتصاد آدم سميث (١٧٢٣-١٧٩٠م) يرى في الفحم أكثر من مصدر لتدفئة العمال مع إنه كان عاكفا على كتابه الشهير «ثراء الأمم» وفي الجامعة ذاتها التي كان جيمس واط يجري فيها أبحاثه. كان الأول يجمع البيانات عن

احتمالات النمو الصناعي، والثاني يضع اللمسات الأخيرة على واحد من أخطر التطورات في تاريخ البشرية: الآلة البخارية .

في الجزء الثاني من الكتاب، وهو الذي يحمل عنوان هذه الفقرة، يدخل بنا المؤلفان دائرة الفيزياء والديناميكا الحرارية بعمق، وفي هذا العرض الشديد الإيجاز سنحاول جهدنا ألا نورد هنا إلا أدنى قدر ممكن من هذه الأمور:

«الضغط والحجم والتركيب الكيميائي ودرجة الحرارة هي المقيسات الأساسية التي تتحدد بها الخواص المجهرية للمنظومات، والديناميكا الحرارية هي العلم الذي يحدد العلاقات بين التغيرات في هذه الخواص. وأهداف النظرية ليست هي التنبؤ بالتغيرات في المنظومة مقيسة بالتفاعلات بين الجسيمات، وإنما هي التنبؤ بسلوك المنظومة ككل في مواجهة التغيرات التي نوقعها عليها من الخارج».

حسنا، لدينا وسيلة لتصوير ذلك مألوفة لنا جميعا. إن من يقود سيارة يعرف كيف تستجيب للضغط على موطئ التعجيل أو الكابح، أما مايدور بين المواد الأيدروكربونية داخل الاسطوانات وهي تتحد مع الأكسجين الذي ينضغط في المحرك فأمر لايعنيه كثيرا. الواقع أن الكتاب ينتقل بنا فورا إلى هذا التشبيه:

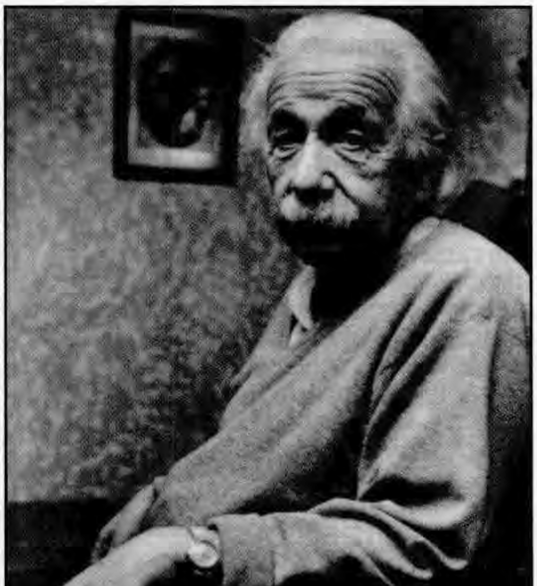
«إن المحرك الحراري ليس مجرد وسيلة سلبية، إنه يعطي حركة، وهذا مصدر لمشكلة جديدة: لكي نسترد قدرة المنظومة على تحويل الحرارة إلى حركة لابد أن نعود بها إلى نقطة البداية. بعبارة أخرى لابد من جعلها تبرد ثم تسخن من جديد».

ننتقل من هذا إلى المفهوم العلمي والهندسي للطاقة وأشكالها وتحولها من صورة إلى أخرى وقانون بقاء الطاقة ثم الدورة الحرارية التي ماتزال محركات السيارات ومحطات التوليد تعمل بها حتى الآن: دورة «كارنوCARNOT» الشهيرة. لازار كارنو الفرنسي ثم ابنه سادي كارنو، وضعا هذه الدورة CY-CLE التي تقوم على اتصال المنظومة بالعالم الخارجي ثم انعزالها كوسيلة لتحويل الحرارة إلى طاقة حركية.

ننتقل من ذلك إلى هذه الفقرة الخطيرة في الكتاب، التي تأتي تحت عنوان «كارنو وداروين»، والتي ننقلها كما هي:

«تلخيصًا لهذا كله : كانت الديناميكا الحرارية التوازنية هي أول استجابة من الفيزياء لمشكلة التعقيد الكوني. وقد عبرت عن هذه الاستجابة بمقياس تبديد الطاقة، نسيان الأحوال الأساسية والاتجاه نحو الفوضى. كانت الديناميكا الكلاسيكية، وهي علم المسارات المقذوفية القابلة للانعكاس، خارجة من نطاق المشكلات التي واجهت القرن التاسع عشر، والتي كانت واقعة تحت تأثير مفهوم النشوء والارتقاء. كانت الديناميكا الحرارية التوازنية في موقف يمكنها من أن تواجه مفهومها للزمن بما يخالف مفاهيم العلوم الأخرى، بالنسبة للديناميكا الحرارية الزمن يعني التداعي والموت. كان الفيلسوف ديديرو (١٧١٣-١٧٨٤م) قد تساءل من قبل: أين موقعنا نحن من هذا الكون الخامد الخاضع للديناميكا المصمتة، ونحن كائنات قادرة على الحس، وهبها الله هذه القدرة؟ وهناك سؤال آخر ظل يؤرقنا قرنا كاملا: ماأهمية تطور الكائن الحي في عالم تسوده فوضى مستمرة ومتزايدة؟ ماالعلاقة بين الزمن الحراري والزمن المتجه نحو التوازن ثم الزمن الذي يعمل فيه النشوء والارتقاء نحو المزيد من التعقيد؟ هل كان برجسون محقا؟ هل الزمن هو البيئة التي تحيط بالابتكار والتجدد أم إنه لاشيء على الإطلاق؟».

يتحدث الكتاب بعد ذلك في ماتبقى من هذا الجزء عن: مراحل تطور الثرمودديناميكا، ماوراء حافة الاضطراب الكيميائي، المواجهة مع البيولوجيا الجزئية، من أقليدس إلى أرسطو... ثم التشابهات بين مايدور في داخل محرك سيارة يحول الطاقة الكيميائية الكافية إلى حركة، وبين مايدور على مستوى الكون الذي يجيش بالطاقة والحرارة. هذا الكون العظيم المحيِّر، عندما ينظر إليه كمنظومة حرارية: هل هو منظومة مفتوحة أم مغلقة معزولة؟ هل هو منظومة فوضوية أم

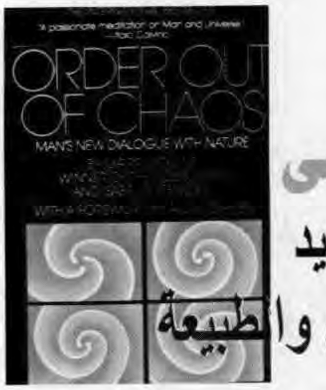


ألبرت أينشتاين



اسحق نيوتن

النظام من الفوضى
الحوار الجديد بين الإنسان والطبيعة



خاضعة للحساب الرياضي؟

«ترى أي صلة توجد بين الديناميكا، علم الحركة والقوى المحركة ومسارات المقذوفات في الفضاء، وبين علوم التراكب والتعقيد، علوم التفاعلات البيولوجية والنشوء والارتقاء. في نهاية القرن التاسع عشر كان عدم الانعكاسية IRREVERSI BILI-TY، أمرا يتصل بظواهر الاحتكاك الباعث للحرارة، واللزوجة والتسخين، إنها هي أساس تبديد الطاقة، وحتى ذلك الوقت كان مايزال ممكنا للمرء أن يعتقد أن هذا ليس إلا نتيجة عجزنا نحن عن استرداد هذه الطاقة، ليست لدينا الوسيلة لذلك. أما اليوم فإن الفيزياء تقول لنا إن عدم الانعكاسية يؤدي دورا أساسيا وبناء. وأخيرا نأتي إلى سؤال: ماالعلاقة بين علم التعقيد وعلم السلوك البدائي البسيط؟ ماالعلاقة بين هاتين النظريتين المتضادتين، وهل توجد حقيقتان مختلفتان؟ أساس المشكلة: الزمن عند نيوتن، علم الجاذبية، والزمن في علم النار والكيمياء. إن قوى التفاعل في ديناميكا نيوتن ليست صالحة لتفسير السلوك المعقد للمادة، التركيبات الكيميائية هي كائنات النار، نتاج العمليات غير القابلة للانعكاس، كيف يتسنى إغلاق هذه الفجوة بين «الكينونة» و«الصيرورة»؟

إعادة اكتشاف الزمن والصدام بين الأفكار والتعاليم

هذا الجزء الثالث والأخير من الكتاب، يلهب الخيال بما يقدمه من وصف للصراعات بين الكشوف العلمية، ثم بينها وبين الأفكار الفلسفية، ويوضح بما لايدع مجالا للشك أن العلم التجريبي ليس أمرا مقطوعا به على الإطلاق. ومن جهة أخرى فإن إعمال العقل في معضلات الحياة والكون ـ بمعنى آخر: الفلسفة بجوانبها الميتافيزيقيا والأخلاقية، بل الاجتماعية السياسية ـ كل هذا لا فائدة منه دون متابعة دقيقة لهذه الكشوف العلمية، إنه إذا كان الرجل العادي يفكر في معضلات الحياة والكون والحقيقة، فإن أمله الوحيد في التوصل إلى الأسرار لن يتأتى إلا بأن يكف عن أن يكون عاديا، فالحقيقة بشأن الحياة والموت والزمن... إلخ، هذه الحقيقة لن تكون شيئا مثل: الواقع أنه كذا وكذا، بل ستكون معادلات رياضية بالغة التعقيد، بل سوف تكون موضع خلاف حاد ومستمر بين العلماء والرياضيين والفلاسفة. وإذا رجعنا إلى الوراء في صفحات الكتاب سنجد هذين المؤلفين ـ وليست مصادفة أن أحدهما عالم في الفيزيا والأخرى دراسة للفلسفة ـ سنجدهما يقولان:

«من الموضوعات الأساسية في هذا الكتاب: التفاعل الشديد بين قضايا الإدراك الفكري والثقافي، من ناحية، والمفاهيم المختلفة للمشكلات العلمية، ونحن نجد مشكلات الزمن كامنة في قلب العلم ذاته، التحول، عدم الانعكاسيه، مسائل كرَّس لها الفلاسفة أعمارًا بأكملها، واليوم نجد التاريخ ـ سواء كان اقتصادا أم ديموغرافيا أم سياسة ـ يتحرك بخطى لم يسبق لها مثيل، مشكلات جديدة واهتمامات جديدة تتطلب منا أن ندخل في حوار جديد، باحثين عن إدراك جديد».

كلنا فكرنا في أنه لو لم يكن أبو العلاء المعري أملى «رسالة الغفران» لما كان هذا العمل الأدبي الرائع قد ظهر إلى الوجود، ولكن معادلات الخوارزمي كان محتوما أن تظهر لو لم ينشغل بها، فهي حتمية ! هل هذا صحيح؟ إن العلم ـ كما يصفه لنا هذا الكتاب ـ يتراوح من المعادلات الرياضية إلى كشوف الفيزياء الجسيمية، يأتي بترتيب معين، الكثير منه محتوم وكان مقدورا له أن يكتشف، ولكن الكثير منه موضع خلاف هائل بين العلماء، ولو كانت الكشوف قد جاءت بترتيب آخر لكانت المترتبات قد سبقت ماترتبت عليه، ولكان العلم نفسه قد تحول إلى قضايا فلسفية.

الواقع أنه كذلك. الكتاب يورد لنا هاتين المقولتين:

هوايتهيد (الفيلسوف): إن صدام التعاليم ليس كارثة، إنه فرصة!

ادنجتون (الفيزيائي الفلكي): في أي محاولة لإنشاء جسر بين عالمي الحياة الفيزيائية والحياة الروحانية، سوف نجد مشكلة الزمن، هي لب الموضوع.

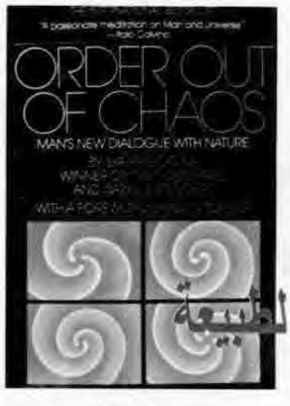
وهذا الجزء الأخير من الكتاب يتناول هذه المعضلة: ماالزمن؟ ماحقيقته؟ أوله وآخره وسرعته.. مشكلة قديمة. ومادمنا قد ذكرنا حكيم المعرة فلنقتبس منه هذه المقولة عن الزمن والمكان في إحدى رسائله: «وقد حددتهما حدا ماأجدره أن أكون قد سُبقت إليه ولكنني لم أسمع به: إن أصغر جزء من الزمن يشتمل على جميع الكائنات، وهو في ذلك عكس المكان، فأصغر جزء منه لايشتمل على شيء أبدا فكر رائع من شيخ ضرير عاش منذ أكثر من ألف سنة.

فماذا يقول الكتاب عن الزمن؟ نيوتن تصور زمنا مطلقا وفضاء مطلقا لايختلف كثيرا عما تصوره أبو العلاء، وأورد هذا في جزء من كتابه «المبادئ» عنوانه «نظام العالم»، المادة صماء ولها كتلة قابلة للقياس. أما النسبة فتقول ـ بداءة ـ إن الضوء له سرعة هي ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية، وإنه لا يمكن حتى للرسالة اللاسلكية ـ فضلا عن هذا الجسم الثقيل الذي ضاق به أبو العلاء ـ أن تتحرك بأسرع من ذلك. إن هذا يعني:

ـ أن هناك حدا للكون الذي يمكن للإنسان أن يدرك وجوده؛ فالرسالة اللاسلكية التي تأتينا بعد مليون سنة مثلا، قد لاتجد من يتلقاها على سطح هذا الكوكب الآخذ في الاحتراق. ومن ثم فهي تأتي من موضع لاوجود له بالنسبة لنا.

ـ أن ترتيب الماضي والمستقبل

النظام من الفوضى
الحوار الجديد بين الإنسان والطبيعة



مسألة نسبية، تختلف باختلاف موقع «المراقب»، فإذا وُجد إنسان على الأرض و«مراقب آخر» في مكان بعيد جدا وحدث تصادم بين نجمين مثلا فإن أحدهما سيرى (أ قبل ب) والثاني سيرى (ب قبل أ)، حسب المسافة التي سيقطعها الضوء من موقع الحادث ليصل إلى كل منهما. . هذا برغم الحقيقة العجيبة، وهي أن سرعة الضوء، سواء كان مجرد موجات أو جسيمات ـ الفوتونات كما تسمى ـ ثابتة مهما كانت نقطة الملاحظة، ومهما كانت سرعة المصدر الذي ينبثق منه الضوء، بعكس كل شيء آخر!

سرعة الضوء (س)، و«ثابت بلانك» الذي يحكم نظرية الكم التي تدلنا بدورها على التفاعل بين المادة والطاقة، وانبعاث الإلكترونات بكميات متفاوتة يشترك فيها هذا الثابت الذي يرمز له بالحرف (هـ)، هما الثابتان الخطيران اللذان يدلان على حقيقة الكون كما نراه نحن. فماذا لو كان «المراقب» عفريتا من الجن يمكنه أن يبصر الأحداث الكونية من عدة مواقع في الفضاء في وقت واحد؛ لأنه ليس حبيسا في «الجسم الخبيث» كما يقول المعري، وهو أيضا الذي قال:

لست أنفي عن قدرة الله أشبا
ح ضياء بغير لحم ولا دم
وبصير الأقوام مثلي أعمى
فهلموا في حندس نتصادم!

مثل هذا الكائن ـ ويخلق مالاتعلمون ـ سيكون إدراكه للزمن مختلفا تماما عن الإدراك الذاتي SUBJECTIVE عند الإنسان، بل عن الإدراك الموضوعي OBJECTIVE الذي يصوره العلم النيوتوني.

«هذا التناقض بين الزمن الذي نشعر به وذلك الذي ندركه، أصبح علامة تدل على الحضارة العلمية الصناعية، نوع من انفصام الشخصية، شيزوفرينيا جماعية».

هذا مايقوله المؤلف على لسان ج.ت. فريزر، ثم: «إن الزمن لم يقتحم مجرد علم الحياة وعلم الأرض والعلوم الاجتماعية، بل أيضا هذين المستويين اللذين درجنا تقليديا على استثنائه منهما: المستوى الكوني والمستوى (المجهري).

إن التاريخ لايقتصر على الحياة، بل هناك تاريخ للكون بأكمله، تمكن روايته، وهذا كشف على جانب عظيم من الخطورة.

مما ترتب على الكشوف التي توصلت إليها النسبية والكم أن لكل كتلة «ك» وشحنة كهربية «ش» موجبة، توجد كتلة من المادة المضادة تساويها في القدر ولكن شحنتها سالبة. لدينا البروتون والإلكترون وفي مواجهتهما البوزيترون (ذو الشحنة الموجبة) والبروتون المضاد (ذو الشحنة السالبة). لقد أصبحت المادة المضادة حقيقة لامفر منها في دراسة الفيزياء الجسيمية وإن لم تكن ظاهرة في حياتنا اليومية العادية. عند بداية الكون وبدء تشكيل المادة بقدرة الله، كان لابد من أحوال غير توازنية، إذ إنه في حالة التوازن لابد من كميات متساوية من المادة المضادة. الذي نريد أن نؤكده هو: إن عدم التوازن قد اكتسب الآن موقعًا كونيًا جديدًا، فمن دون عدم التوازن ومن دون العملية غير القابلة للانعكاس التي تتمشى معه، ستكون بنية الكون مختلفة تماما عما نراها الآن، لن تكون هناك كمية محسوسة من المادة بل مجرد فائض منها يفوق المادة المضادة، أو بالعكس. نحن أنفسنا مكونون من المادة، أجسامنا مصنوعة من البروتونات والإلكترونات، بينما الجسيمات المضادة ماتزال منتجات معملية، ولو أن هذا العنصرين اجتمعا بكميتين متساويتين، فسوف تنعدم المادة».. أو تقوم القيامة!

من الأرض إلى السماء سكنى جديدة للطبيعة

في هذا الفصل الأخير يقول المؤلف: «هناك وحدة جديدة آخذة في التكون: عدم الانعكاسية (أو عدم قابلية أي عملية للاسترجاع أو العودة إلى حال الأصل) هي مصدر النظام عند كل المستويات، إنها هي الآلية التي تأتي بالنظام، تستخرجه من الفوضى».

«لقد كانت مسألة مغزى الحقيقة موضوعا لنقاش مثير ومشوق بين أينشتاين وطاغور. كان أينشتاين يؤكد أن العلم يجب أن يكون مستقلا عن وجود أي مراقب، وأدى به هذا إلى إنكار حقيقة الزمن كشيء غير قابل للانعكاس، أي كتطور. وعلى العكس، كان طاغور يقول بأنه حتى لو كان يمكن أن توجد الحقيقة المطلقة فإنها لن تكون في طائلة عقل الإنسان. ومما يثير العجب أن العلم ينطلق الآن في الاتجاه الذي قال به الشاعر الهندي العظيم».

«من العسير أن نتجنب الانطباع بأن التفرقة بين مايوجد في الزمن وبين ماهو خارج الزمن، تكمن في أعماق النشاط الرمزي الآدمي الأول غير القابل للانعكاس، والثاني هو الأبد. ولعل هذا ينطبق بصفة خاصة على الأعمال الفنية، وبالتأكيد، فإن الفنان عندما يمسك بقطعة من الحجر ويحولها إلى قطعة من الفن فإن هذا تعبير عن تأثير الطبيعة الإنسانية في المادة الصماء، فالنشاط الفني ـ كما في بناء منزل بديع مثلا ـ يحطم التماثل الزمني في المادة، ويترك علامة هي ترجمة لعدم التماثل في الزمن، والذي نتصف نحن به، إلى عدم التماثل في الزمن على قطعة الحجر. إنه من وسط الضوضاء القابلة للانعكاس والتي تكاد تكون موجبة ودورية، تخرج هذه النغمات التي هي عشوائية وصدفية وزمنية التوجه».

(*) عرضت المجلة لكتاب «الموجة الثالثة» في عدديها رقم (٦٢، ٦٣)، شعبان، رمضان ١٤٠٢هـ.

من نوادر التصنيف

حفل التراث العربي بأنواع شتى من التأليف، فلم يدع المؤلفون موضوعاً لم يكتبوا فيه، فقد ألّفوا في الموضوعات الجادة في دقائق العلوم والفنون، ولم يغفلوا الموضوعات الطريفة، كما خصوا كل موضوع بتأليف، وكل مسألة بمصنف، وكل فن بكتاب أو رسالة، في جد أو هزل.

كتاب التطفيل

يعدّ هذا الكتاب أحد الكتب التي عُنيت بجانب خاص من جوانب أدب الفكاهة؛ الذي نلمس شيئًا من صوره في كتب الأدب العام؛ كالبيان والتبيين للجاحظ، والعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني، وغيرها من الكتب.

وقد خُصّص هذا الكتاب لحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم، ومؤلفه أحمد بن علي بن ثابت المشهور بالخطيب البغدادي الفقيه الحافظ، أحد الأئمة المشهورين المصنفين المكثرين، والحفاظ المبرّزين، وصاحب المؤلفات المشهورة وعلى رأسها تاريخ بغداد، في أربعة عشر مجلدًا، وكتاب البخلاء، وكتاب التطفيل الذي حققه وعلق عليه وقَدّم له بدراسة الدكتور عبدالله عبدالرحيم عسيلان.

والطفيلي: هو الداخل على القوم من غير أن يُدعى، مأخوذ من الطَّفَلِ وهو إقبال الليل على النهار بظلمته، وأرادوا أن أمره يُظلم على القوم فلايدرون من دعاه، ولا كيف دخل إليهم. وقيل: هو منسوب إلى (طفيل) رجل من أهل الكوفة من بني غطفان، كان يأتي الولائم من غير أن يُدعى إليها، فكان يقال له طفيل الأعراس والعرائس. ويورد محقق الكتاب جوانب شخصية الطفيلي في العصر الذي جرت فيه أخبار الطفيليين، وهي: الارتياح للتطفيل والتلذذ به، والهيام بموائد الطعام والشراهة في الأكل، والذكاء والفطنة، والتغافل والاحتيال، وروح الدعابة والظرف، والخبرة والمعرفة بصنوف الطعام.

ومما ورد في الكتاب في ذم التطفيل وأصحابه قول الشاعر:

طفيليٌّ يرى التطفيل دينًا
وقرة عينه غشيانُ عرسِ
إذا قبضت يداه على رغيفٍ
يقسِّم نهبه بيدٍ وضرسِ

وقول الآخر:

أسرَفُ في التطفيل من ذباب
على طعام وعلى شراب
لو أبصر الرغفان في السحاب
لطار في الجو مع العُقاب

ومَن دافع عن التطفيل والطفيليين بُنان الذي قيل له: من دخل إلى طعام من غير أن يُدعى إليه دخل لصًا وخرج مغيراً، فقال: ماأكله إلا حلالاً، قيل له: وكيف ذلك؛ قال: أليس يقول صاحب الوليمة للخباز: زد في كل شيء - وإذا أراد أن يُطعم مائة قدّر لمائة وعشرين - فإنه يجيئنا من نريد ومن لانريد، فأنا ممن لايريد.

ومن القصص التي يوردها الخطيب البغدادي في الكتاب:

- قال طفيليٌّ: خير البقاع ثلاثة: دكان الروّاس والشوّاء والهرّاس.

- قال بعض الطفيليين: إذا كنت على مائدة فلا تتكلمن في حال أكلك، وإن كلمك مَن لابدّ لك من جوابه فلا تجبه إلا بقول نعمّ، فإن الكلام يشغل عن الأكل، وقول نعم مضغة.

- رُوي أن طفيليا دخل على قوم، فقالوا له: مادعاك أحد، فقال: إذا لم تدعوني ولم أجيء أنا وقعت وحشة، فضحكوا منه وقربوه.

- مرّ بُنان الطفيلي بعرس فأراد الدخول فلم يقدر، فذهب إلى بقال فوضع خاتمه عنده على عشرة أقداح علاكية - نوع من العسل يُمضغ - وجاء إلى باب العرس فقال: يابواب افتح لي، فقال له البواب: من أنت؟ قال: أراك ليس تعرفني، أنا الذي بعثوني أشتري لهم الأقداح، ففتح له، فدخل فأكل وشرب مع القوم، فلما فرغ أخذ الأقداح ونادى البواب: افتح لي يريدون ناصحية - أي عسلاً خالصًا - حتى أرد هذه، فخرج فردها على البقال وأخذ خاتمه.

- حدّث نصر بن علي الجهضمي قال: لي جار طفيلي، وكان من أحسن الناس منظرًا، وأعذبهم منطقًا، وأطيبهم رائحة، وأجملهم لباسًا، فكان من شأنه أني إذا دُعيت إلى مدعاة تبعني، فيكرمه الناس من أجلي، ويظنون أنه صاحب لي، فاتفق يوما أن جعفر بن القاسم الهاشمي أمير البصرة أراد أن يختن بعض أولاده، فقلت في نفسي: كأني برسول الأمير قد جاء، وكأني بهذا الرجل قد تبعني، والله لئن تبعني لأفضحنه، فأنا على ذلك إذ جاء رسوله يدعوني، فما زدت أن لبست ثيابي وخرجت، وإذا أنا بالطفيلي واقف على باب داره قد سبقني بالتأهب، فتقدمت وتبعني، فلما دخلنا دار الأمير جلسنا ساعة ودُعي بالطعام، وحضرت الموائد، وكان كل جماعة على مائدة لكثرة الناس، فقدمت إلى مائدة والطفيلي معي، فلما مدّ يده وشرع لتناول الطعام قلت: حدثنا دُرست بن زياد عن أبان بن طارق عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من دخل دار قوم بغير إذنهم فأكل طعامهم دخل سارقًا وخرج مغيرًا»، فلما سمع ذلك قال: أنفت لك والله يا أبا عمرو من هذا الكلام، فإنه مامن أحد من الجماعة إلا وهو يظن أنك تعرض به دون صاحبه، أو لاتستحي أن تتكلم بهذا الكلام على مائدة سيد من أطعم الطعام، وتبخل بطعام غيرك على من سواك، ثم لاتستحي أن تحدث عن درست بن زياد وهو ضعيف، عن أبان بن طارق وهو متروك الحديث، تحكم برفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون على خلافه، لأن حكم السارق القطع، وحكم المغير أن يُعزَّر على مايراه الإمام، وأين أنت من حديث حَدّثناه أبو عاصم النبيل عن ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية»، وهو إسناد صحيح ومتن صحيح. قال نصر بن علي: فأفحمني فلم يحضرني له جواب، فلما خرجنا من الموضع للانصراف فارقني من جانب الطريق إلى الجانب الآخر بعد أن كان يمشي ورائي، وسمعته يقول:

ومن ظنّ ممّن يلاقي الحروب
بأن لايصاب فقد ظنّ عجزا

ظاهرة الخوارق

في أدب مرسيل إيميه

د. محمد مرشحة

أحبّ أن أمهد لبحثي هذا بإيضاح عدة نقاط جوهرية لفهمه: النقطة الأولى: تتعلق بالحياة الإنسانية، وبهذا الواقع المر الذي يحياه كل فرد منا. ذلك أن الإنسان يجد نفسه دائمًا ضحية لشر الآخرين وجشعهم وقساوتهم، وأن العدالة الحقيقية غير موجودة على سطح الأرض. لذلك يحاول كل فرد منا أن يبحث عن حلول وعن مخارج ليتخلص من آلامه ومعاناته.

والنقطة الثانية: تتعلق بطبيعة الأدب. ذلك أن الأدباء، بصفتهم أكثر إحساسا بالتناقضات الحياتية وبالآلام، يجدون أنفسهم باحثين عن مثل هذه الحلول التي تسهم في تخفيض الآلام الإنسانية، فيحاولون أن ينقلوا قراءهم إلى عالم آخر غير الذي يعيشونه، وإلى محيط مملوء بالمفاجآت الغريبة والخيالية والسحرية أحيانا. ولا يعني كلامنا هذا أن مهمة أدب الخوارق تنحصر في تقديم حلول إيجابية دائما، وإنما نريد أن ننبه إلى طبيعة نوع من الأدب غريب عن الواقع.

الحقيقة أن الأبطال المتصفين بصفات خارقة عديدون في تاريخ الأدب الغربي قديمه وحديثه. ومن منا ينسى هكتور، بطل الإلياذة المشهور، الذي كان يتصف بصفات خارقة جعلته ينافس الآلهة اليونانية، الآلهة التي كانت تشارك في الأحداث، وكأنها شخصيات واقعية، لاتبتعد كثيرًا من الواقع. أو بعبارة أخرى، نجد أن هوميروس استطاع بخياله الجامح أن يدمج الآلهة بالبشر، ويجعلها جزءا فاعلا في أحداث هذه الملحمة الأسطورية.

واستعان شكسبير كذلك بأدب الخوارق ليحرك الأحداث ويطورها نحو النهاية المأساوية. ففي مسرحية هاملت Hamlet يشارك الأب الميت في الأحداث ليخبر ابنه هاملت أنه قُتل من قبل أخيه. وهنا نجد أن المشكلة بدأت بالظهور: فهنالك جريمة، وهنالك عم قاتل، وهنالك أم مجرمة برأيه، وشبح الوالد الذي يظهر دائما له تأثير كبير في تحريك الأحداث، مع أن هذا غير منطقي، وغير واقعي.

ويجدر بنا أن نذكر أن "ألف ليلة وليلة" هي خير مثال على هذا النوع من القصص العجيبة التي تضمنت حكايات تتجاوز هذا الواقع بسلبياته؛ لتنقلنا إلى عالم زاخر بالمفاجآت السارة والجميلة في كثير من الأحيان.

ومن الكتاب الذين استعانوا بأدب الخوارق لتحريك الأحداث وتطويرها، الكاتب الفرنسي مرسيل إيميه Marcel Aymé وقد أضاف أشياء كثيرة إلى هذا النوع من الأدب.

ولد إيميه سنة ١٩٠٢م وتوفي سنة ١٩٦٧م، وكتب في المسرح والقصة والرواية وفن المقالة، كما أنه خصص جزءًا من وقته للسينما.

صحيح أن أعماله تميل إلى إعطائنا مظهرا مفعما بالسرور الذي نكتشفه من خلال كتاباته التي تفسح مجالا واسعا للفكاهة ولأدب الخوارق، إلا أن حياته الخاصة غير هذا. إنها صورة ناطقة لمعاناته الجسمية والنفسية(١). وإذا ما أردنا أن نجد تفسيرا لهذا، فسنعلم أنه ذاق من العذاب صنوفا شتّى، لذلك يمكننا أن نستشف هذا الأمر حين نقرأ أعماله التي تعكس ماعاناته نفسه، فهي شاهد حي على ذلك. نبدأ بطفولته التي كانت صعبة للغاية. ذلك أنه منذ أن عرف الدنيا، عرفها ملأى بالآلام. كان يتيم الأبوين، لأن أمه ماتت ولما يتجاوز السنتين، كما أنه لم ينعم بحنان الأب الذي أعطاه لجدته لتهتم به، وعانى من الأمراض الدائمة، ثم مات بالسرطان عام ١٩٦٧م. كما أن له معركة مع القضاء الفرنسي جعلته يدع العديد من الأعمال الأدبية، راميًا إلى الدفاع عن المظلومين، راغبًا في إنصافهم، ومنددا في الوقت نفسه بالقضاة الفاسدين. لقد دافع عن صديقه الكاتب الفرنسي روبرت برازياك Robert Brasillach الذي كان قد كتب كتابات سياسية زمن الاحتلال النازي، والذي سُجن لاتهامه بالخيانة. كما دافع عن صديقه الآخر موريس باردش Maurice Bardéche الذي سجن بسبب آرائه التي عبر عنها في كتابه: نيرمبرج أو الأرض الموعودة Nu-remberg ou La Terre promis وغيرهما. ودفعته معركته مع القضاء إلى كتابة مسرحية رؤوس الآخرين (١٩٥٢م) La Tête des Autres التي فضحت فساد بعض القضاة في فرنسا، وتوقف عرضها عدة مرات، بسبب جرأة موضوعها. ولعل هذه الأمور جميعها دفعته إلى اللجوء إلى الخيال تارة، وإلى الرمز تارة أخرى، وذلك ليوصل رسالته إلى القراء، محاولاً أن يعبر وأن يترك الآخرين يُعملون عقولهم ليجدوا تفسيرا معينا، فيستطيع بذلك أن يؤثر تأثيرا عظيما في نفوسهم.

وقبل الخوض في الحديث عن ظاهرة الخوارق في أدب مرسيل إيميه، ينبغي لنا أن نميز بين ثلاثة مصطلحات: فوق الطبيعي Extraor-dinaire وعجيب Merveilleux وخيالي

Fantastique. الواقـع أن العـجيـب والخيالي لهمـا مفـهوم واحد تقـريبا، بيد أن لكـل كلمة من هاتين الكلمتين بعدا دلاليـا خاصا، يجعلها مـتميزة من الكلمة الأخرى. فالعجيب ينتهي نهاية سعيدة غالبـا. أما الحدث الخيالي فيـصبح مـيدانا للرعب والقـسوة والموت. ومـن الممكن أن تصـبح هذه الطبقـة الأخيرة ميـدانا رحبا للخيال العلمي Sci-ence Fiction. لكن مافوق الطبيعي يبقى نتيجة من نتائج الأحداث الطبـيعية، وفيه قـوة ما تخالف المألوف. ومهـما يكن من أمر فـإن مافوق الطبـيعي يظل محتمل الوقوع دائما.

والعجيب والخارق حاضـران في أعمـال إيميه كلها تقـريبا، ويسهـمان في التقليل من الإحـساس بالمعـاناة بشكل فعـال، وأن الذي يعاني يحـاول أن يبحث عن مخرج ينقذه من معاناته الدائمة.

وهناك نقطة أخرى مطلوب إيضـاحها متـعلقة بكاتبنا الذي يبقى مخلصا للواقع الذي يصوره من خلال شخوصه. إذ إن مافـوق الطبيعي يتغذى من الواقع في البدء، ومن ثم نرى أن هذا الواقع يتحول إلى واقع آخر بتأثير الخيال، فيتغـذى بمعان جديدة وبصـور مـختلـفة حـافلة بالمتعـة والغـرابة والأمل أحيـانًا. إذن نستطيع أن نفـهم أن أدب الخـوارق يمكنه أن يقـدم تفسيـرا جـديدا للظواهر الحـياتيـة، فـيـجعلها أكـثر مـطاوعـة وأقل ألما، ويكون الحل الخارق كالدواء الذي يخدر الإنسـان آنيا ليتخلص من الألم. ويؤكـد البـاحث الفـرنسي جـان لويس ديمون J.L.Dumont ذلـك بقـــولـه: "الأدب الخيـالي عند إيميـه هو تعـهد بالهـروب، ودواء، أو بلسم للشقاء الإنساني، على الأقل"(٢).

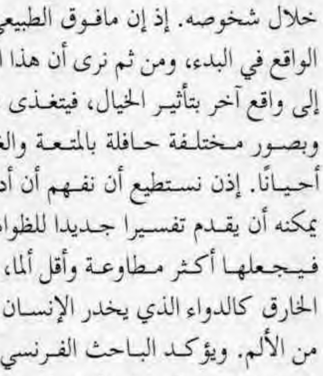
ولعلنـا لانخطئ إذا ذكــرنا أن الخــوارق في أعمال مرسيل إيميه تبدو فترة استراحة داخل الواقع المعيش، وتسمح لنا أن نرى أن هناك شيـئًا آخر غير المعاناة. وهكذا نجد أن بـطله فالانتان Valentin يؤكد أنه يحول الناس إلى عصـافير ليخلصهـم من آلامـهم المخـتلفـة. لذلك سـمى مـرسيـل إيميـه مسـرحيتـه عصـافير القـمر Les Oiseaux de Lune ليـوهمنا أن هناك بـطلا يملك القـدرة على مسخ الناس وتغيير طبيعتهم الإنسانيـة، بجعلهم عصافير.

هذه المسرحية التي كتبها عام ١٩٥٦م تروي حكاية فـالانتـان الذي يعـمل مـوجـهـا عـامـا في مـدرسـة ثانوية، والذي يملك القـدرة على تحـويل الناس إلى عصافيـر. يبدأ تجاربه هذه بوالدة زوجه أرماندين Armandine التي كانـت قد أرهقت زوجها شـابير Chabert إرهاقا شديدا بمـطالبها الكثيـرة؛ إذ كانت تهتم بجـمالها اهتـماما مبـالغا فيه، وتشـتري الكثير من الألبسة الجـديدة لتبقى ـ برأيهـا ـ شـابة. صـحيـح أن هذه الـزوجـة ظالمة لزوجـهـا إلا أن هذا الأخيـر يـطلب إلى صـهـره فالانتـان أن يرد إلى أرماندين طبيعتها الإنسانية، ولكن صـهره يرفض، لأنه حـاول إقناع شابير أن في تحويـل الزوجة إلى عصـفور حكمـة لأنه يريد تخليـصـه مـن نزوات هذه الزوجـة القـاسيـة. ولايوقف فالانتان تجاربه؛ بل يتـابع مغامراته هذه، فيحول أناسـا كثيرين إلى عصافير مثل أرماندين. وكـان منهم أسـاتذة المدرسـة وطلاب كثيـرون. ونجد الأستاذ بوبينو Bobignot يصبح عـصفورا بعـد أن حاول اغتـصاب طالبـته سيلفي Sylvie التي نعلم فيـمـا بعـد أن فـالانتـان كان يحـبـهـا ولايرضى أن يرى أحـدا يشـاركـه في حبـه لهـا، لذلك عـمد إلى تحويـل بوبينو إلى عصـفور عـقابا له. ولكنا نجد أخيرا أن قدرة فـالانتان على المسخ تضـعف تدريجيـا، إلـى أن يفقـدها تمامـا لتنتـهي المسرحيـة نهاية سعيـدة، وتعود الطبيعـة الإنسانية إلى الشـخـوص الذين كـانوا قـد تحـولوا إلى عصافير.

ثمـة فكرة يمكن استـخـلاصـهـا من هذه المسـرحيـة الـغريـبـة في مـوضـوعـها وأحـداثهـا، وتتلخص في أن الـكاتب يلجـأ إلى هذه الوسيلة مفسرا هذه الظاهرة الخارقة تفسيراً شبه عشوائي، ومـحـاولا في الـوقت نفسـه الاستـناد إلى دليل علمي غيـر مقنع في رأينا. ذلك أن بطله فـالانتان يبـرهن أنه امتلك القـدرة على تحـويل الشخـوص إلى عصافير بعد أن قاسى طويلا خـلال طفولته، وبعد قـراءاته الكثيـرة والمتواصلة لأعـمال كـتاب يكتبون في أدب الخوارق أمثال جول فيرن. وراح يشرح أنه حوّل بعض الشخصيات التي تعاني من آلام كثيرة ليـخلصـها منهـا. فقـد حول الأستاذ بوبينو مـثلا، لأنه شـعر أن هذا الأخير يعـاني من الكبت الجنسي، وكـذلك مجـموعـة كبيـرة من طلاب مدرسته. وحاول الكاتب إيميه أن يوهمنا أن هذا المسخ عـامـل إيجـابي، لأنه أسـهـم في انقـلاب جوهري للشـخـصيـات. فمـدام شابيـر أصبحت (بعد أن عادت إليها طبيعتها الإنسانية) جميلة وشابـة. ونذكر كـيف أنها عـانت كثيـرا بسبب شيخوختهـا. ومهما يكن من أمر فإن إيميه أراد أن يطرح مشكلة لايمـكن حلها لأنها مـقدرة على الإنسـان. إنها المعـاناة. والبحث عن مـخرج ليس إلا بحثا عن شيء اسـمه الفشل في الهروب من الآلام.

ويلجأ مـارسيل إيميه إلى وسيـلة غير محـتملة في مـسـرحـيـة كليرامـبـار Clérambard وهنا لانبتـعـد كـثيـرا من الواقـع. إذ إننا نفسـر هذه الظاهرة هنا تفـسيـرا مشابها لقـول جاك شـريه: "نستطيع أن نـتخيل مـلاءمة غريـبة بين الأحداث القابلـة للحدوث وتلك التي هي قليلـة الحدوث، فنضـيـف إلى الخـارق جـرعـة قليلـة من الشيء المحتمل حدوثه بحيث يصبح مستساغًا"(٣).

وتتحـدث المسرحيـة عن الكونت كليرامبار الذي يـبدو طاغيـة فـقيـرا في منزله. فـهو يعـيش وأفراد عـائلته في منزل تاريخي قـديم ومهـدم. أما أسـرته فتـعـمل ليل نهـار في غزل الصـوف وهي مؤلفة من زوجه لويز Louise، ووالدتها مدام دو ليري Mme de Léré، والابن أوكـتاف Oc-tave، ولكن فـجأة يظهـر له قـديس الحيـوانات Saint François d'Assise، ليـحـولـه من


جول فيرن


وليم شكسبير

ظاهرة الخوارق في أدب مرسيل إيميه

إنسان شرس يقتل كل حيوان يصادفه، إلى إنسان مصلح، محسن يحب الفقراء والمحتاجين ويعطف على الحيوانات وعلى الناس الضعفاء. لذلك راح يدافع عن المومس لانغوست La Langouste ويطلب إلى ابنه أن يتزوجها. ولكن مشروع الزواج هذا يخفق حين يقترح كاهن أن يزوجه من فتاة غنية، لكنها غير جميلة، ومنتمية إلى طبقة اجتماعية أدنى من طبقة أوكتاف. ويظهر قديس الحيوانات مرة ثانية، ولكنه في هذه المرة يُرى من قبل جميع الشخوص ماعدا الكاهن. هذا الحدث الخارق والعجيب يحمل الجميع على الذهاب مع كليرامبار الذي صنع عربة صغيرة ليبث بواسطتها مبادئه بين الناس.

هكذا نلاحظ الخيال واسعا في هذه المسرحية، وأمورا خارقة تتدخل. ومع ذلك فإن هذه الأمور الخارقة كلها لايمكنها أن تمنعنا من أن نتساءل عن فعالية مثل هذا التدخل غير الطبيعي في حياة إنسان فاسق عديم الضمير وضعيف الإيمان. هذا النوع الخارق الذي يشبه الوحي لايمكن أن يُصدَّق بسهولة، إذ إنه جعله إنسانا مثاليا وكاملا من وجهة النظر الأخلاقية. نخلص من هذا كله إلى أن مرسيل إيميه لايريد أن يقول إن هذه المعجزة يمكنها أن تخفف الآلام الإنسانية كلها. لأن المعجزة هنا زادت الطين بلة بدلاً من أن تقضي على معاناة البطل، وإن استطاعت هذه الأعجوبة أن تكون مقنعة، فلن تستطيع أن تحل مشكلة المعاناة، ولكنها تبرز، على العكس من ذلك، مشكلة الوجود، حيث يكون الإنسان فريسة الآلام، وتقوي اليأس في الحياة أيضا. ذلك أن البحث عن حل فوق طبيعي إنما هو تفسير لعجز الإنسان عن العثور عن حل طبيعي وواقعي.

وإذا أردنا أن نبحث في أعماله الأخرى عن بذور أدب الخوارق، فسنكتشف أن بطلته الأخرى سابين (Sabine) في قصته القصيرة السابينات (Les Sabines) تمتلك القدرة على الظهور في كل مكان في الوقت نفسه. ولكننا هنا نلمح الكاتب يحاول أن يؤكد أن مافوق الطبيعي يكشف تناقضات الواقع، وأن الإنسان لايستطيع أن ينجو أبدا. فسابين تتزوج من رجال كثيرين في الوقت نفسه، وعواطفها تتوزع هكذا على رجال متنوعين دون أن تحقق السعادة المنشودة. ونستطيع أن نضيف: إن الكاتب يلجأ إلى هذه الوسيلة ليفسر الواقع على طريقته الخاصة، وإن اضطر إلى اللجوء إلى الظواهر الغريبة التي لايمكن وجودها داخل الواقع الحيّ. صحيح أنه نوع من الهروب الآني من الواقع، ولكنه في الوقت نفسه هروب مُعلَّل وخاضع لرقابة منطق معين، يستند إلى تفسير شبه عشوائي أو علمي للأشياء، في بعض الأحيان.

ويستعير إيميه أسطورة بيجماليون ليعالج مسرحية قصيرة اسمها الدمية Le Mannequin حيث تظهر فيها امرأة أفريقية اسمها "إترانجير" Etrangére تدخل إلى متجر تباع فيه الألبسة الجاهزة، وتحول تمثالا إلى إنسان من لحم ودم، آملة أن تتزوجه. ولكن أملها يخيب حين تعلم أن هذا الإنسان لايحبها، بل إنه يقيدها ويهرب مع صاحبة المتجر. هكذا نرى أن الظاهرة الخارقة لاتضع حلا، ولاتعالج المسائل الكثيرة في الحياة، وإنما تحاول أن تؤكد المعاناة، وتركز على مسألة ضعف الإنسان أمام الآلام. لأنه لايوجد حل منطقي وأبدي للمشكلات الكثيرة في الحياة.

ونكتشف أن الشبق الجنسي يبدو واضحا في أعماله لأنه يؤثر في الطباع والسلوك. فشخصياته التي تعاني طويلا من الممكن أن تكتشف حلا خارقا وغير مألوف، فتتخلص من الحرمان. هذا مانكتشفه في مسرحية عصافير القمر وشخصية إليز Elise أكبر دليل على ذلك. إنها بعدما عانت طويلا من حرمانها الجنسي ومن قبحها تجد نفسها فجأة جميلة. إن هذه الشخصية تكشف لنفسها حلها، وبذلك يكون هذا الحل عبارة عن مكافأة تبعدها من الأنواع المختلفة للآلام التي عاشتها.

إذن الغيوم التي تعكر صفو الحياة اليومية تتطلب تغييرات جذرية تستطيع أن تضع حدا لمختلف أشكال الآلام التي تعذب الشخصيات. وهذه اليومية الروتينية تكون مادة أولية لتصوير الظاهرة الخارقة، وغير الطبيعية. ويؤكد ديفرنوا أن هذا التحول الخارق والعجيب لايعني أنه يتم دون أن يخلف نتائج سلبية أحيانا: "والحق إنه من الممكن أن يحصل كل شيء. فكل نتيجة محتملة، وتكون الخلاصة لهذا التغيير الغريب"(٤).

إن التقنية الإيمية تقنية تعتمد على الظاهرة الخارقة بالإضافة إلى اعتمادها على الضحك، حيث يضفي الضحك على أعمال إيميه سمة خاصة تجعل قراءتنا لأعماله ممتعة ومطاوعة.

ومهما يكن من أمر فإن العالم الغربي يبقى عالمًا مملوءًا بالتناقضات الحياتية والفراغ الروحي. ومالبحث عن عالم خيالي ومتجاوز للواقع بكل سلبياته إلا محاولة للبحث عن عالم مثالي (إيتوبيك Utopique) لايمكن أن نراه إلا في أدب الخوارق. ولاشك أن الفراغ الروحي، الذي سببه البعد من الشريعة الإلهية، أسهم في بحث الإنسان الغربي عن وسيلة تمكنه من تعويض هذا النقص، ومن ارتفاعه عن الواقع المملوء بالتناقضات والآلام والفساد ليجد ضالته في أشياء مختلقة غير منطقية غالبا.

وإننا لنجد هذه الظاهرة غريبة حقا، فلمَ يبحث المرء عن شيء لايمكن حدوثه ويبتعد من المعتقدات الروحية الراسخة التي اتفق الناس عبر مختلف العصور أنها السبيل الوحيد إلى تماسكه الروحي وتماسكه الأخلاقي؟.

واكتشفنا أن هذه التفسيرات وهذه المخارج تبقى مخارج ضيقة الأفق وضعيفة التأثير. ويظل الإنسان ضائعا متألما، إن لم يبحث عن الأسباب الحقيقية للفراغ النفسي ولمعاناته الدائمة. ولابد أنه سيدرك أن الخلاص الحق هو الخلاص الروحي، وأن البحث عن خلاص آخر سيكون مصيره الفشل دائمًا، لأن الانطلاق يبدأ من الواقع وينتهي إليه، ولايمكن أن يكون هناك بديل آخر عن الواقع.

الهوامش:

(1) Murachaha Mohamed: La Souffrance dans le théâtre de Marcel Aymé, Thése de nouveau régime, Université de Grenoble 3, 1993.

(2) DOMONT J.L.: Marcel Aymé et le Merveilleux, Nouvelles éditions, Debresse, 1967.

(3) Scherer Jacques: La Dramaturgie classique en France, Librairie Nizet, 1968.

(4) Dufresnoy Claude: "L'Extraordinaire et le merveilleux", Cahier Marcel Aymé, n 2, 1983.

آفاق اجتماعية

دور الأسرة في وقاية أبنائها من تعاطي المخدرات (٥)

القواعد الأساسية لإقامة العلاقات بين الأبوين

إعداد : د. تماضر حسون

يســـتطيع الوالدان وقـــاية الأبنـاء المراهقـين من مشكلات عدة يمكن أن يتعرضوا لها إبان فترة المراهقة أو البلوغ الزائف إذا استطاعا أن يلما معًا بقواعد التعامل مع أبنائهما. وفي مقدمة تلك المشكلات: مشكلة تعاطي المخدرات والإدمان عليها، وفيما يأتي نستعرض أهم القواعد الأساسية لإقامة علاقات صحية بين الأبوين والمراهقين:

القاعدة الأولى: أن تعمل الأسرة كفريق واحد: كي تعمل الأسرة كفريق واحد لتنشئة أطفالها تنشئة اجتماعية صحية سليمة، لابد لها من مزج قدرات أفرادها ومهاراتهم وإمكاناتهم حتى تتوافر لديها قوة وقدرات كبيرة وتأثير فاعل تواجه بهم عملية التنشئة الاجتماعية. وأول أساس يُبنى عليه تماسك أفراد الأسرة واتحادهم، أن تكون هناك ثقة متبادلة بين الآباء والأبناء، وتأصيل تلك الثقة لدى كلا الطرفين منذ بداية مرحلة الطفولة الأولى. والذي يدعم جذور الثقة أن يكون الصدق معيار التعامل اليومي لدى كل من الأهل والأبناء، وكذلك الرغبة الأكيدة لتحمل ماينجم عن خرق قواعد العائلة. أما الأساس الثاني لتماسك أفراد الأسرة واتحادهم فيتمثل بالاعتراف بالأخطاء أيا كان نوعها سواء داخل نطاق الأسرة أو خارجه. ورفع شعار (قل الحقيقة)، وإذا لم تستطع التفوه بها لمن حولك فمعنى ذلك أنك تمارس عملاً غير مقبول لايحق لك ممارسته، وتطبيق هذا الشعار مطلوب من الأبناء ومن الآباء أيضا لدى تعاملهم مع أبنائهم. والأساس الثالث، يشير إلى ضرورة الاستفادة من طاقة المراهقين ونشاطهم لصالح الفريق، إذ يمكنهم إن يساعدوا بفاعلية من خلال تأديتهم بعض الأعمال المنزلية، أو بالعمل خارج المنزل خاصة أثناء العطلات المدرسية، أما معاملة المراهقين بوصفهم ضيوفا مدللين فهذا لايعود على أي من الطرفين بنتيجة إيجابية. إن المراهقين يريدون، أكثر من أي شيء آخر، أن يشعروا بأن الأسرة تحتاج لهم ولمساعدتهم، وبأنهم بحاجة لأن يُحترموا وأن يكون لهم دورهم الفعال في الأسرة، وإذا ماأُشبعت تلك الحاجات، فإن ذلك يساعدهم على النمو السليم ونبذ الانحرافات التي تؤذي الأسرة.

القاعدة الثانية: الضبط العائلي الصارم: في الغالب تؤدي السيطرة الأبوية القوية إلى خلق سيطرة ذاتية عند المراهق، وعلى الرغم من أن هذا، قد يبدو للوهلة الأولى أمرا سلبيا خاصة في مرحلة المراهقة؛ إذ قد يتبادر للأذهان خطأً بأن ذلك يضع عوائق أمام حرية سلوك المراهق، إلا أنه لابد من التأكيد على أن الحرية التي نمارسها هي حرية مُكتسبَةٌ جذورها العميقة من القواعد والقيم التي تتبناها العائلة والمجتمع، ومرحلة المراهقة هي الوقت المناسب لإكساب المراهق حرية الاختيار. أما عملية الاكتساب والتعلم والإدراك للمراهق فيجب أن تتم السيطرة عليها بالكامل بوساطة التوجيه الأسري الحقيقي والقوي المفعم بالمحبة والاحترام والثقة، وذلك لإيجاد حقيقتين مهمتين عند المراهق، وهما: أولاً: أن الحرية مطوقة بالآخرين وبالأنظمة والحدود والقوانين والقيم والأخلاق التي هي خارجة من نطاق السيطرة الشخصية. وثانيا: أن مرحلة البلوغ لاتعني الحرية المطلقة للفرد.

وكلتا الحقيقتين تتكونان من خلال عملية الحوار والنقاش المفعم بالمحبة والثقة، وإشراك المراهقين في مسائل الحياة اليومية للأسرة.

ومما يجدر التنبيه إليه، أن عملية المناقشة والحوار والإشراك في الحياة اليومية لن تجدي مع المراهق إذا لم يُعَوَّد منذ طفولته المبكرة على عمليتي التحكم بالذات، وتحديد الأهداف. وهنا نؤكد على دور الأم - أو من يقوم مقامها -؛ إذ بحكم الخبرة الواسعة، والنضج الكبير الذي تتمتع به، والحرص الواعي الذي تملكه، تكون الأكثر تأهيلاً لتعليم الأطفال وإكسابهم أهم الدروس، وهو التحكم بالذات، وتحديد أو ضبط الأهداف؛ إذ من خلال القواعد والضوابط والقيم التي تعرضها الأم الواعية مبكرًا (منذ الطفولة الأولى)، يتعلم الأطفال كيفية السيطرة على رغباتهم، وكيفية تحديد أهدافهم وإدارة حوافزهم وتصنيفها حسب أهميتها وأولاها بالإشباع، وماالذي يستطيعون تلبيته وتحقيقه من تلك الأهداف.

القاعدة الثالثة: الاتصال الجيد بين أفراد الأسرة: إن لعملية الاتصال والتواصل الجيد - المبني على الصدق والحوار بين الآباء والمراهقين لمناقشة المعاناة والخلافات والمشكلات، وحتى المسائل الصغيرة في الحياة اليومية للأسرة - أهميته الكبرى في خلق التفاعل المثمر بين أفراد الأسرة، لأنه من خلال عملية الاتصال والتواصل هذه يمكن للأطفال أن يمارسوا كيفية حل المشكلات والمصاعب التي سيتعرضون لها خلال مسيرة نموهم واتجاهاتهم نحو سن البلوغ، بما في ذلك الانحرافات السلوكية وفي مقدمتها مسألة تعاطي المخدرات، والإهمال الدراسي... إلخ.

وإذا أريد أن تكون عملية الاتصال ناجحة ومجدية فلابد من استمراريتها، وتعريف كل فرد من الأسرة بالدور المنوط به، والتوقعات المرتقبة منه. كذلك يتوجب على الأهل العمل على مختلف الأصعدة وفي كل الاتجاهات لحماية وتغذية القدرة والقيمة الذاتية الإيجابية للمراهقين.

تلك هي القواعد الثلاث الأكثر أهمية، والتي يجب أن تتخذ أساسا لمساعدة الطفل كي يصبح عاقلاً سويًا.

الأبعاد المعرفية والحضارية للغرب في رحلة الكردودي

سعاد الناصر (أم سلمى)

يعتبر أدب الرحلة من الأجناس الأدبية التي اهتم بها العرب، فقد كانوا ينتقلون من مكانهم إلى مكان آخر لإشباع رغبتهم الذاتية في المعرفة والمشاهدة، ومن ثم تدوين مشاهداتهم ومعارفهم الجديدة. وقد تبدو الرحلة عملا فرديا إلا أنها في الواقع عمل يغلب عليه الطابع الجماعي، خاصة إذا أراد صاحبها تسجيل انطباعاته ومشاهداته، فالتسجيل والحكي مشاركة في عملية الارتحال والمشاهدة من طريق الخيال بقصد التعريف بعالم آخر جديد وإبداء موقف منه. وهكذا يمكن القول: إن الرحلة بهذا المفهوم لقاء عبر الزمان والمكان بين مجموعتين من المفاهيم والقيم، وتصبح من ثم «نوعًا أدبيا يفسح المجال لترسيخ تقليد الموازنة بين عالمين وقيمتين وصورتين، حتى في الحالات التي يقتصر فيها الرحالة على مجرد وصف العالم الجديد، لأن هذا الوصف يخضع عن وعي أو لاوعي لمنظور وثقافة الواصف الذي يعمل على تحويل لغوي ومفهومي للمنظورات»(١).

لماذا الارتحال؟

فالرحلة بصفة عامة بحث مستمر عن المعرفة. وتتميز الرحلة المغربية المتجهة نحو الغرب بمحاولة استكشاف الأبعاد المعرفية والحضارية لعالم مغاير لعالم الرحّالة، بحيث يصبح الموضوع الأساس الذي يحكيه طول الرحلة تسجيل صورة متكاملة للعالم الذي سافر إليه، والذي يعتبره مناقضا لعالمه، وتقديمه للناس. والتسجيل هنا يتعدى رصد المشاهد والصور الخارجية الى انتقاد واختيار مايسجل بما يلائم الحافز والغرض من الرحلة بالأساس.

فالسفر والكتابة أتاحت للرحالة المغربي فرصة الاتصال بالعالم الخارجي، والعيش في حالة المواجهة بين حياة نمطية معينة وحياة مغايرة متّسمة بالغرابة، كما أتاحت له ـ في الآن عينه ـ محاولة استكشاف الذات في مقابلة مع الآخر.

ومهما اختلفت حوافز الرحلة، فإن كل رحالة كان يسعى إلى البحث عن ذاته من خلال تطلعه إلى معرفة الآخر، خاصة وأن المغرب في تلك المرحلة الحضارية (أواخر القرن التاسع عشر الميلادي) كان يتخذ سياسة العزلة، ويسدل حجابا كثيفا بينه وبين مايجري في الخارج من أحداث، وكانت تخترق هذه العزلة تلك السفارات التي لم تنقطع بين المغرب ودول الغرب، وفي هذا الإطار سافر الرحالة الكردودي إلى إسبانيا وسجل رحلته التي سماها: «التحفة السنية للحضرة الشريفة الحسنية بالمملكة الإسبنيولية».

صاحب الرحلة

هو أحمد بن محمد بن عبد القادر الكردودي الكلالي من العائلة الكلالية الحسنية المشهورة بالمغرب. ولد بفاس عام ١٢٤٠هـ، وكان عدلا موثقا بسماط عدول فاس، ثم وُجِّه للكتابة في وزارة الشكايات مع الوزير محمد بن عبدالله الصفار، ثم مع الحاجب موسى بن أحمد، وفي أثنائها عُيِّن في سفارة عبد الصادق بن أحمد الريفي لإسبانيا على عهد المولى الحسن الأول(٢).

وقد قرّظ نص الرحلة العلامة أبو العباس القاضي سيدي محمد أحمد بن سودة بخط يده على ظهر أول ورقة من أصلها(٣).

وجريا على السنّة التي درج عليها مدوّنو الرحلات السفارية لم يحدثنا الرحالة الكردودي عن الغرض الذي ذهبت من أجله السفارة إلى إسبانيا، إلا أن العلاقات المغربية ـ الإسبانية في تلك الفترة كانت تشهد تأزما شديدا. ومن خلال ذلك نستشفّ أهمية هذه السفارة في دعم اللقاءات الدبلوماسية التي لم تنقطع بين المغرب والغرب.

ويمكن القول: إنه من الأغراض المهمة التي قامت بها مثل هذه الرحلات أنها حاولت إعطاء صورة ما للغرب، وجعلت المغرب ـ رغم عزلته ـ يحاول إدخال مظاهر المدنية الحديثة؛ خاصة مع «الحركة التي قام بها السلطان مولاي الحسن من إدخال الأساليب العصرية والمخترعات الجديدة للمغرب، مع توجيه عدة طلبة إلى مختلف عواصم أوربا للدراسة»(٤). وهذا كله كان «ناتجا عن التقارير التي كان يقدمها

مختلف السفراء الذين يقصدون أوربا أيام المولى عبدالرحمن»(٥).

البعد العسكري

كانت الحالة السياسية والعسكرية التي يعاني منها المغرب من الأسباب المهمة التي جعلت الرحالة الكردودي يهتم بالبعد العسكري اهتماما خاصا، وكان الشعور بالضعف العسكري في مقابل القوة العسكرية للغرب حاثًا على محاولة الاطّلاع على أكبر قدر ممكن من المعلومات الحربية لتوظيفها في الجهاد ضد العدو الطامع. وقد تجلّى هذا الاهتمام في وصفه واستعراضه المنشآت العسكرية في كل مدينة يصل إليها من مدن إسبانيا، كما وصف أدق أمور المصانع الحربية. وهذا الوصف الدقيق يؤكد وعي الرحالة أهمية هذا الجانب، كما يؤكد الإحساس بالرعب والخطر من التفوق العسكري الذي لاحظه في الديار الإسبانية.

البعد المدني العمراني

رغم حرص الكردودي على وصف المعالم المدنية والعمرانية لإسبانيا؛ إلا أن أنظاره كانت متجهة إلى استحضار الهوية العربية في ذلك البلد. ولذلك نجده يهتم بوصف المآثر العمرانية العربية الباقية في الأندلس، ويؤكد رغبة السفارة في مشاهدة هذه المآثر فيقول: «ثم سافرنا قاصدين قرطبة أعادها الله داراً للإسلام، ومرادنا منها رؤية مسجدها الذي قلّ نظيره»(٦). ثم يصف المسجد بدقة وحنين، ويذكر أشكال الزخرفة والتزيينات القرآنية، ثم بعد ذلك يذكر روعة البناء في قصر الحمراء بغرناطة. وهذا الحرص الشديد على وصف المآثر العمرانية الإسلامية بالأندلس له دلالة بالغة الأهمية بالنسبة للحظة الحضارية التي يعيشها الرحالة في ظل تدهور أحوال المسلمين وتخلفهم، وغلبة النصارى وعدوانهم. فالأندلس في الرحلة تتحول إلى مرآة عاكسة للصورة العدوانية للغرب الاستعماري الذي يكتسح كل شيء بقوته، والرحالة يحاول أن يدق ناقوس الخطر للمغرب لما يمكن أن يؤول إليه إذا لم يتنبه ويأخذ هو أيضا بأساليب القوة والحذر.

البعد العلمي

لم يهتم الكردودي بهذا الجانب إلا فيما يتعلق بأمور الجهاد والحرب؛ ولذلك نراه لايلتفت إلا إلى ماله صلة بهذا الأمر. فيصف مصانع المدافع، ويدقق في نقل الجزئيات المتعلقة بها. وهذا كله يعكس إحساسه الشديد بالحالة المتدهورة التي وصلت إليها بلاده في مقابل مايراه من اهتمام الغرب بتطوير آليات الحرب.

إن استقراء هذه الأبعاد في مستواها النفسي يكشف لنا عن شعور الرحالة الكردودي بالعالم الحضاري الذي يوشك أن يخترق عالمهم وعزلتهم التي فرضوها على أنفسهم عبر اجترار الماضي. ولذلك يحذر من هذا الاختراق الذي يتخذ شكلا استعماريًا في كثير من البلاد الإسلامية، ويدعو إلى ضرورة الاستعداد وأخذ الأهبة لإيقاف زحفه المادي والمعنوي(٧).

كما أن إعجاب الكردودي بالمعالم الحضارية لايجرفه إلى إعلان قوة الغرب، رغم نقله لمظاهر هذه القوة ووصفها وتسجيلها؛ لأنه يرى في الجهاد قوة لاتضاهيها قوة في الوجود. بمعنى أن الكردودي يقيم علاقة بين الإيمان والنصر، فإذا تشبث المسلم بعقيدته ورفع راية الجهاد، فلايمكن لأية قوة أن تزعزعه. وهذا الموقف الذي يقفه الكردودي في رحلته يبدو منطقيا ومنسجما مع الرغبة في الخروج من الحالة الانهزامية المتخلفة إلى حالة اكتساب ماعند الآخر من علم وتقدم ومعرفة، مع التشبث بالقيم الذاتية الحضارية.

الهوامش:

١ـ د. سعيد علوش، إشكالية التيارات والتأثيرات الأدبية في الوطن العربي، المركز الثقافي العربي، ١٩٨٦م، ط١،ص١٤٣.
٢ـ انظر: التحفة السنية للحضرة الشريفة الحسنية بالمملكة الإسبنيولية، مطبوعات القصر الملكي، ١٩٦٣م، ص ص٩ـ١٣.
٣ـ المصدر نفسه، ص١٣.
٤، ٥ـ محمد الفاسي، الرحلات السفارية، مجلة البينة، العدد ٦، ١٩٦٣م، ص٢١.
٦ـ التحفة السنية، ص٦٢.
٧ـ المصدر نفسه، ص١٩.

ما هي اللعنة؟

لما أُصيب اليهود بالفساد والانحطاط الديني، لُعنوا على ألسنة الأنبياء، وقد ذُكرَ ذلك في القرآن، حيث يقول عزَّ من قائل: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لايَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانوا يَفْعَلُونَ. تَرَى كَثيراً منهم يتولَّونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَاقَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيهِمْ وَفِي العَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ. وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنونَ بِالله وَالنَّبِي وَمَاأُنْزِلَ إليه مَااتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (المائدة: ٧٨ ـ ٨١).

وليس معنى «اللعن» هذا أن الأنبياء جاؤوا إلى اليهود وصرخوا في وجوههم قائلين: «إن عليكم اللعنة» أو: «إنكم ملعونون»، وإنما يعني ذلك أنهم قاموا بإبطال مزاعمهم الدينية؛ حيث كان اليهود يسيرون فعلا على أهوائهم وعصبيتهم القومية، ولكنهم كانوا يسبغون على كل ذلك ثوب التدين والورع، وكانوا قد تناولوا التعاليم الإلهية بالتفسير المزعوم حتى تتفق مع واقعهم العملي المنحرف. وغاية مافعل الأنبياء أن كشفوا النقاب عن هذا الخداع والتزييف، وبيّنوا من خلال النقد الصريح والتحليل لأحوالهم ماهم على الحقيقة، وبأي مظهر هم يتظاهرون أمام الناس! وقد أخبرت الآيات المذكورة أن هذه «اللعنة» وُجِّهتْ إلى اليهود من طريق داود وعيسى بن مريم ـ عليهما السلام ـ. ولاتزال صحائف التوراة والإنجيل تحتفظ حتى اليوم بالخطب والأقوال المنسوبة إلى هذين النبيّين. ولدى التأمل فيها يتضح بجلاء كيف تم هذا «اللعن» عمليا. ولتسليط مزيد من الضوء على ذلك سأنقل هنا فقرة مما جاء في سفر المزامير (وهو السفر المنسوب إلى سيدنا داود عليه السلام)، وهي كما يلي:

«وللشرير قال اللّه: مالك تحدث بفرائضي، وتحمل عهدي على فمك وأنت قد أبغضت التأديب، وألقيت كلامي خلفك. إذا رأيت سارقا وافقته، ومع الزناة نصيبك. أطلقت فمك بالشر، ولسانك يخترع غشا، تجلس تتكلم على أخيك. لابن أمك تضع معثرة. هذه صنعت وسكت. ظننت أني مثلك. أوبخك وأصف خطاياك أمام عينيك. افهموا ياأيها الناسون اللّه، لئلا أفترسكم ولامنقذه. ذابح الحمد يمجدني، والمقوم طريقه أريه خلاص اللّه». (المزمور الخمسون: ١٦ ـ ٢٣).

وحيدالدين خان

القراءة الفاعلة:
إتمام العمليات الإدراكية بنجاح

د. علي بن صالح الخبتي

تحدثت في مقالة سابقة لي بعنوان: "قاعدة القراءة وقمتها" عن نتائج الأبحاث والدراسات في مجال القراءة وتعليمها، وعن مراحل انتقال التركيز من المادة المقروءة إلى القارئ ثم إلى التوازن في توزيع التركيز بين القارئ والنص المقروء.

بعد ذلك انتقل الحديث إلى كيفية تهيئة (معلم القراءة) للعمليات الإدراكية عند الدارسين والتي يجب أن تتم ليحدث التمازج بين إدراك القارئ والنص حتى يتم الوصول إلى المعنى بسهولة. وأخيراً عن شروط النص الذي نختاره للدراسين.

وفي هذه المقالة سيكون الحديث عن العمليات الإدراكية التي يجب إتمامها أثناء النص، التي تعتبر أساسًا لايتم التمازج بين المعلومات الضرورية في إدراك القارئ والنص إلا بها، وهذه خطوة مهمة يجب اتخاذها قبل البدء في تعليم مهارات القراءة وتطبيقها، لأنه من الصعب على أيّ قارئ الإلمام بمهارات القراءة وتطبيقها قبل أن يعرف كيف يمكنه إتمام هذا التمازج وبنجاح.

وعملية التمازج لا تتم في بداية القراءة فقط كما قد يُظَنّ، بل هي في حالة دوران مستمر أثناء القراءة، وتتطلب من القارئ أن يقوم بمهمتين رئيستين هما:

١- ما يسمى اصطلاحًا (لعبة التخمين) Gessing Game.

٢- المراقبة الذاتية.

أولاً: لعبة التخمين

هذا المصطلح أورده جودمان Goodman عام ١٩٦٧م حينما عَرَّف القراءة بأنها (لعبة التخمين التي تعتمد على علم النفس واللغة)، وقبل ذلك كانت القراءة عبارة عن عرض لنماذج كيفية قراءة الحروف والكلمات والإملاء وتطبيق القواعد اللغوية، ويتم التركيز في هذا النوع من التعليم على لغة النص فقط، ويطلب من الدارس تكرار قراءة الكلمات والجمل بشكل صحيح، ثم يطلب منه لاحقاً إعادة الكلمات والجمل نفسها ليتم التأكد من صحة لفظها دون أن يكون للقارئ نفسه (أو لإدراكه بمعنى آخر) أيّ دور في عملية التعليم هذه.

أما جودمان فقد ذهب إلى أن القراءة تفاعل Interaction بين اللغة والإدراك، ثم أضاف فرانك سمث Frank Smith، في أبحاثه عام ١٩٧٨م وعام ١٩٨٦م، أن القارئ والمستمع - بحكم تشابه المهارتين، من حيث إنهما تتعلقان باستقبال المعلومات - يجب أن يحضرا كمية "كافية" من المعلومات ذات العلاقة بالموضوع الذي يقرآنه لإتمام عملية لعبة التخمين المعقدة والنشطة في آن واحد، وذلك حتى يتم الوصول إلى المعنى، وإذا تم إحضار هذه المعلومات وبدأت القراءة فإن (لعبة التخمين) تكون معتمدة على تلك المعلومات.

وعناصر اللعبة هي:

التوقع -----> التأكد -----> الموافقة أو الرفض.

وهي لا تتم لمرة واحدة كما ذكرت سابقا، بل هي عملية مستمرة حتى تنتهي القراءة، حيث يقوم القارئ بتوقع الأحداث بناء على إشارات وقوعها التي قرأها، ويعرف القارئ هذه الإشارات معتمداً على معلوماته السابقة المتعلقة بالموضوع الذي يقرؤه، فإذا ما ساق النص الأحداث التي توقعها القارئ فإن القارئ يقوم بإعطاء رأيه فيها بالموافقة أو بالمعارضة، وعندها تستمر عملية القراءة. لكن المشكلة تظهر عندما لا يسوق النص الأحداث التي توقعها القارئ، هنا تتعثر القراءة، وتكون المشكلة في أن معلومات القارئ إما أن تكون غير كافية بالقدر الذي يجعله يفهم الإشارات فهمًا صحيحًا ودقيقًا يؤدي إلى وقوع الأحداث التي توقعها، وإما أن يكون النص نفسه ليس في مستوى القارئ. وهي مشكلة لا يدركها القارئ الذي لا يستطيع إتمام العمليات الإدراكية بنجاح، وهنا يحتاج القارئ إلى إيضاح كامل لهذا النوع من المشكلات لتفادي تكوين موقف سلبي تجاه القراءة يؤدي إلى إعاقة ربطه بالكتاب وتعويده القراءة.

وهذا مثال مبسط لشرح مصطلح لعبة التخمين وتسهيل فهمه:

لنفرض أن القارئ يقرأ قصة في أحداثها أن شخصاً قفز من بناية تتكون من عشرة أدوار إلى الأرض، هنا يتوقع القارئ بناء على معلوماته السابقة وفهمه وإدراكه أن ذلك الشخص سيموت، ويجب أن تتطابق مجريات الأحداث مع توقع القارئ، لكن عندما يسوق النص حدثًا مغايرًا كأن يقول لنا النص إن ذلك الشخص استطاع القفز من تلك البناية والوقوف على قدميه دون إصابات فإن ذلك يعوق استمرار القراءة.

وقد يكون هناك تفاصيل لم يعرفها القارئ لقصور في معلوماته السابقة، كأن يكون القافز مظليًا يتدرب على القفز، ولم يكن القارئ يعرف أن المظلي يكون معه مظلة، حتى لو لم يورد لنا النص ذلك. وهنا يجب التأكد من شيئين:

١- إما أن ننشط معلومات القارئ السابقة ونقول له إن المتدرب على القفز يربط في مظلة يقوم باستخدامها أثناء القفز.

٢- وإما أن يكون النص نفسه صعبًا وفوق مدارك القارئ ولم يكن يعرف ذلك؛ وهذه مشكلة بعض القراء، وهنا يجب توجيهه إلى نص يكون أعلى بدرجة واحدة فقط من مستواه الحالي حتى

يضيف معلومات جديدة إلى معلوماته.

ويقول جودمان إن القارئ الفعّال هو القارئ النشط أثناء القراءة؛ الذي يقوم باستخدام الخطط المحكمة للعبة التخمين التي تحتوي على عناصر ثلاثة هي: التوقع والتأكد ثم الاستيعاب بشكل منتظم من أول القراءة إلى آخرها لضمان استمرار القراءة بفاعلية. ويضيف إن هذه المهارة متقدمة جدًا ومعقدة ويجب على معلم القراءة مراقبة طلابه أثناء التدريب لضمان قيامهم باستخدام وسائلها بنجاح، وذلك من طريق تعويد هؤلاء الطلاب العمل بأنفسهم قبل القراءة، وتجهيز أنفسهم بأنفسهم من طريق الأنشطة التي تسبق القراءة، مثل استنتاج الموضوع من العنوان أو النظر إلى الصور والتواريخ التي يتضمنها النص.

٣- توجيه أسئلة تتعلق بالموضوع بمجرد قراءة العنوان والنظر إلى الصور والتواريخ في النص، مسح عاجل للمحتوى، التحدث مع شخص أو أشخاص حول الموضوع قبل قراءته.. كل ذلك يؤدي إلى تكوين فكرة عامة عن النص قبل قراءته يضمن القيام (بلعبة التخمين) على الوجه المطلوب.

ثانيًا: المراقبة الذاتية

يقول براون Brown في بحثه عام ١٩٨٢م إن القارئ يحتاج إلى مافوق المهارات الإدراكية Meta-cognitive Skills، وذلك يعني وعي القارئ الكامل للعمليات التي يقوم بها إدراكه أثناء عملية القراءة، والمراقبة الكاملة للمهارات التي يستخدمها القارئ أثناء الاستخدام الفعلي. ولا يكفي القارئ أن يشعر ويكافح ويعرف؛ بل لابد أن يعرف أنه يشعر بأنه يكافح وأنه يعرف ما يقوم به من مهارات. ويجب على معلمي القراءة أن يدربوا طلابهم على المراقبة الذاتية ليعرفوا متى يفهمون النص، وكيف ولماذا فهموه، وذلك حتى تتحقق أهداف القراءة.

وتقول البرفسورة آلن بلوك Ellen Block في بحث لها عام ١٩٩٢م إن عملية الاستيعاب، رغم اعتمادها على عناصر كثيرة، تعتمد أيضًا على التحكم الكامل من قبل القارئ، وسمّت هذا التحكم (العملية الخفية) وعرّفتها بأنها "المراقبة الذاتية الكاملة" من قبل القارئ لنفسه أثناء القراءة وهو يقوم بالتخطيط وتوقع الأحداث، والتأكد من خططه أثناء القراءة، وتأكيد ما توقعه من أحداث من طريق حدوثها فعلاً بعد الاستمرار في القراءة. وتضيف إن المراقبة الذاتية من قبل القارئ لنفسه أثناء القراءة تجعله يغير من خططه لتوقع الأحداث عندما يقتضي النص ذلك.. وتقول إن المهم ليس معرفة أن القارئ يقوم بكل ذلك بل المهم هو معرفة كيف يقوم به.

وعملية المراقبة الذاتية تتطلب أن يقوم القارئ بثلاث عمليات هي:

١- التقويم: ويعني أن يقوم القارئ بتقويم مدى استيعابه اللحظي أثناء القراءة، وإذا كانت هناك مشكلة ما تعترض هذا الاستيعاب يتدخل فورًا لحلها.

٢- التدخل: ويعني أن يقدم القارئ حلاً عاجلاً ليضمن استمرار القراءة، كأن يعيد ماقرأه مرة ثانية، والبحث في زوايا إدراكه عما يحتاج إليه من معلومات سابقة تحل هذا الإشكال.

٣- مراجعة الحل: ويعني إن كان الحل مجديًا، أي إن كان الحل مناسبًا للمشكلة وعاد الاستيعاب اللحظي إلى المستوى المطلوب، وفي هذه العملية يقوم القارئ بتحديد مصدر المشكلة، ويسمى ذلك Source Identification. وهناك نوعان من الحلول: واضح Explicit وضمني Implicit، والأول يعني أن يقوم القارئ بمعرفة المشكلة وتحديدها وحلها بشكل واضح، والثاني أن لا يعرف القارئ المشكلة؛ بل يقوم بمحاولات عديدة كأن يعيد القراءة أو يستمر فيها حتى دون أن يفهم، فقد يأتي لاحقًا سياق آخر يوضح أبعاد المشكلة ويقدم الحل.

والتدخل يتم على ثلاث مراحل:

١- مراجعة نتائج التدخل. ٢- مراجعة وتنقيح الفرضيات الأولية المقترحة للحل. ٣- اختيار الفرضية المناسبة لحل المشكلة وتبني الاستراتيجية الملائمة لتنفيذ الحل.

إذًا فالقارئ الفعّال ليس القارئ الذي نقوّمه بناء على مايفعله بعينيه، بل نقوّمه بناء على مايفعله بعقله وإدراكه.

المراجع:

1-BLOCK, E. (1992). SEE HOW THEY READ: COMPREHENSION MONIORING OF L1 &L2 READERS.
2-BROWN, A. (1982). THE ROLE OF META-COGNITIN READING & STUDYING.
3-GOODMAN, K. (1967). READING A PSYCHO-LINGUISTIC GUESSING GAME.
4-SMITH, FRANK: (1978, 1986), THE AUTGER^S VARIOUS RESEARCH.

مواجهة



شعر:
عبدالله السيد شرف

كيف انفلت من الأضلاع في نزق
أقضّك الصمتُ.. أم قد غالك الشغفُ
تروح تنسج أوهامًا، تعانقها
وتتبع الوهم في شوق.. وتنعطف
أما خبرت الهوى يومًا على مِقَةٍ
ودرت في عَرَصات الحب، ترتشف
حتى انتهى العمر، لا ماء ولا وسق
وعدت بعد السُّرى عريان ترتجف
لاشيء غير خيال نبضه ألم
وغير ذكرى غرام، دمعها يكف
فَعُدْ لعشك، واقبع في مدارجه
وروّض النفس، لايغتالك الأسف
هي النهار، وأنت الليل مكتئبًا
يا أيها القلب قل لي.. كيف نأتلف

من فن الحزن الجميل

رثاء الحيوان والمعادل الموضوعي «٣»

محمد يوسف أحمد التاجي

في العدد الماضي تحدث الأستاذ محمد التاجي عن الصلة بين الإنسان والحيوان، واهتمام بعض الشعراء بالتعبير عن (إحساسات) حيواناتهم مثلما فعل عنترة بن شداد، أو رثائهم مثلما فعل آخرون، وكيف أن النقاد أهملوا هذا الجانب من الرثاء الذي أطلق علي ه «الحزن الجميل»، كما استعرض بعض ماقاله الشعراء في رثاء الحيوان. وفي هذا العدد يختتم مقالته بالحديث عما أنتجته قرائح بعض الشعراء في رثاء «الكلب».

أما الكلب وهو آخر ماسنعرض لمرثياته، فهو الحيوان الذي كثيرا ماالتقطته عينا الشاعر حيا وميتا. وربما كان ذلك لتوافر أكثر من خاصية فيه. فهو يقظ نشط مرهف في حاسة الشم، وهو وفيٌّ وفاءً منقطع النظير لم يُعرف في حيوان آخر كما عُرف فيه.

وقد انتُفع به في بعض أقسام كليات الشرطة، حيث يكون له مكان ويقوم على تدريبه قيّم مدرّب يحبه، مستغلين ماعُرف فيه من قوة حاسة الشم للكشف عن المجرمين واقتفاء الآثار. وفي ذلك النوع المدرّب من كلاب الشرطة يقول محمود غنيم (١):

كلب يدلّ على الجناه
تمشي العدالة في خطاه
إن قال أرهفت النيا
بةُ سمْعَها وصغا القضاه
لم يُعي أهل البحث سِرٌّ
غامضٌ إلا جلاه
يستخرجُ السرَّ الدفين
كأنّه بعضُ الحُواه

إلى أن يقول:

قالوا: أتُطري الكلب؟ فقلـ
ـت لهم: ومن أطري سواه؟
يرعى الوداد وما رأيـ
ـتُ من الأنام فتًى رعاه
سألوا الكلاب الحقَّ إذ
وجدوه بين الناس تاه

ولعل القارئ قد لاحظ كيف انتهى الشاعر إلى إبراز أهم سمات الكلب النادرة في غيره من الحيوان كالوفاء والإخلاص الذي قد يغيب من الإنسان نفسه. وهذا ماحدا بابن الرومي إلى انتهاجه لّما قام بهجاء أحد من أوقعهم القدر في طريقه واسمه عمرو، موازنا بينه وبين الكلب في موازنة جعل الغلبة فيها تنتهي لصالح الكلب، وذلك قوله(٢):

وجهُك ياعمرو فيه طولُ
وفي وجوه الكلاب طولُ
والكلبُ وافٍ وفيك غدرٌ
ففيك عن قدره سفولُ
وقد يحامي عن المواشي
وماتُحامي وماتصولُ
وأنت من بيت قوم سوءٍ
قصّتُهم قصةٌ تطولُ
وجوهُهم للورى عظاتٌ
لكنَّ أقفاءهم طبولُ

بيت كمعناك ليس فيه
معنى سوى أنه فضولُ
مستفعلن فاعلن فعولُ
مستفعلن فاعلن فعولُ

وكل ماورد بشعر ابن الرومي، وهو ماحاول أن يجمل به ميزات الكلب التي قد لايرقى لها إنسان كعمرو صاحب الشاعر، هو نفسه ماجعل ممن قبله من الشعراء يُطرون نموذجه من قديم، ويذمون في مقابله نموذج الإنسان/الشر، مثل ماجاء في بيتي الإمام الشافعي الشهيرين:

ليت الكلاب لنا كانت مجاورةً
وليتنا لانرى ممَّن نَرى أحدا
إن الكلاب لتهدا في مرابضها
والناسُ ليس بهادٍ شرُّهم أبدا

ومثله قول الشاعر أبي الحسين الجزار وقد لامه اللائمون على هجر الشعر والعودة لحرفة الجزارة:

كيف لاأعشق الجزارة ماعشـ
ـت وأقلي الفنون والآدابا
فبها صارت الكلابُ تُرجّيـ
ـني وبالشعر كنت أرجو الكلابا

وهذه وتلك بعض عطاءات فهم استقر عن الكلاب، ليس في التراث الأدبي والتاريخي وحده؛ وإنما قبل ذلك في التراث الديني أيضا. ففي كتاب «فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب»(٢) لمحمد بن خلف بن المرزبان بن بسام، وقد عاش في القرنين الثالث والرابع الهجريين جاء: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا قتيلا، فقال صلى الله عليه وسلم: ماشأنه؟ قالوا: إنه وثب على غنم لبني زهرة فأخذ منها شاة، فوثب عليه كلب الماشية فقتله. فقال صلى الله عليه وسلم: قتل نفسه وأضاع دينه وعصى ربه وخان أخاه وكان الكلب خيرا منه». ولعلّ هذا نفسه هو ماجعل الشعراء المحدثين يؤكدون هذه السّمات في الكلب. من ذلك قول عبدالحميد الديب في



عباس العقاد

وصفه كلبة له ولأهله:

ليت الأنام كلابٌ إن كلبتنا
لمّا تزل لحفاظ الوُدّ عنوانا
تحملّتْ قسطها في البؤس صابرةً
لم تشكُ جوعا ولم تستجد إنسانا

وإذا كان الشعر قديمه وحديثه لم يلتفت لحيوان كما التفت إلى الكلب؛ فتناوله كما قدمنا حيا وميتا، حتى رأينا من معطيات الشعر المعاصر ماقيل في مناسبة مرور أسبوع على ميلاد جرو لكلبة اسمها (فلورة) كانت لأحد أصدقاء العقاد، فلم يشأ العقاد أن يضيع فرصة تهنئة صاحبه بميلاد جرو كلبته دون أن يدلي بدلوه في إطراء هذا الحيوان. يقول العقاد(٤):

أعلني يافلورة الأفراحا
واملئي الأرض والسّماء نباحا
ماحبا الدّهرُ بنت كلب بأغلى
من ذراريك عُنصرًا ولِقَاحا
أبشري دولة الكلاب بجروٍ
سوف ينفي عن جيله الأتراحا
ماتقضّى الأسبوعُ إلاّ تمشّى
يذرعُ الدار جيئةً ورواحا
حرّك الدهرُ ذيله حين وافى
وعوى الكون بهجةً وانشراحا
يلبسُ الطوق من نُضار ودُرٍّ
ويحوكُ الخزّ الثمين وشاحا
وأراهُ يُعيدُ سيرة قطميـ
ـر وقارا وفطنةً وصلاحا



عبد الحميد الديب

ولما كان العقاد المشهور بالصرامة هو صاحب هذه الأبيات الفكهة الطريفة، فإنا مع هذا لم نستغرب منه أبياته الراثية في كلبه هو شخصيا (بيجو) إبّان نفوقه. ذلك أن العقاد لم يستطع أن يكبح تأثره الشديد لفقده، ويكتم حزنه الشديد عليه، ولنقرأ معا أبياته لنتأكد من صدق حزنه عليه، كأنما كان يبكي بها إنسانا عزيزا، وأين منه ذلك الإنسان العزيز؟!.. يقول العقاد(٥)

حزنًا على بيجو تفيض الدموع
حزنا على بيجو تثور الضلوع
حزنا عليه جهد مااستطيع
وإن حزنا بعد ذاك الولوع
والله - يابيجو - لحُزنٌ وجيع

***

حزنا عليه كلما لاحَ لي
وبالليل في ناحية المنزل
مُسامري حينا ومستقبلي
وسَابقي حينا إلى مدخلي
كأنه يعلمُ وقت الرجوع

***

وكلما داريْتُ إحدى التُحفْ
أخشى عليها من يديه التلف
ثم تنبَّهْتُ وبي من أسف
ألاّ يصيب اليوم منها الهدف
ذلك خير من فؤاد صديع

***

حزنا عليه كلما عزّني

رثاء الحيوان والمعادل الموضوعي

صدقُ ذوي الألباب والألسُن
وكلما فوجئتُ في مأمني
وكلما اطمأننتُ في مسكني
مستغنيا أو غانيا بالقنوع

***

وكلما ناديته ناسيا
بيجو! ولم أبصر به آتيا
مُداعبا مبتهجا صاغيا
قد أصْبح البيتُ إذن خاويا
لامن صدى فيه ولامن سميع

***

نسيتُ؟ لابل ليتني قد نسيتْ
أحسبني ذاكِرَهُ ماحييت
لو جاءني نسيانه مارضيت
بيجو مُعزّيَّ إذا ماأسيت
بيجو مُناجِيَّ الأمين الوديع

***

بيجو الذي أسْمعُ قبل الصَّباح
بيجو الذي أرْقُبُ عند الرَّواح
بيجو الذي يُزْعجُني بالصِّياح
لو نبْحةٌ منه، وأين النباح؟!
ضيَّعتُ فيها اليومَ مالايضيع

***

خطوتُهُ يابرحها من ألم
يخدشُ بابي وهو ذاوي القدم
مستنجدا بي.. ويح ذاك البكم
بنظرةٍ أنطقَ من كل فم
ياطول ماينظرُ! هذا فظيع!!

إلى أن يقول في ختامها:

أبكيك أبكيك وقلَّ الجزاءْ
ياواهبَ الودّ بمحض السَّخاء
يكذب من قال طعامٌ وماء
لو صحَّ هذا مامحضْتَ الوفاء
لغائب عنك وطفل رضيع

ولست أجد تعليقا على قصيدة العقاد الوجدانية المرهفة إلا أن أقول: إن العقاد بدا صادقا فعلا في حالتيه: حين هنأ بمولود كلبة صاحبه، وحين بكى كلبه هو. ولن تقوم أية كلمات بأفضل من ختام كلمات العقاد التي مهّد بها لقصيدته (بيجو) تحت عنوان القصيدة ذاتها، وذلك قوله (٦):

«والآن وقد عرف القارئ من هو (بيجو) لا أراني بحاجة إلى اعتذار من الحزن عليه والوفاء لذكراه. فإنه لم يخطئ في وفاته ولم يخطئ في خلقته. ولم يُخلق إنسانا فدنّس الإنسانية بالغدر، ولكنه خلق كلبا فشرّف الحيوانية بالوفاء». ألا ماأبلغ هذه الشهادة العقادية التي أهال بها العقاد الطين على رؤوس نماذج الإنسان/ الشر في كل مكان، وطوّق بها عنق هذا الحيوان!

شهادة خير وعرفان، وشكر وامتنان، ووفاء من إنسان حين عزّ الوفاء من الإنسان!

أما بعد:

فلسنا ننهي القول في هذا الضرب من الرثاء قبل أن نضع النقط فوق الحروف فنقرر:

١- إن رثاء الحيوان أحد المعطيات البارزة لفن الحزن الجميل - الرثاء -، وهو من الثراء بحيث يُعدُّ الإغضاء عنه - ربما لصلته بالحيوان - ضربا من الإجحاف، في حين أن واجب النقد يُملي على صاحبه ضرورة الإنصاف، خاصة وأن ربّ العزة سبحانه أعطى المثل من نفسه حين قال: ﴿إن الله لايستحي أن يضرب مثلا ما...﴾إلخ (البقرة ٢٦) ، فلماذا يقف النقد هذا الموقف المتخاذل من قضية وضح تميُّز الحيوان فيها؟! أهو ضرب من التعصب للإنسان أم من الاحتقار والانتقاص للحيوان؟! أم إن الأمر لايستحق التوقف لديه؟! فلماذا إذن تميّز الحيوان بخصال كالصبر والوفاء والإخلاص وغيرها، في حين وضح افتقادها أحيانا فيمن ينبغي أن تكون راسخة فيه وهو الإنسان؟ مع العلم بأن توافرها في الأول غريزي لافضل له فيه، وتوافرها في الثاني - لو تحقق - يجعله في قمة نوعه الإنساني؟! مع أن الناقد البصير لو توفَّر على درس هذا المنحى الفريد والطريف فسيكون قد وفّق في إثراء منهج النقد التحليلي بإضاءة جانب طال إغفاله وإهماله، وسيكون قد حقق خطوة هامة في فهم المؤدَّى النفسي (السيكولوجي) للشاعر في رثائه للحيوان.

٢- إن رثاء الحيوان باعتباره المعادل الموضوعي في مقابل الإنسان، أو بمعنى آخر الذي يرفعه تميز سمة أخلاقية فيه بما يقل وجوده في الإنسان نفسه كالوفاء مثلاً، حتى يبدو متعادلاً معه، هو ضرب من خلق الحافز للرقي في نفوس بليدة، استنامت للنقائص والعيوب دون أن تعمل من جانبها على مفارقة وهدتها، والسمو فوقها بما يتفق وما خُلق من أجله الإنسان سيد الكائنات كما هو معلوم. وهو مايكون بمثابة المُربي غير المباشر له بوسائل غير تقليدية.

ولعل في رواية الدميري التالية مايؤكد هذا المعنى. فقد روى في كتابه «حياة الحيوان»(٧) أن محمد بن حرب قال: دخلت على العتابي يوما فوجدته جالسًا على حصير، وبين يديه شراب في إناء، وكلب رابض بالفناء، بحياله يشرب كأسا ويولغه أخرى، فقلت له: ماالذي أردت بما اخترت؟! فقال: اسمع، إنه يكف عني أذاه، ويكفيني أذى من سواه، ويشكر قليلي، ويحفظ مبيتي ومقيلي، وهو من الحيوان خليلي.

قال محمد بن حرب: فتمنَّيتُ والله أن أكون كلبا له لأحوز هذا النعت منه

الهوامش:

١- مطالعات وذكريات، ص ص ١٦٩-١٧٠.
٢- ديوان ابن الرومي.
٣- طبعة مكتبة نهضة مصر، ١٩٧٠م، ص ١٠٥.
٤- قصيدة عيد ميلاد من ديوان وحي الأربعين للعقاد، ص ٤٤٣.
٥- قصيدة بيجو من ديوان أعاصير مغرب للعقاد، ص ٧٥٤.
٦- مقالة للعقاد بعنوان (بيجو) صدَّر بها للقصيدة المذكورة ص ٧٥٢.
٧- حياة الحيوان، كمال الدين الدميري، جـ٢، ص ٥٣٩.

دائرة المعارف

مواضع في السيرة النبوية

إعداد:
عبدالحميد حسانين حسن

(أ)

(ذو) أمَر

جاء اسم هذا الموضع في السيرة عند ذكرْ رجوع النبي صلى الله عليه وسلم ، من غزوة السويق، وأنه أقام بالمدينة بقية ذي الحجة، ثم غزا نجداً، يريد غطفان، وهي غزوة ذي أمَر. وذكر صاحب معجم البلدان أنه موضع غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وذكر ابن سعد في طبقاته أنه بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جمعًا من بني ثعلبة ومحارب بذي أمَر قد تجمعوا يريدون أن يصيبوا من أطراف رسول الله صلى الله عليه وسلم. وذكر صاحب معجم البلدان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج في ربيع الأول من سنة ثلاث للهجرة لجمعٍ بلغه أنه اجتمع من محارب وغيرهم فهرب القوم منهم إلى رؤوس الجبال فعسكر المسلمون بذي أمَر.

(ذو) أوَان

ذكر ابن إسحاق هذا الموضع في قصة مسجد الضِّرار، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل بذي أوان، فلما أتاه خبر المسجد، دعا مالك بن الدخشم، ومعنَ بن عدي للانطلاق إلى هذا المسجد الظالم أهله ليهدماه. وذكر صاحب معجم البلدان أن ذي أوان بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، وذكر صاحب معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، أن موقع ذي أوَان غربي المدينة على طريق العائد من تبوك.

(ب)

بُصْرَى

جاء ذكرها في خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام: «فلما نزل الركب «بُصْـرَى» من أرض الشام، وبها راهب يقال له بحيرى...»، وذكر البلادي في معجم معالم الحجاز: أن بُصْرى كانت مدينة حوران، وهي في منتصف المسافة بين عمَّان ودمشق. وذكر صاحب معجم البلدان: أن خالد بن الوليد لما سار من العراق لمساعدة أهل الشام قدم على المسلمين وهم نزول ببُصرى. وأيضا ورد ذكر هذا الموضع في طبقات ابن سعد الذي ذكر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج مع ميسرة غلام خديجة رضي الله عنها حتى نزلا أو قدما بُصْرَى من الشام، فنزلا في ظل شجرة، فقال نسطور الراهب: مانزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي.

بُوَاطُ

جاء في السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزاه في شهر ربيع الأول يريد قريشًا، حتى بلغ بواط، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً. وجاء في معجم البلدان أن بواط جبل من جبال جهينة بناحية رضوى، غزاه النبي صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول من السنة الثانية من الهجرة يريد قريشًا، وذكر مثل قوله صاحب معجم معالم الحجاز.

(ت)

تُرْبان

جاء ذكر هذا الموضع في السيرة عند الحديث عن طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر، وذكر ابن إسحاق أن الرسول صلى الله عليه وسلم مَرَّ على تُرْبان، على مَلَل.. الخ وذكر ابن سعد أنها بين مَلَل والسّيالة، وجاء ذكرها في معجم البلدان بأنها واد بين ذات الجيش ومَلَل والسيّالة، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلها في غزوة بدر.

تُرَبة

ذكر ابن إسحاق هذا الموضع أثناء تعديد سرايا وغزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وغزوة عمر بن الخطاب تُرَبَة من أرض بني عامر. وجاء في معجم البلدان أن تربة واد بالقرب من مكة على مسافة يومين منها. وذكر البلادي أنه واد من أودية الحجاز الشرقية، ذو مياه وزروع وقرى، وبه بلدة عامرة تقع شرق الطائف على قرابة (٢٠٠) كيل، تعرف بتربة البقوم.

(ث)

الثَّنايا

ذكرها ابن إسحاق في وصف هزيمة هوازن يوم حنين. وذكر البلادي في معجمه أن الثنايا جمع ثنية وهي المسلك بين جبلين، وذكر أيضا أن الثنايا، تخرج أولاها من رأس حنين على قرابة (٥٠) كيلاً شرق مكة، ثم تقابلها أخرى قرب قرية الخُلَيْصَة، ثم أخرى تخرجك على وادي قرن المنازل، ثم يأتي طريقها الطائف من الشمال من جهة المُلَيْساء، وهذا الطريق كان أحد الطرق المؤدية إلى الطائف من مكة وقد اندثر الآن.

(ج)

جَرْباء

جاءت في السيرة في قول ابن إسحاق: ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك أتاه يوحنا بن رؤبة صاحب أيْلَة، فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح، فأعطوه الجزية. وذكر ياقوت أنه موضع من أعمال عمان بالبلقاء، من أرض الشام، قرب جبل السراة من ناحية الحجاز، وهي وأذْرُح متلازمتان دائمًا، كما يقال مكة والمدينة، أو دجلة والفرات، وهما قريتان في الأردن، تقعان شمال غربي مدينة معان.

(ح)

حِجْر ثمود

جاء ذكرها في خبر مسيرته صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ، وذكر ابن إسحاق أنه صلى الله عليه وسلم نزل بالحِجْر، فلما راح الناس يستقون من مائها، أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعدم الشرب منها، وأمرهم ألا يخرج أحد منهم إلا ومعه صاحب له. وذكر البلادي في معجمه أن الحجر مازال يعرف باسمه، وأن به زراعة حسنة وأهله اليوم قبيلة عَنزة

حَزْوَرَة

جاء في الحديث الشريف أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف بالحزورة فقال: «يابطحاء مكة ماأطيبك من بلدة وأحَبّك إليَّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ماسكنت غيرك». ويُعرف المكان الآن باسم القشاشية، مرتفع مقابل المسعى من مطلع الشمس، وكان ولايزال سوقًا من أسواق مكة. وذكر صاحب معجم البلدان أن الحزورة كانت سوق مكة، وقد دخلت في المسجد لما زيد فيه.

(خ)

الخَرَّارُ

جاء ذكرها في السيرة في معرض الحديث عن هجرته صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك يقول ابن إسحاق: ثم أجاز بهما من مكانه ذلك، فسلك بهما الخرّار ثم سلك بهما ثنية المُرّة، وذكر صاحب معجم البلدان أنها موضع بالحجاز قرب الجُحْفَة

(ذ)

ذفِرَانُ

جاء ذكر ذلك الموضع في مسير النبي صلى الله عليه وسلم إلى بدر. وقال ابن اسحاق: استقبل الصفراء وهي قرية بين جبلين، ترك الصفراء يسارًا وسلك ذات اليمين على واد يقال له ذَفِران.

(ر)

رانُونْاء

ذكر ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي، وادي رانُونْاء فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة. وذكر البلادي في معجمه أن وادي رانوناء، واد صغير بين قباء ومسجده صلى الله عليه وسلم. ومسجد الجمعة معروف هناك.

دائرة المعارف

رَقُوقَيْن

ذكرها ابن إسحاق عند الحديث عن موقعة مؤتة، وذكر أنها من المواضع التي دارت فيها تلك الموقعة.

(س)

سَفَوَانُ

واد من ناحية بدر، قال ابن اسحاق: ولما أغار كُرْز بن جابر الفهري على سرح المدينة خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ واديًا يقال له سفوان من ناحية بدر، ففاته كرز ولم يدركه. وهي غزوة بدر الأولى في جمادى الأولى سنة اثنتين.

(ش)

شِعْبُ أُحُد

ذكر ابن إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل الشعب من أُحد، فجعل ظهره وعسكره إلى أُحد، والشعب مازال معروفًا، يُرى من مشهد حمزة رضي الله عنه ومن جبل عَيْنَيْن

شِعْبُ عَليّ

وهو الموضع الذي حصرت فيه قريش بني هاشم عند بدء الدعوة، وكان يُسمى شعب أبي طالب ثم سُمّي شعب بني هاشم، والآن شعب عليّ، وبه ولد الرسول صلى الله عليه وسلم. وشهد الموضع أيضا مولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وذكره صاحب معجم البلدان باسم شعب أبي يوسف، وذكر أنه الشعب الذي أوى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبنو هاشم لما تحالفت قريش على بني هاشم وكتبوا الصحيفة.

(ص)

الصَّوْران

ذُكر هذا الموضع عند الحديث عن غزوة بني قريظة، وجاء في السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بنفر من أصحابه بالصَّورَيْنِ قبل أن يصل إلى بني قريظة، وذكر صاحب معجم البلدان أيضا قول مالك بن أنس: «كنت آتي نافعًا مولى ابن عمر نصف النهار مايظلني شيء من الشمس، وكان منزله بالبقيع بالصورين. وذكر البلادي أن الصورين موقع قرب العوالي مما يلي المدينة.

(ض)

ضَجَنَان

ذكره ابن إسحاق في حديث الإسراء؛ إذ قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «ثم أقبلت حتى إذا كنت بضَجَنان مررت بعير فلان، فوجدت القوم نيامًا، ولهم إناءٌ فيه ماء قد غطوا عليه بشيء، فكشفت غطاءه وشربت مافيه». ورواه ابن دريد بسكون الجيم. وذكر ياقوت الحموي نقلا عن الواقدي أنه بين ضَجَنَان ومكة خمسة وعشرون ميلاً.

(ط)

ذو (طُوَى)

هو وادٍ من أودية مكة، بات فيه النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الفتح، وذكر ياقوت الحموي أنه موضع عند مكة. وقال أيضًا: طَوَى بفتح الطاء، والأصيلي بكسرها... ومنهم من يضمها، والفتح أشهر: وادٍ بمكة. وكذلك ذكرها البلادي في معجمه.

(ع)

العُرَيْض

ذكرها ابن اسحاق أثناء حديثه عن غزوة السويق، وذكر ياقوت أنها واد بالمدينة له ذكر في المغازي عندما خرج أبو سفيان من مكة حتى بلغ العُرَيْض وهاجمها ثم انطلق هو وأصحابه هاربين إلى مكة.

عِصْر: ذكر ابن إسحاق هذا الموضع عند ذكره لغزوة خيبر، فذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عِصْر، فبنى له فيها مسجدًا، وذكر البلادي أن عِصْر بين المدينة وخيبر، وليس بين المدينة والفُرْع كما ذكر صاحب معجم البلدان، حيث إن الفُرع جنوب المدينة وخيبر شمالها.

(ف)

فَدَك

ذكر صاحب معجم البلدان أنها قرية بالحجاز، بينها وبين المدينة يومان، وقد ذُكرت في السيرة على أنها بلدة كانت عامرة، صالح أهلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح خيبر على النصف من ثمارهم وأموالهم.

(ق)

قَرْن

قال ابن إسحاق: فسلك رسول الله

دائرة المعارف

صلى الله عليه وسلم طريقه إلى الطائف على نخلة اليمانية، ثم على قرن. وذكر البلادي أنها قرن المنازل، وهو مايعرف اليوم باسم السيل الكبير، ومازال الوادي يسمى قَرْنًا، والبلدة تسمى السيل، وهو على طريق الطائف بين مكة، يبعد عن مكة ٨٠ كيلاً، وعن الطائف ٥٣ كيلاً.

(ك)

الكَديد

موضع بالحجاز، على اثنين وأربعين ميلاً من مكة، وجاء ذكره في السيرة عندما سار النبي صلى الله عليه وسلم، إلى مكة في رمضان فصام وصام أصحابه حتى إذا كان بالكديد بين عُسْفان وأمَج أفطر، والكديد يعرف اليوم باسم «الحَمْض» أرض بين عُسْفان وخليص على (٩٠) كيلاً من مكة. وذكر ياقوت في معجم البلدان أن فيه روايتين: الكَدِيد والكُدَيد

(ل)

اللِّيْط

ذكرها ابن إسحاق عند حديثه عن دخول جيوش فتح مكة، عندما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فدخل من الليط أسفل مكة، وذكر البلادي في معجمه أن اللِّيْط هو السهل الذي ينتهي إليه سيل وادي طوى، وهو مايُسمى اليوم الطنبداوي أو التنبضاوي، وقد أصبح حيًا من أحياء مكة.

(م)

مَجْمَع الأسيال

جاء ذكره يوم الخندق: فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق، أقبلت قريش حتى نزلت بمجمع الأسيال. وذكر البلادي في معجم المعالم الجغرافية أن مجمع الأسيال، قرب مسجد القبلتين، وقد صار اليوم من أحياء المدينة.

مِرْبَد ابني ثعلبة

جاء الموضع في ذكر قصة بناء المسجد النبوي، وقد كان مربدا ليتيمين في حجْر معاذ بن عفراء، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، اشتراه مُعوّذ بن عفراء فجعله للمسلمين، فبناه صلى الله عليه وسلم مسجداً.

المُنْصَرَف

ورد ذكرها في ذكر غزوة بدر، والمنصرف يعرف اليوم بالمسيجيد، نسبة إلى مسجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم مازالت آثاره هناك، وهي اليوم بلدة عامرة على بُعد (٨٠) كيلاً من المدينة على طريق مكة.

(ن)

النَّقِيع

جاء ذكر هذا الموضع في السيرة عند الحديث عن عودة النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة بني المصطلق، فذكر ابن إسحاق أنه صلى الله عليه وسلم سلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز وهي النقيع. وذكر البلادي أن النقيع وادٍ من أودية الحجاز، يقع جنوب المدينة.

نيق العُقاب

ذكر ابن إسحاق أن أبا سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنيق العُقاب فيما بين مكة والمدينة. وذكر ياقوت الحموي أنه موضع بين مكة والمدينة قرب الجُحفة، وذكر أن أبا سفيان وعبدالله المذكورين لقيا فيه مهاجر ابن أبي أميّة وهو يريد مكة عام الفتح، وذكر البلادي أن هذا الموضع لايعرف اليوم.

(و)

الوَتِير

جاء ذكره في فتح مكة، وهو موضع معروف جنوبي غربي مكة على حدود الحرم، ويبعد عن مكة ١٦ كيلاً، وذكر ياقوت أنه اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة.

وَدَّان: جاء ذكره في السيرة عند خروج الرسول صلى الله عليه وسلم غازيًا في صفر على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه المدينة حتى بلغ وَدّان، وهي غزوة الأبواء. وذكر البلادي في معجمه أنها اندثرت من زمن بعيد.

(ي)

يأجَجُ

جاء ذكر هذا الموضع في قصة هجرة زينب بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، ويذكر البلادي في معجمه أنه وادٍ من أودية مكة، شمال عمرة التنعيم، ووادي التنعيم يصب في يأجج، وهذا المكان يعرف الآن باسم «ياج».

المراجع:

(١) سيرة ابن هشام.
(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي.
(٣) طبقات ابن سعد.
(٤) معجم معالم الحجاز لعاتق بن غيث البلادي.
(٥) معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية لعاتق بن غيث البلادي.

قصة قصيرة

مفارقة أخرى

محمد حمد الصويغ

(أ)

ـ وبدأت أبعث إليها الرسائل الواحدة تلو الأخرى، ولكنها لاتَرد على رسائلي، مما جعلني أندفع في الكتابة إليها بشكل عجيب.

ـ كيف؟

ـ بدأت أبعث إليها كل يوم رسالة.

ـ وماذا تقول فيها؟

ـ أقول كلاما صبيانيا لا معنى له: أشواق وتحيات ووله، وتخطيط لمستقبل غامض.

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم حدث مالم يكن في الحسبان.. لقد وقعت رسائلي كلها في يد أبيها، فكانت الطامة الكبرى.

ـ كيف؟

ـ جاءني مع أبنائه إلى المدينة الأخرى التي أقطن فيها.. فوبخني توبيخا لم أوبَّخ بمثله طيلة حياتي كلها.

ـ أتذكر شيئا مما قال؟

ـ أجل.. قال: «.. حتى أنت أيها الأحمق تشعر بالحب، أنت مازلت أمرد صغيرا، فكيف تحتمل هذه المصيبة ياأبله؟.

(ب)

ـ حاولت بعد ذلك أن أهدئ من روعه، وأوقفه على حقيقة الأمر، غير أنه أخذ يزبد ويرعد، ويهدد ويتوعد، ثم صرخ بأعلى صوته وهو يَهمُّ بالخروج من البيت الذي أقطن فيه: سوف أعود من حيث جئت الآن، ولكنني سوف أشرح لأبيك كل شيء، وسوف أعرض عليه هذه التفاهات.

ويرفع يديه الملأى برسائلي.

قلت له حينئذ:

ـ لاداعي لفضحي بين أسرتي وأقاربي.. دعني أبحث معك عن مخرج آخر.

ـ ليس أمامك من مخرج غير الزواج من ابنتي.

سألته مذهولاً:

ـ أتزوج وعمري سبعة عشر عامًا، ولا أزال على مقاعد الدراسة بعد، ولم أكوّن



نفسي، أيعقل هذا؟

ـ وهل يعقل أن تتحرش بابنتي وتوهمها في رسائلك هذه أنك سوف تقدم على الزواج منها في أقرب فرصة؟

(ج)

ـ حكاية عجيبة بالفعل.

ـ أجل.. والأعجب منها ماجرى بعد ذلك.

ـ ماذا حصل؟

ـ صمم الرجل على زواجي من ابنته.. ولكنني رفضت.. فما كان منه إلا أن توجه بالرسائل إلى أبي، فشاع الخبر في المدينة بأنني سوف أتزوج قريبًا.

ـ وهل تزوجت بالفعل؟

ـ لم يحدث هذا.

ـ ماذا فعلت إذن؟

ـ هددني والدي، وطردني من البيت بعد توبيخه لي على أفعالي الصبيانية هذه.

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم رأيت أن أغادر المدينة لمدة عام ريثما تهدأ الأمور. وتعود المياه إلى مجاريها.

ـ ثم ماذا؟

ـ رجعت بعد مضي العام، فوجدت أخي الأكبر قد تزوج من الفتاة.

قصيدة:

إنّا إلى اللّهِ رُجعانا.. نلوذُ بهِ

شعر:
مازن مصطفى العليوي

يامُنشدَ الروحِ شجوُ العودِ يُشجيني	ويُلهم الروحَ بوحًا ثمَّ يسقيني
يُغرّدُ الهمُّ في قلبي ليطربَهُ	نوحُ الحمامِ فيبكي ثمّ يبكيني
فأرتجي الليلَ في عشقٍ بُليتُ بهِ	وأرتجي الحلمَ ليتَ الحلمَ يُنسيني
تلكَ الشجونَ التي منها أسيرُ إلى	أحلى الزهورِ بأنفاسِ الرياحينِ
لأسكبَ الشعرَ دفّاقًا على قمرٍ	ينسابُ منه الهوى نهرًا يُروّيني
لكنَّ إلهامَ شعري غابَ في حَذَرٍ	عن الشجونِ وعَنْ وجدٍ يُواتيني
ما شأنُ عبقرَ لَمْ يُطلقْهُ من زمنٍ	إلى غريبٍ ولو بينَ الأحايينِ
ما شأن راعديَ الولهانُ تبعدُهُ	عنّي همومُ هوىً كانتْ تُسلّيني
ما شأنُهُ في همومِ اليوم ما اخترقتْ	رُؤاهُ لُبيّ ولَمْ يدخلْ بمكنوني
ولمْ يزفّ الرؤى كالشمسِ مشرقةً	في ضحكةِ الوردِ أو في نَظْرَةِ العِينِ
شتّان ياراعدي ما بينَ من سُكِبَتْ	أحلامُهُ زمنًا في حبِّ مَفْتونِ
وبينَ مَنْ لمْ يذقْ طعمَ الهوى أبدًا	ولا تلوّعَ بينَ الحينِ والحينِ
لاتلهم الشعرَ.. إنّي لستُ أطلبُهُ	تكفينيَ النارُ في جوفي تُعنّيني
لا.. بَلْ أريدُ، وها قد ضِعْتُ بينهما	لا الليلُ يلهمُ، لانجمي يُواسيني
لا الضوءُ يبدو، ولاهَدْيٌ لبارقةٍ	ولاهتافٌ سرى نحوي لُيحييني
وغيّبَ الليلُ أجفاني وفي سَكَرٍ	منَ الرقادِ أتى صوتٌ يناجيني
أهبُّ أبحثُ لكنْ لستُ أبصرُهُ	ماكنتُ في حُلُم فالصوتُ يدفيني

إليكَ أيُّ كلامٍ يابْنَ قافيتي
أريدُهُ غَزَلاً في عشْقِها.. طَرِبًا
هيّا لنبدأ باللحنِ الحبيبِ فَبِيْ
لكنّهُ راعني في أنّةٍ صَدَرَتْ
أتطلب الشعرَ في حبٍّ بها، عجبًا
انْظرْ «لكشمِيرَ» وانظر نحو «بوسنةٍ»
تُراك تنسى.. وتهوى دونَ معرفةٍ
كَمْ مِنْ يتامى يعانونَ المرارَ وكَمْ
وكم نساءٍ... وكم.. أوّاهُ من زَمنٍ
فذي المساجدُ أضحتْ نوحَ نائحةٍ
لاشيءَ يُطربُ من وجدٍ وأغنيةٍ
نبكي وعبرتُنا الحرّى قد اختنقتْ
صاروا حُفاةً بلا أرض تُقَلِّبُهم
انظرْ إلى زمنٍ صاروا به مِزَقًا
مَنْ يا أنامُ سينجيهمْ إذا غرقوا؟
إنا إلى اللّه رُجعانا.. نلوذُ بهِ
واللّهُ يُمهلهم.. لا ليسَ يهملهم
وأنت تطلبُ شعرًا، خُذْهُ عن بشرٍ
تحبُّ ليلاكَ، إنّي سوف أغرقُها
أعلنْ هواكَ وخُذْ ماشئْتَ مصطحبًا
وانْحَرْ هوايَ لإسلامٍ فليس معي
إنْ كانَ من غزلٍ يُجْدي فَخُذْ بيدي
خُذْني إلى حيثُ تبغي أرتجي زمنًا
لابدَّ تُشرقُ شمسٌ بعدْ أنْ أفَلَتْ
لننشدَ اللحنَ عذبًا فيه بسملةٌ
قرآنُنا في صميم القلبِ نحفظُه
ونعقدُ الروحَ في روحٍ ونُنْشِدُها

عن لذعةٍ منْ جوىً بالوجد تعروني
ريًا بماءِ غَرامٍ باتَ يُظمِيني
أنغامُ وَجْدٍ شَدَتْ دَهْرًا تُغنّيني
مِنْ صدرِهِ غَيَّبَتْ كُلَّ العناوينِ
لَمنْ يحبُّ وينسى نارَ «نيرونِ»!
و«هرسكٍ» مُذْ غَدَوا في فكِّ تنّينِ
لأنّةِ الجوع أو همِّ المساكينِ
باتَ الشيوخُ على لفحاتِ سِجِّينِ
نيرانُهُ أُلهبتْ مِنْ غيرِ كانونِ
وأصبحَ الدينُ نهبًا للسراحينِ
سوى الهموم وأنغامِ التآبينِ
على مذابحَ تودي بالملايينِ
والجوُّ أصبحَ ملكًا للشواهينِ
لأنْهم آمنوا باللّه والدّينِ
ومَنْ سيخمدُ نيرانَ البراكينِ؟
واللّه أكبرُ مِنْ كلِّ الفراعينِ
للّه نرجعُ في صعبِ الأفانينِ
هُمُ الغرامُ الذي بالوجد يكويني
دمعًا تُكَوِّيهِ نارًا مُقْلةُ العينِ
شجونَ قلبي ومَزّقها بسكّينِ
سِواهُ يُنْحَرُ مِنْ بينِ القرابينِ
من وسط عبقرَ، مِن رجس الشياطينِ
ما فيه ظلمٌ ولا آهاتُ مسكينِ
ويُزهِرُ الوردُ مِنْ فلٍّ ونسرينِ
وحمدُ ربٍّ على أسرارِ تكوينِ
ونعبدُ اللّه في كلِّ الميادينِ
يا منشدَ الروحِ شجوُ الرُوح يشجيني

الحركة الثقافية في شهر

القاسمي: عالم خالد الفيصل الشعري مملوء بالقيم الفكرية والوجدانية

ندوة بالكويت توصي بضرورة المصالحة بين المفكر والسلطة

مجمع اللغة العربية: وجود هيئة للترجمة حتمي للنهضة العلمية

تكريم المستشرقة «شيمل» لأعمالها العلمية عن الإسلام



الأمير مقرن بن عبد العزيز

افتتاح نادي حائل الأدبي

افتتح صاحب السمو الملكي الأمير مقرن بن عبدالعزيز، أمير منطقة حائل في أواخر شهر ذي القعدة الماضي نادي حائل الأدبي بحضور المسؤولين في المنطقة ومشاركة رؤساء الأندية الأدبية في مناطق المملكة الأخرى.

وفي كلمة ألقاها الأمير مقرن بهذه المناسبة شكر صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز الرئيس العام لرعاية الشباب على اهتمامه بالأدب والأدباء ودعمه إنشاء النادي، مطالبا أهالي المنطقة مؤازرة النادي.

كما ألقى المدير العام للأندية الأدبية في الرئاسة العامة لرعاية الشباب عبدالله الشهيل، ورئيس النادي الدكتور رشيد العمرو، وأدباء آخرون، كلمات مماثلة تحدثوا فيها عن أهمية إنشاء النادي، ودوره في إثراء الحياة الفكرية والثقافية والاجتماعية في المنطقة.

السعودية

جائزة تبوك للتفوق العلمي

رعى صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن سلطان بن عبدالعزيز أمير منطقة تبوك - مؤخرًا - حفل توزيع جائزة التفوق العلمي التي تحمل اسمه في عامها السابع، بحضور د. عبدالله بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ وزير العدل، وعدد من المسؤولين والمفكرين والشخصيات العامة.

وأعلن سموه خلال الحفل عن تغيير مسمى الجائزة اعتباراً من العام المقبل، ليصبح «جائزة تبوك للتفوق العلمي».

افتتاح متحف جدة الإقليمي

افتتح في مدينة جدة متحفها الإقليمي المقام في قصر خزام، وقد اختير هذا القصر مقرا للمتحف لقيمته التاريخية وارتباطه بتاريخ الملك عبدالعزيز - يرحمه الله - حيث بناه عام ١٣٥١هـ، ليكون مقرا للحكم ودارا لاستقبال المبعوثين الرسميين وسكنا لجلالته.

ويضم المتحف أقساما عدة تتناول الحضارات المتعاقبة التي نشأت على أرض الجزيرة العربية منذ أقدم العصور وحتى عهد الدولة السعودية الحديثة؛ إذ تمثل قاعات المتحف ومعروضاته فترة ماقبل التاريخ التي ينتمي إليها معظم الاكتشافات الأثرية في جنوب جدة ووادي فاطمة، والفترة الإسلامية بعصورها المختلفة، وتاريخ شبه الجزيرة العربية الحديث والدولة السعودية. ومن بين المعروضات رسوم للأماكن المقدسة، وطريق الحج القديم ومجموعة من العملات النادرة. وهناك قاعة الملك عبدالعزيز التي تعرض نموذجا لمجلسه الذي كان يستقبل فيه زواره، والعديد من



الأمير فيصل بن فهد بن عبد العزيز

صندوق لرعاية الأدباء والفنانين وجوائز لأفضل كتاب

في خطوة تدل على مدى اهتمام الدولة بالأدباء والفنانين، أعلن صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز الرئيس العام لرعاية الشباب عن إنشاء صندوق لرعاية الأدباء والفنانين يقدم لهم الدعم المادي والمعنوي، بإشراف من الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون.

كما أعلن سموه في كلمة ألقاها بمناسبة افتتاح المبنى الجديد للجمعية في الرياض في مطلع شهر ذي الحجة الماضي عن تخصيص جائزة لأفضل كتاب سعودي في مجالي القصة والرواية تمنح كل عامين، إضافة إلى جائزة للإبداع، وأخرى لثقافة الطفل.

وكشف الأمير فيصل بن فهد عن نشاطات مستقبلية لجمعية الثقافة والفنون، منها: نشر المزيد من المراكز الثقافية، وإنشاء مكتبات في أحياء مدينة الرياض، وإقامة مهرجان تراثي في الطائف، وتنظيم مزيد من القوافل الثقافية، ومواصلة النشاط الثقافي في لندن بالتعاون مع السفارة السعودية.

ويشمل المقر الجديد لجمعية الثقافة والفنون مكاتب مجلس الإدارة ورؤساء اللجان والمكاتب الإدارية، والوحدة الثقافية العامة، والمكتبة المرئية، ووحدات للمصنفات الفنية، والمراسم التشكيلية، وورش العمل الفنية، ونادي القصة السعودي، ومجلة التوباد، والفصول الدراسية، ووحدة التراث الشعبي.

مراسلاته وأوامره الملكية المكتوبة بخط اليد وتحمل توقيع جلالته. كما يضم المتحف قاعة عن التراث الشعبي السعودي من ملابس وحلي، وقاعة أخرى عن مدينة جدة وتاريخها.

تأجيل ندوة المكتبات العامة

قررت مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض تأجيل موعد انعقاد ندوة «المكتبات العامة في المملكة العربية السعودية: واقعها ومستقبلها» إلى الثامن والعشرين من شهر جمادى الأولى المقبل (٢٣ أكتوبر ١٩٩٥م).

يأتي التأجيل لإتاحة الفرصة أمام أكبر عدد من الباحثين للمشاركة في الندوة التي تناقش عدة محاور رئيسة، منها واقع المكتبات العامة بالمملكة، والخدمات المكتبية العامة، والتخطيط لتطوير المكتبات السعودية العامة.

معرض لفناني المدينة المنورة

استضافت صالة معهد العاصمة النموذجي في الرياض معرض فناني المدينة المنورة التشكيليين في إطار جولته الحادية عشرة خلال شهر ذي القعدة الماضي.

شارك في المعرض الفنانون: فؤاد مغربل، محمد سيام، صالح خطاب، نبيل نجدي، إبراهيم عبده، منصور كردي، منصور مرعي، زياد سلامة، ومريم مشيخ.

مسابقة شعرية

أعلنت لجنة التنشيط السياحي بالطائف ونادي الطائف الأدبي عن إجراء مسابقة شعرية باسم محافظة الطائف، موضوعها «الطائف». ويشترط في المسابقة التي رُصد لجوائزها الأربع عشرة آلاف ريال أن لاتقل أبيات القصيدة عن خمسة وعشرين بيتا لم يسبق نشرها، ولم يشارك بها في مسابقة سابقة. وبإمكان الراغبين في المشاركة إرسال القصائد في موعد أقصاه نهاية شهر صفر ١٤١٦هـ (٢٧ يوليو ١٩٩٥م) إلى: ص.ب ٢٢١٧ الطائف.

كتب جديدة

ـ استرجاع المعلومات في اللغة العربية، تأليف علي سليمان الصوينع، صدر عن مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض.

ـ الأديب المكي (حول سيرة الكاتب الراحل أحمد محمد جمال)، تأليف محمد علي الجفري، صدر عن مؤسسة عكاظ الصحفية في جدة.

ـ تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، تأليف ابن جماعة الكناني، تحقيق محمد هاشم الندوي، صدر عن دار رمادي للنشر بالدمام.

ـ تقليب الحطب على النار، بحوث نقدية لسعيد السريحي، صدر عن نادي جدة الأدبي.

ـ الفولكلور السعودي المصور، تأليف يعقوب محمد إسحاق، صدر عن دار أبو

الحسن في جدة.

- صقور القوقاز، رواية للكاتب سلجوق قللي، ترجمها للعربية د. محمد حرب، صدرت عن دار المنارة للنشر والتوزيع بجدة.

- الطريق التعب، مجموعة قصصية لخلف سرحان القرشي، صدرت عن نادي الطائف الأدبي.

- موسوعة المعلومات الميسرة، تأليف عبدالرحمن علي الدوسري، صدرت عن دار المداد للنشر في الرياض.

- إلى معشر المدخنين (من الشعر التوجيهي)، نظم عقيل ناجي المسكين، من نشر المؤلف نفسه وطبع في سيهات.

الإمارات

القاسمي يدرس عالم خالد الفيصل الشعري

أكد د. خالد محمد القاسمي في دراسة أعدها بعنوان «عالم الأمير خالد الفيصل الشعري» أن الشعر النبطي فن راق به صور شعرية ترتقي إلى مستوى الشعر الفصيح وتتفوق عليه أحيانًا.

وأضاف القاسمي في دراسته التي قدم لها د. زيد بن عبدالمحسن الحسين، أن عشق الأمير خالد لمنطقة عسير قد تبدى في عشرات من قصائده، مؤكدًا على القيمة الفكرية والوجدانية التي يمثلها شعره.

افتتاح متحف الشارقة

افتتح سمو الشيخ د. سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى لدولة الإمارات وحاكم الشارقة في شهر ذي القعدة الماضي متحف الشارقة للفنون.



د. سلطان بن محمد القاسمي

يقع المتحف في منطقة الشويهين التي تعد من أقدم الأحياء الشعبية في الشارقة، وكان أصلاً بيتًا لأحد المواطنين، بُني منذ ١٥٠ عامًا، ويضم ١٣ قاعة عرض صغيرة ومتوسطة إضافة إلى قاعة رئيسة ينتظر أن يستفاد منها في إقامة المعارض الشخصية.

وقدم القاسمي للمتحف نحو ١٨٠ خريطة قديمة لمنطقة الخليج العربي، قام برسمها جغرافيون أوروبيون في القرن السادس عشر الميلادي وماتلاه، ومائة لوحة تشكيلية رسمها فنانون غربيون وعرب في أزمان ماضية، توضح ملامح بيئة الشارقة ودبي وعدد من مدن الدولة ومناطقها، إضافة إلى لوحات لفنانين محليين توثق المجتمع المحلي.

كشفان من العصر الحجري

اكتشفت تكوينات حجرية بيضية مع عدد من رؤوس السهام المصنوعة من حجر الصوان في جزيرة غافة، وعدد من القطع المصنوعة من حجر الصوان في جزيرة الأفزعية.

وقدر العلماء تاريخ الكشف في الموقع الأول بنحو سبعة آلاف عام، وأشاروا إلى أهمية الكشفين في تفهم العصور المبكرة من تاريخ أبو ظبي.

مؤتمر تربية الغد بالوطن العربي

تنظم كلية التربية بجامعة الإمارات مؤتمرًا علميًا حول «تربية الغد في الوطن العربي: رؤى وتطلعات» خلال الفترة من ١٣ إلى ١٦ جمادى الأولى المقبل (٨-١١ أكتوبر١٩٩٥م).

يهدف المؤتمر إلى إلقاء الضوء على أهداف التربية والتعليم، وتخطيط المناهج الدراسية والخبرات التي تتلاءم مع هذه الأهداف، وتحديد الإمكانات والموارد المتاحة وتطويرها، ومناقشة السياسات التعليمية المقترحة، وإبراز دور التقويم التربوي وأهميته في تخطيط التعليم وتطوير المناهج.

كتب جديدة

- تل الصنم، الرواية الخامسة للأديب علي أبو الريش، صدرت عن مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر والتوزيع.

- الوحدانية والإشراك في التفكير العربي الإسلامي، تأليف د. عبدالمعطي سويد، صدر عن مركز الكتاب العربي بأبو ظبي.

- الفن العربي بين التغيير والإيهام، تأليف مجموعة من الباحثين، صدر عن دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة.

البحرين

مهرجان للثقافة والفنون

أقيم - مؤخرًا - مهرجان للتعريف بالعادات والتقاليد التي كانت سائدة في البحرين قبل اكتشاف النفط.

تضمن المهرجان إقامة قرية صغيرة في ساحة المتحف الوطني الحديث، شهدت معارض للصناعات التقليدية القديمة مثل: السجاد والنسيج والفخار وتربية الدواجن، إلى جانب عروض للخيول والحمير والجمال

الحركة الثقافية في شهر

والصقور التي تجسد البيئة الصحراوية، وتم عرض أنواع مختلفة من السفن التقليدية والحديثة، كما تضمن المهرجان أسواقًا واستراحات شعبية، وعروضًا غنائية وشعبية.

سلطنة عمان

ندوة الفنون الأدبية وصلتها بالتراث

ينظم المنتدى الأدبي العماني ندوة حول الفنون الأدبية وصلتها بالتراث خلال يومي ١٢و ١٣ محرم الجاري (١٠ - ١١ يونية ١٩٩٥م).

تتناول الندوة أربعة محاور هي: الشعر والمسرح والمقالة والقصة، وصلة كل منها بالتراث.

الكويت

دعوة للحد من التصادم بين المفكر والسلطة

أوصت ندوة «أزمة الفكر العربي المعاصر في ضوء المتغيرات الجديدة» بالانفتاح على الفكر العالمي دون تعصب أو خوف، مناشدةً الحكومات العربية والمفكرين العرب وضع حد للتصادم غير المبرر بين المفكر والسلطة.

واقترح المشاركون تشكيل وفد منهم للتوجه إلى بغداد للمطالبة بتحرير الأسرى الكويتيين، وطالبوا الجامعة العربية بتبني عقد مثل هذه الندوات تحت مظلتها ورعايتها ماديًا ومعنويًا.

وكانت الندوة قد عقدت في شهر ذي القعدة الماضي بدعوة من المجلة العربية للعلوم الإنسانية ومؤسسة الكويت للتقدم العلمي.

تكريم رائد الحركة الثقافية الكويتية


د. عبدالعزيز حسين

احتفلت الكويت بتكريم رائد الحركة الفكرية والثقافية فيها د. عبدالعزيز حسين بحضور مجموعة من كبار مفكريها ومثقفيها يتقدمهم وزير التعليم د. أحمد الربعي.

نظم المهرجان التكريمي المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بمشاركة دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع، وتم خلاله تسليم المحتفى به النسخة الأولى من الكتاب الذي يتناول جهوده وسيرته تحت عنوان «عبدالعزيز حسين وحلم التنوير العربي».

اليمن

متحف للحياة الشعبية

يفتتح قريبًا في مدينة تلا التاريخية أول متحف خاص بالحياة الشعبية اليمنية.

يصور المتحف الحياة الشعبية الأسرية في اليمن من حيث محتويات المنزل اليمني وتقسيماته، وكيفية توزيع الغرف داخله من حيث الوظائف. كما يضم مطعمًا للوجبات الشعبية ومحلات للحدادة والنجارة.

العراق

كتب جديدة

- الآلات الموسيقية المساحية للمقام العراقي، تأليف د. صبحي رشيد، صدر عن دار الشؤون الموسيقية التابعة لوزارة الثقافة.

- النحت الحديث، تأليف هربرت ريد، ترجمه إلى العربية فخري خليل، وصدر في بغداد.

مصر

وضع حجر الأساس لمجمع الملك فهد

قام وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد السعودي د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ونظيره المصري د. محمد علي محجوب بوضع حجر الأساس لمشروع مجمع الملك فهد الإسلامي بضاحية حلوان في القاهرة.

يضم المجمع مسجدًا، أُلحقت به فصول دراسية لتعليم الأطفال وتدريس الدين الإسلامي والقرآن الكريم، إضافة إلى عيادات طبية لعلاج الأطفال والرمد والأسنان.

مجمع اللغة يوصي بإنشاء هيئة للترجمة

أكد مجمع اللغة العربية في ختام اجتماعات دورته الحادية والستين بالقاهرة على ماسبق أن أوصى به من وجوب استعمال اللغة العربية لغة للتعليم في الجامعات بوصفه ضرورة حتمية للنهضة العلمية في العالم العربي، حتى يمكن للغة العربية استرداد مكانتها في تاريخ العلم والحضارة.

واتخذ المؤتمر عدة توصيات من أبرزها: دعوة إلى تعريب الخرائط بالعودة إلى الأسماء الجغرافية في اللغة العربية، وإنشاء هيئة كبرى للترجمة تضع خطة في هذا المجال لتحديد الأوليات في مجالات العلوم والتقنية والعلوم الإنسانية، ويلحق بالهيئة معهد لتدريب طبقة من المترجمين الأكفاء الذين يتقنون ترجمة العلوم والتقنية الغربية.

ودعا المؤتمرون وسائل الاتصال الجماهيري من أجهزة إعلام إلى إعداد العاملين فيها إعدادًا لغويًا دقيقًا، وأوصوا بحظر كتابة اللافتات على المحال التجارية وغيرها بلغات أجنبية أو كتابة الأسماء الأجنبية التجارية بحروف عربية.

وأكد المؤتمر على ماسبق أن دعا إليه في العام الماضي من توصية رجال الدولة والمسؤولين العرب بالالتزام باللغة الفصحى في خطبهم، وأعلن عن تعاطفه مع قضايا الشعوب العربية والإسلامية المختلفة.

ندوة عن الحرف اليدوية في العمارة الإسلامية

ينظم مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية في اسطنبول، بالتعاون مع وزارة الثقافة المصرية ومركز تلفزيون الشرق الأوسط، ندوة دولية في القاهرة عن الحرف اليدوية في العمارة الإسلامية، تحت شعار «إحياء التراث المعماري وحمايته» خلال الفترة من ١٠ إلى ١٦رجب المقبل (٣ - ٩ ديسمبر ١٩٩٥م).

يشارك في الندوة خبراء من مختلف أنحاء العالم، وتناقش آفاق تطوير المهارات التقليدية المستعملة في المشربيات والزجاج المعشق حاليا، ووضع هذا القطاع، وكيفية إحيائه، وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالموضوع.

ترافق أعمال الندوة مسيرة دولية للمثقفين والحرفيين والفنانين ووفود الدول المشاركة تحت الشعار المذكور، وزيارات ميدانية لروائع المشربيات والزجاج المعشق، إضافة إلى رصد جوائز دولية للمبدعين في هذا المجال.

اكتشاف هرم جديد للملكة ميريت

اكتشف - مؤخرًا - في منطقة سقارة هرم جديد للملكة الفرعونية «ميريت» بجوار هرم الملك ييبي الشهير، يرجع تاريخه إلى عصر الأسرة السابعة أي مايقارب أربعة آلاف عام.

وعثر على المعبد الجنائزي للهرم وعليه لوحة حجرية بها كتابات فرعونية عن الملك ييبي ومدينة منف، وبهذا الكشف يرتفع عدد الأهرامات المكتشفة في مصر إلى ٩٧ هرمًا.

مؤتمر قضايا الأدب المقارن في الوطن العربي

ينظم مركز الدراسات اللغوية والأدبية المقارنة بجامعة القاهرة مؤتمرًا حول «قضايا الأدب المقارن في الوطن العربي» في السابع والعشرين من شهر رجب المقبل (٢٠ ديسمبر ١٩٩٥م).

وقد وجه المركز دعوات إلى جامعات عربية وأجنبية للمشاركة في المؤتمر الذي يستمر ثلاثة أيام.

محاضرات وندوات

«أقسام الدراسات الإسلامية في الجامعات الغربية ومناهجها في عرض الإسلام» عنوان محاضرة ألقاها د. جون سبوزيتو في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض.

«نوادر المخطوطات وآفاق البحث التراثي» عنوان ندوة أقيمت في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، شارك فيها د. يوسف زيدان.

«الجوانب الاجتماعية لسياسات التكيف الهيكلي» عنوان ندوة أقيمت في كلية الآداب بجامعة القاهرة، أشرف عليها د. أحمد زايد.

«الفكر العربي القومي: الماضي والمستقبل» عنوان محاضرة ألقاها بدعوة من مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت، د. محمد عابد الجابري.

«أبعاد ومعايير حرية الصحافة» عنوان ندوة نظمها في القاهرة معهد الأهرام الإقليمي للصحافة، وشارك فيها عدد من الصحافيين والمفكرين المصريين والأجانب.

«الإعلام والجريمة» عنوان ندوة أقيمت في جامعة الإمارات العربية المتحدة، شارك فيها عدد من أساتذة الصحافة بقسم الاتصال الجماهيري.

«مستقبل ومسيرة مجلس التعاون لدول الخليج العربية» عنوان محاضرة ألقاها في جامعة الإمارات، الشيخ فاهم بن سلطان القاسمي.

نظم النادي الأدبي بالمنطقة الشرقية أمسية قصصية شارك فيها القاصون: محمد منصور الشقحاء، فالح الصغير، وسمير الفيل.

«تجربتي مع النيابة» عنوان ندوة نظمها النادي الثقافي العربي في بيروت، شارك فيها النواب: جورج مغيزل، حبيب صادق، ومحمد قباني.

«الجديد في ابتكارات المسلمين» عنوان محاضرة ألقاها لطف الله

الحركة الثقافية في شهر

تظاهرة ثقافية مصرية - أوروبية

يستضيف مركز الهناجر للفنون في القاهرة تظاهرة ثقافية مصرية - أوروبية تقام تحت عنوان «مصر وأوروبا في كتب» في الأسبوع الأول من شهر محرم الجاري.

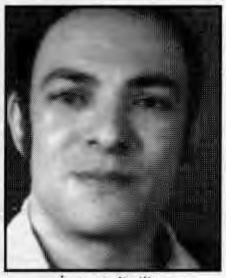
تستمر التظاهرة أسبوعين، وتتضمن معرضًا يضم قرابة ١٥٠٠ كتاب، تمثل معظم ماترجم إلى اللغات الأوروبية عن العربية وبالعكس، كما تقام على هامش المعرض ندوات ولقاءات فكرية بين الجانبين.

موسوعة مصر الحديثة

تعد الهيئة المصرية العامة للكتاب لإصدار موسوعة باللغة العربية بعنوان «موسوعة مصر الحديثة» في عشرة مجلدات، يتكون كل منها من مائة وخمسين صفحة تعالج موضوعًا محددًا، فيما تتولى الطبعة الإنجليزية دار «ورلد بوك إنترناشيونال» الأمريكية.

ترأس اللجنة الاستشارية للمشروع قرينة الرئيس حسني مبارك، وتضم في عضويتها مجموعة من المفكرين والشخصيات المصرية في مختلف المجالات، ويتولى الإشراف على الموسوعة وزير الثقافة فاروق حسني، ويرأس تحرير الطبعة العربية د. سمير سرحان، فيما يتولى مايكل روس رئيس تحرير موسوعة «ورلد بوك» الإشراف على الطبعة الإنجليزية.

وفاة عبدالله شرف



عبدالله السيد شرف

توفي - مؤخرًا - الشاعر عبدالله السيد شرف عن عمر يناهز ٥١ عامًا.

وُلد شرف بقرية صناديد بمحافظة الغربية عام ١٩٤٤م، وتلقى تعليمه في المعاهد الأزهرية ثم في كلية الإدارة والمعاملات بجامعة الأزهر، وكان واحدًا من أبرز المدافعين عن شعر التفعيلة الذي كتب به معظم قصائده. وإلى جانب الشعر مارس كتابة المقالة، كما أنجز موسوعة للشعراء المحدثين في مصر مابين عامي ١٩٠٠ - ١٩٩٠م، صدرت العام الميلادي المنصرم بمساعدة من هيئة جائزة البابطين الكويتية.

ومن أبرز مؤلفاته: «العروس الشاردة» و«الحرف التائه» و«القافلة» و«قراءة في صحيفة يومية» و«الانتظار والحرف المجهد» و«تأملات في وجه ملائكي» و«مملكتان».

مهرجان ثقافي فني

تقيم هيئة قصور الثقافة مهرجانًا ثقافيًا فنيًا في القاهرة والأقاليم خلال شهر ربيع الأول المقبل (أغسطس ١٩٩٥م) يستمر شهرين، بمناسبة اليوبيل الذهبي لإنشاء الثقافة الجماهيرية .

يضم المهرجان عدة نشاطات ثقافية وفنية، من أبرزها ندوة عن «مستقبل العمل

قاري في نادي أبها الأدبي.

«السياسة اللغوية بين الإسلام والأيدلوجيات المعاصرة» عنوان محاضرة ألقاها د. عبدالله بن هادي القحطاني في نادي أبها الأدبي.

«عمالة الأطفال وثقافة الأسرة» عنوان ندوة نظمها المركز القومي لثقافة الطفل في القاهرة، تحدث فيها كل من الدكاترة: عزة كريم، علا مصطفى، وليلى عبدالجواد، أدار الندوة د. علاء حمروش.

«توظيف التراث في الرواية العربية الحديثة» عنوان محاضرة ألقاها في نادي القصيم الأدبي ببريدة، د. عبدالحميد إبراهيم.

«الملامح المشتركة لأدب الحرب في بولندا والكويت»، عنوان ندوة نظمتها رابطة الأدباء، وتحدثت فيها د. بربارا ميخلاك.

«تجربة الشاعر راشد خضر»، عنوان محاضرة ألقاها في اتحاد كتاب الإمارات وأدبائها في أبو ظبي. أحمد راشد ثاني.

«منهج القرآن والسنة في الدعوة إلى الله» عنوان ندوة أقيمت في جامع الملك فهد بالغزة في مكة المكرمة، شارك فيها الدكاترة: سيد ساداتي الشنقيطي، أحمد محمد أبابطين، وزيد محمد المدخلي، وأدارها د. أحمد سيف الدين.

«الترجمة ودورها في التحول الحضاري» عنوان محاضرة ألقاها في الجمعية العربية للتربية الإسلامية في الدقي بالجيزة، د. حامد طاهر.

«مستقبل التسوية» عنوان محاضرة ألقتها في المجمع الثقافي بأبو ظبي، د. حنان عشراوي.

«الثقافة والإعلام» عنوان محاضرة ألقاها في كلية الإعلام بجامعة القاهرة، فاروق حسني.

«في وداع القرن العشرين: حوادث غيرت وجه الحضارات» عنوان محاضرة ألقاها حسان الكاتب في المركز الثقافي العربي بالتعاون مع اتحاد الكتاب العرب.

الثـقـافي في الـقـرن الحـادي والعشـرين»، وعروض شعبية ومسرحية، كما سيصدر كتاب حول تجربة الثقافة الجماهيرية ومسيرتها في نصف قرن، وموسوعة عن أدباء المحافظات ومفكريها، تعد لأن تكون نواة لأطلس ثقافي.

كتب جديدة

- التفسير الإعلامي لأدب المقالة، تأليف د. عبد العزيز شرف، صدر عن عالم المعرفة، مؤسسة مختار في القاهرة.

- مواطن في مهمة انتحارية، مجموعة قصصية جديدة لفتحي سلامة.

- حريق في حارة النكد، مجموعة قصصية لمحمد السيد سالم.

- شدو البلابل والكبرياء، مجموعة قصصية لفؤاد قنديل.

- قد يضيع دمي بينكم، ديوان جديد للشاعر محمد فهمي سند.

صدرت الكتب الأربعة السابقة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- التراث والتاريخ، تأليف شوقي جلال، صدر عن دار سينا للنشر.

- ثلاثية حمدان (دراسة لثلاثة من أعمال د. جمال حمدان)، تأليف د. عمر الفاروق، صدر ضمن سلسلة «كتاب الهلال»، عن مؤسسة دار الهلال.

- السلام النووي، تأليف صلاح منتصر، صدر ضمن سلسلة «كتاب اليوم» عن مؤسسة أخبار اليوم.

- المنهج النقدي في فلسفة ابن رشد، تأليف د. عاطف العراقي، صدر عن دار المعارف.

- الاختبارات التشخيصية: مرجعية المحك في المجالات التربوية والنفسية والتدريبية، تأليف د. صلاح الدين علام، صدر عن دار الفكر العربي.

- أغنية للبحر، مجموعة قصصية لفوزية مهران، صدرت عن دار عيون جديدة.

- الأساليب المعرفية بين النظرية والتطبيق، تأليف د. حمدي علي الفرماوي، صدر عن مكتبة الأنجلو المصرية.

- المتواليات، ديوان شعر لعلاء الدين رمضان، صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة.

لبنان

معرض دولي للكتاب

شاركت ٢٦٠ دار نشر لبنانية وعربية وأجنبية تنتمي إلى ست عشرة دولة في معرض الكتاب الدولي الأول الذي نظمته نقابة اتحاد الناشرين بالتعاون مع وزارتي الثقافة والتعليم العالي.

تضمن المعرض مجموعة جديدة من الإصدارات قدمتها: الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وسويسرا وألمانيا وإيران، ومن الدول العربية: السعودية ومصر وسورية والإمارات وتونس والمغرب واليمن والأردن والبحرين وليبيا.

وفاة وديع ديب وتوفيق عواد

فقدت الحركة الأدبية اللبنانية رائدين من روادها بوفاة الشاعر وديع ديب عن عمر يناهز ٨٥ عامًا، والروائي القاص توفيق يوسف عواد إثر سقوط قذيفة على منزله بمنطقة الحدث عن عمر يناهز ٧٨ عامًا.

وُلد ديب الذي كان يلقب بالشاعر المهجري عام ١٩١٠م ببلدة الخيام في جنوب لبنان، وتخرج في الجامعة الأمريكية في بيروت، وعمل بالتدريس، ونال درجة الماجستير من الجامعة الأمريكية عن أطروحة عنوانها «الشعر العربي في المهجر الأمريكي». ومنذ أولى مؤلفاته وهي مسرحية شعرية بعنوان «نساء وأفاع»، قدم ديب للمكتبة العربية مجموعة من المؤلفات، منها ديوان «قلب يغني» وديوان «غيوم ظامئة»، كما شارك بكتاباته في العديد من الصحف والمجلات.



توفيق يوسف عواد

أما توفيق عواد فقد بدأ إسهاماته الإبداعية والنقدية في الثلاثينيات الميلادية عبر مجلة «الكشوف» ومارس الكتابة القصصية والروائية والمسرحية، ومن أبرز إبداعاته: «الصبي الأعرج» مجموعة قصصية، «الرغيف» و«طواحين بيروت» روايتان، «السائح والترجمان» مسرحية، و«حصاد العمر» سيرة ذاتية نشرت عام ١٩٨٤م.

كتب جديدة

- الرؤية الإبداعية في شعر عبدالوهاب البياتي، تأليف د. عبدالعزيزشرف، صدر عن دار الجيل في بيروت.

- نازك الملائكة الناقدة، تأليف عبدالرضا علي.

- يفتح النافذة ويرحل، مجموعة قصصية لعبدالله السفر.

- بياض الأزمنة، ديوان جديد لعلي الدميني.

صدرت الكتب الثلاثة السابقة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

- شخصيات إسرائيلية، تأليف محمد شريدة، صدر عن مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق.

المرأة في التاريخ والمجتمع، تأليف بشرى قبيسي، صدر عن دار أمواج.

سورية

كشف أثري يؤكد حكم الفراعنة للشام

اكتشف في بلدة الكسوة على بعد ثلاثين كيلو متراً من جنوب العاصمة دمشق حجر بازلتي عليه رسم لفرعون مصر رمسيس الثاني، وكتابة باللغة الهيروغليفية تتضمن تاريخ نقش النصب وأسماء بعض الآلهة التي كانت تُعبد آنذاك.

وتكمن أهمية الكشف في كونه يؤكد أن الفراعنة بقيادة رمسيس الثاني (القرن الثاني قبل الميلاد) قد بسطوا نفوذهم على بلاد الشام بعد موقعة «مجدو».

كتب جديدة

- سورية الجنوبية (حوران)، تأليف مجموعة من الباحثين بإشراف م. دانتزر، تعريب أحمد عبدالكريم وسالم العيسى وميشيل العيسى، صدر عن دار الأهالي في دمشق.

- مدينة النحاس، تأليف فوزي كريم، صدر عن دار المدى.

- نظرية المسرح، إعداد محمد كامل الخطيب، صدر عن وزارة الثقافة.

- الوعر الأزرق، مجموعة قصصية لإبراهيم صموئيل، صدرت عن دار الجندي.

- الإسلام في الغرب: قرطبة عاصمة العالم والفكر، تأليف رجاء جارودي، ترجمة ذوقان قرقوط، صدر عن دار دمشق.

- الخطو على مدارج المدينة القديمة، ديوان شعر لعلاء الدين رمضان، صدر عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق

الأردن

اتفاق ثقافي فلسطيني - أردني

وقع الأردن والسلطة الفلسطينية برنامجًا تنفيذيًا لاتفاق للتعاون الثقافي بين الجانبين، كانا قد توصلا إليه في شهر يناير الماضي.

يتضمن البرنامج تبادل المطبوعات الثقافية والفنية والكتب والفهارس وصور المخطوطات، وصور الأبحاث والوثائق التاريخية، وتبادل المحاضرين والخبراء، وتعزيز التعاون المشترك في المناسبات الثقافية، خلال أعوام ١٩٩٥و ١٩٩٦و ١٩٩٧م، إضافة إلى تنسيق الجهود بين الجانبين للتوصل إلى تشريعات موحدة في مختلف الشؤون الثقافية ومجالاتها، وإنتاج المواد الثقافية المشتركة، وإقامة ندوات وأمسيات مشتركة.

مؤتمر الأطفال العرب

تستضيف عمان أعمال المؤتمر الخامس عشر للأطفال العرب الذي يعقد تحت شعار «ثقافة السلام والتسامح» في العشرين من شهر صفر المقبل (١٨ يوليو ١٩٩٢م).

يُنتظر أن يشهد المؤتمر إضافة أفكار جديدة، إلى نشاطاته، منها إصدار مجلة، وتنظيم ندوات تقوم مناقشاته، ومشاركة عدد من الفنانين والشعراء في أعماله.

تونس

مؤتمر أدبي

نظمت جامعة الوسط التونسية مؤتمرًا أدبيًا تحت عنوان «القاعدة والشذوذ في اللغة والأدب والحضارة» في مطلع شهر ذي القعدة الماضي.

شارك في المؤتمر باحثون ونقاد من دول المغرب العربي ومصر، تناولوا الأدب الصوفي، والحداثة، والموشحات الأندلسية، وقصيدة النثر، والموروث الشعبي، وغير ذلك من الموضوعات المتعلقة بموضوع المؤتمر.

كتب جديدة

- مختارات شعرية، مجموعة من قصائد الشاعر أدونيس، صدرت ضمن سلسلة «عيون معاصرة» عن دار الجنوب للنشر.

- قضايا الأدب والمسرح عند توفيق الحكيم، تأليف الطاهر بن يحيى، صدر عن دار أمية للنشر في تونس.

الجزائر

جمعية الأمين العمودي تعقد ندوتها

نظمت في مدينة الوادي - مؤخرا -

فعاليات الندوة الفكرية الثامنة لجمعية محمد الأمين العمودي، شملت محاضرات عن اللغة والتنمية، وخصائص الأدب الجزائري، ومكانة النخيل ثقافيا وأدبيا واقتصاديا واجتماعيا، كما تضمن برنامج الندوة قراءة شعرية لشعراء من مختلف أرجاء الجزائر، وتم خلال الندوة تكريم العلاّمة الشيخ عبدالمجيد بن حبة يرحمه الله.

وقد تقرر بهذه المناسبة طبع كتاب عن الندوة، وإصدارمجلة نصف سنوية تهتم بشؤون الفكر والثقافة.

المغرب

مركز للأبحاث في تاريخ نساء المغرب

تأسس في مدينة القنيطرة مركز للأبحاث في تاريخ نساء المغرب، تحت رعاية شعبة التاريخ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية .

يعنى المركز بالكشف عن إسهامات المرأة المغربية في مختلف المجالات من خلال المصادر المكتوبة وغير المكتوبة، مثل المسكوكات والحلي القديمة، والوثائق، وكتابات الشعراء، والفسيفساء، والصور الفوتوجرافية.

أوزبكستان

جائزة الإمام البخاري

أعلن الأديب الكويتي عبد العزيز البابطين أثناء زيارته لطشقند عاصمة أوزبكستان عن إنشاء جائزة تحمل اسم الإمام البخاري إمام أهل الحديث. وقال إن الجائزة التي تبلغ قيمتها مائة ألف دولار، وتمنح مرة كل عامين تعدّ دعوة مفتوحة أمام أحفاد البخاري في أوزبكستان والبلدان الإسلامية في آسيا الوسطى للدراسة والبحث فيما يخدم آمال الأمة الإسلامية وتطلعاتها.

وتشمل محاور الدراسات والبحوث لهذه الجائزة: تاريخ شعوب آسيا الوسطى وحضاراتها وأصولها وهجراتها والتمازج العرقي فيما بينها، وتاريخ علماء ومفكري مناطق آسيا الوسطى والقوقاز وروسيا الاتحادية وسيرهم، إلى جانب الدراسات الاجتماعية والاقتصادية، والدراسات النقدية للإنتاج الأدبي في المنطقة والدراسات الفنية والاستطلاعات.

ماليزيا

بحث إنشاء فرع لجامعة الأزهر

تجري حكومة ولاية جوهور الجنوبية اتصالات مع جامعة الأزهر لبحث إقامة فرع للجامعة في الولاية.

وتهدف الحكومة من جراء ذلك إلى تحويل الولاية إلى مركز رئيس للدراسات الإسلامية في المنطقة، يستقطب الدارسين من ماليزيا والفلبين وبروناي وسنغافورة وأندونيسيا.

رسائل جامعية

«خدمات الإحاطة الجارية: دراسة لأنماط تقديم الخدمات في بعض مكتبات مدينة الرياض»، موضوع رسالة ماجستير تقدم بها صالح بن ناصر الخريجي، ونوقشت في قسم المكتبات والمعلومات في كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

«خدمات المخطوطات العربية في مكتبات مدينة الرياض»، موضوع رسالة دكتوراه تقدم بها راشد سعد القحطاني، ونوقشت في قسم المكتبات والمعلومات بجامعة الإمام.

«منهج ابن عادل في تفسيره اللباب في علوم الكتاب وتحقيق سورة الفاتحة» موضوع رسالة دكتوراه تقدم بها مناع محمد القرني، ونوقشت في كلية أصول الدين بجامعة الإمام.

«توظيف اللون في شعر التفعيلة» عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، تقدم بها عادل الدرغامي عبد رب النبي.

«تقويم أداء المنظمات الحكومية العاملة في مجال مكافحة التلوث البيئي لبحيرة المنزلة» عنوان رسالة ماجستير نوقشت في جامعة قناة السويس، تقدم بها قاسم مسعد عليوة.

«السيدة جريجوري وعالم الخيال» موضوع رسالة دكتوراه في الأدب الإنجليزي، نوقشت في كلية الآداب بجامعة عين شمس، تقدمت بها إيمان جاد أحمد قنديل.

«صورة العالم الثالث في الصحافة المصرية والأمريكية بالتطبيق على صحيفتي الأهرام ونيويورك تايمز» موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الإعلام بجامعة القاهرة، تقدمت بها إيناس أبو سيف.

«الحروب في منطقة الشرق الأوسط وأثرها في السياسة العسكرية المصرية» عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في أكاديمية ناصر العسكرية بالقاهرة، تقدم بها اللواء أركان حرب محمد صلاح سالم.

«الزمان والمكان في السرد السينمائي» عنوان رسالة ماجستير نوقشت في أكاديمية الفنون بالقاهرة، تقدم بها فاضل عبدالسلام

فرنسا

مركز للمعلومات يؤسسه جارودي

أسس رجاء جارودي مركزا إسلاميا للمعلومات في باريس، مهمته تقديم المعلومات الصحيحة للغربيين عن الإسلام، وشرح مايمكن أن تقوم به مبادئ الإسلام السمحة في العالم.

ويعتزم المركز إصدار مجلة فصلية بعنوان «شمال وجنوب» يرأس تحريرها جارودي، تقدم ملفات خاصة عن التنوير الإسلامي وانحطاط الغرب.

حظر كتاب للقرضاوي

تواصلاً لمسلسل حظر الكتب الإسلامية، الذي بدأ في وقت سابق بخمسة عشر كتابًا للداعية أحمد ديدات، وشمل كتب الرئيس البوسني علي عزت بيجوفيتش، قامت السلطات الفرنسية بحظر نشر وبيع كتاب «الحلال والحرام في الإسلام» لمؤلفه د. يوسف القرضاوي، بحجة أنه يشجع على التطرف.

المثير في الأمر أن الكتاب كان موجودًا ويوزع منذ سنوات طويلة في فرنسا، مما حدا بالمراقبين إلى القول بأن مصادرته في ذروة انتخابات الرئاسة تهدف إلى إرضاء اليمين الفرنسي المتطرف وكسب أصواته.

وفاة صاحب «سندباد»

توفي - مؤخرًا - بيار برنار مؤسس دار «سندباد» للنشر إثر مرض مزمن عن عمر يناهز ٥٥ عامًا.

ويعد برنار أحد الذين قاموا بدور مهم في التعريف بالثقافة العربية في فرنسا من خلال نشره لأبرز الكتب والإبداعات العربية، حتى عُدَّ رائدًا في هذا المجال.

أحدث الكتب

- مستقبل الثقافات، تأليف مجموعة من الخبراء والباحثين، صدر عن منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو).

- السيرة الذاتية للكاتبة البريطانية دوريس ليسنج، صدر الجزء الأول منها بعد أن ترجمته إلى الفرنسية آن زيبنوفيتش عن دار البين ميشيل.

- الأعمال الشعرية الكاملة لطاهر بنجلون، صدرت عن دار لوسوي.

ألمانيا

نادي الكتاب العربي

تبذل إحدى الجمعيات الألمانية المهتمة بالحوار بين الشرق والغرب جهودًا من أجل إنشاء «نادي الكتاب العربي» لتشجيع نشر

الأسود.

«مشكلات الترجمة الإنجليزية للتعبيرات الاستعارية في الشعر العربي الحديث» موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية الآداب بجامعة القاهرة، تقدمت بها عزة مازن.

«القصة القصيرة في أدب إسحق أوروباز» عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر، تقدم بها حسام الدين جمال الدين.

«الزواج في القانون المصري القديم» موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في جامعة بيربنيان الفرنسية، تقدم بها إبراهيم فهمي هلال.

«القبض على الأشخاص في قانون الإجراءات الجنائية» عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية الحقوق بجامعة القاهرة، تقدم بها ياسر الأمير فاروق.

«المونولوج بين الدراما الشعرية والشعر الدرامي» موضوع رسالة ماجستير نوقشت في المعهد العالي للنقد الفني بأكاديمية الفنون في القاهرة، تقدم بها أسامة فرحات.

«مفهوم الملكية وتوزيع الثروات بين ابن تيمية وابن خلدون» موضوع رسالة ماجستير نوقشت في جامعة القاهرة، تقدم بها صلاح عثمان مال الله.

« التركيبات الصناعية في الأسنان» موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية طب الأسنان بطنطا في مصر، تقدم بها أيمن اللقوة.

«العزيمة والرخصة وأثرهما في بعض القضايا المعاصرة» عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية التربية للبنات في الرياض، تقدمت بها مزنة مزعل عبدالله العيد.

«ديوان الإنشاء.. وزارة الخارجية في الدولة الإسلامية» عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، تقدم بها إبراهيم عبدالغني شحاته.

«الحيل الشرعية في الفقه الإسلامي» عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في جامعة السوربون الثانية بباريس، تقدم بها شفيق نعمة.

«دراسة للغشاء المخاطي للمعدة بطريقة رش الصبغات بالمنظار» عنوان رسالة دكتوراه نوقشت بجامعة الأزهر، تقدم بها عصام الدين شلبي.

الحركة الثقافية في شهر

ترجمات لأهم الكتب الصادرة باللغة العربية.

الفكرة تجد قبولاً بين أوساط الناشرين الألمان، وبخاصة أن الجمعية يرأسها شرفيًا بحّاثة كبير هو المستشرق الألماني فريتز شتيبات.

جائزة السلام للمستشرقة شيمل

منحت المستشرقة أنّا ماري شيمل جائزة اتحاد دور النشر الألمانية التي تحمل اسم «جائزة السلام» تقديرًا لأعمالها العلمية وتكريسها حياتها لدراسة الإسلام والتعريف به.

وتعد شيمل خامس امرأة تحصل على هذه الجائزة منذ عام ١٩٦٥م، وهي من مواليد ايرفورت عاصمة ولاية نورينغن بشرق ألمانيا، وتبلغ من العمر ٧٣ عامًا. تعلمت اللغة العربية في سن الخامسة عشرة، وتخصصت في الأدب العربي والعلوم الإسلامية، وحصلت على درجة الدكتوراه عام ١٩٤١م من برلين، ثُم درّست عام ١٩٥٤م تاريخ الأديان في الكلية الإسلامية بجامعة أنقرة، كما مارست التدريس في جامعة بون وجامعة هارفارد الأمريكية، ولها ترجمات كثيرة عن ست لغات شرقية، إضافة إلى كتب وأعمال مختلفة باللغات العربية والتركية والإنجليزية.

بريطانيا

مؤتمر لدراسات العصور الوسطى

تستضيف جامعة ليدز أعمال «المؤتمر العالمي الثاني لدراسات العصور الوسطى» في منتصف شهر صفر المقبل (١٠ - ١٣ يوليو ١٩٩٥م).

يشارك في المؤتمر أكثر من سبعمائة باحث وباحثة يمثلون عددًا من الجامعات العالمية، من بينها جامعات عربية.

وفاة أشهر باحثي الحضارة الصينية

توفي - مؤخرًا - المؤرخ العلمي والباحث في علوم التاريخ الصيني جوزيف نيرهام عن عمر يناهز ٩٥ عامًا.

ويعد نيرهام المولود عام ١٩٠٠م أحد أهم مفكري العصر الحالي وأشهرهم، وقد عرف في البداية بدراساته في علم الأجنَّة قبل أن يتجه إلى دراسة الحضارة الصينية في مطلع الثلاثينيات الميلادية، وكانت ثمرة ذلك ١٦ بحثًا قيمًا نشر أولها عام ١٩٤٥م.

مجلة قانونية

صدر - مؤخرًا - في لندن العدد الأول من مجلة «القانون التجاري والمدني للشرق الأوسط».

تعنى المجلة بالشؤون القانونية، ويشرف على تحريرها المحاميان إيان أوج ونبيل صالح.

إسبانيا

ندوة احتفالية بجمال حمدان

أقام المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد بالمشاركة مع معهد التعاون مع العالم العربي ندوة احتفالية بفكر المفكر المصري الراحل جمال حمدان، شارك فيها عدد من المستعربين الإسبان والباحثين المصريين.

تركز النقاش حول استقلالية فكر جمال حمدان، وكونه فنَّد بفكره ماروَّج له الغرب من أن العرب لا يملكون فكرًا، وألقيت خلال الندوة عدة محاضرات تناولت فكر جمال حمدان من جوانبه المختلفة.

فارجاس يتسلم جائزة سيرفانتس

سلم العاهل الإسباني الملك خوان كارلوس جائزة سيرفانتس الأدبية للكاتب ماريو فارجاس يوسا عن مجمل مؤلفاته.

وفارجاس من بيرو، وقد حصل على الجنسية الإسبانية عام ١٩٩٣م، وهو أحد أبرز الذين يكتبون باللغة الإسبانية، ومن أشهر أعماله: «محادثة في الكاتدرائية» و«العمة جوليا» و«مديح لزوجة الأب».

وتعد جائزة سيرفانتس التي تأسست عام ١٩٧٦م من أشهر الجوائز الأدبية العالمية، وهي تمنح سنويا إلى كاتب باللغة الإسبانية تقديرًا لمجموع مؤلفاته، وتبلغ قيمتها المادية نحو ١٢٠ ألف دولار.

الدانمارك

أحدث الكتب

- حديقة جورج، ديوان للشاعر العراقي حميد العقابي، صدر في كوبنهاجن.

- لا جسد في الثوب، ديوان للشاعر منعم الفقير، صدر باللغة العربية وترجمة دانماركية في كوبنهاجن.

الولايات المتحدة

من أحدث الكتب

- دليل اكتشاف سيناء (كتاب موسوعي معلوماتي)، صدر عن دار جاديز أند سانز.

- سيرة حياة توماس مان، تأليف رونالد هايمان، صدر عن دار نشر سكرايبر.

قصيدة:

نهرُ الوفاء

شعر: محمد علي جمعة الشايب

(إلى من هو مني بمنزلة الابن)

أرأيتَ مـا فـعل المشِـيـ … ـبُ بِمَفْـرِقي؟؟ لـمْ يَبْـقَ سـرا!!
ذبلـتْ أزَاهيـرُ الشـبَـا … ب وغُـصْنُهـا في الرَّوضِ خَـرّا
قـد صَـوَّحَـتْ إلا وِدَادَك … لَـمْ يَـزَلْ فـي القـلب نَـضْـرا
ومـضَـى شـبـابي في رضـاكَ … ومـا انتظرتُ علَيـه أجْـرا
وإذا ألَـمّـتْ هَـفْـوةٌ … لـمْ أجْنِهـا بادرتُ عُـذْرَا
وسـقـيـتُك الودَّ المصـفّى … سَلْسَـلاَ يَمْـتـد نَهْـرَا
رَقّتْ عليـه نسـائمُ الإخـ … ـلاصِ رَيْحـانا وعِطـرا
وحَـمـائمٌ سـجَـعَتْ على … شطآنه بـالحُـب شِـعْـرَا
والروضُ يزهو مُـعـجَـبـا … مُـتَـبَـسِّـمـا وَرْدا وطَـيـرا
والطّلّ فـوقَ الـروض مَـدَّ … شُـعـاعَـه مـاسًـا وتبـرا
نهـرُ الوفـاءِ إذا سـقَـى الـ … ـصـحـراءَ لن ترتد صـحْـرا
فـالحُبّ يسـري في الرمـالِ … فـتنتـشي وتفـيقُ خَـضْـرا
وشُـواظُ نـار الشـمـسِ … يُصـبح كـالنَّسـيم يَهُب فـجْـرا
والـوحـشُ ينـسى غـدرَه … ويُـديـرُ للعـدوان ظَهْـرا
وترى الحـمـائِمَ صـافـحتْ … فـي الدّوْحِ والأجْـواءِ نَسـرَا
وأظـافـرُ الأشْـواكِ تُنْبِتُ … فـي سِنَانِ الشـوكِ زَهْـرا
والأرضُ تفـسِح حـضْنهـا … للناس تَلقَى فِـيـه خـيـرا
بـالحُب تتـسـعُ المضَـائِق … لو يكـونُ الحـضنُ شِـبـرا
نهـرُ الوفـاءِ مطـهـرٌ … يَرْوي جَـديبَ النفَس طُـهـرا
لا تُـلْقِ فـيـه رواسـبَ … الأضْـغـانِ تَنفثُ فـيـه شَـرا
فـيـعـيشَ يطمُـره الجـفـاءُ … فـلا نَرى للنهـرِ مَـجْـرَى
واغـفـرْ إسَـاءةَ مُـذنب … لا تجْـزِ سَـيّـئـةً بأخـرى
كـمْ مِـن مـسـيءٍ مـالَـهَ … قـلـبُ المُسـيءِ ولا أصَـرّا
العـفـو يُعـتِـقـه فـينهض … من إسـار الـذنب حُـرّا
والحُـب نـبْـتُ تَـسَـامـح … في تُربَة كـالتِّـبـر قـدرا
والدِّينُ قـد نشَـر التسـامح … بَـيـنَـنـا كـرَمًـا وبِـرّا
فـجـزاءُ واحـدةٍ من الـ … ـحـسـنات عند الله عـشْـرا
رُب الـذي لا تَـرتـضِـيـه … فـعِـفْـتَـه مـا كـانَ نُكْرا

قصة قصيرة

أرض العطاء

صالحة السروجي

أسند ظهره الذي احدودب من صروف الدهر إلى المقعد الذي اتخذه قريبًا أمام مزرعته التي أصبح يشهد نهايتها يومًا بعد يوم، فرغم ضعف بصره وقلة جهده كان يعمل فيها حتى عهد قريب.. فهذه المزرعة بنخيلها الوافر قد طعم منها الأجداد من قبل.. حين كانت مصدر رزقهم الوحيد.

فمع بزوغ فجر كل يوم بعد أداء الصلاة في مسجد القرية كان يذهب الجد منهم ومن بعده الجد الآخر، فالآخر إلى المزرعة يتفقد غرسها.. يرويها من الماء الذي ينبع ويفيض من الآبار المنتشرة هنا وهناك على جانبي الطريق.

هذه النخلة بحاجة إلى عزق، وتلك آن أوان تويبرها، والأخرى جاء وقت صرمها.. وهكذا كانت الأيام تمر عليهم دون أن يشعروا بأي فراغ أو ملل.. حتى إذا حضرت منية أحدهم أسلم أمرها لأبنائه من بعده للقيام على رعايتها وسقايتها والاهتمام بها.

ومع تقدم العصر أصبح الثمر يفيض عن الحاجة، فكان يُنقل بالسيارات للمدينة لبيعه. ويتطور العصر.. ومع ذلك لم يستغن أحد عن تناول ثمر النخيل.. فهو من ثمار الجنة وكفى..

والشيخ عواد ورث هذا الاهتمام عن آبائه وأجداده، لكنه مع تقدم العمر، هاهو يقف مكتوف اليدين لا يملك من أمره شيئًا لهذه المزرعة التي تذبل كل يوم كفتاة أجبرت على الزواج بمن لا ترغب.

تلك النخلة الشمّاء أرخت فروعها في انكسار، وأحنت رأسها كعجوز طال بها العمر.. أما تلك النخيلات فظلت شامخة رافعة الرأس في الفضاء كفارس مغوار وسط الأعداء رغم خلو أوراقها من اللون الأخضر، بل إن جل النخل قد استسلم لمشيئة خالقه رغم الجفاف الذي احتواه رأفة بهذا الشيخ الذي صعب عليه أن يأتي هذا اليوم الذي يشهد نخله وقد كساه الشيب؛ كشعر رأسه الذي شاب من أهوال زمانه وعقوق أبناء هذا الجيل، وسالت من عينيه - التي قارب ضوؤها على الانطفاء - دموع غزيرة تمنى من كل قلبه لو طال هطولها وسرت إلى النخل فَرَوَتْهُ ليعود إليه اخضراره، ولتدب فيه الحياة.

كما تمنى لو أنه عاد شابًا فتيًا يركض بين النخيلات يرعاها بنفسه بدلاً من اعتماده الآن على بعض العمالة من الذين لايجري في عروقهم حب الأرض، ولا يعرفون معنى هذا الحب وعمقه كما في نفوس أصحابها وارتباطهم بها.

حتى الأبناء هان عليهم هذا الحب، وسحقتهم التطورات الحضارية من حولهم فجذبتهم أضواء المدينة، وألقت على عيونهم وشاحها، فانساقوا إليها وغرقوا في الاغتراف من مادياتها، ونسوا جذورهم هناك في تلك الأرض التي يقف هذا الشيخ وأمثاله أمامها الآن حسرة على مامضى، يركض بعيدًا ويأبى أن يتلفت إليهم ويدعهم يجترون الحسرات عليه.

الجفاف يدب في النخل في مزرعة الشيخ عواد يومًا بعد يوم وهو في مكانه المعتاد.. ينظر بحسرة ولا يملك لهذه الحبيبة شيئًا.. حتى مر به عمدة القرية ذات يوم، ورآه غارقًا في همومه، فأخذ بيده إلى المسجد الذي تعود أن يؤدي صلاته فيه كل يوم، وحيث يتردد على سمعه النداء العظيم: الله أكبر... الله أكبر... واجتمع أهل القرية هناك للتشاور في أمر المزرعة التي جفت آبارها، ولم يعد بها قطرة ماء تروي نخل الأجداد، حتى بدأ الجفاف يسري للمزارع الأخرى وكأنه مرض معد سرى بين القوم.

وجاء طلب إمام المسجد من الناس إقامة صلاة الاستسقاء بردًا وسلامًا على نفسه.. سيدعو الله أن ينزل رحماته فترتوي أرضه، وهو المكلوم بها في نهاية عمره لأنها أعز ما يملك بعد الأبناء.

وكان الله بهم رحيمًا.. إذ لم يطل الأمر كثيرًا حتى أصبح الشيخ عواد في ذلك اليوم مبتسمًا يعلو وجهه البشر، وليس سرًا ذلك التغير؛ فقد غامت السماء ونزل المطر غزيرًا، فارتوى النخل ودبت فيه الحياة وامتلأت آبار المزرعة بالماء.. وسرت في عروق الشيخ دماء النشاط، وعاد للعمل بالمزرعة ماوسعه الجهد جنبًا إلى جنب مع أولئك الذين تفور فيهم دماء القوة لكنهم يفتقرون للإحساس بحب الأرض والانتماء إليها.

كتب وردت

الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

قام الدكتور عبدالرحمن بن عبدالكريم اليحيى، مدير معهد القرآن الكريم بالحرس الوطني في المملكة العربية السعودية، بإعداد تحقيق علمي موثق لكتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، الذي ألفه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -، والذي يعد أحد الكتب التراثية المهمة التي تحمي ثغرًا من ثغور العقيدة فيما يختص بمفهوم ولاية الله، وإفحام دعاة المفاهيم الباطلة، ودحض مفترياتهم. وقد حصل محقق الكتاب بعمله هذا على درجة الماجستير من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وتوصية بطبع التحقيق ونشره.

صدر الكتاب المحقق عن دار طويق بالرياض، ويقع في ٤٢٠ صفحة من القطع الكبير، وقام المحقق بتقسيم محتوى إصداره إلى جزءين، الأول: يشتمل على شرح لقيمة الكتاب، وعرض إجمالي لموضوعه، وترجمة للمؤلف، ووصف للنسخ المخطوطة للكتاب، ومنهج التحقيق، أما الجزء الثاني فهو تحقيق متن الكتاب.

لغة العرب، ورئيس كتبتها أنستاس الكرملي

دراسة تاريخية، وكشاف موضوعي. والكتاب هو الإصدار الثالث في سلسلة الأعمال المحكمة والنشر العلمي الذي طرقته مكتبة الملك عبدالعزيز العامة. وقد قام الأديبان السعوديان الشيخ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، والأستاذ أمين سليمان سيدو بإجراء توثيق شامل ودقيق للمحتوى الفكري والثقافي لمجلة (لغة العرب) التي كان يصدرها ويرأس تحريرها أنستاس الكرملي العالم اللغوي، والأديب المعروف، في السنوات ١٩١١ - ١٩١٤ و ١٩٢٦ - ١٩٣٦م. واتبع المؤلفان في عملية التوثيق مدخلين متتابعين، الأول: يتمثل في أسلوب التكشيف الموضوعي للبحوث والدراسات اللغوية والأدبية والتاريخية التي نشرت بالمجلة المذكورة. والثاني يتمثل في اختيار الدراسات والبحوث التاريخية التي نشرت في مجلة لغة العرب، وبخاصة تلك التي تتعلق بالجزيرة العربية والمملكة العربية السعودية، كما أضاف المحققان تعليقات على النصوص. لذلك يعد الإصدار مرجعًا وأداة للباحثين والدارسين للإفادة من الرصيد العلمي اللغوي والأدبي والتاريخي المكنون في مجلدات هذه المجلة التراثية.

يقع الكتاب في ٣٨٩ صفحة من القطع المتوسط، وصدر عام ١٤١٤هـ.

دراسات استشراقية وحضارية

كتاب دوري محكم يعنى بدراسات المستشرقين في العلوم الإسلامية والعربية على مستوى الوصف والعرض والنقد والتقويم. وهو العدد الأول في سلسلة إصدارات مركز الدراسات الاستشراقية والحضارية بكلية الدعوة في المدينة المنورة، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ويرمي إلى توجيه الاهتمام العلمي إلى علوم الاستشراق، وتطوير منهج علمي متخصص في نقد الاستشراق. وكما يقول رئيس التحرير د. محمد سالم بن شديد العوفي: "إن الكتاب يرمي إلى الانتقال في دراسات الاستشراق من مرحلة التعميم السائدة إلى مجال التخصص الدقيق من خلال تطوير بحوث الاستشراق".

محوَرُ قضية العدد هو «منهجُ نقد الاستشراق»، وقد عولج من خلال ثلاث زوايا: «الفكر الاستشراقي في ميزان النقد العلمي» مقالة كتبها د. محمد الدسوقي، «منهجية علم الاجتماع المعرفي في كتابات بعض المستشرقين عن العقيدة الإسلامية» مقالة كتبها د. محجوب كردي، «منهج نقد الاستشراق في مجال التاريخ الإسلامي» رؤية قدمها د. محمد أحمد محمد أحمد. ويشتمل العدد على بحثين: الأول بعنوان: «كُنهُ الاستشراق: مناقشات في التعريف والنشأة والدوافع والأهداف» للدكتور علي بن إبراهيم النملة، والثاني بعنوان: «الشبهات المثارة حول الإسلام وموقف المسلم تجاهها» للدكتور محمد أبي الفتح البيانوني.. كما يشتمل العدد على ببليوجرافيا الاستشراق والحضارة، إضافة إلى عرض نقدي لكتاب: «دراسة الشرق الأوسط» تحرير ليونارد بايندر، وترجمة عن الفرنسية لمشروع إصلاح مؤتمرات المستشرقين العالمية، البحث الذي ألقاه جون تلبيوزا مدير المدرسة الفرنسية للشرق الأقصى، في المؤتمر العالمي التاسع والعشرين للمستشرقين المنعقد في باريس عام ١٩٧٣م.

دفاع عن الضحك

يقول المؤلف عبدالغني العطري: «إن الضحك، بما يضمه بين جناحيه من سخرية، وتهكم، ونادرة، فن رفيع لايتقنه إلا من أوتي حظًا من الموهبة، وقسطًا وافرًا من الذكاء، ومقدرة على استخدامه في الوقت المناسب، وفي مواقف معينة بحضور من يتذوقون هذا الفن، ويحسنون التجاوب معه». وعليه فإن موضوعات هذا الإصدار تتحدث عن أسرار الضحك وأسبابه ودواعيه، وتعداد فوائده. كما تتناول أسباب البكاء - خصم الضحك - من الوجهة العلمية. ويورد المؤلف وقائع ومفارقات باعثة على الضحك، وأمثالا، وأحاديث للظرفاء والطفيليين، والبخلاء، ومواقف طريفة مع المرأة، ويشرح أبعاد العلاقات القائمة بين الساخرين.

وبالرغم من أن المؤلف يطالب بإشاعة المرح في أجواء العلاقات الاجتماعية، وكسر رتابة الحياة وقسوتها - أحيانًا - بالضحك، إلا أنه لايدافع عن الضحك على إطلاقه، ويؤكد أن الضحك في كل وقت ودون مناسبة أو ضرورة، يصبح نوعًا من الخفة والميوعة، ودليلاً على ضعف الشخصية، وربما اتُّهم المفرط في الضحك بالبلاهة وخفة العقل.

يقع الكتاب في ٢٣٨ صفحة من القطع المتوسط، وقد صدر عن دار البشائر في دمشق.

مسابقة مجلة الفيصل

١- جوائز المسابقة :

جوائز عديدة تقدمها المجلة لأصحاب الحلول الفائزة على النحو التالي:

أ - ثلاث جوائز مالية تمنح لثلاثة فائزين (٥٠٠ ريال، ٣٥٠ ريالاً، ١٥٠ ريالاً)

ب - خمس جوائز اشتراك مجاني في المجلة لمدة عامين (٢٤ عدداً).

ج - عشر جوائز اشتراك مجاني في المجلة لمدة عام واحد (١٢ عدداً).

د - خمس جوائز عبارة عن مجموعات من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض، قيمة كل مجموعة في حدود مائة ريال.

٢- شروط المسابقة :

أ - الإجابة عن جميع الأسئلة، وإرفاق القسيمة الأصلية - وليس نسخة مصورة - للمسابقة مع ورقة الإجابات التي يوضح فيها الاسم ثلاثيًا أو رباعيًا - إن أمكن - وعنوان المراسلة.

ب - ترسل الإجابات على العنوان التالي:

مسابقة ، مجلة الفيصل،
ص.ب. (٣) الرياض (١١٤١١)
المملكة العربية السعودية

(مع ضرورة ذكر رقم المسابقة على المظروف)

جـ - أية إجابات تصل بعد ٤٥ يومًا (حسب التقويم الهجري) من صدور العدد لن يلتفت إليها.

د - من حق القارئ أن يشترك باسمه في المسابقة الواحدة أكثر من مرة شرط إرفاق قسيمة المسابقة مع كل رسالة.

تنبيه: نرجو من الإخوة المشاركين عدم لصق القسيمة على ورقة الإجابات أو قص أجزاء منها، وإنما يكفي وضعها مع ورقة الإجابات داخل المظروف.

أجوبة مسابقة العدد (٢٢٠)

ج١ : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى طيب لايقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: ﴿ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا﴾، وقال تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم﴾، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يارب يارب، ومطعمه حرام ومشربه حرام، وغُذي بالحرام، فأنى يستجاب له». رواه مسلم.

* * *

ج٢ : شروط الطواف: ١- النية. ٢- الطهارة من الحدث الأكبر والحدث الأصغر والنجاسة؛ لما رواه ابن عباس، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الطواف صلاة... إلا أن الله تعالى أحلَّ فيه الكلام، فمن تكلم فلايتكلم إلا بخير». رواه الترمذي والدارقطني، وصححه الحاكم وابن خزيمة وابن السكن. ٣- ستر العورة. ٤- أن يكون سبعة أشواط كاملة. ٥- أن يكون البيت عن يسار الطائف. ٦- أن يبدأ الطواف من الحَجَر الأسود. ٧- أن يكون الطواف خارج البيت؛ فلو طاف في الحِجْر لايصح طوافه، فإن الحِجْر والشاذروان من البيت (الشاذروان: البناء الملاصق لأساس الكعبة الذي توضع به حلق الكسوة). ٨- موالاة السعي: عند مالك وأحمد. ولايضر التفريق اليسير، لغير عذر، ولاالتفريق الكثير، لعذر. وذهب الأحناف والشافعية إلى أن الموالاة سنة.

* * *

ج٣ : الأول هو الصحابي الجليل عبدالله بن عمر بن الخطاب العدوي القرشي(١٠ق.هـ - ٧٣هـ)، ولد ونشأ في الإسلام وهاجر إلى المدينة مع أبيه، وهو أكبر أبناء عمر وشقيق حفصة أم المؤمنين رضي الله عنهم أجمعين. شهد فتح مكة واشترك في معظم الغزوات إلا بدرا وأحدا لصغر سنه. عاون الخلفاء الأربعة في السلم والحرب، لكنه آثر الحياد في الخلاف بين علي ومعاوية. عُرف بالصلاح والزهد والتقوى، وسعة الإلمام بأخبار النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة، فلجأ إليه التابعون يروون عنه، وهو أكثر الصحابة رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم.

أما الثاني، فالصحابي الجليل عبدالله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي(١هـ-٧٣هـ). أول مولود في المدينة بعد الهجرة، أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما. شهد فتح أفريقيا زمن عثمان رضي الله عنه، وبويع بالخلافة وحكم مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر الشام، وكانت له وقائع هائلة، وكان من خطباء قريش المعدودين. حاصره الحجاج بن يوسف الثقفي في مكة ستة أشهر، ثم قُتل، وأرسل الحجاج رأسه إلى عبدالملك بن مروان بالشام.

* * *

ج٤ : فيلهلم كونراد رونتجن (١٨٤٥ - ١٩٢٣م) فيزيقي ألماني، له بحوث مأثورة في ميادين الفيزيقا، وبخاصة في علم الحرارة والميكانيكا والكهرباء، ولكن اكتشافه لأشعة الموجة القصيرة وأشعة رونتجن أو الأشعة السينية (١٨٩٥) فاق هذه البحوث، ونال عليه جائزة نوبل الأولى في الفيزيقا (١٩٠١م). درَّس في عدة جامعات ألمانية، من بينها فيورزبرج (١٨٨٨ - ١٨٩٩م)، وميونخ (١٨٩٩ - ١٩٢٠م).

* * *

ج٥ : الشاعر هو دريد بن الصمة، والصمة لقب أبيه، وهو معاوية بن بكر بن علقمة بن خزاعة بن جشم بن معاوية بن بكر من هوازن. شاعر فحل فارس شجاع، جعله ابن سلام - في طبقاته - أول الشعراء الفرسان، وكان أطول

للاشتراك املأ هذه القسيمة
(عنوان الاشتراك من الخلف)

الاسم: ....
العنوان: ....

الشعراء غزوًا وأكثرهم ظفرًا وأيمنهم نقيبة. يقال إنه غزا مئة غزوة لم يخفق في واحدة منها. أدرك الإسلام ولم يسلم. خرج مع المشركين في وقعة حنين (٨هـ)، وهو أعمى ولافضل له في الحرب، وإنما أخرجوه تيمنًا به. ولما انهزمت جموعهم قُتل مع من قُتل منهم حيث أدركه ربيعة بن رفيع السلمي فقتله. أما البيت فمن قصيدته التي مطلعها:

أرَثَّ جديد الحبل من أم معبد
بعاقبة وأخلفت كل موعد؟

قالها في رثاء أخيه عبدالله، ومنها:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد
تنادوا فقالت: أرْدَت الخيلُ فارسا
فقلت أعبدالله ذلكم الردي؟

* * *

نتائج مسابقة العدد (٢٢٠)

أ ـ فاز بالجائزة المالية الأولى، وقدرها ٥٠٠ريال سعودي، يوسف محمد عبدي، القامشلي ـ سورية.

وفاز بالجائزة المالية الثانية، وقدرها ٣٥٠ريالاً سعوديًا، خالد صالح الرشيد،الظهران ـ المملكة العربية السعودية.

وفاز بالجائزة المالية الثالثة، وقدرها١٥٠ ريالاً سعوديًا، مالك عيد عبدربه، الزرقاء ـ الأردن.

* * *

ب ـ وفاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة لمدة عامين (٢٤ عددًا)، كل من:

١ـ عبدالناصر محمود عبدالرواف عبدالله،الحمّام ـ مصر.

٢ـ عبدالسلام أحمد الصافي، الخرطوم ـ السودان.

٣ـ حسن العلواني بن المختار، بوسعاذة ـ الجزائر.

٤ـ مطيعة طه العاصي، عمان ـ الأردن.

٥ ـ مرزوق عبدربه عبدالعال، المدينة المنورة ـ المملكة العربية السعودية.

* * *

ج ـ وفاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة لمدة عام واحد (١٢عددًا)، كل من:

١ ـ محسن يس شوقي محمد، الدقهلية ـ مصر.

٢ ـ ليلي محمد البلوشي، المنامة ـ البحرين.

٣ ـ إبراهيم حسين إبراهيم، لاهور ـ الباكستان.

٤ ـ كنبارك عبدالسلام ابن العربي، تزنيت ـ المغرب.

٥ ـ باسل عطية عسكر، دمشق ـ سورية.

٦ ـ عبدالحكيم المجاوي، طنجة ـ المغرب.

٧ ـ حمد أحمد طه عبدالقادر، بلجرشي ـ المملكة العربية السعودية.

٨ ـ جميل محمود حسن الحوامدة، سحاب ـ الأردن.

٩ ـ أحمد محمد سعدية، دمشق ـ سورية.

١٠ ـ رند أحمد صدوق صافي، السالمية ـ الكويت.

* * *

د ـ كما فاز بجائزة إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض، كل من:

١ ـ سعودي بختاوي، المسيلة ـ الجزائر.

٢ ـ ياسر الحاج مصطفى الأمين، الخرطوم ـ السودان.

٣ ـ فرج محمد السيد عبدالغفار، البحيرة ـ مصر.

٤ ـ سيد نثار علي، دلهي ـ الهند.

٥ـ حميد صالح مصلح الأسد، صنعاء ـ اليمن.

* * *

أسئلة مسابقة العدد (٢٢٣)

السؤال الأول:

أمر الله عز وجل نبيه بقيام الليل، ومدح القرآن العظيم المحافظين على قيامه، وشهد لهم بالإيمان. اذكر ثلاث آيات من كتاب الله تعالى تبين ذلك.

* * *

السؤال الثاني:

يجب على المسلم أن يستقبل القبلة في حال صلاته، لكن هذا الاستقبال يسقط عنه في بعض الأحوال. اذكرها باختصار.

* * *

السؤال الثالث:

كانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم زادا غنيا للمؤرخين، من قدامى ومعاصرين، أدخلها بعضهم في تاريخه، وأفرد لها بعضهم مؤلفات. اذكر خمسة من الذين أفردوا لها مؤلفات.

* * *

السؤال الرابع:

كان لجغرافيي المسلمين أثر كبير في تطور علم الجغرافية في العصور الوسطى. اذكر أسماء ثلاثة من علماء الجغرافية المسلمين.

* * *

السؤال الخامس:

دخلت الكهرباء ـ بعد اكتشافها ـ في معظم مناحي الحياة العصرية، ومن ضمنها السكك الحديدية. من أول من طبق استخدامها في السكك الحديدية؟

قسيمة مسابقة مجلة
الفيصل
العدد (٢٢٣)
مجلة الفيصل - ص.ب: (٣) الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية

استراحة العدد

ويأتيك بالأمثال

هو السمن لا يخم

يضرب هذا المثل للرجل يُثنى عليه بالخير، أي إنه حسن السجية، لا غائلة عنده، ولايتلوّن، ولايتغير عما طُبع عليه.

يقال: خمَّ اللحم يَخِمّ خُمُومًا، أي أنتن شواءً كان أو طبيخًا. قالت ابنة الْخُسّ ووصفت رجلاً: لا أريده أخا فلان ولا ابن عم فلان، ولا الظريف، ولا المتظرف، ولا السمين لايخم، ولكن أريده حلوا مرًّا كما قال:

أُمِرُّ وأَحْلَوْلِي وتلك سجيتي
ولاخير فِيمَن لا يُمِرُّ ولايُحْلي

جمال الإنسان

روى حكيم: جمال العقل بالفكر، وجمال الروح بالشكر، وجمال اللسان بالصمت، وجمال الفؤاد بترك الحسد، وجمال الحال بالاستقامة، وجمال الكلام بالصدق، وجمال الكل بتوفيق الله.

ذنبه العدم

الناس أتباع من دانت له النعم
والويل للمرء إن زلّت به قدمُ
المال عزٌ ومَنْ قلّت دراهمه
أضحى كَمَنْ مات إلا أنه صنمُ
مالي رأيت أخلائي كأنهم
اثنان: منقبض عني ومحتشمُ
لما رأيت الذي يبدون قلت لهم:
أذنبت ذنبًا؟ فقالوا ذنبك العدمُ

الغني والمفلس

كان العباس يقول: الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس، ومن الذنب للمُصرِّ، ومن الحكم للمُقرِّ، وهو عندهم أعذب من الماء، وأحلى من الشهد، وأذكى من الورد، خطأه صواب، وسيئته حسنة، وقوله مقبول، يُغشى مجلسه، ولايُمل حديثه.

والمفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب، ومن رؤيا الكظة، ومن مرآة اللقوة، ومن سحاب يوليو، لايسئل عنه إن غاب، ولايُسلَّم عليه إن قدم، إن غاب شتموه، وإن حضر حقروه، وإن غضب صفعوه، أثقل من الأمانة، وأبغض من الملحف الملزم.

ثلاثة .. وثلاثة

قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: ثلاثة أعجبتني حتى أضحكتني: مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل ليس يُغفل عنه، وضاحك ملء فيه ولايدري، أساخط رب العالمين عليه أم راض. وثلاثة أحزنتني حتى أبكتني: فراق الأحبة محمد صلى الله عليه وسلم وحزبه، وهول المطلع، والوقوف بين يدي الله ولا أدري إلى الجنة يؤمر بي أم إلى النار.

شرط وشرط

يروى أن أحد الملوك غضب علي وزيره فنفاه إلى جهة بعيدة، وحرم عليه الاتصال بأي كان حتى أهله، وتدخل بعض أصدقائه لدى الملك راجين عفوه عنه، فاشترط الملك - تعجيزًا لهم - أن يأتيه الوزير بجواد أصيل لايكون لونه أبيض أو أسود أو أحمر أو أصفر، أو مايشتق من تلك الألوان، وحين بلغ ذلك الوزير قال لمن جاءه: الجواد موجود عندي، والمطلوب أن يحضر من يأخذه، على ألاّ يأتي يوم السبت أو الأحد أو الاثنين أو الثلاثاء أو الأربعاء أو الخميس أو الجمعة.

صدق ولاتصدق

قال أبو اسحاق: إذا بلغك أن غنيًا افتقر فصدق، وإذا بلغك أن فقيرا استغنى فصدق، وإذا بلغك أن أحمق استعاد عقله فلاتصدق!

المعادلة

مما يروى عن العالم الكبير البرت اينشتين أنه كان كثير النسيان، وفي أحد الأيام أخفق في إيجاد حل لإحدى المعادلات، فخرج من منزله لعل الهواء النقي ينعشه ويساعده على إيجاد الحل، وفيما كان يتمشى وجد الحل الذي يبحث عنه، فأخذ يبحث عن شيء يسجله عليه حتى لاينساه، حتى وجد قطعة طباشير فالتقطها وتوجه إلى لوح أسود رآه أمامه وسجل عليه الحل. وعاد مسرعًا إلى منزله لإحضار مفكرته ليدون فيها حل المعادلة، وعندما رجع إلى حيث اللوح الأسود لم يجده، إذ لم يكن هذا اللوح سوى ظهر عربة يجرها حصان، وبدلاً من أن يبحث اينشتين عن الحل، صارت مهمته البحث عن العربة!

مصلح !

حدث خلاف يومًا بين الأعمش وامرأته، فسأل أحد أصحابه أن يرضيها ويصلح بينهما، فجاء صاحبه إلى المرأة وقال: إن أبا محمد شيخ كبير، فلا يزهدنك فيه عمش عينيه، ودقة ساقيه، وضعف ركبتيه، ونتن إبطيه، وبخر فيه، وجمود كفيه. فقاطعه الأعمش قائلاً: قم قبحك الله، فقد أريتها من عيوبي مالم تكن تعرفه!

مواطن القلب

قيل للقلب ستة مواطن يجول فيها لاسابع لها، ثلاثة سافلة، وثلاثة عالية، فالسافلة: دنيا تتزين له، ونفس تحدثه، وعدو يوسوس له. والعالية: علم يتبين له، وعقل يرشده، وإله يعبده. والقلوب جوالة في تلك المواطن.

صراحة

عندما تولى المعتصم الحكم كان بينه وبين عبيدالله بن طاهر عداوة، فكتب إليه: عافانا الله وإياك، قد كان في قلبي منك هفوات غفرها الاقتدار، وبقيت حزازات أخاف منها عليك، عند نظري إليك، فإذا أتاك ألف كتاب استقدمك فيه فلاتقدم، وحسبك معرفة لما أنا منطو لك عليه، إطلاعي إياك على مافي ضميري منك.. والسلام.

دعاء

قيل إن درويشا ظهر في بغداد إبان عهد الحجاج، زعم أن دعاءه مستجاب، فاستدعاه الحجاج وسأله أن يدعو له بالخير، فقال الدرويش: اللهم اقبض روحه. فصرخ الحجاج غاضبًا: ماذا؟ فقال الدرويش: هذا الدعاء خير لك وللمسلمين كافة!

هكذا كانوا

قال طاووس يومًا لسليمان بن عبدالملك: ياسليمان هل تدري من أشد الناس عذابًا يوم القيامة؟ قال: لعلّي أدري، لكن زدني من فضل علمك. قال طاووس: إنه ذلك الذي استخلفه الله في عباده فجار في حكمه. فاستلقى سليمان على سريره، فمايزال باكيًا حتى قام جلساؤه.

تصوف

تصوف ابن الشاعر الكبير أبي العتاهية وكان يعمل بزازًا، فدخل عليه والده فاستنكر منه ذلك، وقال: ألم أكن نهيتك عن هذا؟! قال: وماعليك أن أتصور الخير. وأنشد بعض الأبيات التي تحبذ التصوف، إلا أن أبا العتاهية لم يقتنع، وقال: يابني يحتاج المتصوف إلى رقة حال، وحلاوة شمائل، ولطافة معنى، وأنت ثقيل الظل، مظلم الهواء، راكد النسيم، جامد العينين، فأقبل على سوقك فأنها أعود عليك!



للنوم سلطان لا يستطيع أحد أن يعصيه!

ترك الفضول

طلب رجل إلى عبدالله بن المبارك أن ينصحه فقال له: اترك فضول النظر توفق للخشوع، واترك فضول الكلام توفق للحكمة، واترك فضول الطعام توفق للعبادة، واترك عيوب الناس توفق لمعرفة عيوب نفسك.

أيهما أحرص!

حينما كان الملك الإنجليزي جورج السادس طفلاً في التاسعة من عمره كتب إلى أمه الملكة ماري رسالة طلب فيها خمسة جنيهات لشراء سيارة لعبة، فردت عليه الملكة برسالة رفضت طلبه، واتهمته بأنه متلاف، لايعرف قيمة المال حيث لديه غرفة كاملة مليئة بالألعاب، وأشارت إلى أنه ربما يصبح ملكًا يومًا، ولاينبغي أن يكون متلافًا. وبعد أسبوع تلقت الملكة ماري رسالة من جورج يقول فيها: مَنْ قال إنني لا أعرف قيمة المال، لقد بعت خطابك لإحدى الصحف مقابل عشرين جنيها، وهو مبلغ كاف لشراء أربع سيارات.

الداهية والكريم

غضب الخليفة العباسي هارون الرشيد على حميد الطوسي، فأمر السياف بقطع رأسه، فبكى الطوسي حتى سأله الرشيد: ما يبكيك؟ قال: والله ياأمير المؤمنين ماأفزع من الموت لأنه لابد منه، وإنما بكيت أسفًا على خروجي من الدنيا وأمير المؤمنين ساخط عليَّ. فضحك الرشيد وعفا عنه، وقال: إن الكريم إذا خادعته انخدع.

أنواع الأدب

سُئل الأحنف بن قيس عن الأدب فقال: الأدب نور العقل، وهو أربعة أنواع: أدب لسان، وأدب جنان، وأدب زمان، وأدب إيمان.

فأدب اللسان: الفصاحة والبلاغة وطيب الكلام، وأدب الجنان: الانقياد بالطاعة والتزين بمكارم الأخلاق، وأدب الزمان: الاقتداء بالأفاضل من عصره وبناة مجده، وأدب الإيمان: التأدب بآداب الشرع المطهر والتسامي عما يشينه بالمعاصي، واتباع مكارم الأخلاق قولاً وفعلاً.



يهدف الباب إلى تشجيع المواهب الناشئة التي تتلمس لها سبيلاً إلى الإبداع الفني والكتابة الأدبية، ولذلك تقوم تباشير باختيار عمل أدبي أو أكثر وفق معايير فنية محددة وحسب المساحة المتاحة، ومن ثم يُعرض على أحد النقاد المعروفين الذي يتناوله بالمتابعة النقدية أو التعليق أو التوجيه لتكون خطوة ثابتة لهذه المواهب في طريق الإبداع. وهذه دعوة للمواهب الأدبية الناشئة للمشاركة في هذا الباب، علماً بأن هناك مكافأة رمزية تشجيعية للعمل الذي يحظى بالنشر.

قصة قصيرة

رأيته يتعثر

فريد محمد معوض

رأيتـه يجتـاز شارع المدينـة الواسع، ورأيت العربات تجمد، وحركة الكون تتوقف، يدوس فوق كل شيء، ضخمًا يمضي، جسده ضخم، حذاؤه ضخم، كل شيء يبدو فيه ضخمًا، كل شيء يتأوّه فور شعوره بثقل جسده وحذائه، كنت سأدعه وأمضي، غير أن أعيننا تلاقت، ووجدت نفسي مندفعًا إليه، أشعة انطلقت من عينيه.

- أهلا

صوته ضخم

- مرحبا

قلتها بهمس

كلمات تمت لا أدريها، قلت له:

- إلى أين؟

- إلى أماكن كثيرة.. دار نشر .. ودار القضاء العالي ثم البنك.

تذكرت أنه يعمل ناقدًا ومحاميًا، يزهو أمام النقاد بأنه محام كبير، ويزهو أمام المحامين بأنه ناقد كبير، يقول البعض:

- لاهو هذا ولا هو ذاك.

صرنا على الطوار، أخذ يتحدث عن القضاة الذين يحقدون على المحامين لأنهم يقبضون الكثير، لذا فالقضاة يقفون لهم بالمرصاد، يدققون في كل شيء..وأي شيء.. ثم صرخ حتى فزعت المدينة:

- واحد فيهم لايصلح إلا شحاذًا يقف وراء خسارتي لمعظم القضايا.

كنت قد شردتُ منه لحظات، التقطت عيناي خلالها رأس عمارة كبيرة، غسلتها من رأسها إلى أساسها، ثم رأيت على ناصية الطريق كُشكًا يبيع صاحبه مجلات قديمة.. قال:

- أما زلت غاضبًا من دراستي عن روايتك؟

- بالعكس .. هذا رأيك.. ومتى خرج مني العمل أصبح ملكًا للجميع.

صرخ:

- أنا هكذا.. لقد نسفت أدباء كثيرين.. وحطمت شاعرًا أجنبيا لايحضرني اسمه.

كان الرذاذ يتطاير من فمه، وكان كل السائرين يمسحون وجوههم، وكانت المدينة غاضبة، قلت له:

- ألم يعجبك شيء في الرواية؟ ألم تجد شيئا يستوجب الوقوف في روايتي الأولى؟

ولم أقل له إنها فازت بجائزة رسمية، كنت قد حذفت كلمة «فازت» قبل الطبع حتى لا أصادر على القارئ رأيه.

تطاير الرذاذ من فمه، اتسع فمه كثيرًا حتى أفزعني.

قلت له:

- أنت لم تفعل شيئا سوى أنك شتمت.

تطاير الرذاذ ثانية، وصار فمه أكثر اتساعا، قال:

- القضايا كثرت وسكرتيرتي تطلب أربعين جنيها زائدة، ورئيس تحرير أكبر مجلة أدبية يطلب مني مسحًا شاملاً عن كل الذين يكتبون في «طنطا».. أسمائهم وأسماء أمهاتهم وخالاتهم وعماتهم وإخوتهم في الرضاعة.. كهلم خرجوا من معطفي.. لست مرتزقًا، لكن أكبر مجلة في الوطن العربي أعطتني خمسمائة جنيه عن دراسة نشرتها بها:

قلت له:

ـ نعم قرأتها، كانت عن رواية لأحد محرريها.
لم يعبأ بردي لكنه صاح:
ـ هل قرأت كتابي الأخير «الفقراء يرتفعون»؟
قلت له:
ـ حقًا لقد ارتفعوا.. قبضوا بالدولار.

صار فمه يدفع الرذاذ، وصار المارة يمسحون وجوههم وهرع الناس يجرون خلف الأتوبيس المنتفخ، وأسرع طفل يمسك بأمه على الطوار المقابل.. كان قد أفلت منها عندما وقف لحظة كي يمسح وجهه.. شعرت بدوار عنيف ومادت الأرض بي، وكاد وجهي أن يمتلئ بالرذاذ، وكانت «الراقصة الشهيرة» إعلانا يملأ وجه الحائط يشغل صدر الدور السابع في عمارة المبتديان.

ماهذا ياربي .. ماالذي أتي بي إلى هنا؟ ومتى أفلت من هذا؟ رذاذه ينخر جلدي، صوته يجعلني أشعر بالخوف.

مسكينة أنت ياقاهرة، بدأ الناس يتوقفون عن مسح وجوههم، كأن رذاذ الضخم المتطاير عليهم قد صار شيئًا عاديًا، أو أن رذاذه لم يعد يرعبهم. أحسست بجسدي غارقًا في لجة من عرق، تركته يمضي، توقفت للحظات، رأيته يجري برذاذه يدوس على كل شيء، تتأوّه أشياء كثيرة.. تصرخ أشياء.. وهو يدوس، يدوس .. يدوس...
لكنني رأيته يتعثر.

التعليق:

تدور القصة حول نموذج «المتغطرس» الذي تتضخم عنده الذات وتنمو نُموّاً غير طبيعي،

والحقيقة أن فكرة هذا النموذج مألوفة وتندرج في إطار ماهو نمطي مكرور، غير أن الكاتب عمد إلى أسلوب في التصوير ومنحى في السّرد يقوم على توجيه المشهد نحو المبالغة في تكبير الصورة والعبث بالنسب والعلاقات داخلها. وهذا الأسلوب في تقديم المادة القصصية من المناهج الحديثة في البناء القصصي، وتقديم النماذج الاجتماعية في إطار مايعرف بـ (الصورة التعبيرية). وأستاذ هذا المنهج يوسف الشاروني، فهو أقرب إلى الرسم الكاريكاتيري الذي يلجأ فيه الرسام إلى المبالغة في إبراز بعض عناصر الصورة على حساب غيرها من أجل ترك انطباع محدد في نفس القارئ؛ فالمشهد الذي برز من خلاله النموذج بدا وكأنه ينتمي إلى عالم آخر غير عالمنا.

والكاتب يضع نموذجه بإزاء المحيط الخارجي وكائناته عبر موازنة تبرز حجم «بطل القصة» ورؤيته لذاته، فهو ضخم متطاول متعاظم ومن يحيطون به متضائلون صغار، هو شامخ متحرك وماحوله جامد متوقف، ولكن هذه النزعة التصنيفية الأحادية تبرز الفكرة بشكل مباشر، ولاتدع مجالاً للمتلقي كي يستقبل الأثر بشكل تدريجي، فنحن هنا أمام فكرة ناجزة وليس أمام انطباع، فهو يعطينا منذ البداية، بل منذ العنوان جرعة تغنينا عن متابعة القصة، وتصبح المتابعة بعد ذلك طلبًا للاستمتاع لذاته، إذ يمضي الكاتب ساخراً من بطله على نحو مكشوف يذكرنا بذلك النص الهجائي المشهور في أدبنا العربي، وهو «رسالة التربيع والتدوير» وهو نص قائم على المبالغة والسخرية كتبه الجاحظ كما هو معروف.

ويمضي الكاتب في تطوير فكرته من خلال خطين متقابلين متفاوتين تفاوتًا يدخل في إطار المبالغة التي أشرنا إليها؛ فصوت الراوي الهامس يقابله صوت المحامي الناقد الضخم، ويستثمر الكاتب تقنية الاتصال والانفصال ليشحن الموقف ببعض العناصر التي تخرجه من عاديته؛ فالشرود والنظر إلى رأس العمارة والانقطاع عن عالم النموذج يثير شيئًا من التطلع إلى تعمّق اللحظة والإبحار داخلها، ويعود إلى الاتصال عبر الحوار حول قضية نمطية يقدمها الكاتب كشاهد على فكرته، فهي تأتي عرضية يستدعيها منظر كشك المجلات القديمة، وأعني بها قضية القسوة في النقد من خلال شاهد حي هو نقد رواية «الراوي» في القصة، والحوار يأخذ طابعًا جدليًا مُسطّحًا يعمد فيه الكاتب إلى تسليط الضوء على جانب واحد يعمل على تضخيمه وهو جانب الغطرسة والغرور، ولايبدو ذلك مقنعًا على المستوى الواقعي ولا المستوى الفني، فمن غير المقنع أن يقول الناقد المحامي صارخًا دون أي مسوّغ أو محرّض: «أنا هكذا.. لقد نسفت أدباء كثيرين.. وحطمت شاعرا أجنبيا لايحضرني اسمه»، كذلك فإن الطرف الثاني لايبدو متماسكا أو منسجمًا مع الموقف، ويبدو المقطع الحواري مفتعلاً جاء ليؤكد الفكرة التي أراد أن يبرزها الكاتب، كذلك فإن سلسلة التداعيات التي قاد إليها الحوار لاتضيف شيئا مذكوراً إلى الموقف أو تثريه، بل تدخل في إطار المبالغات المتراكمة عن غرور النموذج الذي صوّره الكاتب.

لقد عوّل على الجانب الساخر متمثلاً في مايقود إليه الحوار من تقديم رسم كاريكاتيري للشخصية، ومع قصور الأداء في بناء النموذج البشري في القصة، فإن الخلفية المكانية التي وصفها الكاتب في معرض تشكيله للشخصية كانت تعكس إحساسا بالمفارقة التي تفجر المرارة، كالمشهد البانورامي البائس ممثلا في الأوتوبيس المتفخ والرذاذ المتطاير في وجوه الناس، والإعلان الذي يشغل صدر الدور السابع، ثم الارتداد إلى الداخل والانشغال بالحديث النفسي والتقاط الانطباعات التي خلفها اللقاء.

ولم يكن الاحتشاد الذي احتفل الكاتب به من أجل تسليط عدسته الانتقادية على نموذجه الاجتماعي يكافئ مايبرزه هذا النموذج، فليس ثمة مايكشف عن جوهره ويستقصي أبعاده، فهو مجرد نمط تقليدي لايستحق كل هذا العناء، فارغ، أجوف.. مجرد مدّع والمدّعون كُثْر في مختلف المجالات، وليس ثمة مايضيفه الكاتب إلى الفكرة الشائعة عن مثل هذا النمط الاجتماعي.

ومع ذلك فإن لغة الكاتب وأسلوبه في الوصف ورسم المشهد ينبئان عن حسٍ فني، تمثل في الاقتحام المباشر منذ الكلمة الأولى لصلب القصة، واستثمار فعل الرؤية في رسم الخطوط العريضة للّوحة، والجمع بين ماهو عياني (الرؤية الحسيّة الحقيقية) وماهو تعبيري (الشعور الداخلي النفسي، تجمد العربات، توقف حركة الكون، الضخامة في كل شيء، وتكرار هذه الصفة في مواقع إعرابية متعددة.. الانتقائية في الوصف حيث التركيز على الجسد والحذاء: جسده ضخم.. حذاؤه ضخم... الخ)، ثم المراوحة بين تبادل الكلمات الموجزة الدالة والعبارات الطويلة في المقاطع الحوارية حسب الموقف والحالة النفسية، ثم الانتقال بين الداخل والخارج والحوار والسرد والتعليق والتنويع فيما يتعلق بصياغة الحوار بين التبادل المباشر للحديث، ورواية مادار بأسلوب غير مباشر، والاستطراد إلى موضوعات شتى كالحديث عن القضاة والأدباء والسكرتيرة ورؤساء التحرير، وجمع أعناق هذه المختلفات لتأكيد الانطباع وتركيزه.

وقد لجأ الكاتب إلى المبالغة والاستقصاء، ومن ثم لم ينحصر في إطار مُحدّد يضيّق من مجال الحركة ويصفّدها بأغلال تقتل نبض الحياة، بل ـ على العكس من ذلك ـ عمد إلى تقنية النوافذ المشرعة، وأفسح المجال للتداعيات التي من شأنها الإثراء والحشد وبالتالي تركيز الأثر:

«قال: القضايا كثرت وسكرتيرتي تطلب أربعين جنيهًا زائدة، ورئيس تحرير أكبر مجلة أدبية يطلب مني مسحًا شاملاً عن كل الذين يكتبون في طنطا.. أسمائهم... إلخ». كذلك لجأ إلى التركيز على عنصر محدد وجعله محوراً تعبيريًا يفجّره بدلالات متعددة، فالرذاذ المتطاير محور وصفي مركزي في القصة، وقد استثمره الكاتب في التركيز على معنى الانفلات وعدم القدرة على الانضباط والإيذاء للآخرين وإلغائهم».

ثمة تقنية موظّفة توظيفًا لافتًا في القصة يتمثل في مايمكن أن نسميه «المشهد الجانبي» الذي تلتقطه عين الكاميرا في زحمة «المشهد الرئيس»، وذلك لإضاءةالموقف ولتخليص السّرد من الرتابة، وهذه تقنية حديثة معروفة، وقد تأتي كعنصر من عناصر «البانوراما» حيث تتنوع المرئيات في إطار اللوحة الكلية، وتكون دلالته غير مباشرة في الغالب، ومثل هذه البانوراما تشكل لونًا من ألوان الانفراج بعد التوتر مما يكشف عن مدى «الأزمة» أو لحظة الشعور بالمأزق، فبعد الانتهاء من الحوار الذي يشكل صلب الموقف القصصي حيث يصل التوتر إلى ذروته يشير الكاتب إلى الطفل المسرع الذي يمسك بأمه قبل أن تنفلت منه، إذ يكاد الزمام ينفلت ويتوه في زحمة المارة، وهذا معادل موضوعي لما يعاني منه الراوي في القصة حيث يكاد يغرق في تيه من التوتر والتأزم.

والحس اللغوي لدى الكاتب ينبئ عن يقظة في استخدام الصياغات والألفاظ خصوصًا في مايتعلق بفن إدارة الحوار وروايته، فالاستفهام والتقرير صيغتان يُحسن الكاتب موقع استخدام كل منهما، كذلك النفي على سبيل الإثبات، والموالاة السريعة بين ماهو حواري وماهو سردي مما يجعل السياق قادراً على الإثارة وشد الانتباه.

وهكذا فنحن أمام كاتب مهيأ للعطاء قادر على الإمساك بزمام فنّه لو أحسن اختيار موضوعه وتعمّق أبعاده والإفلات من قبضة تحكّم الفكرة واستبدادها.

د. محمد صالح الشنطي



مع لغتنا العربية: نكون أو لانكون

مشكورةٌ مجلة «الفيصل»، المجلة الرائدة، في عددها ٢١٨ على ملفها الخاص «اللغة العربية سياج هويتنا»، وماجاء فيه من مقالات ودراسات، فإنها استطاعت أن تشير إلى أهم المشكلات التي تعاني منها لغتنا العربية، ومن المفيد الأخذ بها وبشكل فعلي، على طريق إصلاح مناهج اللغة العربية. ومشكورة هي أيضا على هديتها القيّمة: كتيب المراجع الملحق مع ذلك العدد.

وأود من خلال هذا التعقيب أن أشير إلى أمرين يحتاجان إلى التفاتة من أصحاب القرار التربوي في الوطن العربي، فتطفل اللغة الأجنبية على لغتنا القومية أمر أول، والخطأ في تطوير مناهج اللغة العربية أمر ثان.

الأمر الأول: لقد أشار العديد من الدارسين والباحثين إلى خطورة تعلم اللغة الأجنبية إلى جانب اللغة العربية. وإذا حددنا المشكلة بدقة أكثر، نرى أن أكثر الأنظمة التربوية العربية ـ إذ لم نقل جميعها ـ سمحت بتدريس اللغة الأجنبية في مدارسها الابتدائية، وذهب بعضها إلى أبعد من ذلك، فسمح بتعليم اللغة الأجنبية في مرحلة رياض الأطفال (٢ ـ ٦ سنوات من عمر الطفل) في مرحلة لن يتمكن الطفل فيها من استيعاب أبسط الأمور في لغته العربية. وإلى جانب ذلك، فالمدرسة من إداريين ومعلمين والأسرة والمجتمع ككل، يشجعون الأطفال على تعلم اللغة الأجنبية أكثر من تشجيعهم لتعلم اللغة العربية، وحسبهم في هذا أن اللغة الأجنبية ستظل لهم دعامة في مستقبلهم، وبهذا الشكل نكون قد أسرعنا بتعليم أبنائنا اللغات الأجنبية متناسين لغتنا القومية ودورها الحضاري، إلى أن وصل بنا الحال لنشكو من ضعف أبنائنا في اللغة العربية. فلماذا العبث بمستقبل أطفالنا، ومستقبل الأمة العربية جمعاء؟

ومهما كانت الحجج والمسوغات التي وضعها أصحاب القرار التربوي في الوطن العربي للسماح بتعليم اللغة الأجنبية في مدارسنا الابتدائية، فلن تكون مقنعة.

إن التربويين في أوروبا وكل الدول الغربية يرفضون بشكل قاطع تدريس اللغات الأجنبية في مدارسهم الابتدائية؛ ففي تقرير للمفكر ساطع الحصري عن حالة المعارف في سورية واقتراحات لإصلاحها نشر في دمشق سنة ١٩٤٤م، يقول فيه: «مامن دولة من الدول الراقية تعلم في مدارسها الابتدائية لغة أجنبية».

والتأكيد على قرار كهذا، بمنع تعليم اللغة الأجنبية في مدارسنا الابتدائية، أمر لازم، ففي وحدة اللغة القومية وحدة في الشعور القومي، أما إذا بقي الأمر كما هو، فسيشكل حجر عثرة أمام إتقان أطفالنا للغتهم القومية من جانب، وسيؤدي إلى تفكك في الشعور والتفكير بين أبناء العروبة مستقبلاً من جانب آخر.

وفي التقرير السابق نفسه يقول الحصري: «إن الأمم يتميز بعضها من بعض في الدرجة بلغاتها، وإن حياة الأمم تقوم قبل كل شيء على لغاتها، وإذا أضاعت أمة من الأمم لغتها وصارت تتكلم بلغة أخرى، تكون قد فقدت الحياة واندمجت في الأمة التي اقتبست عنها لغتها الحديثة».

والصواب في هذا الأمر أن نؤجل تعليم اللغات الأجنبية إلى مراحل لاحقة، يكون الطفل فيها قادرًا على التفكير المنطقي والمحاكمة العقلية.

الأمر الثاني: الخطأ في تطوير مناهج اللغة العربية؛ فالقائمون على تطوير المناهج التربوية في كل خطة جديدة للتطوير، يسعون إلى إعطاء منهاج اللغة العربية حقه في التطوير، ولكنهم لايلبثون أن يجدوا أنفسهم وكأنهم لم يحركوا ساكنا، بل قد تتغير الأمور أحيانًا نحو الأسوأ. والأمر عائد بالطبع إلى الخطأ في التطوير، إذ إنهم إما أن يضيفوا فصولاً جديدة إلى المنهاج، أو يحذفوا مارأوه غير مناسب لمرحلة دراسية ما. والحقيقة أن اللغة العربية لاتحتاج إلى التطوير، وعندما نتأكد بالبحث الجاد أن المناهج القائمة هي السبب في ضعف الطلبة في اللغة العربية، علينا ـ عندها ـ أن نعيد صياغة المنهاج من جديد صياغةً جديدة لها طابع حديث يتناسب ومستوى القدرات الفردية للتلاميذ، وتحقق ماتتطلبه كل مرحلة دراسية من أهداف قريبة أو بعيدة.

لذا فإن على كل عربي التمسك بلغته العربية والدفاع عنها، لأن ذلك دفاع عن القرآن الكريم الذي تستظل بظلّه حضارتنا العربية والإسلامية، وبالتأكيد لن نسمح لغادرٍ بإنقاص قدر لغتنا العربية ووجودها الحضاري. وعلى الله قصد السبيل.

إبراهيم عبدالكريم الحسين
الرقة ـ سورية

ليس تعصبًا ضد المرأة، ولكن..



قرأت مقالة الأستاذ عبدالغفور الخطيب التي نشرت في باب «مناقشات وتعليقات» في العدد «٢١٠» بعنوان: «تربية جديدة للمعلمين»، قدّم فيها أفكارًا جميلة عن واقع التعليم، ثم قرأت ما كتبَتْه المُدَرّسة فادية العمر في الباب نفسه في العدد «٢١٥» ردًا على تلك المقالة، فأحسست بصدق ما كتبَتْه أحيانًا وبالمبالغة أحيانا أخرى.

فنحن لانشكّ في أن المعاهد السورية لديها القدرة على التعليم، ولكن المشكلة فيمن يأتي إلى هذه المعاهد، فمعظم هؤلاء يلجؤون إلى هذه المعاهد إمّا لأنّها أضمن وظيفة، وإمّا لأنها أقصر زمنًا في نيل الشهادة الوظيفية، أو فرارًا من الخدمة الإلزامية في نظام الأربع سنوات والخمس سنوات في النظام الجامعي للطلاب الجديرين، والأكثر من ذلك لمن هم أقل جدارة، وإمّا ـ أخيرًا ـ بسبب الواقع المادي للطالب.

ونحن لانشك أيضا في نوعية أو كمية المعلومات التي يتلقاها الطالب في هذه المعاهد، ولكن نشك في استعداد الطالب لها من أجل بناء شخصية علمية تناسب المهنة التي يتأهّل لها.

ويزيد الطين بلّة أن بعض هؤلاء يتخرّج في هذه المعاهد دون أدنى درجة للتأهيل، ومما يزيد القلب علّة أن معظم هؤلاء الفتيات اللواتي يأتين إلى هذه المعاهد إنما يأتين للّهو والمرح، للتبرّج والزينة، وكأنهن في حدائق ومتنزّهات، وينسين واجبهنّ في أنهنّ سيصبحن أمهات ومربيات. ويمكن للقارئ العربي أن يقف على صورة واضحة من هذا القبيل في مقالة للدكتور فاخر عاقل في أحد أعداد مجلة «العربي» بعنوان «ملامح شخصية الشباب العربي».

إن ماذكرته الأخت فادية العمر من المظاهر غير الأخلاقية لبعض المعلمات لايمثل إلاّ مظهرًا من مئات المظاهر التي يندى لها الجبين خجلاً، ولاأريد أن أذكرها؛ لأنها أصبحت من المسلّمات التي يعرفها الجميع. ونحن لانشك في أنّ بين هؤلاء المعلّمات من هنّ محطّ تقدير وإعجاب في أداء مهمتهن، ولكن علينا أن نحثّ الضمائر البليدة لتحتذي حذو تلك الضمائر النقية، وكذلك نحثّ المجتمع العربي بأسره على محاسبة تلك الضمائر بشتى الوسائل قبل أن يستشري الداء فيعمّ البلاء.

وصحيح ماذكرته الأخت فادية من أنّ أصابع اليد ليست متساوية، ولكنْ ألا يمكن أن نقترب من المساواة قليلاً مادامت المعاهد هي هي، ومادامت المعلومات كذلك هي هي؟ ولماذا لاتحاول هذه الأصابع أن تتمتع بالأخلاق ونقاء الضمير؟

رامز علي
حلب ـ سورية

رسالة أب إلى المعلمين والمعلمات

أشكر المعلمة فادية العمر لما كتبته في باب «مناقشات وتعليقات» وطلبتْ رأي أولياء الأمور حول قضية التعليم في وطننا العربي. فهناك موضوعات كثيرة تلح على ذهني عن مصير فلذات أكبادنا وهم على مقاعد الدراسة، ففي المرحلة الابتدائية نجد بعض السلبيات في مدارسنا، منها غياب المعلم أو المعلمة عن الحصص الدراسية وعن المدرسة شهورا كاملة بحجة أنها في إجازة أمومة أو ولادة أو مرض أو ماشابه ذلك. وأنا لا أنكر عليها هذه الإجازة وهي من حقها، ولكن اختلاف المعلمين إلى الصف الواحد في سنة دراسية واحدة قد يتجاوز أربعة أو خمسة معلمين أو معلمات، هذا يؤثر في وضع التلميذ الابتدائي.

وهناك نواحٍ سلبية يأخذها الأهل مأخذ الجد، فتجدهم يعلمون أطفالهم الصفوف الابتدائيةفقط، وعند دخولهم إلى المرحلة الإعدادية يرسلونهم إلى أعمال حرة يستفيد منها الأهل والوالدان، بحجة عدم فائدة المدرسة ماديًا أو في المستقبل، علمًا بأن الجميع يندم في النهاية عندما يرى ولده في أعمال متدنية لا تليق بهم، ويتمنون أن لو كان ولدهم قد أكمل تعليمه ولو حتى حصوله على الشهادة الثانوية العامة.

وفي الحقيقة عندما نفتح مدرسة نغلق

سجنًا، فعندما يدرس هذا الشاب مدة اثنتي عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة في المدارس بمراحلها الثلاث يكون قد اكتسب خبرة ومهارة وفهمًا لأمور الحياة العامة أكثر من الإنسان العادي الذي انقطع عن المدرسة وهو مازال ابن عشر سنين، لينخرط في أعمال شاقة وصعبة تفوق مقدرته العقلية والجسمية.

أخي الطالب: إن أول كلمة بين السماء والأرض بين جبريل عليه السلام والنبي محمد صلى الله عليه وسلم كانت كلمة «اقرأ» بوحي من الله، ولقد ورد عن الرسول الكريم قوله ـ ما معناه ـ: «كن عالمًا أو متعلمًا ولاتكن الثالث فتهلك». وأعرف شبابًا كثيرين من بلدي حفظوا القرآن الكريم قبل دخولهم المدارس فكانوا من المتفوقين والنابغين أثناء دراستهم، فالعلم في الصغر كالنقش على الحجر.

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم ـ بما معناه ـ: «عاشروا الناس معاشرة إن غبتم معها حنّوا إليكم وإن متّم بكوا عليكم». إنها من آداب الحديث ومن الكلام الطيب والقول الحسن.

وأنتم أيها المعلمون والمعلمات مسؤولون غدًا أمام الله، وهؤلاء الأجيال أمانة في أعناقكم، فعلّموهم حب كتاب الله وسنة رسوله، وكلما زاد الشباب إقبالاً على كتاب الله فهمًا وتطبيقًا وتلاوة توسعت عقولهم وازدادوا وحدة واتحاد قلوب.

وأخيرًا أنهي كلامي هذا بقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات:٥٥).

شيخموس حسن حسن
القامشلي ـ سورية

ما ذنب الطلاب في هموم المدرسين ؟

لقد استرعى انتباهي مؤخرًا موضوع «مناقشات وتعليقات» دار الحديث فيه بين الأستاذ عبدالغفور الخطيب والمعلمة فادية العمر وتابعته بكل دقة، وأحب أن أعلق على ماكتبه الطرفان، فإن لكل منهما كلامًا جميلاً وإيجابيًا ولكن لايخلو كذلك من بعض السلبيات.

بداية أشكرك يا أستاذنا الفاضل عبدالغفور الخطيب على موضوعك وعلى ردّك على الآراء والتعليقات التي نشرت في هذه المجلة، وأحب أن أوضح نقطة تتعلق برأيك حول إلغاء معاهد المعلمين، فإذا كنت تعني بها معاهد المعلمين وكذلك معاهد إعداد المدرسين، فلست أوافقك على هذا الرأي. ومعهد إعداد المدرسين في المملكة العربية السعودية يعني دراسة لمدة سنتين، على أن يؤهل المعهد الخريجين لتدريس طلاب المرحلة الإعدادية في اختصاصات الرياضيات واللغة العربية والإنجليزية. وبالنسبة لمعهد إعداد المعلمين فهو يؤهل خريجين من حملة الثانوية العامة من خلال دراسة مدتها سنتان، لتدريس طلاب المرحلة الابتدائية دون اختصاص معين، أي إن المعلم الواحد يدرِّس جميع المواد.

والأصح في رأيي هو أن يُلغى معهد إعداد المعلمين، فلا أعتقد أن هناك من هو كفء لتدريس جميع المواد في مرحلة هي أخطر مرحلة يمر بها الطالب، على أن يتولى خريجو معاهد إعداد المدرسين تدريس طلاب المرحلة الابتدائية كُل حسب اختصاصه، ويتولى خريجو الجامعات التدريس في المرحلة المتوسطة والثانوية. وبهذا يكون الطالب قد تلقى العلم منذ المرحلة الابتدائية من مدرسين اختصاصيين.

وبالنسبة للمعلمة فادية العمر فقد نسيت جميع الفوارق بين المعلم والمعلمة، ودافعت عن المعلمات بكل ماتملك بحكم أنها معلمة، فأنا بصراحة لم أشاهد في حياتي مدرسًا يحضر التبّولة أو أطباق الحلويات أثناء الدوام الرسمي، والمعلمات فعلن هذا، وكله على حساب الطالب الذي لايعرف مصلحته في هذه المرحلة ، بل يفضل هذا ويصبح سعيدًا عندما يتوقف المعلم أو المعلمة عن إعطاء الدرس أو الأسئلة أو التفتيش عن الواجبات المنزلية. لقد أهملت الأخت فادية العمر الجانب أو تناسته.

ومن ناحية أخرى فقد ذكرت من خلال تعليقاتها الأخيرة أن المشكلة التي تعاني منها المعلمات تتمثل في الوضع المادي مؤيدة في ذلك الأستاذ عبدالغفور الخطيب. وحتى لو كان الوضع المادي بائسا ـ كما تقول ـ وأن الخطيب كأنما وضع يده على الجرح حين أشار إلى هذه النقطة، فهذا لايعني أن يكون الطالب هو الضحية؛ هل الطالب هو الذي أجبر المعلم على اختيار الطريق وعلى شق مستقبله هذا وقال له كن معلمًا؟ وهل هو لايعرف أن الوضع المادي للمعلمين متدن؟ وحتى إذا اتخذ عملاً إضافيا فهذا يعود إليه شخصيا لكونه مسؤولاً عن أسرة وعليه تلبية احتياجاتها.

إن كل شخص يسأل ويعرف قيمة راتبه قبل أن يقبل الوظيفة، والنظرة الأولى هذه الأيام تكون من الناحية المادية ولم يعد هناك أي اعتبار للرغبات والهوايات إلا فيما ندر.

ومهما كانت الظروف والمشكلات؛ فهذا لايعني أن ينقل المعلم أو المعلمة ظروفه ومشكلاته في الحياة إلى المدرسة، ويكون ذلك على حساب الطالب، والنتيجة معروفة وهي تقصير المعلم أو المعلمة في الأداء وعدم إعطاء الطالب مايجب إعطاءه.

إن المرحلة الابتدائية ـ كما يعلم الجميع ـ هي حجر الأساس، فإذا كان الأساس متينا حمل الطوابق التي تعلوه بكل جدارة، وأعني بها هنا المراحل الدراسية التي تلي المرحلة الابتدائية. ولهذا أوجّه رجاءً حارا إلى المعلمين والمعلمات، وخصوصا من يدرّس في المرحلة الابتدائية، أن تبذلوا كل إمكاناتكم وتكرسوا جهودكم من أجل إنشاء جيل يحمل أسسا تعليمية صحيحة ومتينة، ويكون مهيأ تماما لمراحل حياته الدراسية والعملية المقبلة.

عبدالله محمد العمر
المذنب ـ القصيم

المحرر:
كلام الأخت فادية حول المعلمات اللاتي يقضين وقت العمل في شؤون شخصية كان واضحا، وقد اقتصر على المعلمات فقط دون المعلمين.

ويل للعرب من شر قد اقترب



لقد ورد في العدد ٢١٤، في باب «طريق الهدى»، سؤال نصه: هل حديث «ويل للعرب من شر قد اقترب» صحيح؟، وكان جواب فضيلة الشيخ الدكتور صالح بن سعد اللحيدان يحفظه الله: «يغلب على الظن صحة هذا الحديث». إن هذا القول مع ماتلاه جعلني أجزم بأن الشيخ ـ جزاه الله خيرا ـ قد اعتمد على الذاكرة في إجابته، وهي ذاكرة خصبة مُتَّقِدَة دون شك، ولكن هذه الإجابة تجعل القارئ يظن احتمال ضعف الحديث من ناحية، وتجعله يبتعد من التأويل الصحيح له من ناحية أخرى. ولذلك أستأذن فضيلته في إلقاء الضوء عليه سعيا لخدمة الدين إن شاء الله.

لقد جاءت العبارة المذكورة في حديث صحيح هذا نصه: عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أنها قالت: استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم من النوم مُحْمَرّاً وَجْهُه يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتِحَ اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هذه» ـ وعقد سُفيان تسعين أو مائة، وقد كانوا يعبِّرون عن الأعداد بالإشارات لأنهم كانوا أميين كما هو معروف ـ قيل: أَنَهْلكُ وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ». رواه البخاري في الفتن باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: ويل للعرب من شر قد اقترب، وفي باب يأجوج ومأجوج، وفي بدء الخلق باب قصة يأجوج ومأجوج، وفي باب علامات النبوة في الإسلام، وفي غير ذلك، ورواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب اقتراب الفتن، ورواه الترمذي في الفتن باب في خروج يأجوج ومأجوج.

والخَبَثُ: الفسوق والفجور والزنى بخاصة، وهذا الحديث هو مما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقوعه وهو في بطن الغيب وقد وقع، فهو ينبئ عن قرب ميعاد وقوع الفتن الدامية بين المسلمين وعن انتشار الزنى في زماننا، وفيه إنذار بوقوع العقوبات الإلهية بالمسلمين إذا انتشر الزنى بينهم، وجاء ذكر يأجوج ومأجوج فيه كرمز للقتل ورمز لوقوع العقوبات الإلهية بالمسلمين، ولم يكن المقصود منه الإخبار عن قرب خروجهم، ولو كان هذا مقصودًا لقال: فُتِح اليوم ردم يأجوج، ولكنه قال: «مِنْ ردم يأجوج»، فهذا التبعيض يعني أنه استخدم اسم يأجوج ومأجوج على سبيل الرمز للتعبير عن القتل والتدمير، وهذا مافهمته سيدتنا زينب رضي الله عنها ـ فقد جاء في بعض الروايات تصريح بأنها السائلة ـ فقد سألته: أَنَهْلكُ وفينا الصالحون؟ ـ تعني نهلك بالعقوبات الإلهية من زلازل وخسف وقذف وغير ذلك نعوذ بالله منها ـ فأجابها صلى الله عليه وسلم: «نعم، إذا كثر الخَبَثُ»، فمع امتداد موجات الفسوق والفجور يسلِّط الله تعالى هذه الأمة بعضها على بعض فيأخذ بعضُها برقاب بعض ويُنْزِل عليها مايشاء من عقوبات.

وجاءت العبارة أيضًا في حديث آخر هذا نصه: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ويل للعرب من شر قد اقترب، أفلح مَنْ كَفَّ يَدَهُ». رواه أبو داود في الفتن باب ذكر الفتن ودلائلها رقم ٤٢٢٩ وإسناده صحيح، ورواه الإمام أحمد في مسنده وقد شَكَّ الراوي عنده في رفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه جاء مرفوعا عند أبي داود بإسناد صحيح. وهذا ينبئ عن وقوع الفتن الدامية بين المسلمين.

وعلى هذا تكون عبارة: «ويل للعرب من شر قد اقترب» قد جاءت في حديثين أحدهما رواه البخاري ومسلم وهذا يجعله في أعلى درجات الصحة، فعبارة «يغلب على الظن صحة هذا الحديث» تفتح المجال لاحتمال تضعيف الحديث، وهذا الاحتمال لامجال له على الاطلاق، وكان على الشيخ الفاضل أن يجزم بصحته. وفقنا الله تعالى جميعا إلى مافيه الخير.

محمد فهمي الحمدان
بزاعة ـ الباب ـ سورية

ابن خلدون والجيل الجديد



لقد أفادني وأمتعني بحق معظم مواد العدد ٢١٣، وبصورة خاصة عرض وتقديم كتاب «فضل العرب في النهوض بالثقافة الإنسانية» لمؤلفه الكاتب الإسباني المعاصر جوان فرنيت. وسررت جدا لأن الكتاب المذكور قد تُرجم من الإسبانية إلى الفرنسية، ونأمل أن يُترجم إلى الإنجليزية وسواها في القريب العاجل، لأن الكتاب يؤكد حقيقة أهمية العرب والمسلمين وإسهامهم الحضاري الفعّال، ودورهم في ازدهار العلوم كالجبر والهندسة وعلم الفلك والطب والعلوم الأخرى.

إن العرض الموجز للكتاب الذي قدمه الأستاذ حلمو جلّول لم يتطرق لذكر جميع المفكرين المسلمين العرب الذين عاشوا في الأندلس، ونخص بالذكر منهم العلامة ابن خلدون الذي يعد مؤسس علم الاجتماع ورائدا في علوم أخرى، والذي يقول عنه المفكر والمؤرخ الكبير أرنولد توينبي: «لقد تصور وصاغ فلسفة التاريخ، وهي من دون شك أعظم الأعمال الفكرية في مجالها، التي لم يتوصل إليها بعد أي عقل بشري في أي زمان ومكان».

إن اهتمامي وتقديري واحترامي للمفكر الكبير ابن خلدون جاء نتيجة متابعاتي المتواصلة واهتماماتي الجادّة ومطالعتي المستمرة للتراث الإسلامي العربي والعالمي، وتركيزي على الفكر المالي الاقتصادي منه بصورة خاصة، وذلك بحكم عملي الطويل في حقل المال والاقتصاد ماينيف على ثلاثين عاما.

وبصدق أقول إني كلما اطلعت أكثر على الدراسات والأبحاث التي صدرت وتصدر وتتعلق بإنتاج ابن خلدون وأفكاره ازددت احترامًا وتقديرًا له وتعلقًا به، وأودّ من أعماق قلبي أن يعرف جميع قراء اللغة العربية - لاسيما الجيل الجديد منهم - بعضا من مكانة هذا العلامة الكبير وفضله ويطّلعوا على أفكاره العظيمة الرائدة في مختلف فروع العلوم، ولاسيما في علم الاجتماع والاقتصاد.

نعوم إبراهيم عبود
دمشق - سورية

هذا الخير من يحميه ؟



ورد في العدد ٢١٤ مقال قصير بعنوان «الخير لا الخيل»، وقد سرد فيه كاتبه الأستاذ وحيد الدين خان قصة الشاعر والفارس «زيد الخيل» مع اسمه الذي لم يعجب النبي صلى الله عليه وسلم فسماه «زيد الخير»، ثم خلص من ذلك إلى أن الإسلام «لايرمي إلى أن يجعل ممن يؤمن به زيد الفروسية وإنما هدفه المنشود أن يكون المسلم زيد الخير». والحق كذلك، فالإسلام يريد من المسلم أن يعيش بالخير وللخير. لكن هذا الخير الذي بين أيدينا والذي نحمله للناس، من يحميه؟ ومن يفتح الطريق أمامه؟ ومن يزيل عنه العقبات والحواجز التي يقيمها أصحاب الأهواء والنزوات الذين يصدون عن هذا «الخير» لا لرأي أو حجة أو وجهة نظر ، ولكن لمصالح فردية ورغبات شخصية لاتمتّ لأي فكر أو دين بأية صلة؟ وأين نضع حثّ النبي صلى الله عليه وسلم على تعلم الرماية وركوب الخيل والتي هي «الفروسية»؟

فالإسلام يطلب منا أن ننشر هذا «الخير» وأن نُعدّ أنفسنا للدفاع عنه. إن المطلوب من المؤمن أن يكون «زيد الخير» و«زيد الخيل» في آن واحد، وبهذا تكتمل الشخصية الإيمانية.

الطاهر عمارة الأدغم



الجزيرة
تكفيك
المسائية
تثري
مساءك
تصدران يوميا عن «مؤسسة الجزيرة» للصحافة والطباعة والنشر.. ص.ب:٣٥٤ الرياض: ١١٤١١ هاتف «٤٠٢٥٥٥٥».. تلكس ٤٠١٤٧٩ جزاتي اس جي.

ردود خاصة

الأخ عبدالله محمد العمر، المذنب ـ القصيم:
مشاعرك تجاه المجلة والعاملين فيها محل التقدير. أما مشاركتك في «مناقشات وتعليقات» فتجدها منشورة في هذا العدد، لكنّا نرجو منك الكتابة في المرات القادمة على ورق أبيض تسهيلا للقراءة.

الأخ محمد أحمد عبدالله الزهراني، بلخزمر ـ الباحة:
نشكرك على الجهد المبذول في موضوعك «الشيب والشعراء». ولأن ماكتبته لايضيف جديدا إلى ماسبق نشره بعنوان «الشيب بين الطب والأدب» في العدد ٢١٩، ولكونه تجميعا لما سبق قوله ونشره في الموضوع ذاته، فإننا لانرى نشره في «مناقشات وتعليقات»، مع أملنا أن نقرأ لك موضوعات من إنتاجك الخاص، أو مناقشات وتعليقات مبنية على إعمال الفكر، مقدرين لك حسن انتقائك وعرضك للأبيات الشعرية.

الأخوين «ذو الخير» و«ابن مخلص»، معهد الفرقان الإسلامي ـ رياو ـ أندونيسيا:
نرحب بالإخوة القراء والأخوات القارئات من كل مكان، لكنّا نرجو ونفضل التعامل الواضح فيما بيننا، ولانرى مايدعو إلى عدم الإفصاح عن الاسم الصريح وبخاصة أن الموضوعات التي تتطرقون إليها عادية، كما أن طلباتكم غير محرجة على الإطلاق.

الأخ إفري بن نذر، معهد الفرقان الإسلامي ـ رياو ـ أندونيسيا:
الكتب التي طلبتها هي من منشورات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، لذا فقد أحلنا إليه رسالتك للنظر في طلبك.

الأخ شفيق إلياس المعالج، قفصة ـ تونس:
موضوعات عديدة داخل المجلة تتناول الآيات القرآنية بالشرح والتفسير، ومن بينها «طريق الهدى»، ولعل الأسلوب المتبع حاليا أجدى نفعا وأكثر ملائمة لطبيعة المجلة (ثقافية عامة)؛ فتخصيص صفحة أو زاوية ثابتة لشرح الآيات وتفسيرها قد يناسب المجلات الدينية والدعوية أكثر.

الأخ عبدالكامل غربي، الوادي ـ الجزائر:
المعلومات التي سألت عنها يتوافر بعضها لدى مركز المعلومات في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، وقد أُحيلت إليه رسالتك بحكم الاختصاص.

الأخ محمد عيد ناموس، دمشق ـ سورية:
ملاحظتك نقلناها إلى شركة التوزيع، ونأمل ألا تكون هذه الشكوى دائمة، كما نرجو ألا تستمر.

الأخ عاطف بو سعدة، الزهروني ـ تونس:
المعلومات العامة عن المملكة العربية السعودية تجدها في المركز الإعلامي التابع للسفارة السعودية في بلدك، ولم نسمع من قبل عن منظمة OPEP وبالمناسبة، فالسيدة تماضر حسون إحدى كاتبات الفيصل هي دكتوره وليست دكتورا!

الأخ تركي عبدالله المحيا، صنعاء ـ اليمن:
المبلغ المذكور في رسالتك لم يصلنا، ولاننصح بإرسال مبالغ نقدية في البريد ـ كما أشرنا لذلك من قبل ـ ولاتتحمل المجلة أدنى مسؤولية عن ذلك؛ فإرسال الشيكات والحوالات البريدية هي أسلم الطرق. أما المهلة الزمنية للاشتراك في المسابقة فهي كافية، والمشكلة التي تتحدث عنها هي مشكلة توزيعية لاعلاقة لبقية القراء بها، وعموما نقلناها لشركة التوزيع.

الأخ رضا لعدايسية، سكيكدة ـ الجزائر:
نعتذر من عدم نشر الإعلان الذي تضمنته رسالتك لكون المجلة لاتقدم هذا النوع من الخدمات لقرائها.

الأخ محمد حسين العلّو، حماة ـ سورية:
النسبة المخصصة للموضوعات الدينية نرى أنها مناسبة، وأي زيادة في هذه النسبة ستكون على حساب الموضوعات الأخرى، ولعلك تتفق معنا أن القراء الآخرين لهم رأي آخر! أما الإجابة عن سؤالك فستجدها منشورة في عدد لاحق في «طريق الهدى» إن شاء الله.

الأخ مولع محمد حريق الأسمري، باللّسمر ـ أبها:

الفيصل
مجلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار الفيصل الثقافية

ملاحظات عامة

مع تقديرنا لكل من يسهم في الكتابة في المجلة، فإننا نرجو من كتّابنا الكرام أن يضعوا في حسبانهم الملاحظات التالية:

١ـ أن يتسم الموضوع المقدم للنشر بالجدّة والموضوعية، مع توثيق المراجع إذا اقتضى الأمر ذلك.

٢ـ ألا يكون الموضوع منشورًا من قبل، أو مرسلاً إلى أي جهة أخرى ناشرة.

٣ـ حين تردّ المجلة على كاتب ما بأن موضوعه «غير مناسب للنشر» فإن هذا لا يعني أنه «غير صالح للنشر» في غيرها، وإنما يعني عدم مناسبته لسياسة النشر فيها.

٤ـ أن يرفق الكاتب (الذي لم يسبق له الكتابة في المجلة) مع موضوعه، الاسم والمؤهلات العلمية والإنتاج الفكري ـ إن وجد ـ وعنوان المراسلة، في ورقة مستقلة.

٥ـ الموضوعات المنشورة في هذه المجلة تعبّر عن آراء أصحابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.

إذا كنت تقصد الرد الشخصي المباشر فهذا صحيح لأننا نرد على القراء عبر صفحات المجلة ضمانا لتسويقها!

ويمكنك ـ وغيرك من القراء الأعزاء ـ الاشتراك بالقسائم التي سبق نشرها في الأعداد السابقة، ولايعني فوات الوقت انقضاء مهلة الاشتراكات المخفضة، فالمهلة مفتوحة، ولكن يشترط إرفاق القسيمة الجاهزة.

الأخ عبدالمجيد مولاي عمار، غرداية ـ الجزائر:

يبدو أن الإجابات التي كتبتها في رسالتك تخص إحدى المسابقات التي نشرناها في عدد سابق، ولكن إرسال الإجابات وحدها لايعطيك فرصة المشاركة، إذ لابد من إرفاق قسيمة المسابقة، وأن يكون إرسال الإجابات خلال الفترة الزمنية المخصصة لكل مسابقة. نتمنى لك حظا أوفر في المرات المقبلة.

الأخ محمد علي حسين العمر، حماة ـ سورية:

قرعة المسابقة تُجرى لجميع المتسابقين في المسابقة الواحدة، وليس لكل دولة على حدة كما ورد في سؤالك.

الأخ حسن العلام، الجديدة ـ المغرب:

رسالتك أحلناها للدكتور محمد أبو بكر حميد عضو هيئة التدريس في كلية الآداب بجامعة الملك سعود لكونه من أبرز الباحثين المتخصصين في دراسة حياة الأديب علي أحمد باكثير ـ يرحمه الله ـ وإنتاجه الفكري. وسيتولى الرد على تساؤلاتك بصفة شخصية.

الأخ مرزوق عبدربه عبدالعال، الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة:

شكرا على مشاعرك الكريمة، مع ترحيبنا بأية ملاحظات منك على الملاحق التي قدمناها مع بعض الأعداد السابقة.

الأخ طه إسماعيل الضاوي، صنعاء ـ اليمن:

توجد في مدينة الرياض جامعتان: جامعة الملك سعود، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وللجامعة الأولى قسم مستقل للطالبات. وفضلا عن ذلك توجد في الرياض كليات أدبية وعلمية للبنات تابعة للرئاسة العامة لتعليم البنات، وهي كليات مستقلة عن الجامعات.

الأخ براء قاسم العلوش، دير الزور ـ سورية:

تحياتك للشيخ صالح بن سعد اللحيدان وصلت. وماذكرناه في ردين سابقين ـ منشورين في هذا العدد ـ عن شرح الآيات القرآنية وتفسيرها، وعن الموضوعات الدينية في المجلة يمكن أن يقال ردا على اقتراحك بشأن تخصيص باب مستقل يتناول السيرة النبوية العطرة لرسولنا صلى الله عليه وسلم. علما بأننا نشرنا وننشر من حين لآخر جوانب من هذه السيرة المباركة.

الأخ مبخوت ربيح، ورقلة ـ الجزائر:

حبذا لو حددت أسماء المجلات الزراعية التي تطلب عناوينها البريدية كي نتمكن من مساعدتك.

الأخت خوسيبة راضية، بجاية ـ الجزائر:

ليس من عادة المجلة تزويد قرائها بالكتب أيا كان نوعها، ونأمل أن نتمكن من خدمتك ـ بشكل غير مباشر ـ من خلال زاوية: «بين القارئ والقارئ» التي سنخصصها ـ ابتداء من العدد المقبل ـ لمثل هذه الأغراض.

الأخ محمد نجيب باكير، حلب ـ سورية:

نظام المسابقة لايسمح بالتعويض عن جائزة الاشتراك المجاني بأعداد قديمة نفدت من الأسواق، ولكن يمكن تقديم نسخ محدودة جدا من الأعداد السابقة للقراء إذا حددوا أرقام الأعداد المطلوبة. والأعداد التي طلبتها سنرسلها إليك في حال توافرها لدينا.

الإخوة: صبحي لويفي العطوي ـ تبوك، عبدالله سلمان آل عوض ـ أبها، د. عبدالحكيم سعدالدين ـ دمشق ـ سورية، عبدالدائم عبدالرحيم ـ الخرطوم ـ السودان، محمد بن دكن ـ غرداية ـ الجزائر، شفيق البشير غربال ـ صفاقس ـ تونس:

الأعداد التي طلبتموها في طريقها إليكم، وعدم إرسال أي أعداد مطلوبة يعني عدم توافرها لدينا.

الإخوة: علي محمد مدشوش القحطاني ـ سراة عبيد ـ عسير، عبدالرزاق الحسيني ـ حمص ـ سورية، يوسف بسكر ـ بوسعادة ـ الجزائر، علي أبو بكر محمد ـ القاهرة ـ مصر:

نأسف لعدم تمكننا من التجاوب مع رغباتكم نظرا للطابع الشخصي البحت للمسائل التي كتبتم إلينا بشأنها، مع دعواتنا للجميع بالتوفيق.

العنوان

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ ـ
المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٦٥٣٠٢٦ ـ ٤٦٥٣٠٢٧ ـ
ـ ٤٦٤٧٨٨٤
فاكسملي: ٤٦٤٧٨٥١

ردمد ١١٤٠ ـ ٠٢٥٨ رقم الإيداع ١٤/٠٥٤٢

الأسعار:

السعودية ٨ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلسا ـ الإمارات ٧دراهم ـ قطر ٧ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلسًا ـ عُمان ٧٥٠بيسة ـ الأردن ٥٠٠فلس ـ اليمن ٢٥ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ٣ جنيهات ـ المغرب ٦دراهم ـ تونس ٦٠٠مليم ـ الجزائر١٠دنانير ـ العراق ٤٠٠فلس ـ سورية ٢٠ليرة ـ ليبيا ٨٠٠درهم ـ موريتانيا ١٠٠أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠شلن ـ جيبوتي ١٥٠فرنكا ـ لبنان مايعادل ٤ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه استرليني واحد.

الاشتراكات السنوية:

للأفراد ١٥٠ريالاً سعوديًا، للمؤسسات ٢٥٠ ريالاً سعوديًا.

الإعلانات:

يتم الاتفاق عليها مع إدارة المجلة.

على موعد

الكتابة والمعلومات وتغيير العقل العربي



ياسر الفهد

إذا استعرضنا مايصدر في الوطن العربي من كتب ودوريات ومطبوعات مختلفة، لهالتنا وفرتها وكثرتها وغناها بالكتابات التي تزخر بالمعلومات والمعارف، ونتائج الأبحاث والإرشادات والدعوات الملحة التي تحض على الخير والصلاح والتعاون.

وعلى الرغم من ذلك كله، لانستطيع القول بأن أحوال العرب اليوم أفضل مما كانت عليه أمس، أو أنها ستكون غداً، أفضل مما عليه الآن. بل قد يكون العكس هو الصحيح، وهناك بالطبع عوامل كثيرة لاتقع تحت حصر مسؤولةٌ عن هذا الوضع. وقد أطنب الكتّاب في تحديد هذه العوامل وتحليلها وكشف طبيعتها، كل بمنظاره ورؤيته الشخصية. فهل يمكن أن نعد عدم فاعلية الكتابات العربية المنشورة في شتى المطبوعات ـ إذا كانت بالفعل غير فعالة ـ أحد هذه العوامل؟ ليس بوسعنا التأكيد بأن الكتابات العربية لاتفعل فعلها المنشود لدى القارئ، ولكن بإمكاننا أن نقرر بأن فعاليتها غير كافية لإحداث التغيير المطلوب في المجتمع العربي، وذلك لعدة أسباب، أهمها عدم توافر الحرية الكاملة للتعبير في غالبية الدول النامية (ومن بينها كثير من الدول العربية). ومع ذلك، وعلى الرغم من كل الظروف الحالية الصعبة المتعلقة بحرية الصحافة، يبدو من الممكن أن نحسّن فاعلية الكتابات العربية بشكل يؤدي إلى تطوير الأوضاع العربية. فإذا كتبنا بطريقة أكثر جدوى وإقناعا، ونجحنا في تغيير تفكير القارئ تغييراً إيجابيًا، نكون قد وضعنا أحجاراً صلدة جديدة في بنيان التقدم العربي الذي نطمح إليه. وحتى ندبج كتابات مجدية، هناك طرق عديدة يمكن التحرك في نطاقّها. ولكننا، هنا، سنختار ناحية محددة تتعلق بمضمون العمل الكتابي، من حيث كونه مقال معلومات أم مقالا فكريا تحليليا.

وفي رأيي، أن الكتابات التي نحتاج إليها اليوم أكثر من غيرها، هي تلك التي تشارك في تطوير عقل الإنسان، وتغيير طريقة تفكيره ونظرته إلى الأمور والحياة والبيئة المحيطة به.

أما الكتابات التي تزودنا بالمعارف والمعلومات والحقائق، فلها دورها وأهميتها دون ريب، ولكن حاجتنا إليها في المجال الذي نحن بصدده قد تكون أقل، ولاسيما أن الفرد في مرحلة التعليم الأساسي والثانوي يكتسب معظم المعلومات الأولية والمبدئية اللازمة في الحياة.

كما أن الحواسيب وبنوك المعلومات ومراكز التوثيق والمكتبات، قادرة على تزويدنا بالمعلومات التي نطلبها. وإذا كان من المهم والضروري أن نشبع عقول الناس بالمعلومات والمعارف، وبخاصة الحديثة والمستجدة منها والتي لاغنى عنها في مواكبة مستلزمات التطور وتلبية حاجاته، فإن الأهم التأثير في عقول الناس والعمل على تغيير اتجاهاتهم ومواقفهم السلبية وتوجيهها توجيها صحيحا، حتى تصبح إيجابية ومتماشية مع مصالح المجتمع.

وإذا كانت الكتب والمجلات المنهجية الفصلية أو نصف السنوية تزودنا بالأبحاث والدراسات والمعلومات المختلفة اللازمة للتطوير والتنمية، فإن على عاتق المجلات الشعبية الواسعة الانتشار أن تتحفنا ـ بالإضافة إلى الدراسات ـ بالكلمات القصيرة والمقالات المكثفة والأعمدة المختصرة ذات المغزى المفيد والفحوى الواضحة، التي يستطيع القارئ بعد قراءتها أن يخرج بنتيجة مجدية قادرة على تغيير بعض معتقداته القديمة الخاطئة التي عشّشت في أعماق عقله الباطن، وأن يستبدل بها نظرة جديدة تتماشى مع تطورات العصر وتلبي مستلزمات التقدم في شتى نواحيه. ومع تراكم مثل هذه النتائج والنظرات تتكون عند الفرد عقلية جديدة متنورة تحل محل العقلية القديمة المسؤولة إلى حد كبير عن تدهور أوضاع العرب.

وبعد، فإن الكتابات العربية التي يجب أن نلح عليها، هي تلك التي تأخذ في الحسبان حقيقة أن المجتمع العربي أصبح اليوم بحاجة إلى أناسي يفكرون بطريقة جديدة مواكبة للعصر، أكثر من حاجته إلى أناسي تمتلئ عقولهم بالمعلومات والمعارف الكثيفة.